حقائق ورقائق
(١٣)

النبي الهادي

رواية

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

حقائق ورقائق
(13)

النبي الهادي صلى الله عليه وآله وسلم

رواية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

1436 – 2015

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

تحاول هذه الرواية ـ بقدر الطاقة ـ أن تصور بعض وظائف الهداية التي مارسها رسول الله ﷺ باعتباره رسول الله وواسطة الهداية بين الله وبين عباده.

وهدفنا الأول من ورائها هو تبيان السنن الحقيقية المرتبطة بهذه الناحية العظيمة، والتي نالها من التشويه ما نال غيرها، حيث أصبحت الدعوة إلى الله حجابا من الحجب التي تحول بين البشر والتعرف على دين الله الحقيقي.. وأصبح الداعية ذلك الذي يحمل سلاح التكفير والتبديع .. ويحمل معه جميع أسلحة العنف، ليرمي الخلق جميعا في سجون الحقد والكراهية التي تعمر قلبه.

وهدفنا منها كذلك التعريف برسول الله ﷺ من خلال القرآن الكريم، والسنة المطهرة، والورثة الذي تمثلوا هذا الجانب فيه.

وهدفنا منها قبل ذلك وبعده ـ كما هو هدف هذه السلسلة ـ البرهنة على أن هذا الرجل العظيم الذي اكتنزت حياته بكل كنوز الكمال، وكان مع ذلك هاديا مهديا، يستحيل أن يكون كاذبا أو مخادعا أو مضللا، بل يجب أن يكون واسطة الهداية الربانية الأعظم، وعنوان عنايته الأكبر.

وبما أنه يستحيل على أي كان أن يصور هذه الناحية العظيمة من رسول الله ﷺ، فقد استعرنا لذلك مثلما فعلنا في الرواية السابقة مجموعة من الورثة، كل وارث تمثل جانبا من جوانب الهداية في شخصية رسول الله ﷺ، وراح يبشر بها، ويستعملها في هداية خلق الله.

وهذه النواحي هي:

الحكيم: فرسول الله ﷺ كان في غاية الحكمة في دعوته.. فقد كان يراعي المخاطبين في طباعهم وقدراتهم وتوجهاتهم وحاجاتهم وأعرافهم.. وكان ينزل الناس منازلهم في الخطاب.. وكان يستعمل كل الوسائل والأساليب، ويضعها في محالها الصحيحة.

الواعظ: فقد كان رسول الله ﷺ واعظا مؤثرا، وقد أوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارا، ولو أن أي داعية اكتفى بمواعظ رسول الله ﷺ وتوجيهاته في دعوة الخلق لكفته.

المحاور: فقد كان ﷺ يحاور بعلم وعقلانية من يدعوهم، وقد وضع لنا منهجا متكاملا للحوار الهادف الناجح.

المعلم: فقد وضع لنا ﷺ منهجا كاملا في التربية والتعليم، يمكنه أن ينهض بالمدرسة، ويحولها إلى محل لصياغة الإنسان الصالح الذي لا يكتفي بالمعرفة وحدها، بل يضم إليها جميع الآداب الإنسانية الرفيعة.

القدوة: فقد كان ﷺ قدوة في كل شيء.. ويمكن أن يستفيد منه كل أحد.

المربي: فقد وضع لنا رسول الله ﷺ منهجا متكاملا في الترقي الأخلاقي والعرفاني، يمكن لمن سلكه أن يرقى في معارج العرفان، ويتحقق بما تحقق به أولياء الله من الورثة.

الخطيب: فقد كان رسول الله ﷺ خطيبا مفوها، ويمكن لمن درس خطبه أن يستفيد منها كل ما يرقى بالخطابة لتؤدي دورها الإصلاحي والتوعوي.

المفتي: فقد كان رسول الله ﷺ يجيب من سأله، ويعلمه أحكام دينه، وقد ترك للمفتين منهجا لذلك يمكنهم توظيفه لهداية خلق الله إلى شريعة الله.

المحتسب: فقد كان رسول الله ﷺ آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، وعلمنا من الآداب والأخلاق ما يمكن أن ينهض بهذه الوظيفة الخطيرة من وظائف الدين لتؤدي دورها في الإصلاح في جميع مجالاته.

الشاهد: فقد كان رسول الله ﷺ شاهدا على أمته جميعا.. وورث ورثته هذه المسؤولية الخطيرة، وهي تعني القيام بكل ما من شأنه أن يعرض الدين عرضا صحيحا متناسبا مع القيم الجميلة التي جاء بها، حتى يدخل الخلق في دين الله أفواجا، وحتى يظهر الإسلام على الدين كله.

هذه هي النواحي العشرة التي حاولنا في هذه الرواية أن نشرحها، ونبسطها قدر الإمكان، وقد استعملنا لذلك بعض الأحداث المشوقة الرمزية التي تجمع للقارئ بين المعلومة والفكرة والمتعة..

وخلاصة أحداثها هي أن الراوي ـ وهو رجل دين مسيحي ـ يذهب إلى بعض الأدغال الإفريقية للتبشير.. وفجأة تتعطل سيارته في بعض الغابات الموحشة.. وهناك يجد شخصا يسمى محمد الهادي.. يدعوه إلى السير معه لهدايته للطريق، ويشرط عليه في كل مرحلة من المراحل أن يستمع لقصة من قصصه..

وفي الطريق يقص عليه هذه القصص العشرة التي ذكرناها في الرواية..

وفي الأخير يصل إلى محل النجاة .. وهناك تحدث أحداث أخرى .. ندعها للقارئ ليتعرف عليها.

ونتبه هنـا ــ كمـا نبهنـا سـابقا ــ إلى أن مـا نـذكره من شخصـيات وأمـاكن وأحـداث وغيرها، لا علاقة لها بالواقع إلا علاقة الرمزية التي تقتضيها الأعمال الفنيـة.. ومـا كـان من ذلك منطبقا مع الواقع أشرنا إليه في الهامش.

البداية

في ذلك الصباح، نهضت فرحا مسرورا بعد أن سمعت تلك الأحاديث الجميلة عن نبينا ﷺ، ومن يمثله من الورثة الذين لم يرتضوا لذواتهم قالبا غير القالب الذي اختاره الله لرسوله ﷺ..

ولكن الألم عاد يعتصرني من جديد..

لقد قلت لنفسي: كم يمكن أن يكون في هذه الرقعة الكبيرة المباركة التي يستوطنها المسلمون من أولئك النماذج الراقية من ورثة النبي ﷺ؟.. كم يمكن أن يكون هناك من جعفر وباقر وزين العابدين وأويس وبشر والنورسي والبغدادي والصالحي والسيد سليمان(1)؟.. كم يمكن أن يكون من أعداد هؤلاء، أو من يقاربهم، ولو بأن يكتفي بالسير على خطاهم؟

وبعد أن قلبت بصري وبصيرتي في الواقع وجدت أن أعداد أمثال هؤلاء لا تكاد تذكر.. فهم كالإكسير الأحمر قل من يظفر بهم.. وقل من يمكن أن يستفيد منهم.. وهم في حال وجودهم قد يغرقون في وديان النسيان، أو قد يتيهون في صحارى الإهمال واللامبالاة.. وبالتالي يصبح وجودهم في الناس كعدمهم.

ثم عدت ببصري وبصيرتي إلى ورثة الشياطين.. فوجدتهم يملأون الأرض سهلها وجبلها، وبرها وبحرها.. صياحا ونعيقا ولغوا:

وجدتهم يدخلون كل بيت عبر شاشات التلفزيون، والمذياع، والأشرطة المسموعة والمرئية، وعبر وسائل الإعلام الكثيرة التي تفنن أهل عصرنا في اختراعها، كما تفننوا في استغلالها.

ووجدتهم يستعملون كل الحيل، ويلتمسون كل السبل ليصلوا إلى قلوب الذين يستهلكون تلك الوسائل وعقولهم.. بل حتى أجسادهم.. فكم رأيت من شباب يضع السماعات على أذنه ليرقص معها بالحركات التي توحيها له الموسيقى التي أبدع ورثة الشياطين في التلاعب بها؟

ووجدتهم لا يكتفون بكل ذلك مما يخص العامة البسطاء.. بل رأيتهم ببصري وبصيرتي يدخلون الجامعات ومراكز العلم والثقافة ليملأوها بما شاءت لهم أهواؤهم من أطروحات تلبس لباس العلم، لتجعله ذريعة لجهل مركب يستحيل محوه، ولو صبت عليه جميع بحار الدنيا.

ووجدتهم فوق ذلك كله يصرفون أموالا ضخمة.. لا مكاسب واضحة لها.. ولكن مكاسبها الخفية أعظم من كل المكاسب.. إن مكاسبها هي استعباد الإنسان نفسه، ليصبح لعبة بين يدي تلك الوسائل تملي عليه ما تشاء، فلا يجد نفسه إلا مسوقا للتحرك حسب

---

1) هؤلاء هم أبطال الرواية السابقة [النبي الإنسان]، والذين يمثلون دور ورثة النبي ﷺ.

رغبتها.

بعد أن امتلأت ألما بكل هذا.. رحت أبحث في واقعنا.. نحن المسلمين.. نحن الذين كلفوا بأن يحملوا رسالة أعظم الأنبياء ليبلغوها إلى الأرض، فيطهروها بذلك البلاغ من ورثة الشياطين، ومن رجس أذنابهم وذيولهم.. فازددت ألما على ألم، وحزنا على حزن:

لقد رأيت الخطيب الذي يصعد المنبر وحوله الألوف المؤلفة.. فلا يلتفت لهم، ولا يحاول أن يسمعهم رسالة ربهم، وهدي نبيهم، بل ينشغل بورقته يقرأ حروفها حرفا حرفا.. وأحيانا تتوقف به الحروف، فيقرأ ما لا يفهم، ويسمعهم ما لا يفهمون.. وتنصرف بعدها الألوف المؤلفة، وكأنها كانت تمثل تمثيلية ساخرة، ولم تكن تسمع كلام ربها أو هدي نبيها.

ورأيت الواعظ الذي ينشغل بالسجع والجناس والطباق والحروف التي لا نقط لها والجمل التي تقرأ من الجهتين عن التسلل إلى القلوب لمحو الران الذي يغشاها، والسموم التي تقتلها، والظلام الذي يسكنها.

ورأيت المفتي الذي يوزع الفتاوى بحسب هواه، يفتي في كل شيء، ولا يتورع عن شيء، ولا يجعل فتاواه سلما يعرج به العباد إلى ربهم، بل يجعل منها سما يشوه به الدين وحقائق الدين، ويجعل منها مهواة تنحدر بالمؤمنين إلى الهاوية التي تسكنها الأهواء.

ورأيت المعلم الذي يتعامل مع تلاميذه كما يتعامل السيد مع عبيده..

ورأيت غير هؤلاء ممن يستلمون المناصب العالية.. ولكنهم بسلوكهم ينزلون بها إلى الحضيض الأسفل.

***

كانت أول مرة أسمع الغريب ينادني بذلك الإلحاح(1)، وأنا في غرفتي، فأسرعت أهرول إليه، وقلت: اعذرني حضرة الولي الصالح.. لقد شغلتني نفسي كما تعودت أن تشغلني.

قال: ألست مشتاقا إلى النبي الهادي؟

قلت: وكيف لا أشتاق.. ونحن ـ كما ترى ــ في واقع لا يتقن شيئا كما يتقن أساليب الإضلال والتمويه والتلاعب بالحقائق.

قال: فلن يصلح هذا الواقع إلا النبي الهادي.. والهدي الذي خلفه النبي الهادي.. وورثة النبي الهادي.

قلت: وأين هم؟.. نحن لا نرى إلا الأشباح التي لا تستطيع أن تصل إلى الأرواح، بل لا تفكر في الوصول إليها.. بل تعتبر الحديث معها وعنها لغوا وثرثرة.

---

1) أشير بهذا إلى أن الداعية الوارث هو الذي يبدأ بدعوة الناس إلى الله، لا الذي يتنظر حتى يأتيه الناس، كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (المائدة:67)

قال: يستحيل على ركن خطير من أركان النبوة كهذا الـركن أن يعـدم من الأمـة.. إن الله الرحمن الرحيم النور الهـادي أرحم بعبـاده من أن يـتركهم فـرائس للشـياطين وورثـة الشياطين.

قلت: فهل التقيت ببعضهم؟.. حدثني عن ذلك.. فما أجمل أحاديث الورثة؟

قال: نعم.. لقد شرفني الله، فالتقيت ببعضهم.. وسيكون حديثنا عنه اليـوم، كمـا كـان حديثنا في الرحلة السابقة عن الوارث.

***

اعتدل الغريب في جلسته وحمد الله وصـلى وسـلم على نبيـه ﷺ مسـتغرقا في كـل ذلك، ثم قال: بعد أن رأيت ما رأيت، وسمعت ما سمعت من حديث الـوارث ممـا كنت قـد ذكرته لك في رحلتي السابقة.. وبعد أن آنس مني قومي من الصدق والإخلاص والثبات مـا أنسوا.. ترقيت في السلم الذي كنت أحلم به إلى درجات عالية لم أكن أتصورها، ولا أطمح لها.

وقد تثاقلت ـ بسبب تلك الكراسي الرفيعة، وما توفره من رغد عيش ـ إلى الدنيا مدة من الزمن إلى أن جاء ذلك اليوم العظيم الذي التقيت فيه الهادي الذي هداني اللـه بـه إلى النبي الهادي..

في ذلك اليوم كنت في أواسـط إفريقيـا في جولـة هي أقـرب إلى الجولـة السـياحية منها إلى الجولة التبشيرية.. كنت حينها أسير بسيارتي الفخمة ذات العجلات القوية مخترقـا غاباتها العذراء، غير مبال بأي خطر قـد ألقـاه في طـريقي، لأن مـا زودت بـه السـيارة من وسائل الأمان يكفي لحمايتها وصد أي خطر عنها أو عني.

ولكن الله شاء في ذلك اليوم أن أتعرض لخطر ربما لم أتعرض لمثله في حياتي..

لقد اصطدمت سيارتي بشيء لا أزال إلى الآن أجهلـه.. ربمـا يكـون شـيئا من الغيب، وربما يكون من الشهادة.. المهم أني إلى الآن لم أعرف ما هـو.. لم أعـرف إلا أنـه أصـاب سيارتي بما جعلها لا تطيق السير خطوة واحدة.. وقد أصابني ذلـك بهلـع شـديد، فقـد كنت في أدغال الغابات، وليس بين يدي إلا الحيوانات المفترسة.. والتقدم في تلك الغابة خطوة واحدة ليس له إلا معنى واحد هـو المـوت المؤكـد.. فلم يخـرج من تلـك الغابـات أحـد من الناس سالما.

في ذلك المحل الذي كان برزخا بين المـوت والحيـاة، وبين الـدنيا والآخـرة.. وصـرت أشعر بجسدي فيه كعارية جاء مالكها ليستلمها.. في ذلك المحل ارتفـع عـني ذلـك التثاقـل إلى الأرض، وشعرت من جديد بتلك الأشواق إلى تلك الشمس التي دعتني العـذراء للبحث عنها.

وبمجرد أن دب ذلك الشـعور إلى نفسـي رأيت صـاحبك (معلم السـلام)، وهـو يسـير نحوي كما يسير البرء إلى المريض، وكما تسير العافيـة إلى المبتلى.. ومـا إن لمحتـه حـتى

أسرعت مهرولا إليه، وقد رأيت فيه الحياة التي يئست منها، والعافية التي غــادرتني، وكنت أتصور أنها لا ترجع.

استقبلني بابتسامته التي عهدتها منه، وقال: عجبا.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

قلت: سيارتي.. هذه السيارة التي ترى هي التي جاءت بي إلى هنا.

ابتسم، وقال: أأعطيتها عقلك وإرادتك لتقودك إلى هنا؟

قلت: لا.. عقلي لا يــزال لــدي.. وإرادتي كــذلك.. وأنــا لم آت إلا وفــق مــا أملاه علي عقلي، وما طلبته مني إرادتي.

قــال: فعقلــك وإرادتــك همــا اللــذان جــاءا بــك إلى هنــا.. لا هــذه الســيارة المســكينة المسخرة التي لا يمكنها إلا أن تطيع إرادتك، وتستجيب لعقلك.

قلت: ذلك صحيح..

ثم عقبت قائلا: وأنت.. ما الذي جاء بك إلى هنا، فأنا لا أرى معك سيارة ولا طائرة؟

قــال: الــذي خلــق الســيارة والطــائرة يســتطيع أن ينقلــك بهمــا، ويســتطيع أن ينقلــك بغيرهما.

قلت: إن هذه الغابة خطيرة جدا، ولم يخرج منها أحد يسير على قدميه سالما، فكيف ظهر لك أن تسير فيها؟

قال: لي في الغابة حاجة، فأنا أبحث عنها..

ابتسمت وقلت: ليس في الغابة إلا الأسود المفترسة.. والغــزلان المفتَرَســة.. لا يــأتي مثل هذه الغابة إلا من يريد أن يَفترس، أو يريد أن يُفترس.

قال: هناك من يريد أن يفترس اللحوم، وهناك من يريد أن يفترس الحقائق.

قلت: الحقائق لا تفترس في الغابات؟

قال: لو لم تكن هناك حقائق تزين الغابات ما خلقها ربك.. فلكــل خلــق حقيقتــه الــتي إليها يرجع.. وسره الذي إليه يؤول.

قلت: ومن يعرفك بالأسرار في مثل هذه المجاهيل؟

قال: الذي هدى النحل إلى صناعة العسل، وهــدى الطــير في أجــواء الســماء، وهــدى النجوم في مساراتها.. لن يعجــز أن يرســل لي من الهــداة من يــدلني على الحقــائق، ومن يكشف لي عن الأسرار.

قلت: ألا تخاف أن تقع في يد من يضللك؟

قال: للهداة نور لا تطفئه الظلمات.. وللمضللين ظلمات لا يمكن لجميع أشعة الدنيا أن تنيرها.

قلت: فأين الهداة؟.. نحن في غابة ليس فيها إلا التضليل والتمويه.

قال: بل نحن في غابة ليس فيها إلا الهداية والدلالة.. ألا ترى أن أبسط طائر يمكنه أن يخرج من هذه الغابة من غير عناء؟

قلت: ذلك أنه يطير.. وهو يرى في السماء ما لا نراه نحن المتثاقلون إلى الأرض.

قال: فلنطر كما يطير، لنبصر ما يبصر، فلا ينتظر المتثاقل إلا الافتراس.. فهو إن لم تفترسه السباع افترسته نفسه التي زينت له أن يقع في أيدي السباع.

ما قال ذلك حتى رأى طيرا جميلا يترنم بألحان عذبة.. فأسرع إليه.. قلت: ما بالك.. أين تذهب وتتركني؟

قال: إن لهذا الطائر هو الذي جئت أبحث عنه.. إنه السيمرغ(1) الذي تحدث عنه الأولياء.. ألا تعرفه؟

قلت: أنا لا أعرف في هذه المفازة إلا البحث عن النجاة..

قال: لقد ذكرتها لك.. لا تتثاقل إلى الأرض.. اركب سيارتك، ولا تدعها تركبك.. قدها، ولا تدعها تقودك..

قال ذلك، ثم انصرف مسرعا نحو ذلك الطائر العجيب الذي كان يرسل من الألحان ما يملأ القلوب بطرب لا يستطيع أي لسان في الدنيا تصويره ولا تفسيره.

بعد أن غاب عني عاد اليأس يدب إلى نفسي من جديد.. فامتطيت السيارة، ورحت أنتظر قدر الله..

أخذتني سنة من النوم.. لم أفطن بعدها إلا برجل هو أشبه الناس بالحكيم، وبمحمد الوارث.. فصحت: ها قد أرسلك الله إلي ـ يا محمد ـ لتنقذني؟

قال: أبشر.. فأنا ليس لي من دور في هذه الغابة إلا الإنقاذ.. كل من أطاعني أنقذته من الموت المحقق..

قلت: ومن هو الأحمق الذي يرفض أن تنقذه؟

قال: كثيرون هم.. وإن شئت أريتك من جثثهم ما يملؤك رعبا.

قلت: هؤلاء مجانين لا حمقى.

---

1) أشير به إلى (منطق الطير)لفريد الدين العطار، وأشير بالسيمرغ إلى الطيور التي كانت تبحث عن الملك، وتطير شوقا إليه، وكل ذلك من باب الكناية على أن طريق الهداية لا حدود له.

قال: ولكنهم يدعون أنهم أعقل الناس وأعلم الناس وأغنى الناس.. كلما جئت إليهم محذرا من السباع المتربصة والثعابين المتلهفة كلما أداروا رؤوسهم وصعروا خدودهم.. وقالوا: اذهب، فلسنا في حاجة إليك.

قلت: أما أنا فبحاجة إليك.. سر بي حيث شئت، واقطع بي أي واد، واصعد بي أي جبل.. فلن تجد مني إلا الطاعة والتسليم.

قال: أنت تعلم أن الطريق صعبة شاقة.

قلت: وأعلم ـ كذلك ـ أن الموت في هذه الغابة بين أنياب السباع أصعب وأشق.

قال: إن السير في هذه الغابة يحتاج إلى قوة وبصيرة وصبر.. فهل تملكها؟

قلت: إن لم أملكها في جميع حياتي، فسأملكها اليوم.

قال: أنت تعلم أن في كل خطوة في هذه الطريق شرك أو أحبولة أو حفرة يمكن أن تقع فيها.

قلت: أعلم ذلك.. ولولا ذلك لكنت قطعت الطريق بنفسي، وما احتجت إليك لتدلني.

قال: فما دمت قد تحققت بالإرادة، وتحليت بالهمة.. فما عليك إلا أن تتبعني.. فما أيسر السير على صاحب الإرادة، المتحلي بالهمة.

قلت: لقد سرت بالسيارة مسافة طويلة.. فكم يا ترى يمكن لأرجلنا الضعيفة أن تقطع تلك المسافة؟

قال: لا يهم الزمن في هذه المحال.. المهم هو أن نسير في الطريق الصحيح.. لأن خطأ واحدا سيضعنا في أفواه السباع.

قلت: وسيارتي!؟

قال: أراك تردد ما ردد أكثر من أريد أن أنقذهم.

قلت: أكانت لديهم سيارات؟

قال: لو لم تكن لديهم سيارات لنجوا.. لقد أهلكتهم سياراتهم.

قلت: كيف أهلكتهم مع أنها لم تصمم إلا للإنقاذ؟

قال: لقد تعلقوا بها، فلم يستطيعوا أن يسيروا ويتركوها.. فهلكوا وهلكت سياراتهم معهم.. وإن شئت أريتك من هياكلها ما يملؤها زهدا في سيارتك، ورغبة عن التعلق بها.

قلت: فأرني ذلك.. لعل همتي تترفع عن هذه السيارة التي التصقت بروحي.

لم يسر بي إلا قليلا حتى رأينا سيارة اخترقتها بعض القوارض، وحولتها مأوى لها..

قلت: أين صاحب هذه السيارة؟

قال: انظر إلى أسفلها.

نظرت فإذا هيكل عظمي ملأني بالرعب، فقال: هذا هو صاحبها.. لقد استعملت كل الأساليب لأنقذه، فلم يستجب.. وأبى.. بل تصورني لصا يريد أن يسرق سيارته.. فلما أكثرت من الإلحاح أخرج بندقية من سيارة وصوبها في وجهي، وقال: (إن لم تغادر أيها البدائي هذا المحل، فسأقتلك بسلاحي هذا)

قلت: فأنت الآن تشفي غيظك بالنظر إلى جثته.

قال: لقد حزنت عليه حزنا شديدا.. وعندما طردني بكيت..

قاطعته قائلا: عليه.. أم على نفسك؟

قال: بل عليه.. فأنا أعلم أن المصير الذي كان ينتظره هو هذا المصير.. لقد حاولت أن أستشفع له بدموعي لكنه ضحك ضحكة عالية، وقال: لا مكان هنا للعواطف.. هنا القوة.. القوة وحدها هي التي تحميك.

قلت: فأين ذهبت قوته؟

قال: كان المسكين يكذب على نفسه.. فليس هناك إلا قوة واحدة في هذا الوجود.. وكل ما عداها ضعف.. وليس هناك إلا حصن واحد.. وما عداه مفازة.

قلت: من أنت؟.. وما الذي جعلك تمارس هذه الوظيفة؟.. وما هي الأجور التي تتقاضاها؟

قال: أما أنا فرجل من أرض الله اسمه (محمد الهادي).. وأما وظيفتي فهداية من انقطعت به السبل، واحتارت به الطرق.. وأما الأجر الذي أناله فهو نجاة من نجا، وهداية من اهتدي.. يكفيني أن أرى من أنقذته يسير بعافية في وسط أهله وماله وولده.

قلت: إن أمرك عجيب.. لا بد أن لك قصة غريبة.. فحدثني حديثها.

قال: لك ذلك.. فلا تقطع مثل هذه الطريق الطويلة إلا بالأحاديث.

قلت: من أين تبدأ قصتك؟

قال: من الضلال تبدأ قصتي..

قلت: عجبا.. أقصة الهادي تبدأ من الضلال؟

قال: أجل.. ألم تسمع قوله تعالى: وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى (الضحى:7)

قلت: بلى.. هذه الآية قرأتها كثيرا في قرآن المسلمين.

قال: بل في قرآن رب العالمين الذي هو خطابه للناس أجمعين..

قلت: فكيف بدأ الضلال يتسرب لتحل محله الهداية؟

قال: لقد هداني الله إلى رجل من أهله من الصالحين من ورثة رسول الله ﷺ كان اسمه محمد الوارث..

قاطعته قائلا: أعرفه.. لقد زرته قبل سنوات.. وسمعت رحلته إلى محمد.

قال: لقد صحبته مدة من الزمن.. وقد امتلأت بالمعاني العظيمة التي كان ـ بسلوكه ـ يدعو إليها.

قلت: فما الذي جعلك ترغب عن صحبته.. وتسير إلى هذه البلاد، حيث لا تسمع إلا عواء الذئاب، وزئير الأسود؟

قال: لقد ذكرت ما كنت فيه من الضلال، فامتلأت هما وغما..

قلت: أخفت ألا يتوب الله عليك؟

قال: لا.. لقد أيقنت بأن الله قد تاب علي.. فيستحيل على الغفور الرحيم أن يستغفره عبده، ثم لا يغفر له.

قلت: فما الذي دعاك إلى الحزن إذن؟

قال: لقد حزنت على البشر التائه في صحراء نفسه، الغارق في أوحال شهواته، المصلوب على خشبة أهوائه.

قلت: وما تملك أن تفعل أنت له؟

قال: لقد قلت لنفسي: إن الرحمن الرحيم الذي ما أنزل داء يرتبط بالطين إلا أنزل له من الدواء ما يقاومه، لن يتخلى عن الروح التي هي الأصل.. فلذلك لن يكون في الروح داء إلا وينزل الله من الأدوية ما يقاومه.

قلت: فماذا فعلت؟

قال: لقد قعد بي العجز عن معرفة الدواء.. فلذلك ظللت مدة في تلك الأحزان إلى أن جاء اليوم الذي أرسل الله لي فيه رجلا لا أزال إلى الآن لا أعرف كيف جاء، ولا كيف ذهب.

قلت: ما اسمه؟

قال: لم أكن أناديه إلا بـ (معلم الهداية)

قلت: معلم الهداية.. !؟

قال: أجل.. فلم يكن له حديث إلا عن الهداية.. وقد سـألته أول مـا زارني عن أسـرار الهداية التي تقضي على كل ضـلال، فقـال: سـر في الأرض.. فلن ينـال الهدايـة ولا علـوم الهداية إلا من سـار في الأرض، وخـبر البشـر، وتعلم لغـة الطـير، وسـلك مسـالك النحـل، وسكن قرى النمل.

قلت: إن هذا الرجل يلغز ولا يهدي..

قال: أحيانا تلبس الهداية لباس الألغاز.. وتحتاج العبارة إلى ثوب إشارة.

قلت: هل فهمت مراده؟

قال: أجل.. لقد فهمت مراده.. فقد وضح لي لغزه هذا بلغـز أمكنـني أن أبحث عنـه.. وأعيش فترة من حياتي في البحث عنه.

قلت: فما قال؟

قال: لقد قال لي: ترياق الهداية يحتاج إلى عشرة أوصـاف لن تنالهـا إلى في عشـرة حضائر، ومن عشرة أفواه..

قلت له: فما الفم الأول؟

قال: الفم الذي يعرف للمراتب حقها.. فلا يتجاوز بها منازلها.(1)

قلت له: فما الفم الثاني؟

قال: الفم الذي يسيل ما جف من الدموع، ويلين ما قسا من القلوب (2).

قلت: فما الفم الثالث؟

قال: الفم الذي يكشف عن الجـواهر بالقيـل والقـال، والجـواب والسـؤال، لا بـالمراء والجدل(3).

قلت: فما الفم الرابع؟

قال: الفم الذي طهر لسانه بماء الحقائق، وزين بمواثيق الرقائق، وعتـق من سـجون العلائق، فصار بين الناس كالبـدر المتلألئ، تنشـق لـه حجب الظلمـات، وتنـدك لـه صـروح الطغاة(4).

قلت: فما الفم الخامس؟

---

1) أقصد به (الحكيم)، وهو الفصل الأول من هذه الرسالة.

2) أقصد به (الواعظ)، وهو الفصل الثاني من هذه الرسالة.

3) أقصد به (المحاور)، وهو الفصل الثالث من هذه الرسالة.

4) أقصد به (المعلم)، وهو الفصل الرابع من هذه الرسالة.

قال: الفم الذي ينطق من غير لسان.. ولكنه أبلغ من كل لسان[1].

قلت: فما الفم السادس؟

قال: الفم الذي يطهر أرض النفوس من الأدناس، ليرفعها إلى قدس الأقداس[2].

قلت: فما الفم السابع؟

قال: الفم الذي يرفع صوته، فتعلو برفعه الرايات، وتنتشر المكرمات[3].

قلت: فما الفم الثامن؟

قال: الفم الذي حلي بحلية الورع، وزين بزينة العلم والحلم، ونور بأنوار البصيرة.. فأجاب عن كل سؤال، وحل كل إشكال، ورفع كل معضلة، وأزال كل مشكلة[4].

قلت له: فما الفم التاسع؟

قال: الفم الذي يثور على المحو، ليطفئ السراب، ويمحو الضباب[5].

قلت: فما الفم العاشر؟

قال: الفم الذي يسلك القفار، ويقطع البحار، لينشر الأنوار[6].

قلت: فهل بحثت عن هذه الأفواه؟

قال: أجل.. لقد ذكر لي أنها في عشرة حضائر من بلاد الإسلام.. فلذلك سرت في كل بلاد الإسلام أبحث عنها حتى وجدتها.

قلت: وجدتها جميعا؟

قال: أجل.. فلا تكمل الهداية إلا باجتماعها جميعا.. كما لا يمكن أن يكتمل الشعاع الأبيض إلا بجميع ألوانه.

قلت: فهل ستحدثني حديث رحلتك هذه؟

---

1) أقصد به (القدوة)، وهو الفصل الخامس من هذه الرسالة.

2) أقصد به (المربي)، وهو الفصل السادس من هذه الرسالة.

3) أقصد به (الخطيب)، وهو الفصل السابع من هذه الرسالة.

4) أقصد به (المفتي)، وهو الفصل الثامن من هذه الرسالة.

5) أقصد به (المحتسب)، وهو الفصل التاسع من هذه الرسالة.

6) أقصد به (الشاهد)، وهو الفصل العاشر من هذه الرسالة.

قال: يسرني ذلك.. فبيننا وبين الأمان عشر مراحل.. وسنقطع بكل واحد من هذه الأفواه مرحلة من المراحل.. على أن لا تنسى أننا في غابة.. وأنه يمكن في أي لحظة أن يهم بنا سبع، أو تلدغنا عقرب..

قلت: إن ذلك يمنعني من أن أعيش ما تقول..

قال: دع بصرك لجسدك.. وأرسل ببصيرتك إلي.. فلست أحتاج سوى بصيرتك.

قلت: فمن أين ابتدأت رحلتك؟

أشار إلي أن نسير، ثم حمد الله وصلى على نبيه ﷺ مستغرقا في كل ذلك، ثم قال:

أولا ـ الحكيم

بدأت رحلتي من بلاد العراق.. تلك البلاد التي بدأ بها التاريخ.. وفيها التقيت أول حامل لمشعل من مشاعل الهداية النبوية، وهو (مشعل الحكمة).. وفيها تعرفت على (النبي الحكيم).. سأقص عليك القصة من البداية:

كنت أسير في مدينة الموصل.. ثم بدا لي أن أدخل مكتبة من مكتباتها الضخمة.. وفيها التقيت رجلا أسود شديد السواد، كان الناس يطلقون عليه لقب لقمان الحكيم(1).. ولست أدري هل كان ذلك اسما سماه به أبوه، أم أنهم كانوا يشبهونه في حكمته بلقمان عليه السلام، فقد كانت الصلة بينه وبين لقمان عليه السلام شديدة جدا في كل شيء حتى لون البشرة وطول القامة وغير ذلك.. وأما شبهه به في الحكمة فقد تجلى لي من خلال حديثي معه.. والذي سأذكره لك.

عندما دخلت المكتبة ورأيته حسبته في البدء صاحب المكتبة، فقد رأيته يرتب كتبها، وينظمها باهتمام، وكأنه صاحبها.

أردت في تلك الأيام أن أنشغل بتعلم النحو، فقد رأيت أنه لا مناسبة أحسن من تلك المناسبة لتعلمه.. فطلبت منه أن يعطيني حاشية من الحواشي على الألفية، فقال لي، والابتسامة تشع من شفتيه: أتسمح لي أن أسألك سؤالا؟

قلت: سل ما بدا لك.

قال: هل أنت مبتدئ في تعلم النحو.. أم لك خبرة سابقة فيه؟

قلت: بل أنا مبتدئ.. وإن شئتُ قلتُ: أنا أجهل الناس بهذا العلم.. وقد دعتني الغربة إلى الانشغال بتعلمه.

قال: فأنصحك إذن أن تقرأ كتبا أيسر وأبسط.. ولدينا الكثير منها هنا.

قلت: لكني سمعت أن هذه الحاشية من أفضل ما كتب في النحو.

قال: الأفضل يتعدد.. فما صلح لزيد قد يضر عمرا، وما حسن لبكر قد يقبح بخالد.

قلت: لا بأس.. سأعمل بنصيحتك.. دلني على هذه الكتب التي نصحتني بها..

---

1) أشير به إلى لقمان الحكيم الذي ذُكر في القرآن الكريم، وأطلق اسمه على سورة لقمان، وقد ذكر المؤرخون أنه عاصر داود عليه السلام، وأنه لد وعاش في بلاد النوبة، وأنه كان عبدا حبشيا أسودا، وأنه أول من تحرر من عبوديته بدفع ثمنه بالمكاتبة، وكان خياطا او نجارا او راعيا، وأنه نزل بالموصل في قرية يقال لها (كوමليس او كوماس) بالعراق وانه مات في الشام حيث قبره بها في قرية اسمها طبرية وهي مدينة بقرب دمشق.

وقد روي في الحديث: (ثلاثة من سادات أهل الجنة لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن) [المعجم الكبير للطبراني ج11 ص159]، وروى عن الامام علي أنه سئل عن سلمان الفارسي فقال (بخ بخ سلمان منا أهل البيت، ومن لكم بمثل لقمان الحكيم علم علم الأول والآخر) [الاحتجاج للطبرسي ج1 ص387].

سـار بي قليلا في أركـان المكتبـة.. وفي جنـاح من أجنحتهـا كتب على لوحـه (نحـوُ المبتدئين)، وكتب في الدرج الذي فوقه (نحوُ المتوسطين)، وفي درج فـوقهم جميعـا (نحـوُ المحترفين)

قلت: هذه أول مرة في حياتي أرى الكتب ترتب بهذا الأسلوب؟

قال: ليست كتب النحـو وحـدها هي الـتي رتبت بهـذا الأسـلوب.. لقـد من اللـه علي، فرتبت الجميع بحسب مراتبها..

قلت: أنت مهتم بمكتبك، وبزبائنك كثيرا؟

قال: هذه مكتبة أخ من إخواني في الله..

قلت: فأنت تعمل عنده؟

قال: أنا أعمل عند الله.. لقد رأيت هـذه الكتب لا تـراعي مـراتب النـاس، فـأردت أن أرتبها، ليتيسر على كل طالب علم أن يجـد بغيتـه من غـير عنـاء.. وقـد طلبت من صـاحب المكتبة أن أفعل هذا.. في البداية رفض.. ولكنه عندما رأى نفور النـاس من مكتبتـه، طلب مني أن أرتبها بحسب ما ذكرت له.. وهو الآن ـ بحمد الله ـ راض عما يجنيه منها، بل يعتقـد أن الترتيب الذي وضعته هو السر في إقبال الزبائن عليها.

قلت: من أنت.. لكأني بك أحد الذين أبحث عنهم؟

قال: أنا الذي أعرف للمراتب حقها.. فلا أتجاوز بها منازلها.

قلت: ففمك هو الفم الأول؟

قال: إن كانت الحكمة هي الفم الأول.. ففمي ـ بحمد الله ـ هو ذلك الفم.

قلت: لقد طلبت من صاحب هذه المكتبة أن ترتب كتبه لوجه الله.. فهل لك أن ترتب كتبي لوجه الله؟

قال: إن كنت الباحث عن الهادي.. فقد ظفرت ببغيتك عندي.

قلت: أنا ذلك الرجل..

قال: فاصبر معي لأعلمك حكمة الحكيم الذي يضع الأمور في مراتبها، ولا يتجـاوز بهـا منازلها.

قلت:﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ (الكهف: 69)

***

سرت معه إلى بيته.. وقد كان في غاية النظام والـترتيب.. وغايـة الجمـال والتناسـق،

قلت له: أراك تهتم بالترتيب في كل شيء..

قال: من رأى النظام البديع الذي بنى الله به أكوانه، ورأى الترتيبات العجيبة التي رتبها لا يملك إلا أن يجعل من حياته كلها مرآة يتجلى فيها بديع الصنع الإلهي.

قلت: البعض يعتبر ذلك وسوسة.

قال: الوسوسة في الفوضى، لا في النظام.. والوسوسة في عالم النفس، لا في العوالم المرتبطة بالله.. ونحن بحمد الله لا نتحرك حركة إلا بنية تربطنا بالله.. فلذلك نرجو من الله أن يأجرنا عليها..

قلت: سواء كانت من الدنيا أو من الآخرة.

قال: ليس هناك دنيا ولا آخرة إلا في أعين المحجوبين.. أما الموصولون بالله، فهم عبيد لله مطلقا.. سواء كانوا في هذه الدار أو في تلك الدار.

شد انتباهي في مكتبة بيته أربعة سجلات ضخمة.. غلافها مفهرس بفهارس مختلفة، فقلت: أهذه كتب تكتبها؟

قال: بل هذه مشاريع لكتب أكتبها.

قلت: في أي مواضيع تكتب.. لا بد أنك تكتب في الشريعة؟

قال: أنا أكتب من يكتب في الشريعة.. أو من يعيش الشريعة.

قلت: لم أفهم.. ما الذي تقصد؟

قال: افتح دفترا منها، وسترى ما أكتب.

مراتب المخاطبين

فتحت الدفتر الأول، وكان عنوانه (مراتب المخاطبين).. وقد زين غلافه بقوله تعالى:﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: 286).. وفوقها كتب قوله تعالى:﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ (الطلاق: 7)، وبينهما قوله تعالى:﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طـه: 50)

قلت: لاشك أن هذا الكتاب في فقه الدعوة.. فإني أرى لك اهتماما بهذا النوع من الفقه.

قال: افتحه.. وستعرف موضوعه..

فتحته.. فتعجبت.. فلم أر فيه إلا جداول كثيرة ملئت بأسماء كثيرة.. وبجانب كل اسم وضعت بعض المعلومات المرتبطة به..

قلت، وقد أصابني بعض الفزع: أنت من المخابرات إذن؟

ضحك، وقال: تستطيع أن تقول ذلك.. ولكني من المخابرات الإلهية.. لا المخابرات الأرضية.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: المخابرات الأرضية تبحث عن أمن الأرض، وأمن أهل الأرض.. ومخابرات أهل الله تبحث في أمن النفس، وأمن عالم النفس..

قلت: وما حاجة عوالم النفس لهذه المعلومات؟

قال: ألا ترى الطبيب الحاذق الناصح الماهر كيف يسجل مرضاه.. ويسجل ما يرتبط بمرضهم من تواريخ ومن أدوية.. ونحوها؟

قلت: أجل.. رأيت بعض الأطباء يفعل ذلك؟

قال: لم؟

قلت: يفعل ذلك نصحا للمرضى.. وحتى لا يسقيهم دواء قد يصطدم مع بعض أدوائهم.

قال: وهكذا عالم النفس.. وعالم الروح.. وجميع العوالم الخفية التي يتكون منها بنيان الإنسان.. فقد يصطدم الخطاب مع بعضها مع الآخر.. وذلك قد يؤدي إلى تشنجات خطيرة لا يصبح بها الإنسان إنسانا.

قلت: فماذا فعلت حتى تتجنب هذا النوع من التشجنات؟

قال: سجلت أسماء جميع المرضى الذين رغبت في علاجهم.. ثم سجلت ما يرتبط بكل واحد منهم من طباع وعلل وحاجات مختلفة حتى أراعيها في حال خطابي لهم حتى لا أسقيهم من الشريعة ما ينفرهم عنها.

قلت: أراك وضعت أمام كل اسم ست خانات..

قال: أجل.. فقد رأيت أن كل إنسان يختلف عن غيره في طباعه وقدراته وتوجهاته وأحواله وحاجاته، وأحيانا يكون الشخص من عائلة معينة، وتكون لهم أعراف معينة.. فلذلك صارت الخانات ستا.

قلت: من أي عالم نفس.. أو من أي عالم اجتماع.. استلهمت هذه المعاني؟

قال: من عالم العلماء، وإمام الأئمة، وهادي الهداة وحكيم الحكماء..

قلت: من؟

قال: ومن غير السراج المنير الذي أنار الله به عوالم الدين والدنيا!؟

قلت: محمد رسول الله !؟

قال: مبتدع أنا إن سرت خلف غيره.. ودني همة أنا إن اخترت لنفسي قالبا غير القالب الذي اختاره.

قلت: فحدثني عن شواهد استنانك.. فلا يمكن أن نثبت السنة إلا بالسنة.

قال: وبالقرآن.. ألم يكن خلق محمد ﷺ هو القرآن؟

قلت: بلى.. هكذا ذكر المحدثون.

قال: بل هكذا حدث القرآن وحدثت السنة وحدثت السيرة.. وحدث كل من شهده ﷺ وتشرف بصحبته.

الطباع:

قلت: فلنبدأ من الخانة الأولى.. ما الذي تريده بالطباع؟

قال: لقد تأملت الخلق، فرأيتهم متفاتين في طباعهم تفاوتا عجيبا، فرأيت منهم صاحب الحس المرهف، الذي يتأثر بالعاطفة، ويستجيب للموعظة بسهولة.. ورأيت منهم العقلاني الذي لا يناسبه إلا الطرح العقلي، والاستدلالات العقلية.. ورأيت منهم الذي يؤخذ بالترغيب.. ورأيت منهم الذي يتأثر بالترهيب.. ورأيت منهم المسالم المنصت.. ورأيت منهم المجادل العنيد.. ورأيت منهم المتعالم.. ورأيت منهم المتجاهل.. ورأيت منهم القوي.. ورأيت منهم الضعيف.

وقد رأيت من العبث ألا ألتفت إلى هذه الصفات المتنافرة.. لأني حينذاك لن أحصد إلا الفشل.. بل سأكون حينها كمن يزرع في الأرض الجافة النباتات التي تحتاج إلى الرطوبة.. فيقتلها بالجفاف، ولا يجني غير السراب.

قلت: لا شك أن التأمل هو الذي هداك لهذا؟

قال: لقد تغذى تأملي بالقرآن الكريم.. ولولا القرآن الكريم.. ولولا تدبره ما اهتديت إلى هذا.. لقد رأيت القرآن الكريم كيف يتغلغل إلى النفس، ليوحي إليها قدرة بارئها على معرفة ما يجري داخلها..

اسمع لقوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: 24).. وقوله: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصّدُورُ﴾ (غافر: 19).. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: 16)

واسمع كيف تُشعرنا هذه الآيات بهيمنة الله على ملكوته ؛ بالعلم والقدرة والسمع والبصر، وبمراقبة الله للعبد في كل حين، وفي كل قول وفعل.. ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (الأنعام:18)..

ألا ترى كيف تختم هذه الآية باسم (الخبير).. إن هذا الاسم يعني أن الله هو العالم بخفايا الأمور، والمطلع على دقائق الأشياء.. ولذلك يتعامل مع عباده على أساسها؟

لذلك يخبرنا الله تعالى في معرض الحديث عن أحكامه عن خبرته بأعمال خلقه، لأن العالم بذوات الخلق أعلم بأعمالهم(1):

ففي معرض ذكر الله تعالى لجواز تزين النساء بعد انتهاء إحدادهن، قال: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (البقرة:234)

وهي تحمل عتابا مبطنا لمن ينكر عليهن، لأن في إنكاره تعديا على الله، فالله هو الخالق الخبير بخلقه، وهو أعلم بما في نفوسهم وبواطنهم، وله وحده لذلك الحق في الإنكار أو عدمه.

وفي معرض ذكره للصدقات قال تعالى: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (البقرة:271)، فالله تعالى عقب على هذا السلوك الذي هو إظهار الصدقات أو إخفائها بكونه خبيرا، وكأنه يخبر من أظهر الصدقات بأن الله خبير يعلم نيته في إخراجه لها علانية... فالعلانية لا تدل بحد ذاتها على الإخلاص أو على الرياء، ولهذا فهي تحتاج إلى خبير يميز بينهما.

ومثل هذا يقال في قوله تعالى: إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (آل عمران:153)، وقوله تعالى: وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (آل عمران:180) وغيرها من آيات القرآن الكريم.

لقد كان لي صاحب من مصر.. كان اسمه سيد.. وقد حدثني مرة عن هذا، فقال ـ وهو يحدثني عن الأسلوب الذي تميز به القرآن المكي ـ:(كان هذا القرآن يُواجه به النفوس في مكة، ويروضها حتى تسلس قيادها، راغبة مختارة، ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة، تنوعاً عجيباً.. تارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر، من الدلائل الموحية، والمؤثرات الجارفة.. وتارة يواجهها، بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس، فلا يطيق وقعها، ولا يصبر على لذعها! وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة، والمسارَّة الودودة، التي تهولها المشاعر، وتأنس لها القلوب..! وتارة يواجهها بالهول المرعب، والصرخة المفزعة، التي تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب..! وتارة يواجهها بالحقيقة في بساطة، ونصاعة، لا تدع مجالاً للتلفت عنها، ولا الجدل فيها.. وتارة يواجهها بالرجاء

1) ذكرنا المسألة بتفصيل في رسالة (أسرار الأقدار)

الصبوح، والأمل الندي، يهتف لها ويناجيها.. وتارة يتخلل مساربها، ودروبها ومنحنياتها، فيلقي عليها الأضواء التي تكشفها لذاتها، فترى ما يجري في داخلها رأي العين، وتخجل من بعضه، وتكره بعضه، وتتيقظ لحركاتها، وانفعالاتها التي كانت غافلة عنها!.. ومئات من اللمسات، ومئات من اللفتات، ومئات من الهتافات، ومئات من المؤثرات.. يطلع عليها قارئ القرآن، وهو يتبع تلك المعركة الطويلة، وذلك العلاج البطيء، ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية في تلك النفوس العصيّة العنيدة)(1)

قلت: أعرف طريقة القرآن الكريم في هذا.. ولكن هذا كلام الله، والله هو اللطيف الخبير، العالم بما دق وما جل.. ولا يمكن لغير الله أن يفعل هذا؟

قال: الكامل هو الذي يتأسى بربه.. ويترقى ليتخلق بما تقتضيه أسماؤه الحسنى.. وقد كان محمد ﷺ هو النموذج الأكمل لهذا التأسي وهذا الترقي.

أنت تعلم أن أبا ذر من صحابة رسول الله ﷺ الكبار؟

قلت: أجل.. فقد كان من أوائل السابقين إلى الإسلام، أسلم في أول البعثة خامس خمسة، وكان رأسا في العلم والزهد والجهاد وصدق اللهجة والاخلاص.. وكان يوازي ابن مسعود في العلم.. وقد قال فيه رسول الله ﷺ:(ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر.. من سره أن ينظر إلى زهد عيسى بن مريم، فلينظر إلى أبي ذر)(2)

قال: ومع هذا الفضل العظيم.. فقد نصحه ﷺ بأن لا يتولى الإمارة.. بل نَصَحَهُ أن لا يقترب منها..

قلت: ذلك صحيح، فقد حدث أبو ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا أبا ذرٍ إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم)(3)، وفي رواية عنه قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها)(4)

قال: فقد لاحظ رسول الله ﷺ في هذا طباع أبي ذر.. فأبو ذر صادق وزاهد.. ولكن طبعه الذي جبله الله عليه لا يسمح له بتولي الإمارة.

قلت: وعيت هذا..

قال: فقد كان ﷺ يلاحظ الطباع في جميع ما يفعله، وما يتعامل به..

---

1) في ظلال القرآن: 6/3692- 3693.

2) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى.. وانظر: سير أعلام النبلاء: 2 / 59.

3) رواه مسلم.

4) رواه مسلم.

القدرات:

قلت: وعيت ما ذكرته في الخانة الأولى.. فما (القدرات) التي وضعتها في الخانة الثانية؟

قال: كما أن البشر يختلفون في طباعهم التي طبعوا عليها يختلفون كذلك في توجيههم للقدرات والملكات التي وهبهم الله.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف:32)

فبعضهم صرف هذه القدرات للعلم.. وبعضهم صرفها للتجارة.. وبعضهم صرفها للسياسة.. وبعضهم للصناعة.. وهكذا.. وليس من الحكمة أن يخاطب الجميع بنفس الأسلوب..

قلت: صحيح ما ذكرت.. وقد رأيت في الواقع من يسئ التصرف في مثل هذا.. فلا يجني من تصرفه إلا الشوك والحنضل..

قال: ولذلك كان رسول الله ﷺ حكيم الحكماء يراعي هذه النواحي في خطابه وفي تعامله:

ومما ورد في السنة من مراعاة رسول الله ﷺ لأحوال المدعويين العلمية حديث ذلك الأعرابي الذي بال في المسجد، وكشف عورته فيه، فقام أصحاب رسول الله ﷺ ليقعوا فيه.. لكن سيد الحكماء ﷺ أدرك حاله من الجهل، وأدرك أنه ـ في ذلك الحين ـ كان في حالة خاصة، فعالجه بما يناسب حاله.. فعالج جهله بالتعليم.. وعالج الحالة الخاصة التي كان عليها بتأخيره حتى يفرغ من بوله، ولو كان في المسجد، ولو كان كاشف العورة، لأن مفسدة قطعه من بوله أعظم من مفسدة ما يفعل..

لقد بدأ رسول الله ﷺ بمعالجة حاله، ونهى الصحابة أن يتعرضوا له، بل منعهم من أن يقطعوا عليه بوله، فقال: (لا تُزرِمُوه)

ثم ما إن انتهت حاله هذه حتى بدأ رسول الله ﷺ بمعالجة حاله الأصلية، وهي الجهل، فبدأ يُعلِّمُهُ برِفق، حتى قال الأعرابي قولته المشهورة، التي أضحكت رسول الله ﷺ:(اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحداً)(1)

وقريب من هذا ما حدث به صحابي آخر، فقال:(بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: وا ثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن) ـ أو كما قال رسول الله

---

1) رواه البخاري وغيره.

ﷺ ـ قلت: يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالا يأتون الكهان قال: فلا تأتهم قال: ومنا رجال يتطيرون قال: ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنكم، قال: قلت ومنا رجال يخطون قال: كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك)(1)

انظر.. لقد كان سلوك رسول الله ﷺ مع هذا الرجل المبتدئ في الإسلام سببا لأن يقول هذه الشهادة التي ظلت الأجيال تحفظها:(ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني)

وانظر كيف ألان ذلك التعليم الرحيم قلب الرجل، فراح يسأل رسول الله ﷺ تلك الأسئلة التي لم يتجرأ على سؤاله عنها لو أنه لم ير من رحمته ورفقه ما رأى.

وانظر في مقابل هذا كيف غضب من أسامة لما شفع في شأن المخزومية، فقد روي أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد؟ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: (أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟)، ثم قام فاختطب، ثم قال: (إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد! وأيمُ الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها)(2)

وجدت في بعض خانات هذا العمود كلمة (صاحب مكانة)، وأمامه كتب ملاحظة (يحتاج إلى عناية خاص)، فقلت: ما هذا؟.. ألم تقرأ سورة عبس(3)؟

قال: بلى.. قرأتها.. فما علاقتها بهذا؟

---

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3)اختلف المفسرون فيمَن هو المعاتب في الآيات الكريمة من أول سورة عبس على رأيين:

الأول: ما ذكرناه هنا، وهو المشهور بين عامّة المفسّرين وخاصتهم، وهو أنها نزلت في عبداللّه بن أُم مكتوم، إنّه أتى رسول اللّهﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأُبي وأُميّة بن خلف يدعوهم إلى اللّه ويرجو إسلامهم (فإنّ في إسلامهم إسلام جمع من أتباعهم، وكذلك توقف عدائهم ومحاربتهم للإسلام والمسلمين)، فقال: يا رسول اللّه، أقرئني وعلمني ممّا علمك اللّه، فجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنّه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول اللّه لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد، إنّما أتباعه العميان والعبيد، فأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فنزلت الآية.. وكان رسول اللّه ﷺ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربّي»، ويقول له: «هل لك من حاجة».استخلفه على المدينة مرّتين في غزوتين)

الثاني: ما روي عن الإمام الصادق: «إنّها نزلت في رجل من بني أُميّة، كان عند النّبي، فجاء ابن أُم مكتوم، فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه عبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى اللّه سبحانه ذلك، وأنكره عليه»(تفسير مجمع البيان، ج10، ص 437) وقد أيّد المحقق الإسلامي الكبير الشريف المرتضى الرأي الثّاني.

وقد قال ناصر مكارم الشيرازي عن الرأي الأول: وعلى فرض صحة الرأي الأوّل في شأن النزول، فإنّ فعل النّبيﷺ والحال هذه لا يخرج من كونه (تركاً للأولى)، وهذا ما لا ينافي العصمة، وللأسباب التالية:

قلت: لقد أبدى النبي ﷺ بعض الاهتمام ببعض سادة قريش، فنهي عن ذلك.

قال: لم ينه رسول الله ﷺ عن اهتمامه بالقرشيين، وإنما نهي من التقصير في حق الأعمى.

قلت: كلا الأمرين سواء.

قال: لا.. النهي عن شيء لا يدل على النهي على غيره إلا بدليل..

قلت: ألا يكفي في الاستدلال قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7)﴾ (عبس)؟

قال: هذه الآيات الكريمة تتحدث عن المستغني عن الله.. وهو يتحقق في الأغنياء كما يتحقق في الفقراء..

قلت: ولكن كيف بدا لك أن تضع أمامه تلك الملاحظة؟

قال: هذا لم يبدو لي.. بل هي سنة رسول الله ﷺ.. بل هي سنة الأنبياء قبله جميعا.. لقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم دعوة الأنبياء إلى الملأ من قومهم، وتلطفهم معهم..

لقد ذكر الله تعالى كيف أرسل موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ إلى فرعون، فقال: ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)﴾ (طه).. انظر كيف أمرهما الله تعالى بدعوة فرعون بكلام رقيق لين سهل، ليكون أوقع في النفوس.. ذلك أن الكلام الذي فيه خشونة من أعظم أسباب النفرة، لا سيما إذا كان المدعو من الكبراء الذين تغلب عليهم صفة الكبر والتجبّر.

أوّلاً: على فرض صحة ما نسب إلى النّبي في إعراضه عن الأعمى وإقباله على شخصيات قريش، فإنّه ﷺ بفعله ذلك لم يقصد سوى الإسراع في نشر الإسلام عن هذا الطريق، وتحطيم صف أعدائه.

ثانياً: إنّ العبوس أو الإنبساط مع الأعمى سواء، لأنّه لا يدرك ذلك، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ «عبد اللّه بن أُم مكتوم» لم يراع آداب المجلس حينها، حيث أنّه قاطع النّبي ﷺ مراراً في مجلسه وهو يسمعه يتكلم مع الآخرين، ولكن بما أنّ اللّه تعالى يهتم بشكل كبير بأمر المؤمنين المستضعفين وضرورة اللطف معهم واحترامهم فإنّه لم يقبل من رسوله هذا المقدار القليل من الجفاء وعاتبه من خلال تنبيهه على ضرورة الإعتناء بالمستضعفين ومعاملتهم بكل لطف ومحبّة.

ويمثل هذا السياق دليلاً على عظمة شأن النّبي ﷺ، فالقرآن المعجز قد حدد لنبيّ الإسلام الصادق الأمين أرفع مستويات المسؤولية، حتى عاتبه على أقل ترك للأولى (عدم اعتنائه اليسير برجل أعمى)، وهو ما يدلل على أنّ القرآن الكريم كتاب إلهي وأنّ النّبي ﷺ صادق فيه، حيث لو كان الكتاب من عنده (فرضاً) فلا داعي لإستعتاب نفسه...

ومن مكارم خلقه ﷺ ـ كما ورد في الرواية المذكورة ـ إنّه كان يحترم عبد اللّه بن أُم مكتوم، وكلما رآه تذكر العتاب الرّباني له.

وقد ساقت لنا الآيات حقيقة أساسية في الحياة للعبرة والتربية والإستهداء بها في صياغة مفاهيمنا وممارستنا، فالرجل الأعمى الفقير المؤمن أفضل من الغني المتنفذ المشرك، وأنّ الإسلام يحمي المستضعفين ولا يعبأ بالمستكبرين (الأمثل:ج19، ص412)

قلت: إن موقف موسى ﷺ في هذا موقف خاص.. ولا يصح القياس عليه.

قال: لا بأس.. فلنعتبره موقفا خاصا.. ولنسر نحو النبي الحكيم لنرى كيف كان يتعامل مع هذا النوع من الناس.. فالسنة لا تتلقى إلا منه..

لقد وردت النصوص الكثيرة الدالة على حـرص رسـول اللـه ﷺ على إسـلام هـؤلاء.. ففي السيرة روي: اجتمع علية من أشراف قـريش.. فبعثـوا إليـه: إن أشـراف قومـك قـد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا، وهو يظن أنه قـد بـدا لهم في أمـره بدو ، وكان حريصًا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم.

ومما يدل على هذا موقفه ﷺ مع عتبة بن ربيعة، وهـو أحـد سـادات قـريش[1]، فقـد أظهر ﷺ من العناية به والتلطف في دعوته ما جعله يعود بغير الوجه الذي جاء به.

بل كان ﷺ يبدأ بعـرض الـدعوة على ذوي المكانـة من الأشـراف والسـادة، قـال ابن إسحاق:(لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمـد إلى نفـر من ثقيـف هم يومئـذ سـادة ثقيف وأشرافهم.. فدعاهم إلى الله)[2]

ثم لما عاد ﷺ إلى مكـة كـان لا يسـمع بقـادم يقـدمها من ذوي المكانـة والشـرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده، ثم بـدأ يعـرض دعوتـه على وفـود العـرب في موسم الحج وأسواق العرب، وكانت مناسبات هامة للالتقاء بـذوي المكانـة من رؤسـاء العرب.

وقد بين ﷺ الحكمة في العناية بذوي المكانـة بقولـه:(لـو آمن بي عشـرة من اليهـود لآمن اليهود)[3].. لقد علق ابن حجر على هذا الحديث بقوله:(والذي يظهر أنهم الذين كـانوا حينئذ رؤساء في اليهود ومن عداهم كان تبعًا لهم)[4]

وهذا هو الأسلوب الذي انتهجه ورثته مع أمثال هذا النوع:

فمصعب بن عمير وهو مبعوثه ﷺ إلى المدينة ليقوم بمهمة الـدعوة والتعليم ـ أظهـر عناية خاصة بذوي المكانة في المجتمع المدني، فقد اسـتفاد من أسـعد بن زرارة وهـو من ذوي المكانة في قومه حيث نزل ضيفًا عليـه، وأخـذ يصـطحبه في جولاتـه الدعويـة ليقـوم بمهمة تعريفه بذوي المكانة ليوليهم عناية خاصة في الدعوة، فحينمـا دخلا حائـط بـني عبـد الأشهل، وأقبل عليهما أسيد بن حضير لزجرهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه.

---

1) ومما يدل على مكانته في قريش قولهم: إن صبأ أبو الوليد لتصبون قريش كلها (ابن هشام، السيرة النبوية 1 / 229)

2) رواه ابن إسحق.

3) رواه البخاري.

4) فتح الباري: 7 /695.

وحينما أسلم أسيد بن حضير، قال لهما مبينًا مكانة سعد بن معاذ في قومه: إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معـاذ.. فلمـا أقبل سعد قال أسعد لمصعب: (أي مصعب، جـاءك والله سـيد من وراءه من قومـه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان)(5)

فكان لهذه العناية بهذين الرجلين الأثـر البـالغ حيث أسـلم بإسـلامهما جميـع دور بـني الأشهل.

التوجهات:

قلت: وعيت ما ذكرته في الخانة الثانيـة.. فمـا (التوجهـات) الـتي وضـعتها في الخانـة الثالثة؟

قال: كما أن البشر يختلفون في طباعهم التي طبعوا عليها، ويختلفـون في قـدراتهم، يختلفـون كـذلك في توجهـاتهم.. فمنهم الملاحـدة الـذين لا يؤمنـون بـرب، ولا رسـول، ولا كتـاب، ولا دين.. ومنهم المشـركون الـذين يعبـدون الأصـنام.. ومنهم أهـل الكتـاب الـذين يؤمنـون باللـه خالقـاً، وبكثـير من الرسـل.. ومنهم المنـافقون الـذين يُظهِـرون الإسـلام، ويُبطِنون الكفر.. ومنهم العُصاة الـذين طغت عليهم المعصـية، حـتى أصـبحت تُلازِمهم، فلا يهتمون بدين، ولا يُفكـرون بتوبـة.. ومنهم المقتصـدون الـذين يـأتون بالواجبـات، ويجتنبـون المحرمات، ولكنهم لا يسارعون في الخيرات، وإذا مـا وقعـوا في بعض الـذنوب لم يصـروا عليها، ويسارعون إلى التوبة.. ومنهم بعد ذلك كله الأخيار الذين أتوا بالواجبات على وجهها، وبمعظم النوافل، واجتنبوا محارم الله أو تابوا منها توبة نصوحاً.. وبين هؤلاء جميعا طبقـات كثيرة لا يمكن حصرها.

فهل ترى من الحكمة أن يخاطب هؤلاء جميعا بأسلوب واحد وبمعاني واحدة؟

قلت: لا شك في أن ذلك لا يصـح.. ومن فعـل ذلـك يكـون كمن عـالج مـريض القلب بأدوية الزكام.. أو عالج المزكوم بأدوية أمراض القلب.

قال: ولهذا وضعت هذه المرتبة.. فلم أر من الحكمة أن أتكلم مع الملاحدة عن طاعة الله، ومحبة رسوله ﷺ، والتمسـك بالـدين، وأحتج لهم بالآيـات والأحـاديث، وهم لا يؤمنـون برب، ولا يقرون بدين.

ولم أرِ من الحكمة أن أتكلم مـع أهـل الكتـاب عن أهميـة الصـلاة، أو أحكـام الطلاق، وهم لا يُسلِّمون بالأصل.

قلت: فأين هذا في القرآن الكريم أو في حياة رسول الله ﷺ التي تستند للقرآن؟

قال: هذا كثير في القرآن.. فالقرآن الكريم يذكر اختلاف أصناف الناس.. ويذكر مـدى تميزهم في توجهاتهم.. فالله تعـالى يقـول ــ مثلا ــ عن أصـناف ورثـة الكتـاب:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِـهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِـدٌ وَمِنْهُمْ سَـابِقٌ بِـالْخَيْرَاتِ

5) سيرة ابن هشام: 2 / 59.

بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (فاطر:32)

وهو يخاطب الناس بحسب توجهاتهم.. فيخاطب الدهريين بإثبات وجود الخالق، فيقول: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيىءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (الطور: 35)، ويقول: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(لقمان: 11)، ويقول: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (الروم: 20)

ويحاجَّ إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ الدهريَّ بقوله: فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ (البقرة: 258)

ويخاطب المشركين بما يناسبهم في اعتقاداتهم، فيقول: وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (العنكبوت: 61)، فألزمهم الله بمقتضى هذا الإيمان أن لا يشرك به.. لأن العبادة تصرف لخالق هذا الكون والمتصرف فيه، ولا تصرف لغيره.

وقال تعالى مخاطبا لهم: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (الأعراف: 194)

وقال: وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (النحل: 20، 21)

وقال: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ (الأحقاف: 5)

ويخاطب أهل الكتاب بما يناسب معتقداتهم، فيقول: قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران: 64)، ويقول: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (النساء:171)، ويقول: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (المائدة:75)

بل يقول لهم: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (المائدة:68)، فانظر كيف أمرهم باتباع ما يعتقدون صحته، ولم يأمرهم مباشرة باتباع القرآن، لأن اتباعهم للتوراة الصحيحة سيجعلهم ـ لا محالة ـ يؤمنون بالقرآن.

ومثل ذلك خطاب القرآن الكريم لعُصاة المسلمين، فقد خاطبهم بما يتناسب وإيمانهم، وتسليمهم لأمر ربهم، فتارة يُخاطبهم بما في قلوبهم من إيمان فيقول: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ

قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:16)

وتارة يُخاطبهم بالترهيب كقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:278)، وقوله:﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً﴾ (البقرة: 231)، وقوله:﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (النور:17)، وقوله:﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 275)

وهكذا كان رسول الله ﷺ يتعامل مع مختلف أصناف.. فيعطي لكل شخص حقه من التوجيه والخطاب..

فقد خاطب رسول الله ﷺ أهل الكتاب بغير ما كان يخاطب به كفار قريش.. فخاطب اليهود ـ مثلا ـ بوجوب التزامهم التوراة الصحيحة، وعدم التحريف فيها، فلو أنهم التزموها لآمنوا، ومما وري في ذلك أن رسول الله ﷺ خاطب وفد نجران ــ وهم من المسيحيين ـ في إبراهيم ﵇ بأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً..

وكان قد كتب لهم قبل ذلك يقول:(بسم الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب من محمد رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران.. إن أسلمتم فإني أحمد إليكم الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد..)(1)

فانظر كيف ذكر لهم الأنبياء وسماهم لهم لكونهم يؤمنون بهم..

وهكذا في خطابه ﷺ لملوك وسلاطين العالم، فقد كان يخاطبهم بحسب توجهاتهم الدينية، ولذلك كان خطابه لكسرى مختلفا عن خطابه للنجاشي.

الأحوال:

قلت: وعيت ما ذكرته في الخانة الثالثة.. فما (الأحوال) التي وضعتها في الخانة الرابعة؟

قال: كما أن البشر يختلفون في طباعهم التي طبعوا عليها، ويختلفون في قدراتهم، ويختلفون في توجهاتهم، يختلفون كذلك ـ وبشكل كبير ـ في الأحوال التي تمر بهم.. فقد ينتقل الإنسان من الثراء الفاحش إلى الفقر المدقع.. وقد ينتقل من الصحة والعافية إلى المرض والبلاء.. وليس من الحكمة أن يخاطب في جميع الأحوال بأسلوب واحد، وبمعاني واحدة..

قلت: ما ذكرته صحيح.. وهو عين الحكمة.. ولكن هل ورد في النصوص المقدسة ما يدل على مراعاة هذا؟

قال: جاهل أنا إن حكمت عقلي.. وهربت من النصوص المقدسة.. إن الغنى كل

---

1) رواه البيهقي في الدلائل.

الغني في النصوص المقدسة..

ففي مراعاة هذه الناحية ورد قوله تعالى ـ مثلا ـ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ (النساء: 97)

انظر.. إن هذه الآية تحوي عتابا شديدا لهؤلاء المستضعفين باعتبار أنهم أطاقوا الهجرة، لكنهم لم يفعلوا.. بينما الآية التالية تستثني أصحاب الظروف الخاصة الذين قعدت بهم ظروفهم عن الهجرة، قال تعالى: ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾ (النساء: 98)

وقد كان ﷺ يراعي هذه الناحية.. والأمثلة كثيرة على ذلك..

من ذلك مثلا أن أبا ذر لما أسلم أمره رسول الله ﷺ أن يرجع إلى قومه قائلا له: (ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري)(1)، فالنبي ﷺ في هذا الحديث أمره أن يمكث في أهله، ولا يهاجر حتى ينتصر الرسول ﷺ ويتمكّن في الأرض.

قلت: كيف ذلك مع أن الهجرة كانت فرضا.. وقد قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الأنفال:72)

قال: لأن ظروف أبي ذر كانت تختلف اختلافا كبيرا عن ظروف سائر الصحابة.. فلم يكن أبو ذر من أهل مكة، ولم يكن له ناصر منهم، فيؤذونه أذى كبيرًا، فلذلك طلب منه رسول الله ﷺ ذلك.

قلت: وعيت هذا.. فاذكر لي أمثلة أخرى..

قال: من ذلك ـ مثلا ـ أن رسول الله ﷺ مر بامرأة تبكي على ولدها، فقال:(اتقي الله واصبري)، فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بَوَّابِين، فقالت: لم أعرفك، فقال:(إنما الصبر عند الصدمة الأولى)(2)

انظر.. لا شك أن كلمتها (إليكَ عني) كلمة كبيرة على أحدنا، فكيف إذا قيلت لرسول الله ﷺ.. ولكن النبي ﷺ حكيم الحكماء، أدرك ما كانت المرأة عليه من حالة خاصة، فضلاً عن أنها لم تعرفه.. فاكتفى بأن أعرض عنها، بل أعرض عن تعليمها، لأنها في حال لا يُمَكّنها من القبول والفهم، فلما جاءته وكانت في نفسية غير نفسيتها الأولى، أقبل عليها الرسول ﷺ يعظها ويعلمها ولا يعاتبها.

ومثل ذلك ما روي أن شابا جاء إلى النبي ﷺ فقال: ائذن لي بالزنى، فأقبل القوم

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

عليه، فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: ادنه فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم قال أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحَصِّن فَرْجَه قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء(1).

انظر كيف أدرك رسول الله ﷺ حالته الخاصة، فلقد كان يتصارع في نفس الشاب شهوة عارمة، وإيمان صادق، ولم ير الشاب ـ وقتئذ ـ حلاً لهذا الصراع، وَفَضًّا لهذا النزاع.. إلا إذناً من النبي ﷺ يتجاوز به حدود الشرع.. فأدرك النبي ﷺ حال الشاب، فلم يتوجه إليه بموعظة إيمانية، فضلاً عن أن يُعنِّفه أو يُوَبِّخه أو يطرده، بل راح يُذَكِّرُهُ بما في هذا العمل من مفسدة أخلاقية عظيمة.. تستبشعها الفطر السليمة، وتستقبحها النفوس العفيفة..

قلت: ألا ترى أن قوله ﷺ:(أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود)(2) مما يمكن أن يدخل هذا الباب؟

قال: بورك فيك.. أجل.. فهذ الحديث يدل على أنه إذا سقط من عُرِفَ عنه التُّقى، أو الوجاهة، في زلة أن يُعفى عنه، ويُغض الطرف عن زلته..

قلت: لقد ذكرتني بما ورد من إكرام رسول الله ﷺ عدي بن حاتم الطائي لما قدم إليه.. فقد قدم له وسادة إكراماً له، فهو ابن كريم مشهور(3).

قال: الأمثلة في هذا أكثر من أن تنحصر.. وقد أشار إلى قاعدتها وقاعدة هذا الباب جميعا قوله ﷺ:(أنزلوا الناس منازلهم)(4)

الحاجات:

قلت: وعيت ما ذكرته في الخانة الرابعة.. فما (الحاجات) التي وضعتها في الخانة الخامسة؟

قال: كما أن البشر يختلفون في طباعهم التي طبعوا عليها، ويختلفون في قدراتهم، ويختلفون في توجهاتهم، ويختلفون في أحوالهم، يختلفون كذلك في الحاجات التي تعرض لهم..

---

1) رواه أحمد واللفظ له، والطبراني في الكبير وفي مسند الشاميين.

2) رواه أبو داود وأحمد والبيهقي في السنن.

3) رواه الترمذي وأحمد.

4) ذكره مسلم في المقدمة، ورواه أبو داود.

وليس من الحكمة أن يتجاهل الحكيم تلك الحاجات أثناء خطابه لهم..

قلت: ما هذه الحاجات؟

قال: الحاجات كثيرة.. فقد يكون المخاطب مريضا يحتاج إلى العلاج.. وقد يكون جائعا محتاجا إلى طعام.. وقد يكون ظمآن.. وهكذا.. ومما يدل على هذا أن النبي ﷺ كان يأمر الأئمة أن يخففوا من الصلاة، معللاً ذلك بقوله:(أيها الناس إنكم منفرون، فمن صلّى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة)(1)

قلت: لقد فهمت.. إن النبي ﷺ في هذا الحديث يأمرنا بأن نراعي الحاجات المختلفة، ونتعامل مع أصحابه على أساسها.

قال: صدقت.. فلا ينبغي للحكيم الداعية إلى الله أن يغفل عن حاجات الناس المختلفة.

الأعراف:

قلت: وعيت ما ذكرته في الخانة الخامسة.. فما (الأعراف) التي وضعتها في الخانة السادسة؟

قال: كما أن البشر يختلفون في طباعهم التي طبعوا عليها، ويختلفون في قدراتهم، ويختلفون في توجهاتهم، ويختلفون في أحوالهم، ويختلفون في الحاجات التي تعرض لهم، يختلفون كذلك في الأعراف التي تؤمن بها البيئات التي نشأوا فيها.. بل تذعن لها.

وليس من الحكمة أن يتجاهل الحكيم تلك الأعراف أثناء خطابه لهم..

قلت: ولكن الأعراف قد تكون أعراف سوء.. والداعية إلى الله السائر على قدم رسول الله ﷺ مكلف بتطهير البيئات منها لا بإقرارها..

قال: لقد وضعت في هذه الخانة ثلاثة أنواع من الأعراف.. وكلها مما يحتاج الحكيم للتعرف عليه، ومعاملة المخاطبين على أساسه.

قلت: فما **النوع الأول**؟

قال: ما ذكرت من العادات السيئة والأعراف القبيحة..

قلت: فما العمل مع هذا النوع من الأعراف.. هل يقرهم الحكيم عليه؟

قال: لا.. الحكيم لا يقر حراما..

قلت: إذن هو يسعى لتغييره.

قال: بما تقتضيه الحكمة.. لا بما يقتضيه الطيش.

1) رواه البخاري ومسلم.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: الحكيم يتعامل مع مثل هذه الأدواء مثلما يتعامل الجراح الماهر مع ما يريد استئصاله من الأدواء.. فهو يتلمس لذلك كل سبل الحكمة.. بينما الطائش لا يبالي بما يفعل، وقد يقتل المريض بطيشه.

قلت: فهل يمكن أن تضرب لي أمثلة عن هذا النوع من الأعراف؟

قال: إن في بلادنا أعرافا كثيرة متوارثة.. ولها تحكم في الكثير من الناس.. ولم أر من الحكمة أن نستعجل بالإنكار عليها.. بل رأيت أن الأولى هو تقديم القناعات الكافية التي تجعل أصحاب هذا النوع من الأعراف يقلعون عنها من غير شعور.

قلت: أليس السكوت عن البيان وقت الحاجة لا يجوز؟

قال: لكل حاجة وقتها ومرتبتها.. ولا يصح أن نخترق المراحل.. أو نبدل الأوقات..

قلت: فهل لذلك دليل من السنة؟

قال: أدلة ذلك لا تحصى.. لقد جاء النبي ﷺ إلى بيئة كانت ممتلئة بالعادات القبيحة.. أخبرني كيف كانت عقود الزواج في تلك البيئة التي جاءها النبي ﷺ؟

قلت: لقد كانت عقود الزواج فيها أكثرها عقود سفاح(1).

قال: فهل رأيت النبي ﷺ من خلال ما ورد في السيرة.. أو من خلال ما ورد في القرآن المكي يتحدث عن هذه القضايا، ويركز عليها، ويجعلها محط اهتمامه؟

قلت: لا.. ولولا أن المحدثين ذكروها في أسباب نزول بعض آيات المدنية ما عرفنا ذلك.

قال: لقد كان النبي ﷺ حكيما في تعامله مع البيئة التي كلف بإصلاحها.. لقد بدأ بالمحرك الذي يتحرك من خلاله كل سلوك إنساني، فأصلحه.. فلما أصلحه صلح الإنسان جميعا..

قلت: فما **النوع الثاني**؟

قال: على عكس هذا.. عادات طيبة متوارثة.. كالكرم والمروءة، وإغاثة الملهوف، والتعاون في حاجات المجتمع، وما شابه ذلك.

قلت: لقد كفى هؤلاء شرهم.. فما حاجتهم للحكيم؟

قال: الحكيم هو الذي يعتني ببذور الخير الموجودة في هذه النفوس والمجتمعات ليخرج منها الثمار اليانعة الطيبة.

---

1) فقد ورد أن الزواج كان عندهم على أنواع: منها نكاح الاستبضاع.. وغيرها، رواه البخاري وغيره.

قلت: فهل ورد في النصوص المقدسة ما يشير إلى هذه؟

قال: أجل.. فنحن بحمد الله لا نستقي إلا من بحار النصوص المقدسة.

قلت: فاذكر لي أمثلة على ذلك.

قال: من أمثلة ذلك أن القرآن الكريم أثنى على بعض العادات الطيبة عند أهل الكتاب، فقال ـ مثلا ـ: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:75).. فهذه الآية تثني على الوفاء عند بعض من أهل الكتاب.. ولم يمنع كفرهم من الثناء عليهم.

قلت: وعيت هذا.. فهل ورد في السنة ما يشير إليه؟

قال: لقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ أثنى على بعض أفعال الجاهلية، ومن ذلك ثناؤه على التحالف الذي كانوا يفعلونه على عمل الصالحات، كحلف المطيَّبين(1)، وحلف الفَضول(2)، فقال ﷺ:(شهدت حلف المطيَّبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حُمْرَ النَّعَمِ، وأني أنكثه)(3)

قلت: فما **النوع الثالث**؟

قال: بين هذا وذاك.. عادات سكت عنها الشرع، فلم يحرمها ولم يوجبها.. وقد ترك الشرع هذه المساحة عفوا..

قلت: مثل ماذا؟

قال: مثل ما اعتاده الناس في أطعمتهم وألبستهم وولائمهم وأفراحهم، وأدويتهم، وطرق بنائهم، وما شابه ذلك..

قلت: وما حاجة الحكيم لهذا؟

قال: ألا تعرف المثل الذي يقول (إذا كنت في قوم فاحلب في إنائهم)؟

قلت: بلى.. أعرفه..

قال: فالحكيم هو الذي يطبقه مع مخاطبيه.. فهو يراعي أعرافهم ويحترمها ليكون ذلك سببا في إقبالهم عليه، وانفعالهم له.

---

1) حلف المطيبين: وهو حلف عقد في أيام الجاهلية، وسمّي بهذا لأن المتحالفين طيّبوا الكعبة، وطيّبوا بعضهم، السيرة لابن هشام [1/150]

2) الفضول: هو حلف عقد في الجاهلية، وقيل: سمّي بذلك لأن معظم المتحالفين كانت أسماؤهم (الفضل) السيرة لابن هشام [1/153]

3) رواه أحمد والبيهقي في السنن الكبرى وصححه الحاكم ووافقه الذهبي..

قلت: فهل لذلك أمثلة؟

قال: بل ترك النبي ﷺ لذلك قاعدة لها تحكم في كثير من فـروع الأحكـام.. لقـد قـال ﷺ في هذا: (أنتم أعلم بأمر دنياكم)[1]

1) رواه مسلم.

مراتب الخطاب

وضعت الدفتر الأول في محله، ثم فتحت الدفتر الثاني، وكان عنوانه (مراتب الخطاب).. وقد زين غلافه بقوله تعالى:﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:177)،وتحتها قوله تعالى:﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة:189)

قلت: أهذا الدفتر ـ مثل الذي سبقه ـ وضعته لأسماء من تريد أن تخاطبهم؟

قال: لا.. لقد وضعت في هذا الدفتر المعاني التي أريد أن أخاطب بها من أرى نفسي ملزما بدعوتهم إلى الله.

قلت: الدعوة تشمل الإسلام جميعا بجميع ما ورد فيه من تفاصيل..

قال: والحكيم هو الذي يضع تفاصيل أحكام الإسلام في مراتبها الصحيحة.. فلا يتجاوز مرتبة قبل أن يحكم التي قبلها.

قلت: لم أفهم.

قال: بم وصى رسول الله ﷺ معاذا حين بعثه إلى اليمن؟

قلت: لقد قال له:(إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم)(1)

قال: ألا ترى كيف رتب ﷺ المواضيع التي أراد من معاذا أن يدعو إليها؟

قلت: ذلك صحيح..

قال: أرأيت لو أن معاذا خلط هذا الترتيب.. فبدأ بالزكاة.. كيف سيتصوره الناس حينها؟

قلت: سيرونه جابيا أو لصا.

قال: فلهذا أمره رسول الله ﷺ أن يعمق الإيمان في قلوبهم أولا، فإن هم آمنوا أمرهم بالصلاة التي هي عبادة محضة.. فإن هم فعلوا، وزينت قلوبهم بحلاوة العبادة أمرهم حينها بالزكاة والصدقات.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

قلت: نعم.. هذا ما تقتضيه الحكمة..

الإيمان:

فتحت الدفتر، وكان أول عبارة قابلتني فيه (الإيمان قبل العمل)، فسألته عنها، فقال: لقد تأملت ما ورد في النصوص حول مرتبتي الإيمان والعمل.. فوجدتها جميعا تنص على تقديم الإيمان على العمل.. فالله تعالى يقول ـ مثلا ـ:﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾ (النساء: 39).. فقد قدم الله في هذه الآية الإيمان على النفقات..

قلت: أحفظ من ذلك الكثير.. فقد قدم الله تعالى الإيمان على الجهاد في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة:86)

وقدمه على أدب الاستئذان في قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:62)

وقدمه على النفقات في قوله تعالى:﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد:7)

قال: وهكذا.. لقد وجدت القرآن في كل المناسبات يرتب الإيمان قبل العمل، فهو يخاطب المؤمنين بالتكاليف بحسب ما عندهم من الإيمان، فيقول ـ مثلا ـ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:183)، ويقول:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة:208)

فهذا النداء المرتبط بالإيمان كأنه يقول للمخاطبين: ما دمتم قد تحققتم بالإيمان، وامتلأتم به، فإن ذلك يفرض عليكم أن تلتزموا بالسلوك الذي يقتضيه الإيمان.

وهكذا في تعليل أسباب دخول الكفار إلى جهنم، فقد قيد الإيمان على العمل، فقال تعالى:﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34﴾ (الحاقة)

قلت: صدقت.. بل إن القرآن يحدد الإيمان كشرط لإمكانية التحقق بالعمل، كما قال تعالى ـ مثلا ـ:﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:232).. فكأن الله تعالى يقول في هذه الآية: إن من لم يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه لن يتأثر بموعظة، ولن يستجيب لطلب.. ويكون حاله في ذلك كحال الكافرين في قولهم لأنبيائهم:﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (الشعراء: 136)

ومثل ذلك ما ورد في السنة كقوله ﷺ:(من كان يؤمن بالـه واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليسكت)(1)، وقوله ﷺ:(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليسكت)(2)، وقوله ﷺ:(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً، أو ليصمت) (3)

فقد اعتبر ﷺ في هذه الأحاديث الإيمان بالله واليوم الآخر هو الأساس الذي تنبني عليه تلك المكارم التي حض عليها.

قال: ولهذا.. فإن النبي ﷺ مكث في قومه ثلاث عشرة سنة، يدعوهم إلى الإيمان، ويُربِّيهم عليه، دون أن يتعرض لمعظم الأحكام، أو ينهى عن معظم المحرمات.. مع أنه كان من أصحابه في ذلك الوقت من يمارس ما عُدّ بعد ذلك من الكبائر، كالخمر، والميسر وما شابه ذلك، ولم ينههم عنها ﷺ.

قلت: أجل.. فمن المشهور أن الخمر لم ينزل تحريمها إلا بعد ثلاث سنوات خَلَوْنَ من هجرته ﷺ إلى المدينة.

قال: ولذلك كان لذلك النهي تأثيره الكبير الذي لم يكن ليحدث لو لم تفرش تلك الأرضية الصحيحة من الإيمان..

قلت: لقد ورد في الحديث ما يدل على تأثير ذلك النهي في المسلمين، فقد حدث أنس قال: كان لنا خمر غير فَضِيخِكُم هذا الذي تسمونه الفَضِيخ(4)، فإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وماذاك؟ قال: حرمت الخمر، قالوا: أهرق هذه القلاس يا أنس، قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل(5).

قال: وهكذا استقبل النساء الأمر بالحجاب..

قلت: أجل.. لقد حدثت عائشة قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأُول لما أنزل الله: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ عَلَىَ جُيُوبِهِنّ﴾ (النور: 31)، شققن مُرُوطَهُنَّ، فاختمرن بها)(6)

قال: أتدري ما الثمرة التي ينالها من قدم الدعوة إلى العمل على الإيمان؟

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مسلم بهذا اللفظ، وروى البخاري بعضه.

3) رواه البخاري ومسلم.

4) الفضيخ: شراب يتخذ من البسر (التمر قبل أن يصبح رطباً ويسمى بلحاً) وحده من غير أن تمسه النار. انظر لسان العرب(3/45)

5) رواه البخاري ومسلم.

6) رواه البخاري.

قلت: هو لن ينال أي ثمرة.. فيستحيل على من لم يؤمن أن يخضع للتكاليف.

قال: الأصل هو ما قلت.. ولكنه بنوع من الهمة والاجتهاد قد ينال بعض الثمار.. ولكنها ثمار مرة سامة.. لقد عبر الله عن تلك الثمار، فقال: إِنّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوَاْ إِلَى الصّلاَةِ قَامُواْ كُسالىَ يُرَآءُونَ النّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاّ قَلِيلاً مّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَىَ هَـَؤُلآءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلآءِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (النساء: 142-143)

قلت: تقصد النفاق؟

قال: هكذا سماه القرآن.. فالمنافق هو الذي يتحرك بالحركات الظاهرة.. ولكن باطنه المقصود بتلك الحركات خاو منها.. ولهذا ذكر الله تعالى أنهم يقومون كسالى لأداء أوامر ربهم، ثم هم لا يقصدون بأدائها إلا الرياء والسمعة.

قلت: فهمت سر الرياء.. فما سر الكسل؟

قال: أرأيت لو أن الكسول النائم المستحلي لنومه عرض في السرير الذي ينام عليه حريق.. هل تراه يبقى نائما، أم تراه يسرع فارا بنشاط وحيوية؟

قلت: بل أراه يسرع فارا بنشاط وحيوية.

قال: لم؟

قلت: إن ما يراه من نار تريد أن تلتهمه يجعله يطير من غير جناحين.

قال: فإن لم ير النار في تلك الحال، ولكن ثقة أخبره بأن حريقا سينزل بتلك الدار على تلك الساعة التي ينام فيها.. أتراه يظل نائما؟

قلت: لا.. فالأمر في الحالين سواء.

قال: فالإيمان هو الذي جعله يتحرك إذن بذلك النشاط.. فلولا الإيمان ما حدثت حركة جادة في الوجود كله.. لا في عالم الإنسان وحده.

قلت: لقد ذكرتني بقوله تعالى: وَاسْتَعِينُواْ بِالصّبْرِ وَالصّلاَةِ وَإِنّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الّذِينَ يَظُنّونَ أَنّهُم مّلاَقُواْ رَبّهِمْ وَأَنّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (البقرة: 45-46)، فالله تعالى يخبرنا ـ في هاتين الآيتين ـ أن أداء الصلاة شاق على الذين لا يؤمنون بها، ولا يخشعون فيها، وذلك لفقدان الإيمان بالعبادة المؤداة.

قال: قارن بين هذا وبين قوله ﷺ: (جُعلت قرّة عيني في الصلاة)(1)

قلت: وقد كان ﷺ يقول لبلال ـ إذا حان وقت الصلاة ـ: (أرحنا بها يا بلال)(2)

---

1) رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.

2) رواه أبو داوود والطبراني في الكبير.

قال: وفوق هذا كله فإن الدعوة إلى الإيمـان قبـل الـدعوة للأحكـام نـوع من مضيـعة الوقت.. ذلك أن الإيمان شرطٌ لقبول العمـل، فلا يصـح عمـل بلا إيمـان، كمـا قـال تعـالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ (الأنبياء: 94)

قلت: ولأجل هذا كان رسول الله ﷺ يذكر بالإيمـان في كـل مناسـبة، كقولـه ﷺ:(من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)(1)، وقوله ـ للرجل الذي قال لـه: يـا رسول الله مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحدا بعدك ـ:(قـل آمنت باللـه، ثم اسـتقم)(2)

لقد أشار القرآن الكريم إلى معـنى هـذا الحـديث، فقـال:(إِنَّ الَّذِينَ قَـالُوا رَبُّنَـا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَـافُوا وَلا تَحْزَنُـوا وَأَبْشِـرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَـدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نــزلا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (فصلت: 30 -31)

الإلهيات:

رأيت مراتب كثـيرة تحت (الإيمـان).. وهي مرتبـة بمـراتب مختلفـة، فقلت: مـا هـذه المراتب.. أحسب الإيمان شيئا واحدا، فكيف عددت مراتبه؟

قـال: في قضـايا الإيمـان أصـول وفـروع.. وليس من الحكمـة أن أبـدأ بـالفروع قبـل الأصول.. وفي الإيمان متفق عليه ومختلف فيه.. وليس من الحكمة أن أبدأ بـالمختلف فيـه قبل المتفق عليه.

قلت: ألم تقوله تأصيل شرعي، أم هو مجرد اجتهاد؟

قال: ما كان لعقلي أن يجتهد في أمر خطير كهـذا.. إن هـذا مـا تـدل عليـه النصـوص الصريحة القطعية.. فالله تعـالى رتب مـراتب الإيمـان وأصـوله فقـال:﴿ لَيْسَ الْبِـرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَلَكِنَّ الْبِـرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَالْمَلائِكَـةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (البقرة: 177)، وقال:﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْـزِلَ إِلَيْـهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُـونَ كُـلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:285)، وقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا آمِنُـوا بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَالْكِتَـابِ الَّذِي نَـزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً﴾ (النساء: 136)

وذكر ﷺ الأركان الأساسية للإيمـان، فقـال:(الإيمـان: أن تـؤمن باللـه وملائكتـه وكتبـه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان وتؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره)(3)

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه النسائي والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

3) رواه النسائي، والطبراني في الكبير.

قلت: ألهذا وضعت **الإلهيات** قبل النبوات، ووضعت النبوات قبل السمعيات؟

قال: أجل.. فلا يمكن أن ندعو إلى النبوة قبل أن نعرف بالله.. إن تعريف (رسول الله) لا يستقيم إلا بعد التعريف بالله.. والإيمان بالغيبيات لا يستقيم قبل إثبات النبوات.

قلت: الواو في اللغة لا تفيد الترتيب.. فكيف فهمت أنت منها الترتيب؟

قال: أنا أعلم أن كلام الله مفصل تفصيلا عجيبا.. فلذلك لا يقدم ولا يؤخر إلا لغرض.. وقد قال ﷺ مشيرا إلى هذا:(أبدأ بما بدأ الله به)(1)

بالإضافة إلى أني وجدت أن الدعوة للإيمان بالله وتوحيده هي أساس دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ، كما قال تعالى: وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (الزخرف:45)، وقال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (الانبياء:25)

وقد ذكر الله تعالى عن كل من الرسل ـ عليهم السلام ـ أنهم افتتحوا دعوتهم بتوحيد الله، قال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (لأعراف: 59)، وقال تعالى: وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (لأعراف:65)، وقال تعالى: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (لأعراف: 73)، وقال تعالى: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (لأعراف: 85)

ولهذا كان التوحيد هو أول ما يُدخل به إلى الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال ﷺ:(من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)(2)

ولهذا كان من سنة رسول الله ﷺ التأذين في أذن المولود، ليكون أول ما يسمعه توحيد الله، وقد كانت أم سليم الرميصاء أم أنس بن مالك خادم الرسول ﷺ أسلمت وكان أنس صغيراً، لم يفطم بعد، فجعلت تلقن أنساً قل: لا إله إلا الله، قل أشهد أن لا إله إلا الله، ففعل، فيقول لها أبوه: لا تفسدي على ابني فتقول: إني لا أفسده(3).

قلت: أراك وضعت قائمة بأسماء الله الحسنى، ومراتبها..

قال: أجل.. إن أسماء الله الحسنى هي المعارف التي أذن الله فيها لوسائل إدراكنا البسيطة أن تتعرف بها على كمالات الألوهية، وهي لذلك من الأهمية بحيث لا يمكن مقارنتها بأي معرفة من المعارف الأخرى، لأن كل ما في الكون أثر من آثار أسماء الله.

وهي لذلك أبواب علاقتنا بالله، لأن لكل اسم من أسماء الله دلالته الخاصة التي تتطلب عبوديته الخاصة.

---

1) رواه مسلم.

2) رواه أحمد وأبو داود والحاكم.

3(1) سير أعلام النبلاء 2/305.

ولهذا أمرنا الله تعالى أن ندعوه بأسمائه الحسنى، مستشفعين بها إليه، ومتوسطين بها لديه، كما قال تعالى: وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (الأعراف: 180)

قلت: صدقت في هذا.. فالدعاء ـ في أصله ـ مقتضى من مقتضيات المعرفة بالله، فالمعرفة بأسماء الله هي التي تدعو إلى الثقة فيه، وهي التي تدعو إلى سؤاله، وقد أشار ابن عقيل إلى سر الصلة بين الدعاء وأسماء الله الحسنى، فقال:(قد ندب الله تعالى إلى الدعاء، وفي ذلك معانٍ: أحدها: الوجود، فإن من ليس بموجود لا يُدعى، الثاني: الغنى، فإن الفقير لا يُدعى، الثالث: السمع، فإن الأصم لا يُدعى، الرابع: الكرم، فإن البخيل لا يُدعى، الخامس: الرحمة، فإن القاسي لا يُدعى، السادس: القدرة، فإن العاجز لا يُدعى)

قال: وهكذا لو ذهبنا نعد مع ابن عقيل لوجدنا أن أسماء الله تعالى تقتضي رفع أيدينا إليه بالسؤال، بل إفراده في هذا الرفع.. ولهذا نرى امتزاج أدعيته ﷺ بأسماء الله..

قلت: أجل.. ومما أحفظه من ذلك أن رسول الله ﷺ كان جالسا ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، فقال النبي ﷺ:(لقد دعا الله باسمه العظيم)(1)

وقد علم ﷺ من أصابه هم أو حزن أن يقول:(اللهم إني عبدك، ابن عبدك ابن أمتك في قبضتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب غمي)(2)، ثم بين أثر ذلك في نفسه، فقال:(فما قالها عبد قط إلا أبدله الله بحزنه فرحا)

قال: إن تأثير الدعوة إلى هذه الأسماء ليس مقتصرا على الدعاء فقط.. بل إن لها تأثيرا تربويا عظيما.. إنها تغير الإنسان كله.

قلت: لقد ذكرتني بقول العز بن عبد السلام:(فهم معاني أسماء الله تعالى وسيلة إلى معاملته بثمراتها من: الخوف، والرجاء، والمهابة، والمحبة، والتوكل، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات)(3)

ويقول مفصلا أسباب ذلك:(ذكرُ الله بأوصاف الجمال موجب للرحمة، وبأوصاف الكمال موجب للمهابة، وبالتوّحد بالأفعال موجب للتوكل، وبسعة الرحمة موجب للرجاء، وبشدة النقمة موجب للخوف، وبالتفرّد بالإنعام موجب للشكر)

وقد اهتم الغزالي في كتابه الجليل (المقصد الأسنى) بالبعد التربوي لأسماء الله الحسنى، فكان يذكر عند نهاية شرح كل اسم حظ العبد السلوكي منه، فهو يعتبر ولكل

---

1) رواه أحمد وأبو داود، والترمذي، والنسائي وابن ماجة وغيرهم.

2) رواه ابن السني وابن حبان عن ابن مسعود.

3) شجرة المعارف والأحوال، ص 1.

صفة من صفات الله تعالى أو اسم من أسمائه أثره الخاص به، والذي لا يمكن للإنسان الحصول عليه إذا لم يستولي على قلبه معنى ذلك الاسم او تلك الصفة، وهو معنى الإحصاء الذي ورد في قوله ﷺ:(إن لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة)(1)

قلت: لم أرك تذكر في هذا الباب ما يطنب الكثير في الدعوة إليه من..

قال: دعنا من لغوهم.. فلسنا أعرف بالله من رسول الله ﷺ..

قلت: ولكنهم يقتبسون ما يذكرونه من رسول الله ﷺ..

قال: بم أمر الله نبيه ﷺ أن ينبئ عباده؟

قلت: لقد قال له:﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50﴾ (الحجر)

قال: فهل في أسماء الله الحسنى (ذو الساق.. وذو اليد..)؟

قلت: لا.. ولا ينبغي أن يسمى الله إلا بما سمى به نفسه.. ولكنهم يعتبرون ذلك صفات ولا يعتبرونه أسماء.

قال: فأين كلمة (صفات الله) في القرآن الكريم أو في سنة رسول الله ﷺ..

قلت: لا أحفظ نصا في ذلك.

قال: ولا يوجد نص في ذلك.. إن المعرفة التي طولبنا بها هي معرفة الله بأسمائه الحسنى.. أما ما عداها.. فعقولنا أعجز من أن تحيط به أو تدركه.. ولذلك نفوض لله علم ما لا نعلم، ولا نشغل عقول العوام الغارقة في التشبيه في مثله.

النبوات:

رأيته في المرتبة الكبرى الثانية من مراتب الإيمان يضع **النبوات**.. فسألته عنها، فقال: إن النبوات هي العنصر الثاني من الأركان الأساسية للإيمان، ولذلك امتلأت آيات القرآن الكريم بالثناء عليهم وذكر قصصهم وأحوالهم لتملأ القلوب محبة لهم وإجلالا، وتشحن الطاقات قدوة وسلوكا، فيعيش المؤمن في صحبتهم، ويترفع من خلالها إلى الآفاق العليا من الكمال الإنساني.

قال: ولذلك كان رسول الله ﷺ يحبب الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إلي أمته، ويقص عليهم قصصهم.. بل يصف لهم أحيانا صورهم لتقريب ما يصفه القرآن الكريم من أحوالهم، قال :(رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم فأما عيسى فابيض جعد عريض الصدر وأما موسى فآدم جسيم قالوا فابراهيم قال انظروا إلى صاحبكم)(2)، وقال :(رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلا طوالا جعدا كأنه من رجال شنؤة ورأيت عيسى بن

1) الترمذي وابن ماجة.

مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأي)

قال: لقد كان رسول الله ﷺ يعلم التأثير التربوي العظيم الذي يحمله الإيمان بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.. لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا، فقال: أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ (الأنعام: 90)

قلت: لقد ظللت دهرا أبحث عن سر هذا.. فالنبي ﷺ في منتهى الكمال، فكيف يؤمر بالاقتداء بالأنبياء ـ عليهم الصلاة ـ.. أيؤمر الفاضل بالاقتداء بالمفضول؟

قال: ليس في هذا الباب فاضل ولا مفضول.. فالسلوك الطيب يمثل معناه ولا يمثل شخص من سلكه.. فسلوك الكرم الذي اشتهر به حاتم كان داعية للكرم ولم يكن داعية لحاتم.

قلت: فلم لم يكتف بالأمر بالمعاني، بل رأينا الله تعالى يأمرنا بالاقتداء بمن تلبس بها؟

قال: ذلك يرجع إلى أن المعارف تظل أرواحا مجردة قد لا تجد من يلتفت إليها حتى تجد الأجساد الطاهرة التي تمثلها، فتخرج من عالم المثال إلى عالم الواقع.

وكمثال على ذلك تمثيل الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لدور التجرد والإخلاص في التعامل مع الله، وهذا ما تبرهن عليه خطبهم لأقوامهم في القرآن الكريم، والتي يحرص القرآن الكريم على ذكرها وتكرارها لتصبح في محل نظر المقتدي، فلا يتيه بالحوادث عن مواضع القدوة، قال تعالى على ألسنتهم: يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (هود:51)

ولهذا أمر رسول الله ﷺ أن يردد أقوالهم، اقتداء بهم فقال تعالى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (الفرقان: 57)

ولهذا كان ﷺ يستحضر مواقف الأنبياء ليعيد إحياءها من جديد، فكان يستحضر في المواقف المختلفة ما حصل لإخوانه من الأنبياء، عن عبد اللّه بن مسعود قال: قسم رسول اللّه ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه اللّه، قال، فقلت: يا عدو اللّه أما لأخبرن رسول اللّه ﷺ بما قلت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال:(رحمة اللّه على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)(1)

وفي موقف آخر قال ﷺ:(أقول كما قال أخي يوسف: لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (يوسف: 92))(2)

وقد استدل ابن عباس بهذا على مشروعية سجدة سورة ص، فعن العوام قال:

---

2) البخاري:4/22.

1) رواه البخاري ومسلم وأحمد، واللفظ لأحمد.

2) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب ابن السني في عمل يوم وليلة.

سألت مجاهداً عن سجدة (ص) فقال: سألت ابن عباس من أين سجدت؟ فقال: أوما تقرأ: ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ (الأنعام: 84)، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: 90)؟ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود عليه الصلاة والسلام، فسجدها رسول اللّه ﷺ)[1]

قلت: إن بعضهم لا يذكر الأنبياء إلا ويذكر معهم من الخطايا ما يندى له الجبين.

قال: أولئك حجب.. فلا تلتفت للحجب..

قلت: كيف تقول هذا.. وهذا قد ذكر في كتب التفسير والحديث.. بل اعتبر الكلام فيه من الكتاب والسنة.

قال: ذلك دين كعب الأحبار ووهب بن منبه.. لا دين محمد ﷺ.. فمن رغب في دين محمد ﷺ فعليه أن يصفي عقله وقلبه وروحه وسره من كل تأثير غير التأثير الذي دعاه إليه نبيه ﷺ.

الغيبيات:

قلت: أرك وضعت الإيمان **بعوالم الغيب** في المرتبة الأخيرة..

قال: أجل.. لأنه لا يمكنك أن تدعو للإيمان بالملائكة قبل أن تدعو لله ولرسول الله.

قلت: وعيت أنه لا يمكن الدعوة للملائكة قبل الدعوة لله.. ولكن لم لم يمكن الدعوة للملائكة قبل الدعوة لرسل الله؟

قال: لأنه لولا رسل الله ما عرفنا الملائكة.. إن العلماء يسمون هذا الباب من العقائد (السمعيات).. ذلك أنه يكتفى فيها بالأدلة المعصومة، ويعزل العقل عن البت فيها بقول أو بدليل إلا دليل الإمكان.

قلت: أجل.. وقد قال تعالى بعد ذكر كثير من الأخبار والقصص: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران:44)، وقال:﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود:49)، وقال:﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف:102)، وقال:﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الكهف: 26)

قال: ولهذا الإيمان تأثيره النفسي والتربوي الكبير على الإنسان.. إنه ينقله من عالم البهيمية الذي تلقيه فيه غرائزه وأهواؤه إلى عالم الإنسانية الرفيع..

قلت: إن بعض الناس يمزجون الحديث بعالم الغيب بقصص هي أقرب إلى الأساطير

---

1) البخاري.

منها إلى الحقائق[2]؟

قال: عالم الغيب هو العالم الذي وردت النصوص المعصومة بالإخبار عنه، أما ما عداه فعالم خرافة.

قلت: ولكن تفاصيله مبثوثة في كتب العقيدة والتفسير والحديث والفقه؟

قال: كتبة تلك الكتب بشر.. يخطئون ويصيبون.. فخذ بصوابهم، واحذر من خطئهم.

قلت: فكيف أميز صوابهم من خطئهم؟

قال: ما جاءك من المعصوم، فهو معصوم.. وما جاءك من غيره، فخذ منه ودع.

قلت: فما آخذ، وما أدع؟

قال: ما دل عليه العقل.. فخذه.. وما لم يدل عليه، فدعه.

قلت: أأقدم عقلي على دين الله.

قال: لقد خلق الله لنا العقول لنميز بها الطيب من الخبيث والحق من الباطل، ولم يخلقها لنا لنودعها سجون الإهمال.

العمل:

بعد أن انتهيت من سرد مراتب الإيمان على لقمان الحكيم وشرحها لي.. وجدت مرتبة العمل، فسألته عنها، فقال: إذا باشر الإيمان القلب هان عليك أن تكلفه التكاليف.. بل إن المدعو نفسه هو الذي يرغب إليك في أن تعمله ما كلفه به ربه.. فيؤديه عن طواعية ومحبة.

العبادات:

رأيته وضع في المرتبة الأولى (**العبادات**).. فسألته عنها، فقال: إن أول ما يبدأ به الداعية إلى الله في تقريب العباد إلى الله هو الدعوة إلى عبادة الله.. فإنه لا يثبت الإيمان في القلوب كالعبادات..

قلت: والسلوك!؟

---

2) والأمثلة على دخول الخرافة هذه العوالم الغيبية كثيرة، منها ــ مثلا ــ الخرافات التي نسجت حول الملائكة الموكلين بالعرش ـ عليهم السلام ــ والتي تلبست بلباس الحديث الشريف، فذكرت أنهم (ثمانية أملاك على صورة الأوعال)، وأن (لكل ملك منهم أربعة أوجه وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر وكل وجه منها يسأل الله الرزق لذلك الجنس)، و(أن فوق السماء السابعة ثمانية أو عال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء وفوق ظهورهن العرش)

وقد رويت هذه الأساطير ـ للأسف ـ في كتب التفسير المعتمدة، وهي مما يحرص العامة على مثله، وهي خرافات لا حظ لها من العلم، ولا حظ لراويها وملفقها من الذوق، وقد رد عليها ـ بحمد الله ـ الشيخ محمد زاهد الكوثري، برسالة سماها « فصل المقال في بحث الأوعال) أو (فصل المقال في تمحيص أحدوثة الأوعال)، فذكر المصادر التي أخرجت هذه النصوص وتتبع أقوالهم تمحيصا وتحليلا وانتهى إلى أنّها أقاصيص دخيلة لا أصل لها.

قال: كما أن الإيمان يمهد للعبادة.. فإن العبادة تمهد للسلوك.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:45)، وقال: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة:103)

وقال ﷺ: (صوم ثلاثة أيام من الشهر تذهب وحر الصدر)(1)

وقال:(الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن، أو تملأ مابين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها)(2)

قلت: تعلمت أن أبدأ الدعوة للإيمان من الإيمان بالله، فمن أين أبدأ الدعوة للعبادات؟

قال: بم أمرنا رسول الله ﷺ أن نبدأ.. فقد علمنا سيد الحكماء كيف نرتب الأمور في مراتبها، وكيف لا نعدو بها منازلها.. لقد حدث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: (إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب)(3)

وما ذكره ﷺ هو ما تدل عليه النصوص الكثيرة الدالة على أن أول ما بدأ به رسول الله ﷺ تربية أصحابه هو تربيتهم على إقامة الصلاة.. ومن ذلك ما ورد في سورة المزمل ـ وهي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم ـ من الأمر بالصلاة، ومن الإخبار بحرص رسول الله ﷺ الصحابة عليها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المزمل:20)

الأخلاق:

بعد مرتبة (العبادات) وجدت مرتبة (الأخلاق)، فسألته عنها، فقال: إن من عرفته بالله، وعلمته كيف يعبد الله لن يصعب عليك أن تدعوه لمكارم الأخلاق..

قلت: لم.. ولم لم نبدأ بالدعوة لمكارم الأخلاق؟

---

1) رواه أحمد والنسائي في السنن وفي الكبرى.

2) رواه مسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

قال: إن الأخلاق بجميع فروعها تستدعي قوة إيمانية عالية.. لأنها تستدعي ثبات داعي الحـق أمـام داعي الهـوى.. ولا يمكن لـداعي الهـوى أن يـدحر ويهـزم إلا إذا قاومـه داعي الإيمان.

قلت: ولكني أرى على البعض ـ رغم عدم تدينه ـ من الأخلاق ما ليس للمتدينين؟

قال: صدقت.. هناك من فطر على كثير من الأخلاق الطيبة، أو ربي عليهـا، وقـد قـال ﷺ في هذا لبعض أصحابه:(إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)(1).. ومثل ذلك أخبر ﷺ عن معادن النـاس، فقـال:(تجـدون النـاس معـادن: خيـارهم في الجاهليـة خيـارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خيار الناس في هذا الشـأن أشـدهم لـه كراهيـةً، وتجـدون شـر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاء بوجهٍ)(2)

قلت: إن هذه النصوص تقضي على ما ذكـرت من الـدعوة للأخلاق.. فـالأخلاق شـيء فطري لا يحتاج إلى التكلف للدعوة إليها؟

قال: إن قولك هذا يشبه قول من يقول: إن الصحة شيء فطري.. ولا حاجة للأطباء.. أترى هذا القول مستقيما؟

قلت: لا.. فقد يمرض الصحيح، وقد يصح المريض.

قال: فكذلك الأخلاق.. فقد ينحرف صاحب الخلق الطيب، وقد يعتـدل صـاحب الخلـق الخبيث..

قلت: فما الذي يرجح الطيبة أو الخبث؟

قـال: الـدعوة.. الـدعوة إلى السـلوك الطيب تنشـر الطيبـة.. والـدعوة إلى السـلوك الخبيث تنشر الخبث..

قلت: أهذه سنة رسول الله ﷺ؟

قال: أجل.. بل إن النبي ﷺ أخبر أن من أساسيات دعوته الدعوة إلى مكارم الأخلاق، فقال:(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)(3)..

وكان يربي أمته على هذا.. فهو ﷺ يعرف البر ـ الذي هـو جـامع خصـال الخـير ــ بأنـه حسن الخلق، فقد روي أن رجلا سأل رسـول اللـه ﷺ عن الـبر والإثم فقـال: (الـبر حسـن الخلق، والإثم: ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس)(4)

---

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه.

4) رواه مسلم.

وبما أن كل مؤمن يود أن يثقل ميزان حسناته يوم القيامة، فقد أخبر ﷺ أنه (ما من شيءٍ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذي)(1)

وبما أن كل مؤمن يود أن يدخل الجنة، فقد أخبر ﷺ عن دور الخلق الحسن في ذلك.. فقد سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: تقوى الله وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: الفم والفرج(2).

وبما أن كل مؤمن يود أن يكون أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ، فقد أخبر ﷺ عن تأثير حسن الخلق في ذلك، فقال:(إن أقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون)(3)

وبما أن كل مؤمن يود أن يكون أكمل المؤمنين إيماناً، فقد أخبر ﷺ عن تأثير حسن الخلق في ذلك، فقال:(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم)(4)

وكان ﷺ يصحح النظرة القاصرة التي تحصر الدين في العبادة المجردة، دون أن تجعل له أي علاقة بالأخلاق.. فكان يقول:(إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)(5)

وروي أنه ذكر لرسول الله ﷺ امرأة تكثر من الصلاة والصيام غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها فقال ﷺ:(هي في النار)(6)

قلت: أعرف ما ورد في النصوص المقدسة من فضائل الخلق الحسن، وأنا لا أسألك عنه الآن، ولا أجادلك فيه.. ولكني أسألك عن مراتب الخطاب.. فكيف عرفت أن الدعوة للأخلاق مرتبة من المراتب السابقة؟

قال: لا شك أنك تعرف حديث جعفر مع النجاشي.

قلت: أجل.. كيف لا أعرف تلك الخطبة الجليلة التي هي من أعظم خطب الدعوة للإسلام.

قال: فماذا قال جعفر للنجاشي؟

قلت: لقد قال له:(: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصناما ونأكل الميتة ونأتي

---

1) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

2) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

3) رواه الطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر بسند ضعيف.

4) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

5) رواه أبو داود.

6) رواه أحمد والبزار وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه.

الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوي الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام).. فعدد عليه أمور الإسلام، ثم قال: (وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى: فعبدنا الله تعالى وحده ولم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم الله علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا إلا نظلم عندك إيها الملك)(1)

قال: بورك في قراءتك للخطبة جميعا، فكلها تبين أهمية الخلق ومدى تأثيره.. ففيها أن خلق النبي ﷺ هو الذي جذب القلوب إليه.. وفيها أن النبي ﷺ كان يدعو إلى الأخلاق.. وفيها أن أساس اختيار النبي ﷺ الحبشة لهجرة أصحابه هو ما كان ينعم به ملكها من حسن الخلق.

الشرائع:

بعد مرتبة (الأخلاق) وجدت مرتبة (الشرائع)، فسألته عنها، فقال: إن من عرفته بالله، وعلمته كيف يعبد الله، ثم ملأته بالحنين للقيم الرفيعة والأخلاق النبيلة، لن يصعب عليه أن يتلقى الشرائع الإلهية.. بل إنه سيتلقاها بطيبة نفس ورحابة صدر.

قلت: فما سر ذلك؟

قال: لأن الشرائع هي التنفيذ العملي لما تتطلبه الأخلاق الكريمة.. ولذلك نحتاج إلى التوعية بقيمة الأخلاق قبل الدعوة للتنفيذ العملي لها.

قلت: اضرب لي مثالا يقرب هذا.

قال: سنة النبي ﷺ في دعوته إلى الله كلها تدل على هذا وتمثل له.. سأضرب لك مثالا عن شريعة مهمة وخطيرة من شرائع الإسلام، وهي شريعة (تحريم الخمر)، وهي الشريعة التي لم يطق أي دين من الأديان ولا قانون من القوانين تنفيذها..

قلت: أجل.. ولكن الإسلام استطاع أن يشرع التشريعات المناسبة لها.. بل قد روي أن المسلمين كانوا هم الذين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يبين لهم في الخمر بيانا شافيا.

قال: لقد حصل ذلك، لأن رسول الله ﷺ بث عن طريق الدعوة إلى الأخلاق الحسنة وعيا عاما بضرورة وضع التشريعات التي تحمي الأخلاق، وتحفظها، وتؤسس لها.. ولذلك صار المخاطبون هم الذين يطالبون بالتشريعات.. لا التشريعات هي التي تريد أن تفرض

1) رواه ابن إسحق وغيره.

نفسها على المخاطبين.

قلت: ألا تضرب لي مثالا يقرب لي هذا؟

قال: أرأيت لو أن مدرسا أراد أن يضيف ساعات دراسة لتلاميذه مع إعطاء الحرية لهم في الحضور وعدمه.. هل تراهم سيحضرون؟

قلت: أما تلاميذ هذا الجيل.. فلا شك أنهم يتمردون عليه.

قال: ولو أنه قدم لذلك بما يملأهم رغبة في العلم وحبا له.

قلت: حينها سيطالبون هم بالساعات الإضافية.

قال: فهكذا يفعل الحكيم.. فهو لا يهجم على الناس بالتشريعات.. بل يدع واقعهم الإيماني والأخلاقي هو الذي يطلب تلك التشريعات.

قلت: إن بعض قومي يركزون في دعوتهم للدين على الدعوة للشرائع.. ولا أراهم يبدأون إلا بالحدود.. حتى توهم البعض أن الإسلام لم يأت إلا ليقطع ويجلد..

قال: أولئك جهلة منفرون.. إن مثلهم مثل من وصف طبيبا حكيما، فقال من غير مقدمات تبين مهنته: هذا رجل لا هم له إلا إسالة دماء من يقصده، وتقطيع أوصالهم.. فهل ترى أحدا من الناس سيقبل عليه؟

قلت: وكيف يقبلون عليه، وقد نفروا منه.. بل خوفوا منه؟

قال: ولو قال لهم: هذا طبيب خبير يستأصل الأدواء، وينعم الله على من يصحبه بالشفاء.. وهو إن اضطر إلى إسالة الدماء، فإنه لا يسيلها إلا ليداوي بها العلل، ويبرئ بها من الأسقام.

قلت: حينذاك سيقبل الجميع عليه.. بل يتوددون له حتى يطهرهم.

قال: وهذا ما فعله رسول الله ﷺ.. لقد بث من الوعي الإيمان والأخلاقي في المجتمع ما جعل المجتمع هو الذي يطالب بتطهيره وإقامة الشرائع عليه.

قلت: وعيت كل ما ذكرته في مراتب الخطاب، ولكن اعتراضا يفرض نفسه..

قاطعني، وقال: تقصد قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً ﴾ (المائدة: 3)؟

قلت: أجل.. فإن ما ذكرته قد يصلح مع من عاش الإسلام في مراحله الأولى.. أما نحن الآن فلسنا في العهد المكي.. ولذلك قد ينهار كل ما ذكرته من مراتب.

قال: لا أقصد بما ذكرته لك أني أريد إعادة إحياء العهد المكي بحروفه وسنواته، فإن ذلك لم يقل به أحد من الناس، ولكني أقصد بأن الأسلوب الذي تعامل به رسول الله ﷺ

مع من دعاهم سواء في المرحلة المكية أو المدنية كله يدل على هذا..

سأذكر لك نصين قد يقربان لك هذا، ويفتحان لك من الآفاق في هذا الباب ما كان منغلقا:

أما أولهما.. فما ورد في حديث وفد ثقيف، فعن وهب قال: سألت جابراً عن شأن ثقيف إذ بايعت، قال: اشترطت على النبي ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبي ﷺ بعد ذلك يقول:(سيتصدقون، ويجاهدون إذا أسلموا)(1)

أما الحديث الثاني، فما حدث به نصر بن عاصم عن رجل منهم: أنه أتى النبي ﷺ، فأسلم على أنه لا يصلي إلا صلاتين فقبل ذلك منه(2).

فالنبي ﷺ في كلا الحديثين تنازل ــ في الظاهر ــ عن بعض الأحكام، ولكنه في الحقيقة يعلم أن من التزم ببعض أحكام الشريعة التزاما صادقا سيؤدي به ذلك على التزام سائر أحكامها.. فالشريعة سلسلة من سلاسل الرحمة يؤدي بعضها إلى بعض لا محالة.

قلت: إن ما ذكرته من الحديثين عظيم.. فهل يمكن القياس عليه؟

قال: قس عليه ما تشاء.. واعلم أن الموت على المعصية خير من الموت على الكفر.

قلت: صدقت.. لطالما كنت أحلم بنص يدلني على هذا.. فأنا ـ أحيانا ــ تأتيني المرأة الحريصة على الإسلام.. ولكنه لا يحول بينها وبين دعوتها إليه إلا ترددها في الحجاب، فهي لا تحب أن تتخلى على ما تعودته من زينة.. وأنا أخشى أن أعرض لها الإسلام من دون حجاب، فأكون كمن أنقص من شرائع الإسلام ما لم يؤذن له بإنقاصه.

قال: فإذا لقيت مثل هذه المرأة.. فلا تحدثها عن الحجاب.. ولا عن أي شريعة قد تحجبها عن ربها.. فإن حلاوة الإيمان وحدها كافية لتجعلها تأتيك ــ بعد ذلك ــ لتسألك عن أحكام شريعة ربها.. بل لعلها تأتيك، وفي قلبها من الورع ما لم يكن يخطر على بالك.

مراتب الأساليب

وضعت الدفتر الثاني في محله، ثم فتحت الدفتر الثالث، وكان عنوانه (مراتب الأساليب).. وقد زين غلافه بقوله تعالى:﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: 125)

قلت: أهذا كتاب نحو، أم كتاب بلاغة؟

قال: هو كتاب نحو وكتاب بلاغة.. فهو يبحث في الأساليب.. والأساليب تحتاج إلى كلا

---

1) رواه أحمد وأبو داود والبيهقي في دلائل النبوة.

2) رواه أحمد وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني وأبو نعيم، واسناده صحيح، ورجاله ثقات.

العلمين.

فتحت الدفتر، فلم أجد فيه لا نحوا ولا بلاغة، فقلت: أتسخر مني.. وإنت الحكيم؟

قال: لم أسخر.. أنا لم أقل لك إلا الحقيقة.. أليس النحو هو التعرف على مراتب الكلمات، فلا توضع إلا في محالها الصحيحة؟

أليس اللحن في النحو هو خلط تلك المراتب، بنصب الفاعل أو رفع المفعول.. فتختلط المراتب؟

قلت: بلى.. ما تقوله صحيح..

قال: فمن خلط في كلامه لمن يريد أن يدعوهم بأن رفع ما ينبغي أن ينصب، أو نصب ما ينبغي أن يرفع كان لاحنا.. واللحن في هذا أخطر من اللحن في النحو؟

قلت: ذلك صحيح.. فكيف ذكرت أنه يبحث في البلاغة؟

قال: أليست البلاغة هي أن يكون الكلام متناسبا مع موضوعه، فلا يتحدث في الرثاء بأسلوب التهنئة؟

قلت: بلى.. ذلك صحيح..

قال: فلهذا كان هذا الدفتر دفترا لنحو الدعاة وبلاغتهم.

ابتسمت، وقلت: لقد عرفت كيف تتخلص.

قال: من العلوم الضرورية للدعاة أن يعرفوا كيف يتخلصوا.. وإلا فسيكونون حجابا لا دعاة.

قلت: التخلص يحتاج إلى الحيلة.. والمسلم أشرف من أن ينزل إلى حضيض الاحتيال.

قال: حيلة أهل الحق ليست بالكذب ولا التزوير.. إنها حيلة تحاول أن تتسلل إلى القلوب لتطهرها من رجسها وتدلها على ربها.. وهي لا تجد لذلك من سبيل إلا الصدق.. فلا يمكن أن تكون النجاة في غيره.

الحكمة:

فتحت الدفتر، فوجدت أول كلمة فيه (الحكمة)، فقلت: أليست كل هذه الدفاتر تبحث في الحكمة؟

قال: بلى..

قلت: فكيف يتحول الكل جزءا؟

قال: الحكمة نوعان: حكمة في المنهج.. وهي الكل الذي تنضم حوله كل ما رأيته من

أجزاء.. وحكمة في الأسلوب.. وهو ما وضعت مراتبه هنا.

قلت: فما دليلك عليه؟

قال: الآية التي أذنت لي في أن أبحث في هذا..

قلت: الآية التي زينت بها مدخل الكتاب؟

قال: كتاب الله أعظم من أن نختصره في التزيين.. إن كل آية من كتاب الله بحر من بحار العلم .. ولا خير في علم لم يزين مدخله بكلام ربه.

قلت: فما الفرق بين هذه الأساليب الثلاث؟

قال: من خلال اطلاعي على علاقة المخاطبين بالحقائق وجدت ثلاثة أصناف كبرى، تنطوي تحتها أصناف كثيرة.. وقد وجدت أن هذه الآية الكريمة تعلمنا الأسلوب الذي نخاطب به هؤلاء الثلاثة.

قلت: فما أول هذه الأصناف، وبم يخاطبون؟

قال: أولهم هم أهل البحث عن الحقائق، والاستعداد لتقبلها، وهم من غلبوا عقولهم على نفوسهم.. وهؤلاء يخاطبون بأسلوب (الحكمة) التي هي عرض الحقائق مع براهينها الدالة عليها.

قلت: وما الصنف الثاني، وبم يخاطبون؟

قال: هم من أصحاب النفوس التي تمتلئ رغبة ورهبة..

قلت: إن هؤلاء محجوبون بنفوسهم عن عقولهم، فكيف يمكنك خطابهم، وبينك وبين عقولهم تلك الحجب الكثيفة؟

قال: بالموعظة التي دلنا عليها ربنا.. فالموعظة هي التي يمكن التسلل من خلالها إلى العقول والقلوب والأرواح وجميع اللطائف.

قلت: وما الصنف الثالث، وبم يخاطبون؟

قال: هم أصحاب عقول، وأصحاب نفوس.. فهم لم يتمحضوا لعقولهم، ولم يتمحضوا لنفوسهم..

قلت: إن خطاب مثل هؤلاء صعب.

قال: لقد أرشدنا الله إلى استعمال الجدال الحسن مع هؤلاء..

قلت: لم؟

قال: لنميز خطاب النفس من خطاب العقل، ولنتسلل من خلال ذلك إلى خطاب

العقل والروح والسر وكل لطائف الإنسان.

قلت: أترى انحصار الطوائف في هذا؟

قال: أجل.. لقد استقرأت كل طوائف الناس، ونوع الأسلوب الذي يتناسب معهم، فوجدت أن الآية تعلمنا كيف نخاطبهم جميعا(1).

قلت: فحدثني عن الأسلوب الأول.

قال: هذا الأسلوب هو أصل الأساليب، ومبدؤها، ولا مندوحة للداعية إلى الله من تحصيل العلوم الموصلة إليه.

قلت: أيحتاج هذا الأسلوب إلى علوم؟

قال: أجل.. كل أسلوب من الأساليب يحتاج علوما خاصة به.

قلت: فما الذي يحتاجه هذا الأسلوب من علوم؟

قال: يختلف ذلك باختلاف من تريد أن تخاطبهم.. فإن كنت تريد أن تخاطب فيلسوفا بالحكمة، فعليك أن تكون عارفا بفلسفته، ومنهج تفكيره لتتسلل إليه من خلاله.

وإن كنت تخاطب رجل دين.. أي دين.. فعليك أن تكون مطلعا على دينه، وعلى المنهج العقلي الذي ارتضاه لنفسه لتخاطبه من خلاله.. وهكذا.. فالحكمة أن تخاطب العقول بما تفهم.. وأن تنطلق من البديهيات والمسلمات إلى ما لم يسلم لك، وما لم يقبل منك.

---

1) ذكر الفخر الرازي وجه الانحصار في هذه الأساليب، فذكر أن أهل العلم ثلاث طوائف:

1. الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالدلائل القطعية اليقينية وهي الحكمة.

2. الذين تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة لا طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية، والمكالمة اللائقة بهؤلاء المجادلة التي تفيد الإفحام والإلزام، وهذان القسمان هما الطرفان. فالأول: هو طرف الكمال، والثاني: طرف النقصان.

3. الواسطة، وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حد الحكماء المحققين، وفي النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقية، وما بلغوا إلى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالموعظة الحسنة.

ثم تحدث عن مراتب هذه الأساليب، فذكر أن أدناها المجادلة، وأعلى مراتب الخلائق الحكماء المحققون، وأوسطهم عامة الخلق وهم أرباب السلامة، وفيهم الكثرة والغلبة، وأدنى المراتب الذين جبلوا على طبيعة المنازعة والمخاصمة. (انظر: التفسير الكبير)

وقريب من هذا ما ذكره الغزالي في (القسطاس المستقيم) حين سأله رفيق التعليم عن أصناف الخلق وكيفية علاجهم،فذكر أنهم ثلاثة:(عوام، وهم أهل السلامة، وخواص هم أهل البصيرة وخواص الذكاء، ويتولد بينهم طائفة هم أهل الجدل والشغب)

قال الغزالي:(فأدعو هؤلاء [العوام] بالموعظة،وأدعو أهل البصيرة بالحكمة،وأدعو أهل الشغب بالمجادلة)

قلت: إن الحكمة بذلك تحتاج قدرات كبيرة.

قال: أجل.. ولهذا، فإن الله تعالى أثنى على الحكمة وأهلها ثناء عظيما في القرآن[1].. قال تعالى:﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة:269)[2]

وقد اعتبر القرآن الكريم الحكمة نوعا من أنواع النعم التي من الله بها على عباده المؤمنين، فقال تعالى:﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 231)

وهو يخبره عن فضله على الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ بإعطائهم الحكمة، قال تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ (آل عمران: 81)، وقال:﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ (النساء:54)، وقال:﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (البقرة: 251)، وقال:﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ﴾ (آل عمران:48)، وقال:﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (صّ:20)، وقال:﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الزخرف:63)

وهو يمن على رسول الله ﷺ بأن الله أنزل عليه الحكمة، فقال:﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (النساء: 113)، وقال:﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ (الاسراء:39)

قلت: فهل في سنة رسول الله ﷺ ما يدل على هذا الأسلوب؟

قال: سنة رسول الله ﷺ كلها تدل على هذا الأسلوب حتى أن من الناس من سمى السنة (حكمة) مستنبطا ذلك من قوله تعالى:﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:151) وغيرها من الآيات[3].

---

1) خلافا للعلم، فقد ذكر في مواضع الثناء والذم جميعا.

2) قال القرطبي تعليقا على هذه الآية:(إن من أعطي الحكمة والقرآن فقد أعطي أفضل ما أعطي من جمع علم كتب الأولين من الصحف وغيرها، لأنه قال لأولئك:﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الاسراء: 85)، وسمى هذا خيرا كثيرا، لأن هذا هو جوامع الكلم(القرطبي: 3/330)

3) كما قال الشافعي:(الحكمة سنة رسول الله ﷺ) وهو قول قتادة، قال أصحاب الشافعي:(والدليل عليه أنه تعالى ذكر تلاوة الكتاب أولاً وتعليمه ثانياً ثم عطف عليه الحكمة، فوجب أن يكون المراد من الحكمة شيئاً خارجاً عن الكتاب، وليس ذلك إلا سنة الرسول ﷺ)، قال ابن القيم:(وتفسيرها بالسنة أعم وأشهر) (مدارج السالكين: 2/472)

قلت: فاذكر لي مثالا يقرب لي هذا.

قال: سأذكر لك أمثلة على ذلك.. ولعلك تلتقي من ورثة رسول الله ﷺ من يزودك بالكثير من الأمثلة على هذا.

لقد حدث ابن عباس أن ضمادًا قدم مكة وكان من أزد شنوءة وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، قال: فلقيه فقال: يا محمد: إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك؟ فقال رسول ﷺ:(إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..)، قال: فقال أعد كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس(1)البحر، قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام، قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ:(وعلى قومك)، قال: وعلى قومي(2).

انظر هذا الرجل كيف اكتفى من رسول الله ﷺ بتلك الكلمات الممتلئة بفيوضات الحكمة.. اكتفى بها من غير جدل، ولا مراء، ولا خصومة.. وقد عرف النبي ﷺ ما تنطوي عليه نفسه من خير، فلذلك بايعه على أن يدعو قومه لله.

وهكذا في دعوته ﷺ لرجل لم يحفظ التاريخ اسمه، ولكنه حفظ لنا حكمته، والأسلوب الذي خاطبه به رسول الله ﷺ.. فعن حرب بن سُريج قال: حدثني رجل من بلْعَدَوِيَّة، قال: حدثني جدِّي قال: انطلقت إلى المدينة فنزلت عند الوادي، فإذا رجلان بينهما عنز واحدة وإذا المشتري يقول للبائع؛ أحسن مبايعتي، قال: فقلت في نفسي: هذا الهاشمي الذي قد أضلَّ الناس أهو هو؟ قال: فنظرت فإذا رجل حسن الجسم عظيم الجبهة، دقيق الأنف، دقيق الحاجبين، وإذا من ثُغْرة نحره إلى سُرّته مثل الخيط الأسود شعر أسود، وإذ هو بين طِمْرين قال: فدنا منا فقال: السلام عليكم، فرددنا عليه، فلم ألبث أن دعا المشتري فقال: يا رسول الله، قل له: يحسن مبايعتي، فمدَّ يده وقال: (أموالكم تملكون، إنِّي أرجو أن ألقى الله عزّ وجلّ يوم القيامة لا يطلبني أحد منكم بشيء ظلمته في مال ولا في دم ولا عرض إلا بحقه، رحم الله أمرأ سهل البيع، سهل الشراء، سهل الأخذ، سهل العطاء، سهل القضاء، سهل التقاضي)، ثم مضى، فقلت: والله لأقضينَّ هذا فإنه حسن القول، فتبعته فقلت: يا محمد، فالتفت إليَّ بجميعه فقال: (ما تشاء؟)، فقلت: أنت الذي أضللتَ الناس وأهلكتَهم وصدَدتهم عمَّا كان يعبد آباؤهم؟ قال: (ذاك الله)، قال: ما تدعو إليه؟ قال: (أدعو عباد الله إلى الله)، قلت: ما تقول؟ قال: (أشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي محمد رسول الله، وتؤمن بما أنزله عليَّ، وتفكر باللات والعُزَّى، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة)، قلت: وما الزكاة؟ قال: (يردّ غنينا على فقيرنا)؛ قلت: نِعمَ الشيء تدعو إليه. قال: فلقد كان وما في الأرض أحد يتنفس أبغض إليّ منه، فما برح حتى كان أحب إليّ من

1) قاموس البحر: هو وسطه ولجته (النهاية في غريب الحديث والأثر: 5 / 81)

2) رواه مسلم.

ولدي ووالديَّ ومن الناس أجمعين، فقلت: قد عرفتُ؛ قال:(قد عـرفتَ؟) قلت: نعم؛ قـال: (تشهد أن لا إله إلا اللـه وأنِّي محمـد رسـول اللـه، وتـؤمن بمـا أنـزل عليّ)، قلت: نعم، يـا رسول الله، إنِّي أرد ماءً عليه كثير من الناس فأدعوهم إلى ما دعوتني إليه، فإنِّي أرجــو أن يتَّبعوك، قال: نعم، فادعهم؛ فأسلم أهل ذلك الماء رجالهم ونساؤهم، فمسح رسول الله ﷺ رأسه[1].

الموعظة:

رأيت في المرتبة الثانية من مراتب الأساليب (مرتبة الموعظة)، فسألته عنها، فقـال: هي كل أساليب التأثير التي تخاطب بها النفوس لتمتلئ بحقائق الإيمان.

قلت: فمن أصحاب هذه المرتبة؟

قال: لقد ذكرهم الـرازي، فقـال: (هم الـذين مـا بلغـوا في الكمـال إلى حـد الحكمـاء المحققين، وفي النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين، بل هم أقوام بقـوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقيـة، ومـا بلغـوا إلى درجـة الاسـتعداد لفهم الـدلائل اليقينيـة والمعارف الحكمية)[2]

قلت: فهم وحدهم المخصوصون بهذه المرتبة إذن؟

قال: لا.. كل المخاطبين قد يحتاجون إلى هذه المرتبة.. ومـا ذكـره الـرازي هـو الأعم الأغلب.

قلت: ما تعني؟

قال: إن كل إنسان مهما بلغت به مرتبته من الكمـال العقلي، فإنـه لا محالـة صـاحب نفس، وهي لا محالة تؤثر فيه، وتؤثر عليه.. ولذلك كان من كمـال الخطـاب العقلي مزجـه بخطاب النفس.

قلت: فبم تخاطب النفس؟

قال: النفس تـرغب وتـرهب، وتحب وتبغض، وتشـح وتحـرص.. فلـذلك يتسـلل إليهـا العاقل مما تحب ليوجهها إلى عوالم الحكمة والحقائق.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أرأيت اللص الحريص على جمع المال من حله وحرامه؟

---

1) رواه أبو يَعْلى قال الهيثمي وفيه: راوٍ لم يسمَّ، وبقية رجاله وُثِّقوا.

2(1) التفسير الكبير:20/288.

قلت: هو مجرم بفعله.

قال: أعلم ذلك.. وأنا لا يهمني أن أحكم عليه.. بل كل همي هو التفكير في كيفية تخليصه من اللصوصية والإجرام.

قلت: أحسن وسيلة هي أن يزج به في السجن مع المجرمين.

قال: أترى السجن رادعا له؟

قلت: لو حوى السجن من أساليب التعذيب ما يقهر نفسه لتاب من جرائمه.

قال: فأنا أفعل هذا معه.

قلت: ألك علاقة بالشرطة؟

قال: لي علاقة بالشرطة الإلهية.. فأنا كما ذكرت لك من المخابرات الإلهية.. لا من المخابرات الأرضية.

قلت: صرح، فأنا لا أطيق فهم التلميح.

قال: إن هذا الرجل الذي برمجت نفسه على الخوف من الألم، والحرص على الراحة والسعادة.. أطرق نفسه من هذه الأبواب لأخرجه من ظلمات نفسه إلى نور الإيمان والحكمة.

قلت: كيف؟

قال: بالموعظة الحسنة.

قلت: فما الموعظة الحسنة.. وما ضوابطها.. وما سنة رسول الله ﷺ فيها؟

قال: لن أجيبك أنا عن هذا.. فأنا الحكيم ولست الواعظ.. ولا ينبغي لي أن أتحدث خارج تخصصي.

قلت: فمن يجيبني؟

قال: إن علم الله صدقك، فسيرسل لك من يعلمك الموعظة، كما أرسل لك من يعلمك الحكمة[1].

الحوار:

---

1) سنتحدث عن الموعظة في فصل (الواعظ) من هذه الرسالة.

رأيت في المرتبة الثالثة من مـراتب الأسـاليب (مرتبـة الحـوار)، فقلت لـه: لقـد ذكـر القرآن (الجدل)، فكيف وضعت أنت (الحوار)؟

قال: أنا لم أرغب عن المصطلح الذي وضعه القرآن الكريم، ولكني وجدت أن الحوار هو المصـطلح المتعـارف عليـه للدلالـة على (الجـدال بـالتي هي أحسـن)، ولا مشـاحة في الاصطلاح.

زيادة على أن هذا المصطلح استعمله القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَـوْلَ الَّتِي تُجَادِلُـكَ فِي زَوْجِهَـا وَتَشْـتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْـمَعُ تَحَاوُرَكُمَـا إِنَّ اللَّهَ سَـمِيعٌ بَصِـيرٌ﴾ (المجادلة:1)، ففي هذه الآية إخبار بأن رسول الله ﷺ استعمل الحوار في إقناعه المرأة.

وفي آية أخرى أخبر الله أن بعض ورثة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ استعمله في دعوة صاحبه لله، قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُـرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ (الكهف:37)

قلت: فمن يخاطب بهذا الأسلوب؟

قـال: اثنـان من النـاس: إمـا من فيهم فطانـة ظـاهرة ترقـوا بهـا عن العـوام ولكنهـا ناقصة.. أو كانت الفطرة كاملة،ولكن باطنهم مشحون بالخبث والعناد والتعصب والتقليد.

قلت: فما المجادلة الحسنة، وما أصولها؟

قال: أهم أصولها أخذ الأصول الـتي يسـلم بهـا المجـادل، واسـتنتاج الحـق منهـا، مـع الإبتعاد عن اللجاجة والمراء والجدال المنهي عنه..

قلت: هلا ضربت لي مثال اعلى ذلك.

قال: لقد ضرب الغزالي لها مثلا، فقال:(وليته كانت له أسوة حسنة بإبراهيم الخليل ـ صلوات الله عليه ـ حيث حـاج خصـمه، فقـال: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (البقـرة: 258)، فلمــا رأى أن ذلــك لا يناســبه،وليس حســنا عنــده عــدل إلى الأوفــق بطبعــه والأقــرب لفهمه،فقال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ (البقرة: 258)

قلت: فاذكر لي أصول هـذا الأسـاليب وآدابهـا، فـإن من قـومي من يبـدأون بـالحوار، وينتهون بالجدل، ومنهم يبدأون بالحوار، وينتهون بالشغب.

قال: لست المكلف بتعليمك علوم هذا.. وإن تك صادقا، فسيقيظ الله لك من يعلمـك ما طلبته[1]..

مراتب الوسائل

وضـعت الـدفتر الثـالث في محلـه، ثم فتحت الـدفتر الرابـع، وكـان عنوانـه (مـراتب

1) انظر فصل (المحاور) من هذه الرسالة.

الوسائل)، وقد زين غلافه بقوله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحديد:25)، وتحته قوله ﷺ:(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان) (1)

قلت: ما الذي تقصد بالوسائل؟

قال: أقصد بها كل الأدوات التي يستخدمها الداعي إلى الله من أجل تبليغ رسالة الله.

قلت: ألهذه الأدوات المراتب؟.. قد كنت أحسب أن الداعي إلى الله هو الذي لا يدخر أي أداة في سبيل تبليغ رسالة ربه.

قال: لكل شيء في هذا الوجود مرتبته الخاصة به.. فمن حاد به عنها وقع في الانحراف والضلال والإضلال.

قلت: فما الإضلال الذي يمكن أن يقع في هذا الباب؟

قال: أكثر الإضلال يقع في هذا الباب.. فقد يستعمل بعضهم من الوسائل ما لم يسمح له باستعماله، وقد يقدم بعضهم من الوسائل ما ينبغي أن يؤخر، وقد يؤخر ما ينبغي أن يقدم.

قلبت صفحات الدفتر، فوجدت أربعة مراتب كبرى، هي (العيان، واللسان، والإحسان، والسنان)، فقلت: أهذه مراتب هذا الباب؟

قال: هذه بعض مراتب هذا الباب.. أو هي مجامع مراتب هذا الباب.

العيان:

قلت: فما العيان؟

قال: الإنسان.

قلت: لم أفهم.. كيف يكون الإنسان وسيلة؟

قال: الإنسان هو أعظم الوسائل.. وليس في الدعوة إلى الله أعظم من الإنسان.

قلت: تقصد لسان الإنسان، أم جميع الإنسان؟

قال: لسان الإنسان بعض الإنسان.. وهو وسيلة من الوسائل.. وهو أقصر بكثير من وسيلة (الإنسان)

قلت: أنت تعلم صعوبة حلي للألغاز، فوضح لي ما ترمي إليه.

---

1) رواه مسلم.

قال: أرأيت لو أن خطيبا مفوها جاء بخطبة طويلة عريضة يصف فيها سلعة من السلع.. ثم جاء آخر لم يتحدث كلمة واحدة، وإنما عرض السلعة، وأراهم من خلال سلوكها وفوائدها قيمتها.. أيهم أقوم قيلا، وأفصح لسانا؟

قلت: لا شك أنه الثاني.. فـ (ليس الخبر كالعيان)(1)

قال: فهكذا في عرضنا للإسلام.. قد نعرضه في مقالات وخطب.. وتظل تلك المقالات والخطب مجرد كلمات قد تبث فيها الحياة، وقد تظل ميتة لا يهتم لها أحد، ولا يستفيد منها أحد.. لكنا لو عرضنا الإسلام عبر النماذج الإنسانية الراقية، وقلنا للعالم:(هذا هو الإنسان الذي لا يصنع إلا في مصنع الإسلام) حينها سيدخل الناس في دين الله أفواجا.

قلت: تقصد صناعة القدوة؟

قال: إن البشر بطبيعتهم التي جبلوا عليها لا تكفي في تغييرهم الأقوال، وهم لذلك يحتاجون إلى النماذج الراقية التي تبعث الحياة في أجساد الكلمات.

قلت: فما مجامع هذا، وما أصوله، وكيف نصل إليه؟

قال: ذلك علم من العلوم لم يؤذن لي أن أبثه لك.. وإن كنت صادقا، فسيقيض الله لك من يعلمك علومه(2).

قلت: فاذكر لي دليلا يدل عليه.

قال: قوله تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (الأحزاب:21)، فقد أشار الله تعالى في هذه الآية إلى أن رسول الله ﷺ داعية إلى الله بأفعاله وسلوكه وآدابه.

اللسان:

قلت: فكيف جعلت اللسان في المرتبة الثانية؟

قال: لأن الله تعالى جعل اللسان هو وسيلة الخطاب.. ولذلك فإن الداعية إلى الله يستثمره أعظم استثمار في الدعوة إلى ربه.. لقد ورد لفظ: (قل) الداعي إلى استعمال هذه الوسيلة في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثمائة آية.. وقد أثني الله تعالى على أقوال الدعاة إلى الله، فقال: وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (فصلت:33)

وقد أخبر الله تعالى أنه ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه، فقال: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (ابراهيم:4)

1) رواه أحمد وابن منيع والطبراني والعسكري وابن حبان والحاكم موقوفا على ابن عباس.

2) انظر فصل (القدوة) من هذه الرسالة.

قلت: فهل استثمر رسول الله ﷺ هذه الوسيلة؟

قال: أعظم استثمار.. فلم يكن رسول الله ﷺ يدع مناسبة من المناسبات، ولا فرصة من الفرص إلا ودعا فيها إلى ربه..

فحينما خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف دعاهم إلى الله بالقول، يقول ابن إسحاق: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر ثقيف.. فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه.

وحينما أمره الله بعرض نفسه على القبائل، كان يدعوهم بالقول، يقول ابن إسحاق: فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الهدى والرحمة.

وبالقول استطاع رسول الله ﷺ إقناع وفد الأنصار بدعوة الحق حين التقى بهم، فقد قال لهم ـ كما يروي ابن إسحاق ـ: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان القول وسيلة مبعوثيه ﷺ في إقناع مدعويهم، فقد قال مصعب بن عمير وهو مبعوثه ﷺ إلى المدينة المنورة لزعيمي بني عبد الأشهل: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟

فهذه النصوص وغيرها كثير تبين أن اللسان من أهم وسائل الدعوة إلى الله.

قلت: فكيف نستثمر هذه الوسيلة؟

قال: بكل ما يمكن أن تستثمر به.. بالموعظة التي تدمع لها العيون.. والخطبة التي ترتجف لها القلوب.. والحوار الذي يصد عن الباطل ويهدي إلى الحق.. والمعلومة التي يقضى بها على الجهل.. وهكذا فميادين اللسان لا يمكن حصرها.

قلت: إن ذلك يستدعي علوما كثيرة.

قال: أجل.. ففاقد الشيء لا يعطيه.. وما اللسان إلا ثمرة لما غرس في الجنان.

قلت: فبأي لسان نتحدث.. فالألسنة كثيرة؟

قال: لقد قال الله تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (ابراهيم:4)

قلت: إن ذلك يستدعي تعلم لغات العالم.

قال: أجل.. فما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب.

الإحسان:

قلت: فما الإحسان، وكيف جعلته في المرتبة الثالثة؟

قال: ألا تعرف البيت الذي يقول:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمُ فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

قلت: بلى.. أعرفه.. فهذا البيت أشهر من نار على علم.. يعرفه منا الصغير والكبير، والنساء والرجال.

قال: أتدري لم يحفظونه؟

قلت: أجل.. فهو يعبر عن حقيقة تمتلئ بها نفوسهم جبل عليهم طبعهم، فلا يستطيعون الانفكاك عنها.

قال: أي طبيعة؟

قلت: الإنسان بطبعه يميل إلى من أحسن إليه، ويحبه، ويخضع له.

قال: ولذلك كان الداعية إلى الله السائر على قدم رسول الله ﷺ هو الذي يستثمر هذه الطبيعة ليتسلل منها إلى القلوب ليملأها بأنوار الهداية[1].

قلت: ألا تخاف أن تنبت هذه الوسيلة المنافقين؟

قال: قد تنبت المنافقين.. ولكنها قد تنبت الصادقين.

قلت: فلم لم تسد الذريعة التي تنبت النفاق؟

قال: وكيف أسد الذريعة التي قد تنبت الصادقين؟

قلت: إن درء المفسدة أولى من جلب المصلحة.

قال: إن أعظم مفسدة هي الضلال.. والضلال يتحقق في كل ما يبعد عن الله سواء كان كفرا أو معصية أو نفاقا..

قلت: فهل في السنة ما يدل على هذا؟

قال: ألم تقرأ قوله تعالى: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا

---

1) يثير المبشرون وغيرهم في كتبهم ومواقعهم التبشيرية بين الحين و الآخر شبهة مفادها أن إعطاء المؤلفة قلوبهم من مال الزكاة عبارة عن رشوة تستقبحها الضمائر النزيهة و أنه من غير المعقول أن يدعو المسلمون غير المسلمين إلى دينهم عن طريق دفع الرشاوى، حتى وصلت جرأة أحدهم لأن يسأل في وقاحة:(أليست هذه رشوة؟ يعطي ثروة مهولة لقوم، لكي يدخلوا الاسلام، أليس هذا شراء للضمائر والذمم؟)، و يصيح آخر في هستيرية:(أليس هذا من أسوأ أنواع الرشوة؟ أليس هذا شراء لضمائر الناس؟ أيعجز محمد عن إثبات دينه بالمعجزات الربانية و الخوارق فيلجأ إلى أرخص الوسائل وأسهلها و هي شراء الولاءات؟ فبماذا تختلف هذه الأفعال عن قولنا أن الغرب يشتري حكّام العرب؟ فهي تدفع لهم حتى يخدموا مصالحها)

وسنتحدث عن جواب هذه الشبهة هنا.

وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة:60)؟

قلت: بلى.. إن هذه الآية تذكر مصارف الزكاة.

قال: ألا ترى أن من مصارف الزكاة التي نصت عليها الآية مصرف (المؤلفة قلوبهم)؟

قلت: بلى .. ولكن هل طبق رسول الله ﷺ هذه الوسيلة؟

قال: أجل.. فما كان النبي ﷺ يهتدي إلا بهدي القرآن الكريم..

قلت: فحدثني بما ورد في ذلك ليطمئن قلبي.

قال: لقد روى علماء السيرة أن رسول الله ﷺ ـ بعد غزوة حنين ـ بدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، فأعطى أبا سفيان بن حرب 40 أوقية من الفضة و100 من الإبل وكذا ابناه يزيد ومعاوية، وأعطى حكيم بن حزام 100 من الإبل، ثم سأله مئة أخرى فأعطاه إياها، وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة 100 من الإبل، وكذا أسيد بن جارية الثقفي والحارث بن هشام، وصفوان بن أمية، وقيس بن عدي، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، والأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن، ومالك بن عوف.

وأعطى العباس بن مرداس 40 من الإبل فقال في ذلك شعراً فأعطاه 100 من الإبل، وأعطى مخرمة بن نوفل 50 بعير، وكذا العلاء بن حارثة وسعيد بن يربوع وعثمان بن وهب وهشام بن عمرو العامري، فبلغ ما أعطى ممن ذكروا 14850 من الإبل.

قلت: إن البعض قد يرى في تفضيل أمثال هؤلاء الذين كانوا حربا على الإسلام إسرافا لا مبرر له؟

قال: لقد كان رسول الله ﷺ أعظم الناس حكمة.. لقد رأى أن أمثال هؤلاء لا يجذبهم شيء كما يجذبهم الإحسان، فلذلك راح يطوق أعناقهم به.

قلت: فهل أثر هذا العطاء فيهم؟

قال: لقد حدث صفوان بن أمية عن نفسه بعد أن أعطاه رسول الله ﷺ عطاءه، فقال:(والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي)(1)

وحدث أنس عن أثر ذلك العطاء، فقال:(إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها) (2)

1) رواه مسلم.

2) رواه مسلم.

قلت: ولكن.. ألم يهز ذلك أولئك المؤمنين البسطاء الذين قضوا حياتهم كلها جهادا وتضحية مع رسول الله ﷺ؟

قال: لقد وجد بعضهم من ذلك، لكنه ما إن بين لهم رسول الله ﷺ سر ذلك التفضيل حتى راحوا يسلمون لرسول الله ﷺ تصرفه..

قلت: وما قال لهم؟

قال: سأحدثك بالحديث من أوله.. لقد حدث جمع من الصحابة(1) أن رسول الله ﷺ أصاب غنائم حنين، وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم، فوجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثر فيهم القالة حتى قال قائلهم: يغفر الله تعالى لرسول الله ﷺ إن هذا لهو العجب يعطي قريشا، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا، وددنا أنا نعلم ممن كان هذا، فإن كان من أمر الله تعالى صبرنا، وإن كان من رأي رسول الله ﷺ استعتبناه.

فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم، قال: (فيم؟)، قال: فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شئ، فقال رسول الله ﷺ:(فأين أنت من ذلك يا سعد؟) قال: ما أنا إلا امرؤ من قومي، فقال رسول الله ﷺ:(فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة)، فخرج سعد يصرخ فيهم حتى جمعهم في تلك الحظيرة، حتى إذا لم يبق أحد من الانصار إلا اجتمع له، أتاه فقال يا رسول الله: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار حيث أمرتني أن جمعهم، فخرج رسول الله ﷺ فقال:(هل منكم أحد من غيركم؟) قالوا: لا يا رسول الله إلا ابن أختنا، قال: (ابن أخت القوم منهم)، فقام رسول الله ﷺ خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: (يا معشر الأنصار ألم آتكم ضلالا فهداكم الله تعالى وعالة فاغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم، ومتفرقين فالفكم الله؟)، قالوا: بلى يا رسول الله، الله ورسوله أمن وأفضل.

ثم قال رسول الله ﷺ:(ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟)، قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وماذا نجيبك؟ المن لله تعالى ولرسوله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ:(والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم، جئتنا طريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك، وخائفا فأمناك، ومخذولا فنصرناك، ومكذبا فصدقناك)، فقالوا: المن لله تعالى ورسوله، فقال: (وما حديث بلغني عنكم؟)، فسكنوا، فقال: (ما حديث بلغني عنكم؟) فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا يغفر الله تعالى لرسوله ﷺ يعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم! فقال رسول الله ﷺ:(إن قريشا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتالفهم، أوجدتم يا معشر الانصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله تعالى لكم من الاسلام، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله

(1) رواه ابن إسحاق، وأحمد عن أبي سعيد الخدري، وأحمد، والبخاري ومسلم من طريق أنس بن مالك، وهما عن عبد الله بن يزيد بن عاصم.. بروايات مختلفة، وقد حاولنا الجمع بينها.

ﷺ إلى رحالكم تحوزونه إلى بيوتكم، فو الله لمن تنقلبون به خير مما ينقلبون به، فو الذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار.. أنتم الشعار والناس دثار.. الأنصار كرشي وعيبتي، ولولا أنها الهجرة لكنت امرأ من الانصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار)، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ورسوله حظا وقسما.

قلت: لقد نجح رسول الله ﷺ في التعامل مع الحدث.

قال: بالصدق نجح في التعامل معه.. لقد كان رسول الله ﷺ يعلم ما تمتلئ به قلوبهم من محبة الله ومحبة رسوله، فلذلك خاطبهم بهما(1).

قلت: أبالمال وحده يمكن الإحسان؟

قال: لا.. الإحسان أعم من أن يقتصر على المال، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة:263)؟

قلت: بلى..

قال: فقد أشار الله في هذه الآية إلى أن القول المعروف والمغفرة قد يكونان خيرا من الصدقة.

قلت: فهل أثر عن رسول الله ﷺ في ذلك شيء.

قال: لقد كان رسول الله ﷺ يستعمل كل الوسائل ليجذب القلوب إلى التعرف على الله وعبادته..

قلت: فحدثني عن المغفرة.

قال: المغفرة من الأخلاق التي أمر الله تعالى بها رسوله ﷺ، وأخبر أن لها من التأثير ما جعل القلوب تلتف به ﷺ.. قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:159)

وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (لأعراف:199)

وقد أخبر الله تعالى عن تأثير العفو والمقابلة بالحسنى في المودة، فقال: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

---

1) ذكر محمد بن عمر أن رسول الله ﷺ أراد حين دعاهم أن يكتب بالبحرين لهم خاصة بعده دون الناس، وهي يومئذ أفضل ما فتح عليه من الارض، فقالوا: (لا حاجة لنا بالدنيا بعدك)، فقال رسول الله ﷺ:(إنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)

(فصلت:34)

قلت: فهل ورد في السنة ما يدل على هذا؟

قال: ذلك كثير.. منه ما حدث به جابر بن عبد الله أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: (إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فها هو ذا جالس)، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ..

وقد كانت نتيجة هذا العفو أن رجع الرجل إلى قومه، وقال:(جئتكم من عند خير الناس)(1)

ومنه ما حدث به الرواة من قصة ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة، وأسره.. فقد ورد في بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ بعث خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة ولا يشعرون من هو حتى أتوا به رسول الله ﷺ، فقال: (أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي، أحسنوا اساره)، فربطوه بسارية من سواري المسجد(2).

وفي رواية أخر أن ثمامة كان رسول مسيلمة إلى رسول الله ﷺ قبل ذلك وأراد اغتياله، فدعا رسول الله ﷺ ربه تبارك وتعالى أن يمكنه منه، فدخل المدينة معتمرا وهو مشرك فدخل المدينة حتى تحير فيها فأخذ، ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: (اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه)، وأمر بلقحته ان يغدى عليه بها ويراح، فجعل لا يقع من ثمامة موقعا ويأتيه رسول الله ﷺ فيقول: (ما عندك يا ثمامة؟) فيقول: (إيها يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن ترد الفداء فسل منه ما شئت)، فتركه رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد فقال: (ما عندك يا ثمامة؟) قال: عندي ما قلت لك، وذكر مثله، فقال رسول الله ﷺ: (أطلقوا ثمامة)، فأطلقوه فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: (أشهد ألا اله الا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى، والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلى، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلى، وان خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟) فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر.

---

1) رواه البخاري.

2) رواه البخاري ومسلم.

قال ابن هشام: فبلغني أنه خرج معتمرا حتى إذا كان ببطن مكة لبى فكان أول من دخل مكة يلبي، فأخذته قريش فقالوا: لقد اجترأت علينا، فلما قدموه ليضربوا عنقه قال قائل منهم: دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليمامة لطعامكم فخلوه، وقالوا: أصبوت يا ثمامة؟ فقال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ اتبعت خير دين، دين محمد، ووالله لا تصل اليكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا منها شيئا إلى مكة حتى أكلت قريش العلهز.

فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: (إنك تأمر بصلة الرحم وإنك قد قطعت أرحامنا)، فكتب رسول الله ﷺ إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل، وأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (المؤمنون:76)(1)

ومنه الحديث الذي سارت به الركبان من عفوه ﷺ عن أهل مكة بعد كل ما صدر منهم في حقه وفي حق أصحابه وفي حق دعوته.. لقد روى جمع من الصحابة(2)قالوا: إن رسول الله ﷺ لما خرج من البيت استكف له الناس، وأشرف على الناس وقد ليط بهم حول الكعبة ـ وهم جلوس ـ قام على بابه فقال:(لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده، يا معشر قريش ماذا تقولون؟ ماذا تظنون؟)، قالوا: نقول خيرا ونظن خيرا، نبي كريم، وأخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال رسول الله ﷺ:(فاني أقول كما قال أخي يوسف:﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: 92)، اذهبو فانتم الطلقاء)، فخرجوا كأنما نشروا من القبور، فدخلوا في الاسلام.

السنان:

قلت: فما السنان، وكيف جعلته في المرتبة الرابعة؟

قال: السنان هو أداة السلطان.. و(الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)(3)

قلت: ما دام بيد السلطان، فكيف وضعته هنا؟

قال: لأعرف أهله، فأدل السلطان عليهم.

قلت: ألا تكون بذلك واشيا؟

قال: بل أكون داعيا.. لقد قال ﷺ:(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)(4)

---

1) رواه البيهقي عن ابن اسحاق.

2) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن عبد الله بن عمر والبخاري في صحيحه عن مجاهد، وابن أبي شيبة، وابن إسحاق عن صفية بنت شيبة، والبيهقي عن عبد الله بن عمر، وابن أبي شيبة عن عبد الله بن عبيدة.

3) روي عن عثمان موقوفا ونحوه عن عمر موقوفا.

قلت: لم يذكر رسول الله ﷺ في هذا الحديث السلطان، فكيف ذكرته؟

قال: كل من تولى شيئا كان له السلطة عليه، ألم تسمع قولـه ﷺ:(كلكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، والأمير راعٍ، والرجل راعٍ على أهل بيته؛ والمرأة راعيةٌ على بيت زوجها وولده، فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته)(1)

قلت: بلى.. وهذا الحديث أشهر من نار على علم.

قال: فلذلك لا تغير منكرا بيدك إلا إذا كانت لك سلطة عليه، أو إذن من السلطة.

قلت: فسر لي ذلك.

قال: انظر.. فقد وضعت لهذا خمس حالات.. ووضعت لكل حالة حلها.

نظرت، فرأيت مكتوبا في الحالة الأولى:(**أن يكون للمغيِّر ولاية خاصة على ذي المنكر**)، فقلت: ما الذي تقصد بهذا؟

قال: أقصد ما ذكره ﷺ من الولاية الخاصة، كولاية الوالد على ولده، والزوج على زوجته.. فلهؤلاء الحق في تغيير ما يرونه منكرا ممن تولوهم.. لقد أشار ﷺ إلى هذا النوع من الولاية بقوله:(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر)(2)، فقد أذن ﷺ في استعمال هذه الأسلوب في تربية الأولاد، ولكن بعد ثلاث سنين تجرب فيها جميع الوسائل الأخرى.

وهكذا.. إذا رأى الزوج من زوجته منكرا، فإنه يجب عليه أن يغيره بيده..

قلت: فللأب أن يقيم الحدود على ابنه، وللزوج أن يقيم الحدود على زوجته.

قال: لا.. ذلك للإمام الأعلى..

قلت: فما التغيير باليد إذن؟

قال: التغيير باليد ذو صور ومراحل عديدة.. منها استخدام اليد في إفساد آلات المنكر، أو إذهاب عين المنكر، كتحطيم أدوات شرب الخمر وإراقتها، وتهديم حاناتها، إذا لم تكن تصلح إلا لذلك، أو غلق الطرق المؤدية إليها، أو قطع المياه وأدوات الإنارة عنها، أو إفساد آلات الغناء الماجن المحرم، وإفساد أماكن بيعه وتوزيعه، إذا لم تكن تلك الأماكن صالحة إلا لذلك..

قلت: فقد انحصر الأمر في إفساد آلة المنكر.. والضرب.

---

4) رواه مسلم.

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه أبو داود والحاكم.

قال: أما إفساد آلة المنكر، فلا يفسدها إلا إذا كانت لمحض المنكر.. وأما الضرب، فله حدود وضوابط لابد من التزامها، وإلا كان التغيير نفسه منكرا(1).

نظرت، فرأيت مكتوبا في الحالة الثانية:(**أن يكون للمغيِّر ولاية عامة على ذي المنكر**)، فقلت: ما الذي تقصد بهذا؟

قال: الولاية العامة هي ولاية الحاكم على رعيته.. وبما أن هذا الحاكم مفوض من الرعية بإقامة العدل، وتوفير الأمن، فقد أعطاه الشرع حق استعمال الشدة في محلها، ولأهلها.

قلت: فلم لم يضع طرقا أكثر رحمة، وأميل إلى الرفق؟

قال: أرأيت لو أن مريضا من الأمراض أصابه ورم عجز كل علاج عن شفائه، فلم يـر الطبيب حلا لذلك إلا استئصال الورم بعملية جراحية.. أكان في ذلك رحيما أم قاسيا؟

قلت: ما دام لم يجد أي علاج.. فما وصفه عين الرحمة؟

قال: وبهذا جاء الشرع الممتلئ بالحكمة.. لقد وضع منهجا متكاملا في التربية والإصلاح في كل المجالات.. ثم جعل بعد ذلك للحاكم من السلطة ما يفرض به قوانين العدالة والرحمة.

قلت: إن البعض يشنع في مثل هذا(2).

قال: دعهم يشنعون، فإنهم بذلك ينصرون المستكبرين المجرمين.. فلا يدافع عن المجرم إلا مجرم، أو من يحلم بأن يصير مجرما.

اسمع هذه الآية الشديدة التي تتحدث عن الجزاء المرتبط بهؤلاء:﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة:33)

واسمع الآية الأخرى التي تأمر بإقامة حد الزنا، وعدم الالتفات لما تمليه العواطف في ذلك:﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور:2)

ألا ترى أن في تعليق الحاكم لافتة بأمثال هذا في كل المحال، سيردع كل محارب، وسيقمع نفس كل مجرم؟

قلت: بلى.. ذلك صحيح.

---

1) ذكرنا الضوابط الشرعية لاستعمال هذه الوسيلة في كتاب (الأساليب الشرعية لتربية الأولاد) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

2) انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

قال: فلهذا ورد في الأثر: (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)

نظرت، فرأيت مكتوبا في الحالة الثالثة:(**ألا يكون للمغيِّر أي ولاية على ذي المنكر**)، فقلت: ما الذي تقصد بهذا؟

قال: هذا هو الأعم الغالب.. فأكثر أفراد الرعية لا سلطان لبعضهم على غيره.

قلت: فكيف يتم الإنكار باليد هنا؟

قال: ليس لذلك إلا سبيل واحد.

قلت: ما هو؟

قال: إذا كان الحاكم عادلا، وناصحا، ومهتما بشأن رعيته، أو فوض من يقوم بذلك، فإن على المؤمن أن يسعى إلى هؤلاء طالبا منهم أن يقوموا بتغيير المنكر بما أوتوا من وسائل الحزم.

قلت: فإن لم يكن.

قال: لم يبق حينها إلا الجهاد باللسان.. فلا يحق لمسلم أن ينشر الفتنة بتغيير المنكر بيده.. إنه بذلك يغير منكرا واحدا، ويحيي مناكر كثيرة.

قلت: الجهاد باللسان مع الحاكم المقصر، أم مع المحكوم؟

قال: مع كليهما.. فكلاهما في منكر.. أما الحاكم فبسكوته، وأما المحكوم فبفعله.

نظرت، فرأيت مكتوبا في الحالة الرابعة:(**أن يكون لذي المنكر ولاية خاصة على من يقوم بتغيير منكره**)، فقلت: ما الذي تقصد بهذا؟

قال: كأن يكون ذو المنكر والد المغيِّر أو زوجها..

قلت: فما عسى هؤلاء المستضعفين أن يفعلوا؟

قال: يفرق هنا بين نوع المنكر ودرجته.. فإن لم يترتب عن تغيير المنكر باليد أي إيذاء أو ضرر، فلهما ذلك.. أما إذا ترتب عنه ضرر، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها(1).

نظرت، فرأيت مكتوبا في الحالة الخامسة:(**أن يكون ذو المنكر ذا ولاية عامة على من يقوم بتغيير منكره**)، فقلت: ما الذي تقصد بهذا؟

---

1) ذهب الغزالي إلى أن للولد مع والده الواقع في المنكر، أن يغيره بالمنع، بالقهر، بطريق المباشرة، (بأن يكسر مثلاً عوده، ويريق خمره، ويحل الخيوط من ثيابه المنسوجة من الحرير، ويرد إلى الملاك، ما يجده في بيته من المال الحرام الذي غصبه أو سرقه، أو أخذه عن إدرار رزق من ضريبة المسلمين إذا كان صاحبه معيَّناً، ويبطل الصور المنقوشة على حيطانه، والمنقورة في خشب بيته، ويكسر أوان الذهب والفضة، فإنَّ فعله في هذه الأمور ليس يتعلق بذات الأب، بخلاف الضرب والسب، ولكن الوالد يتأذى به ويسخط بسببه إلا أنَّ فعل الولد حق وسخط الأب منشؤه حبه للباطل وللحرام، والأظهر في القياس أنه يثبت للولد ذلك بل يلزمه أن يفعل ذلك) (انظر: الإحياء: 2/318)

قال: هذه الحالة أخطر حالات إنكـار المنكـر، وأدقهـا، وأصـعبها.. فهي ترتبـط بالإنكـار على الحاكم.

قلت: فما مصدر الصعوبة فيها؟

قال: الحاكم في نظر الشريعة يمثل أمرين: العدل، والأمن.. والحاكم الكامل هو الذي جمع بين الأمرين.. فلذلك إن لم يترتب عن الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر إخلال بكلا الجانبين، وجب الإنكار.. أما إذا ترتب عنه الإخلال بهما، أو بأحدهما، وجب استعمال وسـائل أخرى بديلة.

قلت: عرفت العدل.. فما الأمن؟

قال: أن تنتشر الفوضى التي هي مرتع الفتن ومنبعها..

قلت: فهل نسالم مثل هذا الإمام؟

قال: السلام الذي يزين بالنصيحة، لقد أمرنا رسول الله ﷺ بذلك..

قلت: أجل.. فقد روي أن النبي ﷺ قال: الدين النصيحة، فقيـل لـه: لمن؟ فقـال: للـه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم(1).

قال: وقد صرح ﷺ بالنهي عن قتال الأئمة الظالمين، ما داموا لم يتدخلوا في شـؤون الدينية الأساسية، فقال:(إنه يُستعمل عليكم أُمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع)، قالوا: يا رسول اللـه، ألا نقـاتلهم؟ قـال لا، مـا صلّوا(2).

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة الأولى من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب..

لقد كنت أتخيل نفسي في الهند.. ومع هذا الرجـل الحكيم.. ومـع ذلـك النـبي الحكيم الذي امتلأ العالم جميعا بلطائف حكمته، وأنوار هدايتـه.. ولم يخطـر على بـالي طيلـة هـذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

سألت صاحبي عن لقمـان الحكيم وكيـف تركـه، فقـال: لقـد ظللت فـترة مهمـة من عمري في صحبته، إلى أن توفاه الله، وهو في طريق الله.. وقد كـان موتـه ــ كحياتـه ــ لا يختلفان.

قلت: كيف ذلك؟

1) رواه مسلم.

2) رواه مسلم.

قال: لقد كنت أسير معه في بادية من البوادي.. وكان فيها بعض الحاقدين عليه، وعلى الدين الذي يدعو إليه، وعلى السلام الذي تمتلئ به نفسه.. فلذلك استغل فرصة من فرص غفلتنا، فراح يطعنه بما امتلأت به نفسه من حقد.

قلت: فكيف عرفتم الجاني؟

قال: لقد أقر بجنايته..

قلت: عجبا.. كيف يقر بجنايته.. وهو لم يلحظه أحد؟

قال: عندما قدمنا، فوجدنا صاحبنا مضرجا في دمائه، والبسمة تملأ شفتيه، والأسارير الصافية تملأ وجهه، وجدنا بجانبه قاتله يبكي عليه كما يبكي على أعز الناس.

قلت: إن هذا لعجيب.. أمجنون من قتله؟

قال: بل عاقل.. ولكن حقده غلب على عقله، فقتله.

قلت: فكيف غلب عقله على حقده، فندم؟

قال: لقد كان لقمان الحكيم هو سبب توبته وندمه.. لقد ظل لقمان داعية إلى الله إلى آخر قطرة من عمره.

قلت: إن ما تقوله عجيب.. كيف وقد قتل؟

قال: لقد حكى لنا قاتله من أمره ما قفت له شعورنا، وعلمنا منه أنه كان لصاحبنا من الصدق والإخلاص ما لم نكن نتصوره.

قلت: فما حكى؟

قال: بعد أن طعنه، ونفذت الطعنة القاتلة فيه، نظر إليه والبسمة تملأ شفتيه، وقال له: يا أخي.. ما أنا سوى بشر بسيط.. وجسدي الذي طعنته بشفرتك لا يختلف كثيرا عن التراب الذي تسير عليه.. فلا تنشغل بي عن السير إلى ربك.. سر إلى الله، فإنك إن سرت ترى العجائب.

ثم قال له: إن كان لي حق في قتلك لي.. فقد أسقطته.. وأرجو أن نلتقي عند ربنا أخوين لندخل جميعا جنة الرضوان.. تلك الجنة التي لا غل فيها ولا حقد ولا صراع..

قال ذلك، ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وقال: أعوذ بك يا رب أن يشقى هذا المسكين بسببي.. فافتح له من أبواب رحمتك وفضلك وهدايتك ما تريد الشياطين أن تغلقه في وجهه.

قلت: إن هذا مشهد مؤثر.. فما فعل القاتل؟

قال: لقد أخبرنا بما نزل على قلبه من أشعة النور التي حولته فردا من أهل الله، وقد

صحبنا زمانا، ورأينا من علامات صدق توبته ما جعلنا نؤمن بعظم المنهج الذي اختاره الحكيم في الدعوة إلى ربه.. منهج الحكمة الذي استفاده من النبي الحكيم.

ثانيا ـ الواعظ

قلت: فحدثني عن رحلتك الثانية.

قال: في رحلتي الثانية.. سرت إلى الطائف.. إلى تلك البلدة التي تشرفت بقدوم رسول الله ﷺ إليها، وهو يحمل أعظم رسالة في الأرض.. بل أعظم رسالة في الكون جميعا.. رسالة التعريف بالله، والدعوة إلى عبادته.

كنت قبل ذلك قد تشرفت بأداء عمرة في مكة المكرمة، ثم منها سرت إلى الطائف، وقد حاولت أن أنهج نفس الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ في رحلته إليها، لأستشعر الجهد العظيم الذي ناله ﷺ وهو يؤدي رسالة ربه.. فنالني من الجهد في تلك الطريق ما لم ينلني في حياتي جميعا.

في الطائف شد انتباهي رجل كانت سيما الدعاة إلى الله تتجلى على جبينه ولسانه وجميع حركاته، وكأنه يعد حركاته عدا، فلا يتحرك حركة إلا وخلط فيها من الدعوة إلى الله ما يملأك بالعجب..

سأقص عليك القصة من البداية:

كان أول ما ظهر لي عند زيارتي للطائف أن أزور مقبرتها، فليس هناك واعظ يمسح الجفاء عن القلوب مثل المقابر..

في المقبرة رأيت صاحبي الذي أرشدني إليه معلم الهداية، والذي كان الناس يطلقون عليه (الأمير)(1) ينشد مخاطبا نفسه بأبيات الحريري المعروفة، والتي ضمنها مقامته الساوية:

أيا من يدعي الفهم	**الى كم يا أخا**
تعبي الذنب والذم	وتخطي الخطأ الجم

1) أشير به إلى الإمام إبراهيم بن محمد بن إسماعيل الحمزي الحسني الهاشمي المعروف بالأمير(1141 ـ 1213 ه = 1729 ـ 1799 م) وهو واعظ، ومفسر، من متصوفي الزيدية، نعته الشوكاني بكونه (عالم الدنيا وحافظها، وخطيب الأمة وواعظها)، ولد وتعلم في صنعاء، ورحل إلى مكة مرات ثم استقر إلى أن توفي فيها.. من كتبه (فتح الرحمن في تفسير القرآن بالقرآن)، و (فتح المتعال الفارق بين أهل الهدى والضلال) و (مجموع) ذكر فيه مؤلفات والده وشيوخه وتلاميذه وتراجم بعض معاصريه.. انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني، وانظر: الأعلام للزركلي.

وقد اخترناه لسببين: أولاهما أنه واعظ جمع بين الوعظ والسلوك، ولا يكمل الوعظ إلا بالسلوك.

والثاني: أنا أردنا أن نشير من خلاله إلى طائفة من طوائف الأمة التي لا تزال تتمسك بهدي نبيها ﷺ وبهدي أهل بيته الطاهرين، وهي (الزيدية)، وهي طائفة تنسب إلى زيد بن علي بن الحسين (79 ـ 122هـ)، وتتفق مع الاثني عشرية (والتي سنشير إلى علم من أعلامها البارزين في عصرنا، وهو القمي في الفصل الأخير) في ترتيب الأئمة حتى الإمام علي زين العابدين، ولكنها تقول بإمامة زيد بدلاً من محمد الباقر.. ومن أعلامها البارزين غير الأمير محمد بن إبراهيم بن الوزير (775 ـ 840هـ)، ومحمد بن إسماعيل بن الأمير (1099 ـ 1182هـ)، ومحمد بن علي الشوكاني (1173 - 1250هـ)

أما بان لك العيب   أما أنذرك الشيب
وما في نصحه ريب   ولا سمعك قد صم
أما نادى بك الموت   أما أسمعك الصوت
أما تخشى من الفوت   فتحتاط وتهتم
فكم تسدر في السهو   وتختال من الزهو
وتنصب الى اللهو   كأن الموت ما عم
وحتام تجافيك   وإبطاء تلافيك
طباعا جمعت فيك   عيوبا شملها انضم
إذا أسخطت مولاك   فما تقلق من ذاك
وإن أخفق مسعاك   تلظيت من الهم
وإن لاح لك النقش   من الأصفر تهتش
وإن مر بك النعش   تغاممت ولا غم
تعاصي الناصح البر   وتعتاص وتزور
وتنقاد لمن غر   ومن مان ومن نم
وتسعى في هوى   وتحتال على الفلس
وتنسى ظلمة الرمس   ولا تذكر ما ثم
ولو لاحظك الحظ   لما طاح بك اللحظ
ولا كنت إذا الوعظ   جلا الأحزان تغتم
ستذري الدم لا الدمع   إذا عاينت لا جمع
يقي في عرصة الجمع   ولا خال ولا عم
كأني بك تنحط   الى اللحد وتنغط
وقد أسلمك الرهط   الى أضيق من سم
هناك الجسم ممدود   ليستأكله الدود
الى أن ينخر العود   ويمسي العظم قد

ومن بعـــــــــد فلا بد		من العـرض إذا اعتد
صـــــراط جســـره مد		على النـــار لمن أم
فكم من مرشـــــد ضل		ومن ذي عـــزة ذل
وكم من عـــــــالم زل		وقـــال الخطب قـــد
فبـــــادر أيهـــــا الغمر		لمَّـــا يحلـــو بـــه المر
فقـــد كـــاد يهي العمر		ومـــا أقلعت عن ذم
ولا تـــركن الى الـــدهر		وإن لان وإن سر
فتلفى كمن اغـــــــتر		بـــأفعى تنفث السم
وخفض من تراقيك		فـــإن المـــوت لاقيك
وســــــــار في تراقيك		ومـــا ينكـــل إن هم
وجـــانب صـــعر الخد		إذا ســـاعدك الجد
وزم اللفـــــــظ إن ند		فمـــا أســـعد من زم
ونفس عن أخي البث		وصـــــــدقه إذا نث
ورم العمـــــل الـــرث		فقـــــد أفلح من رم
ورش من ريشـــه انحص		بمـــا عم ومـــا خص
ولا تـــأس على النقص		ولا تحرص على اللم
وعـــاد الخلـــق الـــرذل		وعـــود كفـــك البـــذل
ولا تســـــتمع العـــــذل		ونزههـــا عن الضم
وزود نفســـــك الخـــير		ودع ما يعقب الضير
وهـــيئ مـــركب الســـير		وخـــف من لجـــة اليم

كان ينشد هذه الأبيات بلحن عذب، زاد في عذوبته امتزاجه بحشرجة الدموع.. وقد أسال من دموعي بإنشاده وخشوعه ما غسل بعض القسوة من قلبي.

بعد أن انتهى من إنشاده خرج من المقبرة، فسرت خلفه من غير أن يشعر بي..

كان أول ما صادفنا بعد المقبرة رجل يعرض سلعة في مدخل السوق، ما إن رأى (الأمير) حتى أقبل مسرعا إليه، وقال: يا طبيب القلوب.. جد لي بموعظة تلين ما قسا من

قلبي.

نظر إليه (الأمير) نظرة ممتلئة بالرحمة، وقال: (يا ابن آدم إنما تغدو في كسب الأرباح، فاجعل نفسك فيما تكسبه، فإنك لم تكسب مثلها)(1)

عاد الرجل إلى محله، وقد امتلأ عزيمة وإرادة.. وكأنه في ذلك الموقف البسيط قد شحن قلبه بما يعيد له الحياة.

سرت خلفه.. فلقيه رجل آخر، وطلب منه ما طلب الأول، فقال (الأمير):(من امتطى الصبر قوي على العبادة، ومن أجمع اليأس استغنى عن الناس، ومن أهمته نفسه لم يول مرمتها غيره، ومن أحب الخير وفق له، ومن كره الشر جنبه، ومن رضي الدنيا من الآخرة حظا فقد أخطأ حظ نفسه)

لقيه بعد ذلك رجل يظهر من مظهره أنه صاحب وظيفة دينية في تلك البلدة، فأسرع إليه (الأمير)، وقال: أخي.. أنت مثل نفسي.. فاسمح لي أن أخاطبك بما أخاطب به نفسي.

قال الرجل: قل ما بدا لك.. فلطالما أحييت قلوبنا الميتة، وأسلت عيوننا الجافة.

قال (الأمير):(أوصيك ـ أخي ـ بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك ورقيبك في علانيتك، فاجعله من بالك على حالك، وخفه بقدر قربه منك وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، فليعظم منه حذرك وليكثر منه وجلك، واعلم أن الذنب من العاقل أعظم من الأحمق، ومن العالم أعظم من الجاهل، وقد أصبحنا أدلاء بزعمنا والدليل لا ينام في البحر)

ثم سكت قليلا، وقال: لقد كان المسيح عليه السلام يقصدنا حين قال:(حتى متى تصفون الطريق للدالجين وأنتم مقيمون في محلة المتحيرين؟ تصفون البعوض من شرابكم وتسترطون الجمال بأجمالها) أي أخي كم من مذكر بالله ناس لله، وكم من مخوف بالله جريء على الله وكم من داع إلى الله فار من الله. وكم تال لكتاب الله منسلخ من آيات الله)

قال ذلك، ثم انصرف تاركا الرجل لدموعه.. سرت خلفه، فرأيته قصد جمعا يبدو أن الخلاف دب بين بعضهم، فما إن رأوه حتى فتحوا له الطريق، فقال:(إن استطعتم أن تكونوا كرجل ذاق الموت وعاش ما بعده، فسأل الرجعة، فأسعف بطلبه، وأعطي حاجته فهو متأهب مبادر، فافعلوا، فإن المغبون من لم يقدم من ماله شيئا ومن نفسه لنفسه)

قال ذلك، ثم انصرف عنهم، وقد عالج ما حل بهم من غير خطبة ولا قضاء.

سرت خلفه، فلقيه رجل في موكب كمواكب الملوك والأمراء.. فلما رآه (الأمير) أسرع، وكأنه يفر بنفسه، فأسرع خلفه بعض من كان في ذلك الموكب، وقال له: إن الأمير يطلبك..

---

1) هذه الموعظة والمواعظ التي أضعها بين قوسين هي لابن السماك، كما في (صفة الصفوة)

قال (الأمير): وما يريد من فقير مثلي؟

قال: يريد أن تلين من قلبه ما قسا، وتسيل من دموعه ما جف.

ذهب (الأمير) معه، وحدثه، ولم أسمع من حديثه إلا قوله له:(يا أمير المؤمنين إن لك بين يدي الله تعالى مقاما وإن لك من مقامك منصرفا، فانظر إلى أين منصرفك، إلى الجنة أم إلى النار؟)

قال له: زدني

فقال: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك أبا، وأوسطهم عندك أخا، وأصغرهم عندك ولدا، فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك.

بكى الأمير بكاء شديدا، حتى قال بعض رفقاء الأمير مخاطبا (الأمير):(ارفق بأمير المؤمنين) فقال:(يا فلان.. تقتله أنت وأصحابك وارفق به أنا)

فقال الأمير: لا تسمع إليه.. زدني رحمك الله.

قال (الأمير): يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار، فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ قال:(من اصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة) (1)

فبكى الأمير، وقال له: عليك دين.

قال (الأمير): نعم، دين لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي.

قال الأمير: إنما أعني دين العباد.

قال (الأمير): إن ربي لم يأمرني بهذا، أمر ربي أن أوحده وأطيع أمره، فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذريات:56 ـ 58)

قال الأمير: هذه ألف دينار، خذها، فأنفقها على عيالك، وتقو بها على عبادتك.

قال (الأمير): سبحان الله، أنا أدلك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك.

قال (الأمير) هذا، ثم انصرف تاركا الأمير لدموعه..

ظللت طيلة النهار أسير خلف (الأمير) من غير أن يشعر بي، وقد رأيته لا يترك أحدا إلا وعظه ودعاه.

---

1) رواه ابن سعد وابن عساكر.

بعد أن رأيت كل ذلك اقتربت منه، وقلت: لكأني بك أحد الذين أبحث عنهم.

نظر إلي، وقال: إن كنت تبحث عن الذي يسيل ما جف من الدموع، ويلين ما قسا من القلوب(1)، فقد ظفرت بحاجتك، وأنا ذلك الرجل.

قلت: ففمك هو الفم الثاني.

قال: إن كان الفم الثاني هو فم الواعظ، ففمي هو فم ذلك الفم.

قلت: فهل تأذن لي في صحبتك لأتعلم على يديك من فنون الهداية ما يجعلني وارثا من ورثة النبي ﷺ؟

قال: ذلك لك لا لي.. فما كان لي أن أرد من قصدني.

قلت: كيف يكون ذلك لي، وأنا الذي أضع نفسي بين يديك لتعلمني مما علمك الله؟

قال: إن تحليت بحلة أهل العلم، وتأدبت بآداب أهل الورع، كنت صالحا لتلقي هذه العلوم، وإلا فإن في هذه العلوم فتنة، فلا تكفر.

قلت: فتنة.. أي فتنة؟.. هل الدعوة إلى الله فتنة؟

قال: ليست الدعوة إلى الله هي الفتنة.. ولكن الفتنة قد تعرض للداعية إلى الله بما يراه من إقبال الناس عليه، فيتخذهم إلها من دون الله.

قلت: فما المخرج من ذلك؟

قال: أن لا تدعو إلا نفسك، وأن لا تعظ إلا نفسك.

قلت: إنما قصدتك ليجعل الله مني نورا من أنوار الهداية، فكيف أكتفي بنفسي؟

قال: إذا وعظت غيرك، فكن في موعظتك لغيرك واعظا لنفسك، فلا خير فيمن يعظ ولا يوعظ.

قلت: أكل ما سمعته منك كان مواعظ لنفسك؟

قال: أجل.. ولولا ذلك ما خشعت القلوب، ولا سالت الدموع؟.. لقد قال رسول الله ﷺ يدعونا إلى ذلك: (أوحى الله إلى عيسى ابن مريم: عظ نفسك بحكمتي، فان انتفعت فعظ الناس، وإلا فاستحي مني)(2)

---

1) أشير إلى الحديث المعروف: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغةً وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودعٍ فأوصنا. قال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعةٍ ضلالةٌ (رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح)

2) رواه الديلمي.

***

لم أصحب هذا الرجل الفاضل إلا أربعة أيام فقط.. ولكنها كـانت ــ بالنسبة لثمراتها وعلومها ـ كأربعة أعوام.. لقد كـانت ــ كما قـال ابن عطـاء الله في حكمه ــ:(رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده)

القصة

في مساء اليوم الأول سرت معه إلى مجلس من المجالس، وكان ذلك المجلس مكتظا بالحضور، وكلهم شوق ولهفة لسماعه.

صعد (الأمير) منصة متواضعة، وقال: سلوني.. ولا تسألوني إلا ما ينفعكم..

اختبار:

قام رجل تبدو عليه آثار النعمة، وقال: أصدقك القول.. أنا رجل من أثرياء هذه المدينة.. وهم في سائر المناطق ـ ماعدا هذه المدينة ـ يسمونني (رجل أعمال).. وأنا ألقى الاحترام حيث حللت.. ولكني في هذه المدينة لا أجد من الاحترام ما أجد في تلك المناطق.

نظر إليه (الأمير)، وقال: ما حاجتك؟

قال الرجل: أريد منك أن تعظ هؤلاء في هذا.. ألم يأمر رسول الله ﷺ بإنزال الناس منازلهم؟.. فأريد منك أن تعظهم في هذا.

قال (الأمير): أهذه هي حاجتك؟

قال الرجل: أجل.. هذه أول مرة أحضر مجلسك هذا.. وقد علمت مدى تأثيرك.. فلذا طلبت منك ما طلبت.. ولك عندي من الجزاء بعدها ما تريد.

قال (الأمير): فاسمع مني هذه القصة التي رواها النبي ﷺ لأمته.. واعلم أن النبي ﷺ لم يروها لنا لنتسلى، وإنما رواها لنتأدب ونتعظ.

قال الرجل: هات نسمع.. فما أحلى القصص.. أنا أسافر من أجل القصص المسافات الطويلة.. وأصرف الأموال الكثيرة.

قال (الأمير): لقد ذكر النبي ﷺ أن ثلاثةً من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيءٍ أحب إليك؟ قال: لونٌ حسنٌ، وجلدٌ حسنٌ، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس؛ فمسحه فذهب عنه قذره وأعطي لوناً حسناً. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فأعطي ناقةً عشراء، فقال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأقرع فقال: أي شيءٍ أحب إليك؟ قال: شعرٌ حسنٌ، ويذهب عني هذا الذي

قذرني الناس: فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطي بقرةً حاملاً، وقال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى فقال: أي شيءٍ أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاةً والداً.

فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكينٌ قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيراً أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرةٌ. فقال: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً، فأعطاك الله !؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكينٌ وابن سبيلٍ انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري؟ فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيءٍ أخذته لله عز وجل. فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك(1).

صاح الرجل: حسبك.. حسبك.. والله لكأن النبي ﷺ يتحدث عني.. لقد كنت فقيرا، فأغناني الله.. وكنت مبتلى فعافاني الله.. وأنا أعوذ بالله من أن أسقط في الاختبار.. وإني أشهدك وأشهد هذا الجمع المبارك أن بابي مفتوح لمن يريد، وأناشد كل من رددته أو صددت دونه بابي أن يأتي إلي ليأخذ ما يريد، ويدع ما يريد.

أمانة:

قام آخر، وقال: أنا تاجر.. والتاجر ـ كما تعلم ـ يتعامل مع أموال الناس.. وأنا ـ أحيانا ـ يأتيني الرجل بسلعة من سلعه لأبيعها له.. ثم يغيب عني، فلا أراه.

قال (الأمير): فما تفعل في المال الذي تستفيده منها؟

قال الرجل: أنتفع به.. ليس لي إلا ذلك.. لقد ذكرت لك أن الرجل يضع سلعته عندي، ثم لا أراه بعدها.

قال (الأمير): اصدقني.. هل تسر لمجيئه إن جاء؟

1) رواه البخاري ومسلم.

قال الرجل: لولا أني في هذا المجلس، وأمامك، ما صدقتك.. أنا لا أسر لمجيئه، بل أحيانا أدعو الله أن يضل عن محلي، فلا يراه ولا يدله أحد عليه.. وأحسب أن كل إنسان في محلي يتخذ نفس الموقف.

قال (الأمير): فاسمع هذه القصة التي قصها علينا رسول الله ﷺ.. وحاول أن تطبقها على نفسك.. لقد ذكر رسول الله أن رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدا، قال: فائتني بالكفيل، فقال: كفى بالله كفيلا، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبا، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني تسلفت من فلان ألف دينار، فسألني كفيلا فقلت: كفى بالله كفيلا، فرضي بك، وسألني شهيدا فقلت: كفى بالله شهيدا، فرضي بك، وإني قد جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذي له فلم أجد، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبا، فلما نظرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهدا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذي أتيت فيه! قال: هل كنت بعثت إلي شيئا؟ قال: أخبرتك أني لم أجد مركبا قبل الذي جئت فيه، قال: فان الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة ، فانصرف بألف دينار راشدا)[1]

قال الرجل: فهمت القصة.. وعلمت أمانة هذا الرجل.. ولكن هل ترى من الحكمة أن أرمي المال في الشارع، ثم أقول له:(اذهب إلى فلان)

قال (الأمير): رسول الله ﷺ لم يقصد هذا.. إن القصة لا تؤخذ بحروفها، بل بمعانيها.

قال الرجل: فكيف أطبقها علي.. أو: كيف أستفيد منها في وضعي.

قال (الأمير): إذا جاءك الرجل، فسجل كل ما يرتبط به من معلومات.. فإذا وفقك الله وبعت سلعته، فاكتف بحقك منها، وأرسل إليه ليأخذ حقه.

قال الرجل: أحيانا تكون السلع بسيطة.. فهل أتكلف كل هذا التكلف لأجلها.

قال (الأمير): ليس في الأمانة صغير ولا كبير.. ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:75)؟

أترضى ـ وأنت المنتسب إلى أمة محمد ﷺ ـ أن تكون أدنى من ذاك الإسرائيلي؟

قال الرجل: لا.. لا أرضى.. وبورك فيك.. وأعاهدك وأعاهد هذا الجمع المبارك أني

---

1) رواه البخاري.

سأبحث عن كل صاحب أمانة لأرد له أمانته.. فما كان لهمتي أن تكون أقصر من همة ذلك الإسرائيلي(1).

الفرج:

قام رجل آخر، وقال: اسمح لي يا طبيب القلوب.. واسمحوا لي أيها الجمع المبارك أن أبث إليكم شكواي.. أنا رجل كنت في رغد من الدنيا، وفي وافر من الصحة، وفي رفيع من المناصب.. لكن كل ذلك ولى وجهه عني.. ولست أدري لم.. ولست أدري ما المخرج.. أنا الآن أشعر كأني داخل كهف مظلم لا يتسرب إلي من خلاله أي شعاع من أشعة الأمل.

قال ذلك، ثم جلس، فقال (الأمير): سأقص عليك قصة رواها لنا المصطفى ﷺ.. حاول أن ترتقي لتفهمها، وتطبقها على حالك.. قال ﷺ: (انطلق ثلاثة نفرٍ ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غارٍ فدخلوه، فانحدرت صخرةٌ من الجبل، فسدت عليهم الغار؛ فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم.

قال رجلٌ منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً. فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقضهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت ــ والقدح علي يدي ــ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي ــ فاستيقظا فشربا غبوقهما.. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.

قال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عمٍ كانت أحب الناس إلي، فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنةٌ من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينارٍ على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، قالت: اتق الله، فانصرفت عنها، وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها.. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجلٍ واحدٍ ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أد إلي أجري، فقلت: كل ما ترى من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبد الله لا تستهزيء بي؟! فقلت: لا أستهزيء بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون(2).

قال الرجل: بورك فيك.. لقد دللتني على المخرج.. لكأن رسول الله ﷺ يتحدث معي، ويبشرني.. فجزاك الله عني كل خير.

---

1) لم نقصد بهذا احتقار الإسرائيلي، فالمسلم يعتقد أن كل المسلمين في جميع الأزمنة والأمكنة أمة واحدة.. وإنما أردنا من هذا أن الهمة تستثار بذكر أعمال الصالحين.

2) رواه البخاري ومسلم.

بلاء:

قام شاب من الجمع، وقال: أنا ــ في الحقيقة ــ أمثل مجموعة شباب من هذه المدينة.. نحن طلبة بالجامعة الأمريكية بلبنان.. نحن ملتزمون باطنا.. ولكنا ــ في الظاهر ــ نستحيي من إظهار انتسابنا للإسلام.. فلذلك نحاول إخفاءه قدر ما استطعنا.. حتى أنا ــ إذا كنا في الجامعة ـ لا نلقي السلام الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ.. بل نلقي التحية التي تعارف عليها طلبة هذه الجامعة..

قال (الأمير): أتخشون من إدارة الجامعة أن تطردكم منها إن أظهرتم التزامكم بالإسلام؟

قال الشاب: لا.. الإدارة تسمح بالحرية الدينية..

قال (الأمير): فلا يمنعكم من الالتزام الظاهر بآداب الدين إلا ما ترونه من سخرية زملائكم؟

قال الشاب: أجل.. لقد جربنا أن نفعل ذلك.. فضحكوا علينا.. بل سمونا (رجعيين)، وبعضهم سمانا (إرهابيين)

قال (الأمير): فاسمع مني هذه القصة التي قصها رسول الله ﷺ لأصحابه في وقت كانوا يجدون أكثر مما تجدون.. قال رسول الله ﷺ: كان ملكٌ فيمن كان قبلكم، وكان له ساحرٌ، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر؛ فبعث إليه غلاماً يعلمه، وكان في طريقه إذا سلك راهبٌ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر.

فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابةٍ عظيمةٍ قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره. فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي؛ وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء.

فسمع جليسٌ للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرةٍ فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك، فآمن بالله تعالى فشفاه الله تعالى، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: ولك ربٌ غيري؟! قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب؛ فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع

شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل بأصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقورٍ(1) وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل بأصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحدٍ، وتصلبني على جذعٍ، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ، وصلبه على جذعٍ، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه فمات. فقال الناس: آمنا برب الغلام، فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك. قد آمن الناس. فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت وأضرم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأةٌ ومعها صبيٌ لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق(2).

بكى الشاب، وقال: ما أعظم التضحية التي قدمها هؤلاء..

قال (الأمير): لقد حدث خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)(3)

بكى الشاب، وقال: لو ذكرت هذا لزملائي لامتلأوا حياء من أنفسهم.

قال (الأمير): لقد حدث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (لما كانت الليلة التي أسرى بي فيها وجدت رائحة طيبة فقلت: ما هذه الرائحة الطيبة يا جبريل؟ قال: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها، قلت: ما شأنها؟ قال: بينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت: بسم الله، فقالت بنت فرعون: أبي؟ فقالت: لا ولكن ربي وربك ورب أبيك الله، قالت: وإن لك ربا غير أبي؟ قالت: نعم ، قالت: فأعلمه بذلك؟ قالت: نعم، فأعلمته، فدعا بها فقال: يا فلانة ! ألك رب غيري؟ قالت : نعم، ربي وربك الله، فأمر ببقرة

---

1) القرقور بضم القافين: نوعٌ من السفن.

2) رواه مسلم.

3) رواه البخاري.

من نحاس، فأحميت ثم أخذ أولادها يلقون فيها واحدا بعد واحد، فقالت: إن لي إليك حاجة! قال: وما هي؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد فتـدفننا جميعـا! قال: ذلك لك لما لك علينا من الحق، فلم يـزل أولادهـا يلقـون في البقـرة حـتى انتهى إلى ابن لها رضيع فكأنما تقاعست من أجله فقال لها: يا أمه! اقتحمي، فإن عذاب الـدنيا أهـون من عـذاب الآخـرة، ثم ألقيت مـع ولـدها، وتكلم أربعـة وهم صـغار: هـذا وشـاهد يوسـف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم)(1)

مقاييس:

قـام رجـل من الجمـع، وقـال: أنـا رجـل حبب اللـه إلي الصـلاة.. وأحيانـا يـأتيني من يزعجني عنها.. فأرفع صوتي غضبا عليه.. فهل ترى في هذا ما يتنافى مع آداب الشريعة؟

سكت (الأمير)، حتى بدا للجمع أنه لا يريد إجابتـه.. فقـام آخـر، وقـال: أصـارحك.. أنـا رجل أحب المظاهر.. وأعظم كل صاحب مظهر.. وأمتلئ بالاحتقار لكل متواضع.. حـتى أن التواضع صار بالنسبة لي مرادفا للذلة.

التفت (الأمير) إلى الرجلين، وقـال: لقـد روى لنـا النـبي ﷺ قصـة.. اسـمعوها مـني.. وحاولوا أن ترتقوا لتسمعوها من رسول الله ﷺ.. فلا خير فيمن لم يسمع من رسول الله.. قال: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثةٌ: عيسى ابن مريم، وصاحب جريجٍ، وكان جريجٌ رجلاً عابداً، فاتخذ صومعةً فكـان فيهـا، فأتتـه أمـه وهـو يصـلي فقـالت: يـا جـريج، فقـال: يـا رب أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته فانصرفت. فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: أي رب أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقـالت: يا جريج، فقال: أي رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمتـه حـتى ينظـر إلى وجـوه المومسـات. فتـذاكر بنـو إسـرائيل جريجـاً وعبادتـه، وكـانت امـرأةٌ بغيٌ يتمثـل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه، فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته، فأمكنته من نفسها فوقع عليها. فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جـريجٍ، فـأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شـأنكم؟ قـالوا: زنيت بهـذه البغي فولدت منك. قال: أين الصبي؟ فجاؤوا به فقال: دعوني حتى أصلي، فصلى، فلما انصـرف أتى الصبي فطعن في بطنـه وقـال: يـا غلام من أبـوك؟ قـال: فلانٌ الـراعي، فـأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهبٍ، قال: لا، أعيدوها من طينٍ كما كانت، ففعلوا.

وبينا صبيٌ يرضع من أمه، فمر رجـلٌ راكبٌ على دابـةٍ فارهـةٍ وشـارةٍ حسـنةٍ، فقـالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليـه فقـال: اللهم لا تجعلـني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع، ـ قال الراوي: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهـو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه، فجعل يمصها ـ قال: ومروا بجاريةٍ وهم يضـربونها، ويقولون: زنيت سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أمـه: اللهم لا تجعـل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها فقـال: اللهم اجعلـني مثلهـا، فهنالـك تراجعـا الحـديث فقالت: مر رجلٌ حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثلـه فقلت: اللهم لا تجعلـني مثلـه،

1) رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي.

ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابـني مثلهـا فقلت: اللهم اجعلني مثلها؟! قال: إن ذلك الرجل كان جباراً فقلت: اللهم لا تجعلـني مثلـه، وإن هذه يقولون لها زنيت، ولم تزن وسرقت، ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها)(1)

عدل:

قام رجل، وقال: أحيانـا تـأتيني فـرص عظيمـة.. ومن نـاس بسـطاء.. لـو أتيحت لهم لخرجوا من الوضع الذي هم فيه إلى وضع أحسن وأكمل..

سأضرب لك مثالا على ذلك.. في الأسبوع الماضي اشتريت سـلعة بـألف دينـار.. ولم يمض يوم على شرائي لها حتى ارتفع سعرها في الأسـواق العالميـة عشـرات الأضـعاف.. فرحت لذلك فرحا كثيرا.. ولكني ما إن رأيت بائعها، وهـو يعض أصـابع النـدم، حـتى امتلأت حسرة، وتصورت أني في موقفه.. فما تراني أفعل في مثل هذه المواقف؟

قال: سأقص عليك قصة قصها علينا رسـول اللـه ﷺ.. وافهم منهـا مـا بـدا لـك.. لقـد حدثنا رسول الله ﷺ عمن قبلنا من الأمم، فقال: اشترى رجل من رجـل عقـارا لـه، فوجـد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة يها ذهب، فقـال لـه الـذي اشـترى العقـار: خـذ ذهبك مني، إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع الذهب ، وقـال الـذي لـه الأرض: إنمـا بعتـك الأرض وما فيها فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليـه: ألكمـا ولـد؟ قـال أحـدهما: لي غلام، وقـال الآخـر لي جاريـة فقـال: أنكحـوا الغلام الجاريـة وأنفقـوا على أنفسـهما منـه وتصدقوا(2).

قال الرجل: وعيت القصة.. ولكني لم أقدر على تنزيلها على حالتي.

قال (الأمير): النبي ﷺ في هـذه القصـة يحضـنا على الأمانـة والرحمـة والعدالـة.. فلا ينبغي للكريم السمح أن يكون أنانيا حريصا.. بل يحاول أن يشرك غيره..

وأنا أرى أن تشرك هؤلاء في بعض ما يرزقك الله به من المكاسب..

قال الرجل: بورك فيك.. نعم.. لا ينبغي لي أن أكون أنانيا.. ولا حريصا.. لقد اسـتفتيت الفقهاء، فأفتوني.. ولكن قلبي لم يطمئن.. فلذلك سآخذ بما ذكرت.

علوم:

قام رجل من الجمع، وقال: أنـا رجـل حبب اللـه إلي العلم.. فأنـا أنهـل منـه، ولا أكـاد أشبع.. ولكني ـ أحيانا ـ أشعر، وكأني قد التهمت جميـع العلـوم.. وأحيانـا ــ وبكـل صـراحة ـ أشعر أني أعلم أهل الأرض.. وأنه لا أحد يضاهيني في المعارف التي كتب لي أن أتعلمها.

نظر إليـه (الأمـير)، وقـال: لقـد قص علينـا رسـول اللـه ﷺ قصـة، فاسـمعها، وارتـق

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

لتسمعها منه ﷺ.. قال رسول الله ﷺ: إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يا رب، وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا، تجعله بمكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم.

فأخذ حوتا، فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون ـ عليهما السلام ـ حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه، فسقط في البحر واتخذ سبيله في البحر سربا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً (الكهف: 62)، ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذي أمره الله به.

قال له فتاه: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (الكهف: 63)، قال: فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا، فقال: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً (الكهف: 64)

فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام!. قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا، قال: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (الكهف: 67)، يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه، لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (الكهف: 69)، قال له الخضر: فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (الكهف: 70)

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهما، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئا إمرا: قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) (الكهف)، قال: وقال رسول الله ﷺ:(كانت الأولى من موسى نسيانا)

وجاء عصفور فنزل على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فقتله، فقال له موسى: أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) (الكهف)، قال:(وهذه أشد من الأولى)، قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (الكهف: 76)

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض قال: مائل. فقال الخضر بيده، فأقامه، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم

يطعمونا ولم يضيفونا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78)﴾ (الكهف)، فقال رسول الله ﷺ:(وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما) (1)

رحمة:

قام رجل من الجمع، وقال: أنا عضو في بعض جمعيات الرفق بالحيوان.. وقد عاتبني البعض في انتمائي لمثل هذه الجمعيات.. فهل ترى علي من بأس في ذلك؟

نظر إليه (الأمير)، وقال: لقد حكى لنا رسول الله ﷺ هذه القصة.. قال: (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها وشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي ! فنزل البئر فملا خفه ماء ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله ! وإن لنا في البهائم أجرا ؟ قال في كل ذات كبد رطبة أجر)(2)

وحكى لنا قصة أخرى، فقال: (غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركي(3)كاد يقتله العطش، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغفر لهذا بذلك)(4)

وحكى لنا قصة أخرى، فقال: (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش(5)الأرض حتى ماتت)(6)

وحكى لنا قصة أخرى، فقال:(مر رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق فقال: والله لانحين هذا عن طريق المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة)(7)

***

بعد أن عدنا إلى البيت في ذلك المساء قلت له: يا إمام.. كيف اكتفيت في ذلك المجلس بتلك القصص، ولم تعدها إلى المواعظ التي تعود الوعاظ إلقاءها.

قال: من آداب الواعظ أن يغير أسلوب موعظته حتى لا يصيب الناس السأم والملل..

---

1) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) ركي: الركي جنى للركية، وهي البئر، وجمعها ركايا. (النهاية:2 / 261).

4) رواه البخاري.

5) خشاش: الخشاش: حشرات الارض، والطير ونحوها، الواحدة خشاشة. (المعجم الوسيط:1/ 235)

6) رواه البخاري ومسلم.

7) رواه أحمد ومسلم.

فالملل هو أخطر ما يصيب المستمعين، ولذلك فإن الواعظ المستن بسنة رسـول اللـه ﷺ هو الذي يحـرص على أن لا يجـر مسـتمعيه إليـه.. فعن ابن مسـعود قـال: (كـان النـبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام، كراهية السآمة علينا)(1)

قلت: فلم اخترت القصص بالذات؟

قال: لم يكن لي خيار في ذلك.. لقد كانت حـال المسـتمعين وأسـئلتهم تسـتدعي أن أذكر لهم من القصص ما سمعت، فقصصت عليهم.

قلت: أترى أن للقصص من التأثير ما يمكن أن يؤثر في المستمعين؟

قال: أجل.. ولولا ذلك ما أمرنا الله تعالى باستعمال هذا الأسـلوب، فقـال:﴿ فَاقْصُـصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (لأعراف:من الآية 176).. ولولا ذلك ما قص علينا ربنا، ولا قص علينا نبينا.. إن كلام ربنا، وهدي نبينا ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَلا مِنْ خَلْفِـهِ تَنْزِيـلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:42)

قلت: فما وجه هذا التأثير؟

قال: لقد أخبر القرآن الكريم عن بعض تأثير القصص في نفس المتلقي، فقال:﴿ وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود: 120)، ففي هذه الآية الكريمة إخبار عن نوع من أنواع تأثير القصص القـرآني في النفس، وهـو تثـبيت المـؤمن على دين اللـه، وأخذه بالعزيمة في ذلك.

قلت: فما سر ذلك؟

قال: إن القاص ـ الذي يعرف كيف يتسـلل إلى قلـوب مسـتمعيه ـ ينشـئ في نفس المستمع إلى القصة حب تقمص شخصية البطل، وهو ما يدعوه إلى التأسـي بـه والاعتبـار بمواقفه.

فمن يعجب مثلا بموقـف إبـراهيم ﵇ مـع قومـه، وعـدم خوفـه من أذاهم، وتعرضـه للفتن بسبب ذلك، يمتلئ إعجابـا وحبـا لإبـراهيم ﵇، وهـو مـا يـدعوه بتلقائيـة لأن يتقمص الأدوار التي أداها إبراهيم ﵇ تقمصا لروح القصة لا لحقيقتها.

فقصة إبراهيم ﵇ مع ابنه مثلا، وكيف هم بذبحه طاعة لله في ذلك ينشـئ في نفس المؤمن الاستسلام المطلق لله بغض الظر عن أن يكون ذلك بنفس الطريقة الـتي حصـل بها إسلام إبراهيم ﵇.

قلت: ولكن البعض ينحرف بالقصص انحرافات خطيرة(2)؟

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) وذلك مثل القصص الكثيرة التي تمتلئ بها كتب التفسير، والمتلقاة عن اليهود الذين أسلموا، وهي قصص أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق.

قال: في كل مجال هناك المستن، وهناك المبتـدع.. ولا ينبغي أن نـترك السـنة لأجـل الخوف من البدعة.

قلت: ألا يمكن أن نسد ذرائع البدع؟

قال: إذا سددنا ذرائع البدع بإماتة السـنن، يكـون ذلـك من أعظم البـدع.. ونكـون قـد حققنا أغراض البدع، لأنه لا غرض للبدعة إلا إماتة السنة.

قلت: لكني سمعت نهي بعض الصالحين عن الجلوس إلى القصاصين؟

قال: هم لم يقصدوا كل القصاص.. وإنما قصدوا الكذابين منهم..

قلت: إن كل ما ذكرته من القصص مما ورد في السنة.. فهل تعني بذلك عـدم جـواز القص بما ورد في غيرها؟

قال: لا.. ومعاذ الله أن أضيق ما وسع الله..

قلت: فهل يمكن وضع القصص كما يفعل الروائيون؟

قال: أجل.. ولابد من ذلك.. فلا يحق لمسلم يجد وسيلة يدعو بهـا إلى ربـه، ثم يفـرط فيها.

قلت: ولكنه يكذب بذلك.. لأنه يحكي شيئا لم يوجد.

قال: لو حكاه باعتباره وقع بالفعل كان كاذبا.. لكنه إن حكاه باعتباره حكاية موضـوعة فلا حرج عليه في ذلك.

قلت: لقد نظر البعض إلى القصص التي ذكرها القرآن الكريم بهذا الاعتبار، فتصـوروا أنها مجرد حكايات موضوعة للتربية ولا حظ لها من الوجود الواقعي.

قال: كذبوا.. ألم يقرأوا قوله تعالى:﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ (الكهف: 13)؟

ألم يقرأوا قوله تعـالى:﴿ ذَلِـكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الْغَيْبِ نُوحِيـهِ إِلَيْـكَ وَمَـا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُـونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران:44)؟

ألم يقرأوا قوله تعالى:﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُـكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود:49)؟

ألم يقرأوا قوله تعالى:﴿ ذَلِـكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الْغَيْبِ نُوحِيـهِ إِلَيْـكَ وَمَـا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُـوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف:102)؟

المثل

في اليوم الثاني سرت مـع الأمـير إلى مجلس من المجـالس، وكـان ذلـك المجلس ـ

كسابقه ـ مكتظا بالحضور، وكلهم ـ مثل من قبلهم ـ شوق ولهفة لسماعه.. ولكن الفرق بين هؤلاء وأولئك هو أن هؤلاء كانوا من خلال مظهرهم وأسئلتهم على مستوى عال من الثقافة، فلذلك كانت أسئلتهم تختلف كثيرا عن أسئلة من قبلهم، وكانت أجوبة الأمير تميل إلى العلمية في هذا المحل أكثر منها إلا الوعظية.

صعد (الأمير) منصة متواضعة، وقال: عم تريدون أن أحدثكم.

قال رجل منهم: نريد أن تحدثنا عن سر قوله تعالى: وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (ابراهيم: 25)، وقوله تعالى: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (العنكبوت:43)

قال الأمير: في هذه الآيات وغيرها يخبرنا القرآن الكريم عن مسلك من المسالك التي تنفذ منها المواعظ إلى القلوب، وهو مسلك الأمثال.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (الاسراء: 89)، وقال: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْأِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (الكهف:54).. فتصريف الآيات يشمل تنويع الحجج والبراهين على قضية واحدة، فيؤتى للقضية الواحدة بأكثر من دليل وبرهان، فتتابع على عقولهم الحجج وتُصرَّف لها الأمثال والعبر.

انظروا القرآن الكريم، فسترونه ينوع الأساليب، فيؤتى بالدليل الواحد بأكثر من أسلوب: فتارة بالخبر، وتارة بالاستفهام، وأخرى بالنفي والإثبات، وأحيانا بضرب الأمثال أو القصص، ونحوها.

قالوا: فما الأمثال؟

قال: هي ادعاء التماثل الجزئي أو الكلي بين شيئين أو حالين طلباً لإثبات أو إيضاح أحدهما اعتماداً على ثبوت أو وضوح الثاني.. وهي لذلك تستخدم في تقريب المعنى وإيضاحه والإقناع به والحث على الفعل ونحو ذلك.

قالوا: فاضرب لنا مثلا يقرب ذلك.

قال: انظروا كيف عبر لقمان عليه السلام عن لطف الله وخبرته، وهي قضية عقدية، ترتبط بها ناحية سلوكية، وهي تأثير هذه المعرفة في الحذر من المعاصي، والحرص على الطاعة، فجاء بصورة حسية تقرب هذه المعاني جميعا، فقال: يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (لقمان:16)

إن هذه الصورة هي أن المظلمة أو الخطيئة أو الطاعة لو كانت مثقال حبة خردل، وكانت مخفية في السماوات أو في الأرض، فإن الله يحضرها يوم القيامة حين يضع

الموازين القسط، ويجازي عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، حتى لو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو ذاهبة في أرجاء السماوات والأرض، فإن اللّه يأتي بها لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولهذا ختم الآية بقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ أي لطيف العلم فلا تخفى عليه الأشياء، وإن دقّت ولطفت وتضاءلت، خبير لا تعزب عنه الأخبار الباطنة فلا يجري في الملك والملكوت شيء ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بغير هذه الصيغة كقوله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (الانبياء:47)

ولكن للصيغة التي ذكرها لقمان ﵇، وفي المحل الذي ذكرها فيه تأثيرها الخاص، وهي تتناسب مع ميل الإنسان بطبعه إلى توظيف الخيال في توضيح الحقائق.

أمثال قرآنية:

قالوا: وعينا ما ذكرت، فاضرب لنا من أمثال القرآن الكريم ما يؤكد ذلك ويحققه.

قال: لقد ورد في القرآن الكريم الكثير من الأمثال التي خصت بالبحث فيها المصنفات.. بل ورد في الحديث اعتبار الأمثال قسما من أقسام القرآن الكريم، فقد قال رسول الله ﷺ:(إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال. فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال)(1)

ومن الأمثال التي ورد بها القرآن الكريم قوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (النحل:75)، فهذا المثل يشبه المشركين بعبد مملوك لا يستطيع القيام بأية خدمة لمولاه، ويشبه المؤمنين بإِنسان غني، يستفيد الجميع من إِمكانياته.. والعبد ليس له قدرة تكوينية لأنّه أسير بين قبضة مولاه ومحدود الحال في كل شيء، وليس له قدرة تشريعية أيضاً لأنّ حق التصرف بأمواله (إِنْ كان له مال) وكل ما يتعلق به هو بيد مولاه، وبعبارة أُخرى إنّه: عبد للمخلوق،ولا يعني ذلك إِلاّ الأسر والمحدودية في كل شيء.

أمّا ما يقابل ذلك فالانسان المؤمن الذي يتمتع بانواع المواهب والرزق الحسن: (ومَنْ

1) رواه البيهقي.

رزقناه منّا رزقاَ حسناَ) والإِنسان الحر مع ما له من إِمكانيات واسعة (وهو ينفـق منـه سـراً وجهراً) فاحكموا: (هل يستوون).. قطعاً، لا .. فإِذِنْ: (الحمد لله)

اللّه الذي يكون عبده حُرّ وقادر ومنفق، وليس الاصـنام الـتي عبادهـا أسـرى وعـديمو القدرة ومحددون (بل أكثرهم لا يعلمون) (1)

ومن الأمثال القرآنية قوله تعالى: وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَـتْ غَزْلَهَـا مِنْ بَعْـدِ قُـوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُم (النحل: 92)

فالله تعالى يصور لنا في هذا المثال حال من ينقض المواثيق والأيمـان بعـد توكيـدها، فضرب مثلا بامرأة خرقاء كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه.. لقد قـال سـيد مبينـا التـأثير التربوي لهذا المثل:(فمثل من ينقض العهد مثل امرأة حمقاء ملتاثة ضعيفة العـزم والـرأي، تفتل غزلها ثم تنقضه وتتركه مرة أخرى قطعا منكوثة ومحلولة ! وكل جزيئـة من جزئيـات التشبيه تشي بالتحقير والترذيل والتعجيب. وتشوه الأمر في النفوس وتقبحـه في القلـوب. وهو المقصود وما يرضى إنسان كريم لنفسه أن يكون مثلـه كمثـل هـذه المـرأة الضـعيفة الإرادة الملتاثة العقل، التي تقضي حياتها فيما لا غناء فيه)(2)

ومن الأمثال القرآنية قوله تعالى: أَلَمْ تَـرَ كَيْـفَ ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَـةً طَيِّبَـةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّـمَاءِ تُـؤْتِي أُكُلَهَـا كُـلَّ حِينٍ بِـإِذْنِ رَبِّهَـا وَيَضْـرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَـالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (ابراهيم:24 ـ25)، وفي مقابلها: وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَـجَرَةٍ خَبِيثَـةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (ابراهيم:26)

فهذا المثال يصور الكلمة الطيبة بصورة الشجرة الطيبة الثابتة التي تـؤتي ثمرهـا كـل حين، وتصور الكلمة الخبيثة بصورة الشجرة الخبيثة التي لا قرار لها، ولا ثمر ينتفع بـه، وقـد قال سيد مبينا بعض أبعاد هذا المثل:(إن الكلمة الطيبة - كلمة الحـق - لكالشـجرة الطيبـة. ثابتة سامقة مثمرة.. ثابتة لا تزعزعهـا الأعاصـير، ولا تعصـف بهـا ريـاح الباطـل ؛ ولا تقـوى عليها معاول الطغيان - وإن خيل للبعض أنها معرضـة للخطـر المـاحق في بعض الأحيـان - سامقة متعالية، تطل على الشر والظلم والطغيـان من عـل - وإن خيـل إلى البعض أحيانـا أن الشـر يزحمهـا في الفضـاء - مثمـرة لا ينقطـع ثمرهـا، لأن بـذورها تنبت في النفـوس المتكاثرة آنا بعد آن)

وبالمقابل فإن (الكلمة الخبيثة - كلمة الباطل - لكالشجرة الخبيثـة ؛ قـد تهيج وتتعـالى وتتشابك ؛ ويخيل إلى بعض الناس أنها أضـخم من الشـجرة الطيبـة وأقـوى. ولكنهـا تظـل

1) الأمثل للشيرازي: 8/264..

2) الظلال.

نافشة هشة، وتظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض.. وما هي إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض، فلا قرار لها ولا بقاء) (1)

ومن الأمثال القرآنية هذا المثال الذي يصور عاقبة الصدقة في سبيل الله، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:261)

فالله تعالى في هذه الآية يضرب مثلا لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فجاء بمثل يحوي القضية ودليلها، ليكون أكثر إقناعا وتأثيرا.

ومن الأمثال القرآنية ما نص عليه قوله تعالى:﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20﴾ (البقرة)

ففي هذه الآيات الكريمة نجد مثالين للمنافقين:

يصور أولهما بدقّة عمل المنافقين على ساحة الحياة الإنسانية. فهذه الحياة مملوءة بطرق الإنحراف والضلال، وليس فيها سوى طريق مستقيم واحد للهداية، وهذا الطريق مليء بالمزالق والأعاصير. ولا يستطيع الفرد أن يهتدي من بين الطرق الملتوية إلى الصراط المستقيم، كما لا يستطيع أن يتجنب المزالق ويقاوم أمام الأعاصير، إلاّ بنور العقل والإيمان، وبمصباح الوحي الوهّاج.

وهل تستطيع الشعلة المحدودة المؤقتة التي يضيئها الإنسان، أن تهدي الكائن البشري في هذا الطريق الشائك الطويل؟!

هؤلاء الذين سلكوا طريق النفاق، ظنوا أنّهم قادرون بذلك أن يحافظوا على مكانتهم ومصالحهم لدى المؤمنين والكافرين. وأن ينضمّوا إلى الفئة الغالبة بعد نهاية المعركة. كانوا يخالون أن عملهم هذا ذكاء وحنكة. وأرادوا أن يستفيدوا من هذا الذكاء وهذه الحنكة، كضوء يشقّ لهم طريق الحياة ويوصلهم إلى مآربهم. لكن الله سبحانه ذهب بنورهم وفضحهم.

وأما المثال الثاني، فيصوّر حياة المنافقين بشكل ليلة ظلماء مخوفة خطرة، يهطل

1) الظلال.

فيها مطر غزير، وينطلق من كل ناحية منها نـور يكـاد يخطـف الأبصـار، ويملأ الجـوّ صـوت مهيب مرعب يكاد يمزّق الآذان. وفي هذا المناخ القلق ضلّ مسافر طريقه، وبقي في بلقع فسيح لا ملجأ فيه ولا ملاذ، لا يستطيع أن يحتمي من المطر الغزير، ولا من الرعد والـبرق، ولا يهتدي إلى طريق لشدّة الظلام(1).

قال بعض القوم: لكن المثـل الواحـد قـد تفهم منـه معـاني مختلفـة، ألا يحـدث ذلـك تلبيسا؟

قال: لا.. ذلك يثري المثل، ويجعله مادة تربوية غنية بالمعاني..

أمثال نبوية:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الأمثال التي نطق بها حـبيب القلـوب، ومحـيي النفـوس سيدنا رسول الله ﷺ.

قال: لقـد كـان رسـول اللـه ﷺ حريصـا على اتبـاع سـنة القـرآن الكـريم في ضـرب الأمثال.. ولذلك كان من سنته ضربها للتعليم والموعظة.

قالوا: فحدثنا عن أمثاله ﷺ.

قال: من ذلك قوله ﷺ يحكي عن انتهاج الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لضـرب الأمثـال في المواعظ:(إن الله تعالى أمر يحيى بن زكريـا بخمس كلمـات أن يعمـل بهن وأن يـأمر بـني إسرائيل أن يعملوا بهن، فكأنه أبطأ بهن فأوحى اللـه تعـالى إلى عيسـى: إمـا أن يبلغهن أو تبلغهن ! فأتاه عيسى فقال له: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمـل بهن وأن تـأمر بـني إسرائيل أن يعملوا بهن فاما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن ! فقال له: يا روح الله ! إني أخشى أن سبقتني أو أن أعذب أو يخسف بي!

فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشـرفات، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله تعالى أمرني بخمس كلمات أن أعمـل بهن وآمـركم أن تعملوا بهن، وأولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، فان مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق ثم أسكنه دارا فقال: اعمـل وارفـع إلي ! فجعل العبد يعمل ويرفع إلى غير سيده، فـأيكم يرضـى أن يكـون عبـده كـذلك ! وإن اللـه خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شـيئا، وأمـركم بالصـلاة، وإذا قمتم إلى الصـلاة فلا تلتفتوا فان الله عزوجل يقبل بوجهه إلى عبده ما لم يلتفت، وأمركم بالصـيام، ومثـل ذلـك كمثل رجل معه صرة مسـك في عصـابة كلهم يجـد ريح المسـك، وإن خلـوف فم الصـائم

---

1) انظر: الأمثل: 1/105.

أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم ! فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه، وأمركم بذكر الله كثيرا، ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في اثره فأتى حصنا حصينا فأحرز نفسه فيه، وإن العبد أحصين ما يكون من الشيطان إذا ان في ذكر الله تعالى وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن: الجماعة والسمع والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فانه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلق ربقة الاسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثى جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، فادعو بدعوى الله الذي سماكم المسلمين والمؤمنين عباد الله)(1)

ومن ذلك قوله ﷺ:(ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه، والصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة: محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله تعالى، والداعي فوق الصراط:واعظ الله في قلب كل مسلم)(2)

وقد كان ﷺ يربط الأمثلة أحيانا بأمور حسية ليبقى أثرها في نفس المتلقي، ومن ذلك ما جاء في الحديث أن النبي ﷺ أخذ غصناً، فنفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فانتفض، فقال:(إن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ينفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها)

ومن ذلك أن رسول الله ﷺ كان يستعمل حركات معينة لتقرير المعاني وتشبيهها، ومما روي عنه في ذلك في مواضع مختلفة التشبيك بين أصابعه الشريفة للكناية عن القوة والتماسك حينًا، وللتداخل بين شيئين حينًا آخر، وللاختلاط والاختلاف أحيانا أخرى.

ومن ذلك قوله ﷺ:(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه)(3)

ومنها قوله:(كيف بكم وبزمان يوشك أن يأتي، يغربل(4) الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس، قد مرجت(5) عهودهم وأماناتهم واختلفوا، وكانوا هكذا، وشبك بين

---

1) رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم والبخاري في التاريخ عن الحارث بن الحارث الاشعري.

2) رواه أحمد والترمذي والنسائي.

3) رواه البخاري.

4) أي يذهب خيارهم ويبقى أرذالهم.

أصابعه)(6)

المعلومة

في اليوم الثالث، سرت مع الأمير إلى مدرسة من المدارس التقنية، وقـد تعجبت من مسيره إليها، وقلت: ما عسى الرجل يتحدث في هذا المحل.. وهو محـل لا يتحـدث إلا عن الصنائع والأكوان؟

أحسست أنه قرأ ما في خاطري، فقال: لقد تحول هذا المحل ـ بحمد الله ــ وبفضـل التوجيه الصادق إلى محراب من محاريب العبـادة.. لقـد صـارت المخـابر منـابر.. وصـارت المراقب والمراصد مجالي للتأمل في خلق الله وعبودية الله من خلال النظر إلى أكوانــه.. وصارت الآلات التي انشغل بها الكثير عن الله مسابح يذكر الله عند كل حركة من حركاتها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: تعال معي لأدلك على منهج ذلك.

سرت معه إلى داخل تلك المدرسة التي ما إن رآه أهلهـا حـتى هبـوا مسـرعين إليـه، وكأنهم معه على ميعاد، وقد رأيت في عيونهم من الأشواق لحديثه ما رأيت في سابقيهم.

في بداية حديثه أخذ يرتل بصوت عذب قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَـا السَّـمَاءَ سَـقْفاً مَحْفُوظـاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء:32)، وقوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظـاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (فصلت: 12)

ثم قال لرجل كان يسـتمع إليـه بشـوق عظيم: حـدثنا يـا فلان عمـا ورد في العلم من حفظ الله للأرض من كل ما يؤذيها.

أخذ الرجل يقول: إن هذه الآية تتحدث عن خاصية مهمة لبناء السماء أثبتتهـا الأبحـاث العلمية الحديثة.. لا يمكنني أن أتحدث عنهـا هنـا بالتفصـيل.. ولكـني سـأحدثكم فقـط على ناحية منها لها علاقة بالأرض التي نعيش فيها.. فـالأرض تحـاط بغلاف جـوي يـؤدي وظـائف ضرورية لاستمرار الحياة، فهـو يـدمر الكثـير من النيـازك الكبـيرة والصـغيرة، ويمنعهـا من السقوط على سطح الأرض وإيذاء الكائنات الحية.

فلولا وجود الغلاف الجوي لسقطت ملايين النيازك على الأرض جاعلة منها مكانـاً غـير قابل للعيش، ولكن خاصية الحماية التي يتمتع بها هذا الغلاف سمحت للكائنات بالبقاء آمنـة على قيد الحياة.

---

5) أي اختلطت وفسدت.

6) رواه ابن ماجة.

ليس ذلك فقط.. فالغلاف الجوي يصفي شعاع الضوء الآتي من الفضاء المؤذي للكائنات الحية.

والملفت للنظر، والجالب للدهشة أن الغلاف الجوي لا يسمح إلا للإشعاعات غير الضارة مثل الضوء المرئي والأشعة فوق البنفسجية، وموجات الراديوا بالمرور.. وكل هذه الإشعاعات أساسية للحياة.

فالأشعة فوق البنفسجية التي يسمح بمرورها بشكل جزئي فقط عبر الغلاف الجوي ضرورية جداً لعملية التمثيل في النباتات، ولبقاء الكائنات الحية على قيد الحياة.

أما غالبية الإشعاعات فوق البنفسجية المركزة، فيتم تصفيتها من خلال طبقة الأوزون في الغلاف الجوي، ولا تصل إلا كمية محدودة وضرورية من الطيف فوق البنفسجي إلى الأرض.

وهذه الوظيفة الوقائية للغلاف الجوي لا تقف عند هذا الحد، بل إن الغلاف الجوي يحمي الأرض من برد الفضاء المجمد الذي يصل إلى 270 درجة مئوية تحت الصفر.

قال ذلك، ثم التفت إلى الأمير، وقال: هذا بعض ما أعرفه من تفسير تلك الآيات التي قرأتها.

أشار الأمير إلى رجل آخر، وقال: حدثنا عن تفسير ما ورد في النصوص المقدسة في مواضع كثيرة من الإخبار عن دقة الصنع الإلهي للكون، وأنه مبني على حسابات دقيقة، كما قال تعالى: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يّس:40)، وقال تعالى يعبر عن الموازين التي تضبط الكون، لئلا يختل اتزانه، فيقول:﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن:7)

أخذ الرجل يتحدث بكلام مسهب مفصل عن دقائق الصنع الإلهي، ودقة الموازين التي ضبط بها الكون[1].

وبعد أن أنهى حديثه أشار الأمير إلى رجل آخر، وقال: حدثنا عما ورد في العلوم من تفسير قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (فاطر:41)، وقوله:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج:65)، وقوله:﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (لقمان:10)، وقوله:﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى

1) انظر تفاصيل ما ورد في هذا من كلام الخبراء في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (الرعد:2)

أخذ الرجل يتحدث بمثل ما تحدث من قبله بكلام مسهب مفصل فيما قاله العلم الحديث في آخر أبحاثه في هذه المسائل.

ظللنا طول يومنا نسمع قرآنا وعلوما.. وقد رأيت دموع الحاضرين تنهمر بقوة، وهي تسمع تلك الأحاديث العذبة التي تفسر القرآن الكريم خير تفسير وأبين تفسير.. وقد رأيت بعضهم يصيح تائبا لله ومستغفرا له.

وقد عجبت من ذلك عجبا شديدا، فلم أر من الأمير إلا قراءته القرآن، ودعوته العلماء والمختصين للحديث، وقد سألته عن سر ذلك التأثير، فقال: إن أعظم حجاب بين الإنسان وبين الإيمان، وما يقتضيه الإيمان هو غفلته عن الله، وعن عظمة الله، ولذلك، فإن خير ما يعيد للقلب يقظته هو نظره في الكون، وعبادته الله من خلال ذلك النظر.

ولهذا يتكرر في القرآن الكريم الدعوة إلى النظر، والدعوة إلى العلم، بل إن القرآن الكريم أخبر بأن الخشية محصورة في العلماء.. فلا يعرف الله من لا يعرف أكوانه.

اسمع قوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (البقرة:164).. وقوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (آل عمران:190)

بل إن القرآن الكريم دعا أولي العقول إلى إعمال فكرهم في السماء.. ليعرفوا الله من خلالها، فقال تعالى: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (الروم:8)

وأخبر الجاحدين الذين يجحدون قدرة الله على بعث مخلوقاته بعظمة خلق الكون، فقال: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (غافر: 57)

الحكمة

في اليوم الرابع سرت مع الأمير إلى محال مختلفة، ومن العجيب أني لم أره في تلك المحال جميعا ينطق بشيء إلا بما ورد في أحاديث رسول الله ﷺ من جوامع الحكمة.

سأكتفي بأن أذكر لك بعض ما قاله باختصار[1] لترى مدى عظمة الهدي الذي جاء بـه نبينا ﷺ:

رأى رجلا، فحدثه بقوله ﷺ: (اعزل الاذى عن طريق المسلمين)[2]

ورأى آخـر، فحدثـه بقولـه ﷺ:(إن من النـاس مفـاتيح للخـير مغـاليق للشـر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغالبيق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفـاتيح الخـير على يديـه، وويـل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (إن الله تعالى محسن فأحسنوا)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (إن الله تعالى يحب أن يعمل بفرائضه)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقولـه ﷺ: (إن اللـه تعـالى يحب معـالى الامـور وأشـرافها، ويكـره سفسافها)[6]

ورأى آخر، فحدثـه بقولـه ﷺ: (إن اللـه تعـالى يقـول يـا ابن آدم ! تفـرغ لعبـادتي أملا صدرك غنى وأسد فقرك، وإن لا تفعل ملات يديك شغلا ولم أسد فقرك)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ:(من أفضل الاعمال إدخال السرور على المـؤمن، تقضـي عنه دينا، تقضي له حاجة، تنفس له كربة)[8]

وورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (إن من موجبات المغفرة إدخالـك السـرور على أخيـك المسلم)[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (ألا أخبركم بخيركم من شركم! خيركم من يرجى خــيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره)[10]

---

1) حاولنا أن نجمع هنا أكبر قدر من النصوص في جوامـع كلمـه ﷺ، والـتي تصـنف في أبـواب الحكم، وقـد اكتفينـا بذكرها دون شرحها، لأن لكل منها محله الخاص به.

2) رواه مسلم.

3) رواه ابن ماجة.

4) رواه ابن عدي.

5) رواه ابن عدي.

6) رواه الطبراني في الكبير.

7) رواه أحمد والترمذي والحاكم.

8) رواه البيهقي عن ابن المنكدر مرسلا.

9) رواه الطبراني في الكبير.

10) رواه أحمد والترمذي وابن حبان.

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس ! إن من خير الناس رجلا عمل في سبيل الله تعالى عزوجل على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلا فاجرا جريئا يقرأ كتاب الله ولا يرعوي(1) إلى شئ منه)(2)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس)(3)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (لا تكونوا إمعة(4)تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن أساؤا أسأنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنوا أن تحسنوا، وإن أساؤا أن لا تظلموا)(5)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (ما من عبد إلا وله صيت في السماء، فان كان صيته في السماء حسنا وضع في الأرض، وإن كان صيته في السماء سيئا وضع في الأرض)(6)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها)(7)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (من دل على خير فله مثل أجر فاعله)(8)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (من ذهب في حاجة أخيه المسلم فقضيت حاجته تكتب له حجة وعمرة، فان لم تقض كتبت له عمرة)(9)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا مؤودة من قبرها)(10)، وورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (من ستر أخاه المسلم في الدنيا ستره الله يوم القيامة)(11)

---

1) يرعوي: أي لا ينكف ولا ينزجر، من رعا يرعو إذا كف عن الامور (النهاية:2/236)

2) رواه أحمد والنسائي والحاكم.

3) رواه الترمذي.

4) إمعة: الامعة بكسر الهمزة وتشديد الميم: الذي لو رأى له، فهو يتابع كل أحد على رأيه، والهاء فيه للمبالغة، ويقال فيه إمع أيضا، (النهاية:1/67)

5) رواه البخاري.

6) رواه البزار.

7) رواه الترمذي.

8) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

9) رواه البيهقي.

10) رواه البخاري في الأدب وأبو داود والحاكم.

11) رواه أحمد.

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (أيما مسلم كسا مسلما ثوبا كان في حفظ الله تعالى ما بقيت عليه منه رقعة)(1)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (من عال أهـل بيت من المسـلمين يـومهم وليلتهم غفـر الله له ذنوبه)(2)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (من يتوكل لي مـا بين لحييـه ومـا بين رجليـه أتوكـل لـه بالجنة)(3)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (خير الناس ذو القلب المخموم واللسان الصـادق، قيـل: ما القلب المخموم؟ قال: هـو التقي النقي الـذي لا إثم فيـه ولا بغي ولا حسـد، قيـل: فمن على أثره؟ قال: الذي يشنأ الـدنيا ويحب الآخـرة، قيـل: فمن على أثـره؟ قـال: مـؤمن في خلق حسن)(4)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (من ألطف مؤمنا أو خف له في شئ من حوائجه صـغر أو كبر كان حقا على الله أن يخدمه من خدم الجنة)(5)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (أتدرون ما أكثر مـا يـدخل النـاس الجنـة؟.. تقـوى اللـه وحسن الخلق، أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس النار؟.. الأجوفان: الفم والفرج)(6)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (من حفرماء لم يشرب منه كبد حـرى من إنس وجن ولا سبع ولا طاهر إلا آجره الله يو القيامة، ومن بنى مسجدا كمفحص قطاة أو أصغر بـنى اللـه له بيتا في الجنة)(7)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سـواهما ، وأن يحب المـرء لا يحبـه إلا للـه، وأن يكـره أن يعـود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)(8)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (ثلاث من كن فيه سـتر اللـه تعـالى عليـه كنفـه وأدخلـه جنته: رفق بالضعيف، وشفقة على الوالدين، والاحسان إلى المملوك)(9)

---

1) رواه الطبراني في الكبير.

2) رواه ابن عساكر.

3) رواه أحمد والترمذي والحاكم وابن حبان.

4) رواه ابن ماجة.

5) رواه البزار.

6) رواه أبو الشيخ في الثواب ، والخرائطي في مكارم الاخلاق.

7) رواه ابن خزيمة والشاشي وسمويه.

8) رواه البخاري ومسلم.

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (ثلاث من كن فيه آواه الله في كنفه ونشر عليه رحمته وأدخله جنته: من إذا أعطي شكر، وإذا قدر غفر، وإذا غضب فتر)(1)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (ثلاث من كن فيه حاسبه الله حسابا يسيرا وأدخله الجنة برحمته: تعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك)(2)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (ثلاث من كن فيه فإن الله يغفر له ما سوى ذلك: من مات لا يشرك بالله شيئا، ولم يكن ساحرا يتبع السحرة، ولم يحقد على أخيه)(3)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الايمان: خلق يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن محارم الله، وحلم يرده عن جهل الجاهل)(4)

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ: (ثلاث من كن فيه أظله الله تحت عرشه يوم لاظل إلا ظله: الوضوء على المكاره، والمشي إلى المساجد في الظلم، وإطعام الجائع)(5)

***

لم أمكث في الطائف إلا تلك الأيام الأربعة التي تشرفت فيها بصحبة (الأمير).. لقد كانت تلك الأيام من أكثر الأيام بركة في حياتي..

لقد شعرت ـ وأنا أسير في الطائف بصحبة (الأمير) ـ برسول الله ﷺ، وهو يتجول في شوارع المدينة وأسواقها يدعوها لربها ويهديها لسبيله.. بل شعرت، وكأن أحفاد أهل الطائف يكفرون عن ذنب أسلافهم في مقابلة رسول الله ﷺ بما قابلوه به، بذلك الإكرام وتلك الحفاوة التي أفاضوها على وريثه (الأمير)

وشعرت في نفس الوقت بأن رسول الله ﷺ هو سيد الوعاظ، ومعلمهم، وأن من لم يتعلم الوعظ على يديه، فسيتيه في أودية الهوى، وسيغرق من يعظه وديان الردى.

سألت صاحبي عن سبب تركه للأمير بعد جميل صحبته له، فقال: لقد كان الأمير رجلا رحالة.. لقد كان يشعر أنه كالطبيب الذي يبحث عن الأمراض ليعالجها..

فلذلك نهض ذلك اليوم باكرا، وحزم أمتعته، فسألته عن قصده، فقال: أنت تعلم أن رسول الله ﷺ لم يترك سوقا، ولا قبيلة، ولا مجتمعا، ولا أفرادا إلا وبث فيهم من أنوار الهداية ما يقيم به عليهم الحجة، ويدلهم على المحجة.

---

9) رواه الترمذي.

1) رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس.

2) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب، والطبراني في الأوسط والحاكم عن أبي هريرة.

3) رواه البخاري في الأدب والطبراني في الكبير عن ابن عباس.

4) رواه البزار عن أنس.

5) رواه أبو الشيخ في الثواب، والاصبهاني في الترغيب عن جابر.

قلت: ذاك رسول الله ﷺ.

قال: ولا خير فيمن لم يحمل من الهم ما كان يحمل رسـول اللـه ﷺ.. إن الـوارث لن يناله حظه من وراثة نبيه إلا بعد أن يمتلئ قلبه ألما لكل معصية، وحزنا على كل عاص.

قلت: ما جاء ديننا إلا بالرحمة، فكيف تدعوني إلى الألم؟

قال: الرحمة هي التي تدعو إلى الألم.

قلت: كيف تقول هذا؟

قال: ألا تتألم عندما ترى الفقير الجائع، واليتيم الضائع؟

قلت: بلى.. الكل ينشق قلبه لهذه المرائي.

قال: والورثة يرون في الناس ما ترون.

قلت: ليس كل الناس لهم من الفقر واليتم ما ذكرت.

قال: أعظم الفقر أن تكون فقيرا من ربك، مستغنيا عنه، وأعظم اليتم أن تكون بعيدا عن مولاك الذي لا خير إلا منه.

قلت: فأولياء الله يرون عباد الله بهذا المنظار؟

قال: أجل.. وقد ورثوا ذلـك من رسـول اللـه ﷺ.. فلـذلك لا تـرى لهم سـرورا إلا في إقبال الخلق على الله، واهتدائهم بهدي الله.

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة الثانية من الطريـق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب..

لقد كان خيالي منصرفا تمام الانصراف لما يتحدث به صاحبي.. وكأني مع ذلـك النـبي الواعظ الذي امتلأ العالم جميعا بأنوار عظاته، وتقوت بجمال كلماته.. ولم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنـا من كـل اتجاه.

لقد نزلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أنوار جديدة.. اهتـديت بهـا بعـد ذلـك إلى شمس محمد ﷺ.

ثالثا ـ المحاور

قلت: فحدثني عن رحلتك الثالثة.

قال: في رحلتي الثالثة، سرت إلى طوس .. تلك البلدة العريقة من بلاد فارس.. البلاد التي تشرفت بقوله ﷺ:(لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجل من أبناء فارس حتى يتناوله)(1)

خطر على بالي، وأنا أتجول في بعض شوارعها العتيقة هذا الحديث.. وخطر على بالي بعدها الجموع الكثيرة من العلماء والأولياء والربانيين من الفرس الذين ورثوا رسول الله ﷺ أكمل وراثة، وأحسن وراثة..

ولست أدري كيف خطر على بالي فجأة أبا حامد الغزالي.. وخطر على بالي ـ بالتحديد ـ المدرسة والخانقاه اللذين أسسهما بعد عودته من الخلوة ليكونا رمزا لإحياء علوم الدين(2)..

ما خطر ذلك الخاطر على خاطري حتى رحت أسأل بعض المارة عن آثار المدرسة الغزالية، فابتسم، وقال: ولماذا تبحث عن آثارها؟

قلت: أنا سائح.. وأهتم بالآثار.. ولذلك أحببت أن أراها.. فهل بقي لها وجود بعد تلك القرون الطوال؟

ابتسم، وقال: ما أسس على التقوى لا يهدم.. وما رفع بنيانه على ذكر الله حفظ بالله.. وما حفظ بالله لا يصيبه البلى.

قلت: أتقصد أن آثار المدرسة لا تزال موجودة؟

قال: بل المدرسة نفسها لا تزال موجودة.. وأنا الذي تراني أمامك طالب من طلبتها.

قلت: فمن أستاذها؟

قال: الغزالي(3)..

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) وذلك لما روي أن الغزالي لما رجع إلى مسقط رأسه مدينة طوس بعد فترة الخلوة (اتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب والتدريس لطلبة العلم وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى)

3) نشير به إلى أبي حامد الغزالي (450 ـ 505هـ، 1058 ـ 1111م) الملقب بحجة الإسلام، وهو محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد الغزاليّ وُلِدَ في طُوس، وفقد أباه صبيًّا، فرباه وصيٌّ صوفي فترة من الزمن، ثم وضعه في مدرسة خيرية يعيش ويتعلم. أتى نيسابورَ، وتعلّم التصوف على الفرامدي، والفقه والكلام على إمام الحرمين، ثم أتى مجلس نظام المُلك، حيث أقام ست سنوات، عيّنه بعدها الوزير أستاذًا في نظامية بغداد. درّس في بغداد أربع سنوات (484-488هـ) مرّ أثناءها بشكوك وألف كتابين هما: مقاصد الفلاسفة؛ حيث عرض فلسفة الفارابي وابن سينا، وتهافت الفلاسفة، حيث انتقد هذه الفلسفة. ترك بغداد، وتفرغ للخلوة عشر سنوات، عاد بعدها إلى التعليم في نيسابور. اعتزل

قلت: ما بك يا رجل.. الغزالي طوت جسده السنون..؟

قال: ولكن علمه وما تركه لم تطوه السنون.. هو لا يزال حيا نابضا بالحياة.

قلت: فأنت تتملذ على كتبه؟

قال: أنا أتتلمذ على رجل من أحفاده.. لكأنه الغزالي نفسه عاد للحياة من جديد.

قلت: فأسرع بي إليه.. فما أشد شوقي لأن أجلس بين يدي الغزالي، وأتعلم منه.

سار بي الرجل إلى مدرسة جمعت بين القديم والحديث.. وبين الأصالة والمعاصـرة.. لست أدري هل كانت عتيقة، فرممت، فصارت حديثة بترميمهـا، أم أنهـا حديثـة طليت ببعض مظاهر القديم.. فصارت تجمع بين القديم والحديث؟

دخلت إليه، فاستقبلنا رجل عليه سيما الورثة، قال لي صاحبي: هذا هو الغزالي..

لم أدر إلا وأنا أسرع إليه، وأقبل يديه، فابتسم، وقال: هل جئت لتتعلم الحوار؟

قلت: أنا جئت لأتلقى، لا لأجادل.. فمن جلس أمام الغزالي لم يصلحه إلا الصمت.

قال: بل لن يصلحه إلا الحوار.. فالحوار هـو الكشـاف الـذي تكشـف بـه الجـواهر عن معدنها، ولا يمكن التعامل مع الجواهر قبل التعرف على معدنها.

قلت: إذن أفتضح؟

قال: لا يصلح إلا من افتضح.. ألا ترى أن المريض لا يتعرف الطبيب على دوائه إلا بعد أن يفضح داءه؟

قلت: صحيح ذلك..

قال: فلذلك نحن نكشف عن الجواهر بالقيل والقـال، والجـواب والسـؤال، لا بـالمراء والجدل.

قلت: إن هذا ما ذكره لي معلم الهداية.. فهل فمك هو الفم الثالث؟

قال: إن كان الفم الثالث هو فم المحاور، ففمي هو ذلك الفم.

قلت: فهل تأذن لي أن أصحبك لأتعلم منك هذا الفم؟

قـال: آذن لـك في أن تتعلم في هـذه المدرسـة.. فهـذه المدرسـة مدرسـة الحـوار.. أسستها بعد جدي لأعلم الدعاة إلى الله السائرين على قدم النبي ﷺ كيف يحاورون، وفيم يحاورون، ولم يحاورون.

التعليم بعد سنة 500 هـ، 1106م وأسس مدرسة وخانقاه.

وقد اخترناه لهذا الفصل باعتباره من أئمة الحوار الكبار وأعلامه والدعاة إليه.

قلت: فما شروط التسجيل فيها.. فأنا لست من هذه البلاد؟

قال: الصدق والطهارة والهمة العالية.

قلت: فما الشهادة التي تسلم لطلبة هذه المدرسة؟

قال: وراثة النبوة في فنون الحوار.

قلت: ما أعظمها من شهادة.. وأنا ـ من الآن ـ أتشرف بأن أنضم إلى هذه المدرسة.. فما أقسامها؟

قال: أربعة.. لا يمكن للأقسام إلا أن تكون أربعة.. ألم تر أن جدي أبا حامد أسس إحياءه على أربع؟

قلت: أجل.. فما الأربع التي أسست عليها مدرستك؟

قال: الطهارة، والخبرة، والأدب، والسعة.

قلت: فما الطهارة؟

قال: لا يمكن للمحاور أن ينجح في حواره، وقلبه ممتلئ بالخبائث، ولا يمكن له أن ينجح في حواره وهمته متوجهة إلى نفسه، لا إلى الحق الذي يدعو إليه.

قلت: إن هذا يستدعي مدرسة تربوية.. لا مدرسة علمية..

قال: لا خير في علم لا يربي صاحبه..

قلت: فما الخبرة؟

قلت: لا يمكن للمحاور أن يحاور إلا فيما له خبرة فيه.

قلت: الخبرة أعمق من العلم.

قال: ولهذا سمينا هذا القسم قسم الخبرة، لا قسم العلم.

قلت: فما الأدب؟

قال: لا يمكن للحوار أن ينجح إلا في ظلال الأدب.. فالأدب هو فراش الحوار ودثاره.. ومن لم يتأدب مع من يحاوره لن يزيده حواره معه إلا بعدا.

قلت: فما السعة؟

قال: المحاور السائر على قدم النبي ﷺ هو الذي يحاور الكل وفي الكل.. ولا يتكبر على أحد من الناس كما لا يتكبر الطبيب على أي مرض، ولا على أي مريض.

الطهارة

كان أول قسم دخلته بعد التحاقي يالمدرسة الغزالية للحوار.. هو قسم (الطهارة).. كان ممتلئا بالطلاب.. سأحكي لك باختصار عن بعض ما جرى في اليوم الأول من دراستي فيه.. فلم تكن لدراستنا في سائر الأيام في ذلك القسم من قصد إلا تعميق ما درسناه في ذلك الدرس.

بدأ الدرس بسؤال لأحد الطلبة قال فيه: يا إمام.. لم اعتبرت الطهارة شرطا من شروط الحوار، وأصلا من أصوله؟

قال الغزالي: قياسا لها على الصلاة.. أليست الصلاة هي حوار بين العبد وربه؟

قال الطالب: أجل.. وقد ورد في الحديث القدسي قوله ﷺ:(قال الله عز وجل: قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة: 2)، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال:﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: 3)، قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال:﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الفاتحة: 4)، قال: مجدني عبدي فإذا قال:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة: 5)، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال:﴿ اهدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: 6، 7)، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)(1)

قال الغزالي: ألا ترى أنه يشترط لصحة الصلاة تحقق الطهارة؟

قال الطالب: أجل.. وقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ)(2)

قال الغزالي: فهكذا الحوار بين العبد والعبد لا يمكن أن يؤتي ثماره إلا إذا تقدمته الطهارة.

قال الطالب: لم أسمع بهذا.. هل يشترط على المتحاورين أن يقصدوا دورات المياه قبل ابتداء حوارهم؟

قال الغزالي: ألم تقرأ ما قاله جدي أبو حامد في أول وظائف طالب العلم؟

قال الطالب: بلى.. لقد ذكر أول وظيفة من وظائف طالب العلم، فقال:(تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف)

وعلل ذلك بقوله:(إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى؛ وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخبات، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف)

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

ثم استدل لذلك بقوله تعالى: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ (التوبة: 28) ففي هذه الآية (تنبيه للعقول على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن، ولكنه نجس الجوهر أي باطنه ملطخ بالخبائث، والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه، وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب فإنها مع خبثها في الحال مهلكات في المآل)

واستدل بقوله ﷺ:(لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب)[1] وعلق عليه بقوله:(والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم؛ والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة، فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة، كما قال تعالى: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (الشورى:51)، وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها، وهم المقدسون المطهرون المبرؤون عن الصفات المذمومات، فلا يلحظون إلا طيباً ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيباً طاهراً)

التفت الغزالي إلى تلاميذه، ثم قال: إذا وعيتم هذا، فاعلموا أن أول شرط من شروط الحوار هو تصفية النفس بمياه التوبة والإنابة والتسليم لله.. فلا يمكن أن تحاور من تحاوره إلا وأنت صاحب قلب نقي صاف سليم من كل درن.

قال أحد الطلبة: إن ذلك يقلل أهل الحوار.

قال الغزالي: ولكن الحوار لن يؤتي ثماره إلا بذلك.. فلا يمكن للكدورات أن تثمر إلا الكدورات.

قال الطالب: لم ذلك؟

قال الغزالي: لقد ذكر جدي أبو حامد في (الإحياء) وفي جميع كتبه أن أكبر الآفات التي تفسد المناظرات وأخطرها هي الآفات النفسية، فهي السبب الأكبر في فشل الحوار وعدم إتيانه ثماره، بل إن ثماره تصبح عكسية، تزيد الطين بلة.

وقد قام بتحليل نفسي رائع لنفسيات المتحاورين التي لم تتأدب بآداب الشرع، فذكر الآفات النفسية الكثيرة التي تسببها المناظرات العلمية ـ والتي هي نوع من أنواع الحوار ـ ويعتبرها منبع جميع الأخلاق المذمومة، بل يقيسها على كبائر الفواحش الظاهرة، باعتبارها لا تختلف عنها، وقد قال في فصل عقده بعنوان (بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق):(اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدّق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدوّ الله إبليس)[2]

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) الإحياء: 1/45.

ويتفرع عن هذه الخصال خصال أخرى كثيرة، قال الغزالي:(ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطول بذكرها وتفصيل آحادها مثل: الأنفة، والغضب، والبغضاء، والطمع، وحب طلب المال، والجاه للتمكن من الغلبة، والمباهاة، والأشر، والبطر، وتعظيم الأغنياء والسلاطين والتردد إليهم والأخذ من حرامهم، والتجمل بالخيول والمراكب والثياب المحظورة، والاستحقار للناس بالفخر والخيلاء، والخوض فيما لا يعني، وكثرة الكلام، وخروج الخشية والخوف والرحمة من القلب، واستيلاء الغفلة عليه لا يدري المصلي منهم في صلاته ما صلى، وما الذي يقرأ، ومن الذي يناجيه؟ ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر في العلوم التي تعين في المناظرة مع أنها لا تنفع في الآخرة: من تحسين العبارة وتسجيع اللفظ وحفظ النوادر إلى غير ذلك من أمور لا تحصى. والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتى ولا ينفك أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلاً عن جمل من مواد هذه الأخلاق وإنما غايته إخفاؤها ومجاهدة النفس بها)(1)

والغزالي يقيس هذه المنكرات الباطنة على الكبائر من الفواحش الظاهرة، فيقول: (ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة)

ويستدل على ذلك بعلة جامعة ينص عليها بقوله:(كما أن الذي خير بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش في سكره، فكذلك من غلب عليه حب الإفحام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها في النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة)

بل يذكر أن هذه الفواحش الباطنة مما يقع فيه المتماسكون أما غيرهم، فيقع منهم (من الخصام المؤدي إلى الضرب واللكم واللطم وتمزيق الثياب والأخذ باللحى وسب الوالدين وشتم الأستاذين والقذف الصريح)

قال أحد الطلبة: لقد صدق الغزالي فيما ذكره من ذلك.. ونحن نرى في وسائل الإعلام الكثير مما يؤكد قوله هذا.. فهل بحث عن أسبابه؟

قال الغزالي: أجل.. فلا يمكن وصف الدواء قبل تشخيص الداء.

قال الطالب: فما الذي ذكره من أسباب ذلك الدنس الذي تمتلئ به نفوس المتحاورين، والذي يحيل حوارهم وقودا لا يزيد نيران العلاقات إلا اشتعالا.

قال الغزالي: لقد رأيت أن فروع تلك الخبائث التي تملأ نفوس المتحاورين تنطلق من أربعة أمراض كبرى.. الحسد، والكبر، والرياء، والبغي.. وكلها ذكرها جدي أبو حامد، بحمد الله.

قال الطالب: فما منبع **الحسد**، وما علاقته بالحوار.. وما تأثيره فيه؟

1) الإحياء: 1/45..

قال الغزالي: لقد ذكر أبو حامد الحسد باعتباره الآفة الكبرى التي تنخر العلاقات.. كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ:(الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)(1).. فكل الحسنات التي تنبت من العلاقات الطيبة بين المتحاورين تأكلها نار الحسد.

قال الطالب: فما العلة النفسية لذلك؟

قال الغزالي: أنت تعلم أن المحاور تارة يغلب وتارة يُغلب، وتارة يحمد كلامه وأخـرى يحمد كلام غيره.. وهو لذلك إن حمد كلامه امتلأ إعجابا بنفسـه.. وإن حمـد كلام غـيره امتلأ حسدا وحقدا.. فهو لذلك يتمنى زوال النعم عنه وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه، ولهـذا قال ابن عباس :(خـذوا العلم حيث وجـدتموه، ولا تقبلـوا قـول الفقهـاء بعضـهم على بعض فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس في الزريبة)

قال الطالب: فما منبع **الكبر**، وما علاقته بالحوار.. وما تأثيره فيه؟

قال الغزالي: لقد ذكر أبو حامد ما ينشئه اعتقاد المحاور لغلبته وتفضله على مخالفـه، فقال:(ولا ينفك المناظر عن التكبر على الأقران والأمثال والترفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيـه في الارتفـاع والانخفـاض والقـرب من وسادة الصدر والبعد منها والتقدّم في الدخول عنـد مضـايق الطـرق، وربمـا يتعلـل الغبـي والمكار الخـداع منهم بأنـه يبغي صـيانة عـز العلم، وأن المـؤمن منهيٌّ عن الإذلال لنفسـه، فيعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل، وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين تحريفاً للاسم وإضلالاً للخلق به)

ولهذا ورد التحذير في النصوص من الكبر، وأمر بالتواضـع، وربـط كـل ذلـك بالاهتـداء إلى الحق.. ففي الحديث أن رجلا أتى النبي ﷺ، فقال: يانبي الله إنه ليعجبني الجمال حـتى أود أن علاقة سوطي وقبالة نعلي حسن، فهل ترهب علي الكبر؟ فقال نبي الله ﷺ: (كيف تجد قلبك؟) قال: أجده عارفا للحق مطمئنا إليه، قال: (فليس ذاك بـالكبر، ولكن الكـبر أن تبطر الحق، وتغمص الناس فلا ترى أحدا أفضل منك وتغمص الحق فتجاوزه إلى غيره)(2)

انظروا.. ألا ترون (أن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسـان خصـمه الحـق، ومهما ظهر تشمر لجحده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غايـة إمكانـه في المخادعـة والمكـر والحيلة لدفعه حتى تصير المماراة فيه عادة طبـيعية، فلا يسمع كلامـاً إلا وينبعث من طبعـه داعية الاعتراض عليه حتى يغلب ذلك على قلبه)؟

قال الطلبة جميعا بلسان واحد: بلى..

قال الغزالي: فلذلك تبدأ مدرستنا بتربية المتحاورين على التواضع، وعلى تقبل الحــق من أي كان.. فلا يمكن أن ندنس سنة الحوار التي سنها لنا نبينـا ﷺ بمـا تمتلئ بـه نفوسـنا من أمراض.

---

1) رواه ابن ماجة.

2) رواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

قال الطالب: فما منبع **الرياء**، وما علاقته بالحوار.. وما تأثيره فيه؟

قال الغزالي: الرياء هو أن تنشغل النفس برؤية نفسها عن رؤية الحق أو الدفاع عنه أو الدعوة إليه.. ومحال أن يتجلى الحق والنفس في مرآة واحدة.

قال الطالب: فكيف تطهر النفس من الرياء؟

قال الغزالي: بتحقيق التوحيد والإخلاص، فلا يقصد المحاور إلا نصرة الحق.. لا يهمه في ذلك إن ظهر على لسانه أو ظهر على لسان غيره.

لقد كان الشافعي يصيح بهذا، ويخبره عن نفسه به.. كان يقول:(ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطىء).. وكان يقول:(ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى، وما كلمت أحداً قط وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه).. وكان يقول:(ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته)

قال الطالب: فما منبع **البغي**، وما علاقته بالحوار.. وما تأثيره فيه؟

قال الغزالي: من امتلأت نفسه بالحسد والكبر والإعجاب بالنفس والتباهي بها لن ينظر إلى غيره إلا بعين البغي والظلم والعدوان.. فلذلك تجده في حواره كسبع ضار ليس له من هم إلا افتراس فريسته.

لقد ذكر الغزالي بعض ما كان في عصره من مظاهر البغي، فقال:(المناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه وتتبع عورات خصومه حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بلده، فيطلب من يخبر بواطن أحواله ويستخرج بالسؤال مقابحه حتى يعدها ذخيرة لنفسه في إفضاحه وتخجيله إذا مست إليه حاجة، حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه فعساه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره، ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرّض به إن كان متماسكاً، ويستحسن ذلك منه، ويعد من لطائف التسبب، ولا يمتنع عن الإفصاح به إن كان متبجحاً بالسفاهة والاستهزاء، كما حكي عن قوم من أكابر المناظرين المعدودين من فحولهم)

لقد ذكر القرآن الكريم كيف يقف البغي والظلم حجابا دون الحق، فقال: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (الأنعام:33)

لقد أخبر الله في هذه الآية الكريمة أن الظلم هو السبب في جحود الظالمين لآيات الله، لا كون الآيات في نفسها تستحق أن تكذب.

قال أحد الطلبة: أهذه هي الآفات التي يتم التكوين فيها في هذا القسم؟

قال الغزالي: أجل.. نحن في هذا القسم نحاول أن نعلم الطلبة كيف يتخلصون من هذه الآفات الخطيرة، وكيف تمتلئ نفوسهم بالصفاء.. ليتمكنوا بعدها من إجراء حوار ناجح يؤتي الثمار التي يطلبونها.

الخبرة

بعد أن مكثت ما شاء الله أن أمكث في القسم الأول أذن لي مع بعض رفاقي أن ننتقل إلى القسم الثاني، وهو قسم (الخبرة).. لقد كان مكتوبا في مدخل ذلك القسم قوله تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (الحج:8)، وبجانبها قوله تعالى:﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:66)

وقد رأينا في مدخل ذلك القسم أربعة فروع..

الوجهة:

بدأنا بالفرع الأول، وكان اسمه (الوجهة)، وقد علق على بابه قوله تعالى:﴿ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ (البقرة: 148).. قابلنا الغزالي في ذلك الفرع، وهو يقول: مبارك لكم تخرجكم من القسم الأول، فقلما يتخرج منه المتخرجون إلا بعد عناء وتعب.

قال أحد رفاقي: لقد وفقني الله في أوائل حياتي، فصحبت رجلا من أهل الله اسمه (محمد الوارث).. فإن يكن هناك من سبب لنجاحي في ذلك القسم، فلا أراه يعود إلا إليه.

صحت: أنا كذلك.. وفقني الله لصحبته فترة من الزمن..

صاح جميع أصحابي بذلك..

قال الغزالي: كلنا صحب ذلك الرجل.. وبركات ذلك الرجل لا نزال ننهل منها بحمد الله.

قلت: فما الذي سنتعلمه في هذا القسم؟

قال: تفسير ما قرأته في مدخل باب هذا القسم.

قلت: أتقصد قوله تعالى:﴿ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ (البقرة: 148)

قال: أجل.. فهذه الآية هي عنوان دراستكم في هذا الفرع.

قال بعض رفاقي: أتقصد أنا سنبحث عن أنواع الوجهات التي تتوجه إليها الأديان في شعائرها؟

قال: سنبحث في هذا الفرع عن أنواع الوجهات التي تتوجه لها العقول والقلوب والأرواح والأسرار في شعائرها وفي حياتها.

قلت: إن ذلك سيستفرغ منا جهدا كبيرا.

قال: هو جهد لابد منه.. فلا يمكن لمن يريد أن يحاور جهة من الجهات ليهديها إلى الله إلا أن يتعرف على ما تعتقده تلك الجهة، وما تستدل به على اعتقادها.. ليخاطبها بالعلم لا

بالجهل، وبالحقائق لا بالأباطيل..

عندما لاح لجدي أبي حامد أن ينتقد الفلسفة اليونانية، وما كانت تحمله من أنواع الضلال، لم يكتف بأن يكتب قصيدة أو خطبة يملؤها سبابا وشتائم.. وإنما راح لكتب الفلسفة يقرؤها بتمعن وتمحيص وتدقيق..

لقد ذكر سر ذلك، فقال:(ثم إني ابتدأت - بعد الفراغ من علم الكلام - بعلم الفلسفة، وعلمت يقيناً: أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه، ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم، من غوره وغائله، وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً، ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك، ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم ــ حيث اشتغلوا بالرد عليهم ــ إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد، لا يظن الاغترار بها بعاقل عامي، فضلاً عمن يدعي دقائق العلم، فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والإطلاع على كنه رمى في عماية.

فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية، وأنا ممنو بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد، فأطلعني الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة، على منتهى علومهم في أقل من سنتين، ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره، حتى اطّلعت على ما فيه من خداع، وتلبيس وتحقيق وتخييل، واطلاعاً لم أشك فيه)[1]

وهكذا.. فلا ينبغي لمن يريد محاورة أي جهة من الجهات إلا أن يكون له القدرة على فهمها واستيعاب ما تطرحه من أفكار.

قال أحد رفاقي: فإن لم يكن له القدرة على ذلك؟

قال: من لم تكن له القدرة.. فليلزم الصمت.. فلا يمكن للجاهل أن يكون معلما..

قال الطالب: إن ذلك يقلل الدعاة إلى الله.

قال: للدعوة إلى الله أساليب كثيرة.. والحوار العلمي أسلوب من أساليبها.. ولا يمكن أن يمارس هذا الأسلوب جاهل.. لأنه لا يزيد طين الحوار إلا بلة.

قلت: إن من قومي من يدعو المسيحيين إلى مناظرات علمية.. وهو لا يعرف حتى فصول الكتاب المقدس.

قال: ذلك مغرور.. فانهره.. وأخبره بقوله تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (الحج:8)

---

1) المنقذ من الضلال.

قلت: إن هذه الآية تتحدث عن الكفار.. لا عن المسلمين.

قال: الآية تتحدث عن المجادل بغير علم.. ويستوي في ذلك المسلم وغير المسلم.

قلت: فهل في النصوص المقدسة ما يدل على مراعاة هذا في الحوار؟

قال: أجل.. وما كان لنا أن نتخطى النصوص المقدسة، أو نتجاهلها..

قلت: أين ذلك؟

قال: ألست تقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (البقرة:113)، وقوله تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ (المائدة: 18)، وقوله تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ (المائدة: 64)، وقوله تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (التوبة:30)؟

قلت: بلى.. وفي القرآن الكريم الكثير من هذا.

قال: إن القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة يذكر لنا وجهات اليهود والنصارى ومعتقداتهم ليخاطبهم على أساسها.. وهو ــ بذلك ــ يدعونا أن نتعرف على الوجهات المختلفة قبل التعامل معها.

قلت: ولكن الحوار قد لا يكون في تلك الوجهات بذاتها.. أي أن حوارنا مع النصارى مثلا لا يرتبط بما يقولونه عن المسيح عليه السلام.

قال: ولو.. إن الأفكار والمعتقدات سلسلة واحدة.. ولا يمكنك أن تتعامل مع حلقة من حلقات السلسلة، وأنت تجهل السلسلة جميعا.

قلت: ولكن الوجهات كثيرة جدا..

قال: كل من أراد أن يحاور جهة.. فعليه أن يتعرف على القبلة التي تتوجه إليها..

قلت: أتقصد أنا لن ندرس في هذا الفرع كل الوجهات؟

قال: لو فعلنا ذلك.. فلن تخرجوا من هنا.. لقد عرفت كيف استمر جدي أبو حامد أكثر من سنتين في دراسة الفلسفة اليونانية وحدها.

قلت: فماذا سندرس في هذا الفرع إذن؟

قال: سنتعرف على الوجهات العامة للملل والنحل.. ونتعرف على المصادر التي يمكن أن تكون مرجعا لنا إذا أردنا العلم التفصيلي عنها.

قلت: لم نكتف بهذا؟

قال: لأن العلم بالملل والنحل وحصرها وتصنيفها من العلوم التي استفدناها من نبينا ﷺ.. ألم تسمع حديثه في افتراق الملل والنحل؟

قلت: بلى.. فقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)(1)

قال: ألا ترى كيف حصر رسول الله ﷺ أصناف الفرق المتفرعة عن اليهودية، وعن النصرانية، وذكر ما سيصل إليه المسلمون من تفرق.

قلت: بلى.. ولكن من قومي من يتخذ من هذا الحديث مطية للتفريق بين المسلمين، وزرع الأحقاد بينهم.

قال: أولئك جهلة أو غافلون.. وهم لا يفهمون من النصوص المقدسة إلا ما توحي لهم به نفوسهم المدنسة بالحقد والتعصب والكبرياء.

قلت: فما تفهم أنت؟

قال: إن رسول الله ﷺ أعظم الناصحين.. وهو يدلنا على التعرف على مقولات الفرق والملل والنحل.. لا لنصب عليها نيران أحقادنا، وإنما لنصيبها ببلسم شفائنا.. ألا ترى كيف يصنف الأطباء المرض الواحد إلى أنواع مختلفة.. تحت كل نوع منها أنواع أخرى.. وهكذا؟

قلت: بلى.. وقد مارست الطب زمنا، وعرفت من علوم ذلك ما وفقني الله لمعرفته.

قال: فاعبر من طب الأجساد إلى طب الأرواح .. واعبر من طب الأفراد إلى طب المجتمعات.

قلت: لقد ذكرني حديثك هذا بجدك أبي حامد.. فقد كان رجلا حكيما.. لقد قال بعد أن ذكر ما تعلمه من علوم الفلاسفة:(اعلم أنهم ــ على كثرة فرقهم، واختلاف مذاهبهم ـ ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الدهريون، والطبيعيون، والإلهيون)

ثم ذكر مقولات كل طائفة، وما تميزت به عن غيرها، فذكر أن الدهريين (هم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر، العالم القادر، وزعموا: أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه، وبلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة)

وذكر أن الطبيعيين (هم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات، فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى، وبدائع حكمته، مما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم، مطلع على غايات

1) رواه أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم.

الأمور ومقاصدها، ولا يطالع التشريح، وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان، لا سيما بنية الإنسان..! إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم ــ لاعتدال المزاج ــ تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم، كما زعموا، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنة والنار، والحشر والنشر، والقيامة، والحساب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب، فانحل عنهم اللجام، وانهمكوا إنهماك الأنعام. وهؤلاء أيضاً زنادقة، لأن أصل الإيمان هو: الإيمان بالله واليوم الآخر، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر، وإن آمنوا بالله وصفاته)

وذكر أن الإلهيين (وهم المتأخرون منهم مثل سقراط وهو أستاذ أفلاطون وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس وأرسطاطاليس هو الذي رتب لهم المنطق، وهذَّب لهم العلوم، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل، وأنضج لهم ما كان فجاً من علومهم ــ وهم بجملتهم، ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية، والطبيعية، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ (الأحزاب: 25) بتقاتلهم، ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم)[1]

قال: انظر.. إن ما قرأته من هذا النص يدل على منهج حكيم للمحاور الحكيم.. وهو منهج أشار إليه قوله تعالى:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة:113)

قلت: ما تعني؟

قال: إن الآية الكريمة تشير إلى العداوة المستفحلة بين اليهود والنصارى.. وهي عداوة يمكن للمحاور الحكيم أن يستثمرها.. فيغني نفسه عن جهد كبير قد لا يكون بحاجة إليه.

قلت: نعم.. لقد ذكر جدك أبو حامد أنه استثمر العداوة فيما بين الفلاسفة، والصراع الذي كان بينهم.

قال: وهكذا الحكيم يستثمر الصراع بين الفلسفات المختلفة.. فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها، فهو أحق بها.

سكت قليلا، ثم قال: سأضرب لك مثالا..

قاطعه بعض رفاقي قائلا ـ وهو يبتسم ـ: هو لجدك أم لك.

ابتسم، وقال: ليس جدي سواي.. ولست سوى جدي.. لقد امتلأت حبا له، ففنيت

1) المنقذ من الضلال.

فيه.. فلا تراني أتحدث إلا عنه.. فاعذروني..

أما هذا المثال.. فأنا الذي اكتشفته بحمد الله.. ولو أن لجدي سبب في اكتشافه..

لقد أردت مرة أن أحاور بعض أهل الكتاب في التحريف الذي طال كتبهم، ولم يكن لدي الوقت الكافي للبحث في المخطوطات والتراجم والنسخ المختلفة.. وقد سمعت حينها أن اسبينوزا.. الفيلسوف اليهودي المعروف.. كان قد كتب رسالة في اللاهوت والسياسة، وهو أساساً نقد للعهد القديم ولأسفار موسى الخمسة.. وقرأت أنه من أوائل المفكرين الذين وضعوا دعائم العلم الذي يُسمَّى (نقد العهد القديم)، أو (النقد التاريخي للكُتب المقدَّسة).. فرحت أستثمر كل ما قاله في ذلك.

قلت: وماذا لو كان اسبينوزا أخطأ في استنتاجاته؟

قال: أنا لا تهمني الاستنتاجات.. ولم أكن أطلب الاستنتاجات.. بل كنت أطلب الحقائق، والتوثيقات المرتبطة بها.. أما النتائج.. فيمكنك أن تستثمرها في أي محل.. ألست ترى من الناس من يأكل التفاح ناضجا، ومنهم من يأكله مربى، ومنهم من يأكله مطبوخا؟

قلت: المهم أنه أكل تفاحا..

قال: وهكذا فعلت.. لقد كنت أبحث عن تفاح الحقائق من جميع أنواع البساتين لأطبخ منه بعد ذلك ما أراه صالحا للمعد المختلفة.

المسائل:

بعد أن مكثنا فترة في الفرع الأول.. انتقلت مع بعض رفاقي إلى الفرع الثاني من قسم (الخبرة).. وقد كتب على بابه قوله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:64)

وقد قابلنا في مدخل هذا الفرع الغزالي مبتسما مهنئا، فسألناه عن سر وضع الآية في مدخل هذا الفرع، فقال: هنا نبحث في المسائل المهمة التي نحتاج إلى الحوار فيها.

قلت: كنت أتصور أن الحوار يمكن أن يكون في كل شيء؟

قال: أجل.. ولكنا في هذه المدرسة خصوصا آلينا على أنفسنا أن نبتعد عن كل لغو.. فلذلك جعلنا هذا القسم مركز أبحاث في المسائل المهمة التي ينبغي الحوار فيها.

قلت: فما علاقة ذلك بالآية؟

قال: الآية الكريمة هي التي هدتنا إلى ذلك.. فالله تعالى يخاطب أهل الكتاب داعيا لهم إلى الاجتماع مع نبيه ﷺ حول القضايا العقدية الكبرى.. والتي هي إفراد العبودية لله، وترك الخلافات الجانبية..

قلت: أهناك خلافات جانبية؟

قال: هي كثيرة جدا.. وأكثرها مما يستنفذ الجهود.. وأكثرها مما ينفخ فيه الشيطان.

قلت: فهل وجدتم ما تخمدون به نيران الشياطين؟

قال: أجل.. وجدنا ـ بحمد الله ـ الكثير.. ونحن نتدارس ذلك في هذا الفرع.

البراهين:

بعد أن مكثنا فترة في الفرع الثاني.. انتقلت مع بعض رفاقي إلى الفرع الثالث من قسم (الخبرة).. وقد كتب على بابه قوله تعالى:﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 111)، وقد لاقانا الغزالي كعهدنا به في بداية الدخول إلى كل فرع، وبعد أن هنأنا بتخرجنا من الفرع السابق، قال: مرحبا بكم في القسم الثالث من أقسام الخبرة.. إنه القسم الذي ترثون به سنة البراهين من إرث الحوار النبوي.

قال بعض رفاقي: عهدنا بالبراهين تدرس في العلوم العقلية، لا في العلوم النقلية.. فكيف تعتبر البراهين العقلية إرثا من إرث النبوة؟

قال: لأنه لم يكتمل تطبيق البراهين العقلية لأحد من الناس كما اكتمل للنبي ﷺ، ولإخوانه من الأنبياء الكرام..

قلت: نحن نعرف أن أرسطو هو واضع البراهين العقلية.. فكيف تنسب ذلك للأنبياء؟

قال: ألا تعرف الخليل بن أحمد؟

قلت: وكيف لا أعرفه؟.. إنه واضع علم العروض، فهو مكتشف أوزان البحور الشعرية المعروفة وواضع تفعيلاتها.

قال: أمعلقته أجمل، أم معلقة زهير بن أبي سلمي؟

ضحكت، وقلت: ما بالك؟.. لا شك أن بضاعتك مزجاة في الشعر.. كيف تقارن بين رجل باحث لا علاقة له بالشعر بأولئك الفحول الكبار من الشعراء؟

قال: فعلم من ذكرت من الفحول بالعروض أكبر أم علم الخليل؟

قلت: بل علم الخليل.. فلم يكن في الجاهلية من يعرف بحور الشعر.

قال: وهكذا البراهين العقلية.. فرق كبير بين أن تعرف المقدمات والمقاييس وبين أن تطبقها.. نعم ربما يكون أرسطو أعلم بمصطلحات المنطق.. لكن التطبيق المثالي للمنطق لم يتحقق بكماله لغير الأنبياء وورثة الأنبياء.

قلت: ألست تحجر واسعا؟

قال: لا.. لم أحجر واسعا.. إن الأحكام العقلية تقتضي عقلا سليما لا تؤثر فيه أي شهوة أو شبهة.. فلا يمكن أن يكون الاستنتاج العقلي سليما، وهو محاط بأكوام الشهوات والشبهات.

قلت: أكوام الشبهات والشهوات !؟

قال: أجل.. ونحن في هذا الفرع من هذا القسم نبحث في هذه الأكوام لنطهر العقل منها، فلا يمكن للعقل الملطخ بذلك الدنس أن يصدر منه إلا الدنس.

قلت: اضرب لي أمثلة عنها..

قال: منها الكبر الذي تمتلئ به تلك العقول عن سماع غيرها.. لقد ذكر بعض هؤلاء، فقال: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:171).. إن في هذه الآية تشبيها بليغا للمؤمن الذي قد يكون محدود الثقافة، ومع ذلك يخاطب الكفار الذين قد يكون منهم العلماء والباحثون وأهل الفكر فلا يسمعون منه إلا صوته، ولا يفهمون ما يقول، أو قد يضحكون مما يقول، فهم كالراعي الذي ينعق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ولا تفهم ما يقول، لأن موجات الحديث مختلفة، وطريقة التفكير مختلفة، وبعد النظر متفاوت.

قال بعض رفاقي: صدقت.. فكثيرا ما نرى عقلا رياضيا جبارا يحل أعقد المعضلات الرياضية، أو عقل اقتصادي يحل أفتك أزمات مجاعة، أو عقل فيلسوف يقسم الشعرة بذكائه، ولكنه إذا ما حدث عن أبسط القضايا الإيمانية صعر خده ولوى عنقه، وقال: هذه قضايا هامشية، أو مسائل غير مطروحة، ويرضي ـ بعد ذلك ـ بأن يموت على إلحاد أو على إيمان لا وجود لأي أثر له في حياته.

قال: لقد شبه الله أمثال هؤلاء بالأنعام تشبيها صريحا في القرآن وفي مواضع كثيرة، بل يزيد في تفضيل الأنعام عليهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾(المائدة:22)، وقال: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(الفرقان:44)

قلت: صدق الله العظيم.. إن هؤلاء الذين يتيهون بمعارفهم وصنائعهم الدنيوية البسيطة يوجد ما يماثلها في الحيوانات التي لم تدرس في الجامعات، ولم تقرأ الكتب، ولم تتلق أي تدريبات، فإن أي عنكبوت يتحدى أبرع مهندس، وأي نملة تتحدى وزارة تموين، وأي نحلة تفوز على جميع خبراء التغذية، بل أي نبات يفقه أسرار الجو كما لا يفقهه خبراء الإرصاد فيلبس لكل مناخ لبوسه.

قال بعض رفاقي: فهل هناك غير الكبر من حجب العقل؟

قال: كل ما درستموه في القسم الأول هو حجب من حجب العقل.. فالعقل الذي امتلأ صاحبه بالحسد والحقد لن يفكر إلا فيما يرضي سموم الحسد والحقد التي تمتلئ بها نفسه.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال:﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:109).. لقد ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن الحسد هو الذي حال بين هؤلاء وبين التسليم للحق..

قلت: ولكن مع ذلك.. فإن المقاييس العقلية يمكنها أن تطهر العقل من ران هذه الأكوام..

قال: ذلك صحيح.. إذا استطاع صاحب العقل أن يعمل عقله.. ويلغي ما تطلبه نفسه من نوازع الشر.

قلت: أي منطق تعتمدون في هذه المدرسة.. فإن للمنطق مدارس مختلفة.

قال: هو باختلاف مدارسه يؤول إلى شيء واحد.. ونحن نعتمد كل ما ورد في ذلك..

التسيير:

بعد أن مكثنا فترة في الفرع الثالث.. انتقلت مع بعض رفاقي إلى الفرع الرابع والأخير من قسم (الخبرة).. وقد كتب على بابه قوله تعالى:﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة: 189)، وقد لاقانا الغزالي كعهدنا به في بداية الدخول إلى كل فرع، وقد كان أول ما سألته هو عن سر وضع آية الأهلة في مدخل الفرع، فقال: هذه الآية تشير إلى العلم الذي ستدرسونه في هذا الفرع.

قلت: أي علم؟

قال: علم التسيير.

قلت: عهدي بالتسيير يدرس في الاقتصاد والسياسة.

قال: ونحن نستثمر التسيير في الاقتصاد والسياسة لنحفظ به الحوار من أن يتحول إلى جدل.. أو نحفظ به الجدل من أن يتحول إلى الجدال بالتي هي أسوأ، لأنا أمرنا أن لا نجادل إلا بالتي هي أحسن.

قلت: فما علاقة الآية بذلك؟

قال: لقد ورد في سبب نزولها أن بعض الصحابة قالوا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد؟ فنزلت[1].

قلت: أعرف سبب نزول الآية.. وأنا لم أسأل عن ذلك، وإنما أسأل عن الحكمة من وضع هذه الآية في هذا المحل.

---

1) رواه ابن عساكر.

قال: إن الله تعالى في هذا الجواب يعلمنا كيف نجيب، وكيف نحاور.. لقد سأل هـؤلاء عن مسألة ترتبط بعلم الفلك، وهي فوق ذلك ترتبط بعلوم لا قبل لهم بها في ذلك الحين.. فصرفوا عنها صرفا حسنا إلى ما ينفعهم.

قلت: إن ذلك يشبه ما ورد في الحـديث من أن أعرابيـاً قـال لرسـول اللـه ﷺ: مـتى الساعة يا رسول الله؟ فقال ﷺ:(ما أعددتَ لها؟)، قال: ما أعددتُ لها من كثـير صـلاة، ولا صوم، ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: (أنت مع من أحببت)[1]

قال: أحسنت بذكر هذا المثال، فرسول الله ﷺ صرف السـائل عمـا لا ينفعـه إلى مـا ينفعه.. دون أن يشعر السائل.. فلو قـال لـه رسـول اللـه ﷺ:(لا أعلم مـتى يـوم القيامـة)، فربما يقع في نفس الأعرابي ما يقع، لقرب عهـده بالجاهليـة، أو لجهلـه.. بالإضـافة إلى أن ذلك لا يفيده أي فائدة جديدة.. ولهذا كان من حكمة رسول الله ﷺ صرفه عن سؤاله الذي لا ينفعه جوابه، إلى جواب ينفعه في دينه وآخرته، وينفع الأمة من بعده، فقال لـه ﷺ: (ومـا أعددتَ لها؟)، فانصرف الأعرابي عن سؤاله.. وانشغل بما ينفعه عما لا ينفعه.

قلت: لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا أيضا في قوله تعالى مخـبرا عن الحـوار الـذي جرى بين موسى عليه السلام وفرعون، كما قال :﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَـا إِذًا وَأَنَـا مِنَ الضَّـالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَـا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَـالَمِينَ (23) قَـالَ رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْـتَمِعُونَ (25) قَـالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَـالَ إِنَّ رَسُـولَكُمُ الَّذِي أُرْسِـلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُـونٌ (27) قَـالَ رَبُّ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَمَـا بَيْنَهُمَـا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُـونَ (28) قَـالَ لَئِنِ اتَّخَـذْتَ إِلَهًـا غَيْـرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّـادِقِينَ (31) فَـأَلْقَى عَصَـاهُ فَـإِذَا هِيَ ثُعْبَـانٌ مُبِينٌ (32) وَنَـزَعَ يَـدَهُ فَـإِذَا هِيَ بَيْضَـاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33)﴾ (الشعراء)

قال: في هذه المحاورة فوائد جليلة، ونكت بديعة، ونحن نستثمرها هنا خير استثمار..

فمنها أن موسى عليه السلام بدأ محاورتـه بالبيـان، وأنـه وأخـاه رسـولا رب العـالمين.. وهـذا توجيه للحوار، وتحكم في موضوعه حتى لا يصرفه فرعون إلى أي موضوع آخر..

ومنها عدم انسياق موسى عليه السلام وراء ما يثيره فرعون، مما ليس هـو محـل المحـاروة، فقد اعترض عليهما فرعـون بقولـه:﴿ أَلَمْ نُرَبّـكَ فِينَـا وَلِيـداً وَلَبِثْتَ فِينَـا مِنْ عُمُـرِكَ سِنِينَ ﴾ (الشعراء:18) إشغالاً لهما عن نقطة البحث، وهي إثبات الربوبية لله.

ثم ذكّره بقتل الرجل..:﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الشعراء:19)

---

1) رواه البخاري ومسلم.

فتنبه موسى ﵇ إلى ما يريده فرعون من صرف الحوار عن موضوعه الحقيقي، فبادره بالاعتراف، حتى لا يضيع الوقت في ذلك، فالوقت ثمين، والموقف لا يسمح بضياع شيء منه، ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضّالّينَ ﴾ (الشعراء:20)

فقطع موسى ﵇ بذلك الطريق على فرعون، كي لا يخرج عن الموضوع، وحتى لا يحول المحاورة إلى قضايا شخصية.

ثم رد على شبهته في مسألة تربيته باختصار رابطا لها بالموضوع الذي جاء من أجله، والذي هو تحرير بني إسرائيل:﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنّهَا عَلَيّ أَنْ عَبّدتّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الشعراء: 22)، أي: هل تعادل نعمة تربيتك لي، بالإساءات والأذيات لبني إسرائيل، أوَ تريد أن تستر ظلمك، وتعبيدك بني إسرائيل، بتربيتك لي، وبعبارة أخرى: أتذكر وتمن علي بتربيتك لي، وتتناسى ظلمك واستعبادك لبني إسرائيل.

فلما فشل فرعون في إشغال موسى ﵇ والحضور بإثارة الماضي، لجأ إلى الاتهام المباشر، وحاول السخرية من موسى واتهامه بالجنون، فلم يعبأ موسى ﵇ بمثل هذه الاتهامات، لأن فرعون أُسقط في يديه، فلا حاجة بعد ذلك للرد على الأمور الشخصية، فالقضية أكبر، والوقت أثمن.

لقد استمر موسى ﵇ في بيانه، وفي عرض أدلته.. فلما استهزأ فرعون به قائلاً:﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء:23) كان جواب موسى:﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (الشعراء: 24)

ولما قال فرعون للملإ حوله:﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ (الشعراء:25)، قال موسى ﵇ ردا عليه:﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آَبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الشعراء: 26)

ولما اتهمه فرعون بتهمة الجنون، أجابه موسى ﵇ في غير مبالاة بما يمس شخصه: ﴿ رَبّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الشعراء:28)

وهكذا لم يلتفت موسى ﵇ لكل ما يرتبط بشخصه، بل بقي مصرا على الموضوع الذي جاء من أجله إلى آخر لحظة.

الأدب

بعد أن مكثت ما شاء الله أن أمكث في القسم الثاني بفروعه الأربع، أذن لي مع بعض رفاقي أن ننتقل إلى القسم الثالث، وهو قسم (الأدب).. لقد كان مكتوبا في مدخل ذلك القسم قوله تعالى:﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: 46)، وقوله تعالى:﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: 125)

وقد رأينا في ذلك القسم الذي يشبه المسجد حلقات كثيرة، أمامها مصنفات قديمة، سألنا الغزالي الذي كان في استقبالنا عن هذه الحلقات، فقال: هؤلاء أساتذة جاءوا من

أصقاع الأرض يتدارسون ما ورد في السنة والسيرة المطهرة من آداب الحوار(1)..

قلت: لم يفعلون ذلك؟

قال: هم يعلمون أن الكمال مرتبط بسلوك رسول الله ﷺ، فلا يصدر عن الإنسان الكامل إلا الكمال.. فلذلك راحوا يبحثون في هديه عن آداب الحوار..

قلت: أهذه الآداب سنن وفضائل.. أم مباحات وجائزات.. أم واجبات وفرائض؟

قال: السائر على قدم رسول الله ﷺ لا يفرق في هذا بين واجب ومستحب ومباح.. فمحمد ﷺ هو رمز الكمال، وهو الذي أدبه ربه، فأحسن تأديبه.. وما على من يريد الكمال إلا أن يسير على هديه من غير أن يتيه في الجدل أو يغرق في أوحال التكلف والفضول.

قلت: فكيف نتعلم في هذه الحلقات الكثيرة؟

قال: طوفوا عليها كما يطوف النحل على الأزهار.. ففي كل زهرة من الرحيق ما ليس في غيرها.

كانت أول حلقة بدأت بها جلس فيها قوم من البدو.. يبدو أنهم قدموا من جزيرة العرب.. فقد كانوا يرتدون ما يرتديه أهل تلك المناطق من ثياب..

قرأ قارئهم من الكتاب الضخم الذي كان بين يديه ما حدث به ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:214) صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟!.. فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد:1)(2)

بعد أن أنهى المحدث حديثه التفت إلى المحيطين به، وقال: ما الذي يمكن استثماره من هذا الحديث من الهدي النبوي في الحوار؟

قال أحدهم: الجهر بالحوار.. أحيانا لا بد من الجهر بالحوار لينتفع به الجميع، ولهذا ترون النبي ﷺ لم يبدأ حديثه حتى اجتمعت الجموع حوله.

قال آخر: اختيار المكان والزمان المناسبين.. فالنبي ﷺ اختار مكانا عاليا متوسطا يعرفه كل الناس، وهو جبل الصفا.

قال آخر: حسن الاستهلال.. ففي الحديث إشارة مهمة إلى أهميته في بدء الحوار..

---

1) استفدنا في هذا المبحث خصوصا من البحوث المقدمة في (مؤتمر الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي) المقام في مدينة الشارقة في دولة الإمارات العربية المتحدة في الفترة من 28 – 30/3/1428هـ..

2) رواه البخاري.

وذلك لشد انتباه السامعين.

قال آخر: في قوله ﷺ:(أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تُغـير عليكم أكنتم مصدقيّ؟) إلزام للمحاور.. حيث مهّد ﷺ لخطابه معهم بجعلهم يُقرّون له بالصدق والأمانـة، مما يلزمهم التصديق بما يقول خاصة في قوله على اللـه تعـالى، فمـا كـان ليـترك الكـذب على الناس ثم يكذب على الله تعالى.

قال آخر: في الحديث نـرى ــ أيضـا ــ مـا كـان عليـه ﷺ من الصـبر على رد الطـرف المخالف، ولو أساء الأدب.. فالنبي ﷺ لم يرد على أبي لهب إساءته، إنما تولى اللـه تعـالى الرد، وذلك ليكون عبرة لمن يعتبر.

فالمطلوب منا هو التحمل والصبر، ولا نغضب لأنفسنا، لعل الطرف الآخـر يرعـوي أو يشعر بسوء تصرفه فيندم ويكون سبا في تراجعه عن مذهبه السيىء، كما قال تعالى: وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَـدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (فصلت:34)

انتقلت إلى حلقة أخرى.. سمعت القارئ فيهـا يقـرأ مـا حـدث بـه ابن اسـحق من أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا ـ قال يوما ـ وهـو جالــس في نـادي قريــش ورسـول اللـه ﷺ جالس في المسجد وحده ـ: يا معشر قـريش ألا أقـوم إلى محمـد فأكلمـه وأعـرض عليـه أمورا لعله يقبل بعضها، فنعطيـه أيهـا شـاء ويكـف عنّـا؟ ــ وذلـك حين أسـلم حمـزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ـ فقالوا: يا أبا الوليـد قُم إليـه فكلمـه، فقـام إليـه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال لـه: (يـا ابن أخي، إنـك منـا حيث قـد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قـد أتيت قومـك بـأمر عظيم، فـرّقت بـه جماعتهم وسفّهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّـرت بـه من مضـى من آبـائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها)

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بمـا جئت بـه من هـذا الأمـر مـالا جمعنـا لـك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنتَ تريد به شرفا ملكنـاك علينـا، وإن كـان هـذا الـذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبـذلنا فيـه أموالنـا حـتى نُبرئـك منه...

حتى إذا فرغ عتبة، ورسـول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليـد؟ قـال: نعم، قال: فاسمع مني؟ قال: أفعل، فقرأ رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّـلَتْ آيَاتُـهُ قُرْآنًـا عَرَبِيًّا لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ (3) بَشِـيرًا وَنَذِيرًا فَـأَعْرَضَ أَكْثَـرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْـمَعُونَ (4) (فصـلت)، ثم مضـى رسـول اللـه ﷺ فيهـا يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصـت لهـا وألقى يديـه خلـف ظهـره معتمـدًا عليهمـا، يسمع منه، ثم انتهي رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قـال: (قـد سـمعت يـا أبـا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك)

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جـاءكم أبـو الوليـد بغـير الوجه الـذي ذهب بـه، فلمـا جلس إليهم قـالوا: مـا وراءك يـا أبـا الوليـد؟ قـال: ورائي أني

سمعت قولَا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وفي روايات أخرى: أن عتبة استمع حتى إذا بلغ الرسول ﷺ قوله تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (فصلت:13) قال: حسبك، حسبك، ووضع يده على فم رسول الله ﷺ، وناشده بالرحم أن يكف، وذلك مخافة أن يقع النذير، ثم قام إلى القوم فقال ما قال.

التفت القارئ إلى المحيطين به، وقال: ما ترون في هذا الحديث من آداب الحوار وسننه؟

قال أحدهم: الإنصات.. بل الإنصات الكامل حتى يفرغ الطرف الآخر دون مقاطعة، بل إتاحة المجال له إن أمكن لإضافة ما يريده إن كان غفل عن شيء أو نسيه، كما قال ﷺ :(أقد فرغت يا أبا الوليد)، وهذا غاية في الإنصاف ونهاية في الذوق الرفيع.. فالنبي ﷺ استمع لوجهة نظر الخصم بصدر رحب، مع أنها وجهة نظر مرفوضة، وذلك لضمان استماع الطرف الآخر لوجهة نظره.

قال آخر: عدم إظهار الاشمئزاز من الطرف الآخر مهما بلغت به الخصومة.. فالنبي ﷺ لم يعنف عتبة، ولم يسخر منه.. وحاشاه من كل ذلك.

قال آخر: بل فوق ذلك نرى النبي ﷺ أعطى الطرف الآخر حقه من الاحترام اللائق به في المخاطبة، والكلام معه بأدب وتقدير، ويظهر ذلك من مخاطبة الرسول ﷺ لعتبة بكنيته: أفرغت يا أبا الوليد)

قال آخر: مما يتجلى في الحديث من هديه ﷺ في الحوار أهمية الاستعانة بالقرآن الكريم وما فيه من مواعظ، خاصة إذا كان الطرف الآخر ممن يفهم ذلك ويُحسن تدبره، وقد اختار النبي الكريم ﷺ آيات من أول سورة فصلت تناولت موقف المشركين من الإسلام وتعرضت لعقيدة التوحيد وقدرة الله تعالى الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

وقد كان لهذه الآيات وقع شديد على نفس عتبة بن الوليد حيث أثرت فيه تأثيرا شديدا، حتى جاء قومه وقال: (سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم)

انتقلت إلى حلقة أخرى.. سمعت القارئ فيها يقرأ ما حدث به ابن اسحق عن عبد الله بن عباس قال: اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، أخو بني عبد الدار، وأبو البَختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة

بن الأسود... قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظَهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعذِروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشارف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فأتهم فجاءهم رسول الله ﷺ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصا يحب رُشدهم ويَعزّ عليه عنَتَهُم، حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد إنا بعثنا إليك لنكلمك وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة، وسفّهت الأحلام وفرّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح قد جِئته فيما بيننا وبينك ـ أو كما قالوا له ـ فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيا تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يُسمون التابع من الجن رِئيا ـ فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرئك منه، أو نُعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: (ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ـ أو كما قال رسول الله ﷺ ـ

قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل ماءً ولا أشد عيشا منا، فسلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، ليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن لنا منهم قُصي بن كلاب، فإنه كان شيخَ صِدْق، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألنا صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بُعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخُذ لنفسك، سلْ ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جِنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يُغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا ـ أو كما قال ـ فإن تقبلوا ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله، إن يفعله بكم فعل.

قالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسـألك عمـا سـألناك عنـه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تُراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنـا، إذ لم نقبل منك ما جئتنا به، إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الـرحمن، وإنـا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نُهلكك أو تُهلكنا؟

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم.

التفت القارئ إلى المحيطين به، وقال: هذا هو نص هذه الرواية.. فالتمسوا منها بدائع الأدب، وغـرائب الحكمـة.. فلا أدب أرفـع من أدب رسـول اللـه ﷺ، ولا حكمـة أحكم من حكمته.

قال أحـدهم: من الملاحظـات المهمـة المرتبطـة بهـذا الحـديث أن قريشـا هي الـتي طلبت إجراء الحوار، فبادر رسول الله ﷺ إلى إجابتها على الرغم مما كانوا عليه من العنـاد والمكابرة.. وهذا يدل على أن الواجب يحتم على الـدعاة وأهـل العلم اقتنـاص كـل فرصـة فيها حوار، لعلها تكون مفتاحا لهداية الآخرين، ولأن ذلك فرصة ثمينة لعـرض مـا عنـدنا من الحـق والخـير واسـتماع وجهـة نظـر الآخـر لمعرفـة طريقـة تفكـيرهم ومـا هي بـواعثهم وأهدافهم.

قـال آخـر: ومن الملاحظـات المهمـة ــ كـذلك ــ أن الرسـول الكـريم ﷺ قـد اسـتمع لمطالبهم حتى انتهوا من ذلك دون أن يقاطعهم، وهذا يذكرنا بـأهم أدب من آداب الحـوار، وهو حسن الاصغاء للآخر حتى ينتهي، لأن المقاطعة توغر الصدور وتشـتت الأفكـار، وتُعكّـر الحوار.

قال آخر: ومنها أن الرسول ﷺ لم يتعرض لهم في هذا الحوار بتسـخيف أو تعـنيف أو شتم، مع أنهم تفننوا في تقبيح ما جاء به والتشنيع عليـه في ذلـك، حـتى أنهم لم يسـتبعدوا كونه مريضا أو أنه يتلقى تعليمه من شخص آخـر، ونحـو ذلـك ممـا يسـيء لـه.. وذلـك لأن الحرص على هداية الناس وإقناعهم بالحق يحتاج جواً من المودة والتسامح وإبداء التغاضي دون أي تشنج.

قال آخـر: ومنهـا أن الرسـول ﷺ بـادر بإيضـاح موقفـه عنـدما قـال لهم: (مـا بي مـا تقولون، ما جئت بما جئتكم بـه أطلب أمـوالكم ولا الشـرف فيكم، ولا الملـك عليكم ولكن اللـه بعثـني إليكم رسـولا..)، وهـذا الجـواب الصـريح ضـروري ليقطـع عليهم وساوسـهم وأمنياتهم بتخذيله ومحاولة ثنيه عن هدفه، فالجواب الحازم فيما يتعلق بالمبادىء والثـوابت أمر في غاية الأهمية، وذلك لإدراك الرسول ﷺ أن الطرف الآخر عندما يشتد عليه الضـغط ويخشى من عواقب ظهور أصحاب الحق يلجا إلى العروض المغرية من منصـب أو جـاه أو مال.

قال آخر: ومنها أهمية إظهار الصبر قولا وعملا، لأن الصبر دليل على الإيمـان العميـق بالفكرة، وبرهان على الصدق في المضي بها إلى آخر المطاف مهما كـانت النتـائج، ولهـذا

كان في جوابه ﷺ:(فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم..)، وإظهار الصبر أحد عوامل اقتناع الطرف الآخر بصدق المحاور وأنه صاحب هدف نبيل يضحي من أجله.

قال آخر: ومنها عدم انسياق المحاور وراء رغبات وتعجيزات الطرف الآخر، لأن الدعوات إنما تقوم على العقيدة التي قامت البراهين على صدقها، ثم إن طلبات التعجيز لا تنتهي لأن الهدف منها إضاعة الوقت أو جر الداعية إلى سلسلة من الطلبات غير الواقعية.

قال القارئ: لقد ذكر المؤرخون ما أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ جوابا على ما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وبعث من مضى من آبائهم من الموتى.. ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد:31)، أي لا أصنع من ذلك إلا ما شئت.

ومنها قوله تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ (الفرقان:20)، أي جعلت بعضكم لبعض بلاءً لتصبروا، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رُسلي فلا يُخالفوا لفعلت.

ومنها قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93)﴾ (الإسراء)

وأنزل الله تعالى عليه فيما عرضوا عليه من أموالهم:﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سبأ:47)

انتقلت إلى حلقة أخرى، فسمعت القارئ يقرأ فيها ما حدث به ابن إسحق عن ابن عباس من أن أشراف قريش مشوا إلى أبي طالب عندما علموا بأنه على فراش الموت، فقالوا له: يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا، ونكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه.

فبعث إليه أبو طالب فجاءه، فقال: يا ابن أخي.. هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك، ليعطوك وليأخذوا منك.

فقال رسول الله ﷺ: نعم، كلمة واحدة تُعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم.

فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات.

قال: تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه.

فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا، إن أمرك لعجب!

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريـدون، فـانطلقوا وامضوا عل دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، قال: ثم تفرقوا.

فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططا.

التفت القارئ إلى الجمع، وقال: ما ترون في هذا الحديث؟

قال أحدهم: لقد حدد رسول اللـه ﷺ طلبـه بدقـة، فلا يحـق لمن دخـل في حـوار أن يكون جاهلا بمطالبه، ولا مطالب خصمه.

قال آخر: انظروا كيف لم يتـأثر رسـول اللـه ﷺ بـذلك الاسـتهزاء الـذي أبـدوه عنـدما صفقوا.

تركتهم يستنبطون من الحديث وجوه الآداب والحكمة، وانتقلت إلى حلقة أخرى كـان قارئها يروي ما حدث به ابن إسحق عن حوار رسول الله ﷺ مع نفر من الخزرج، قال: لمـا لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟

قالوا: نفر من الخزرج

قال: أمن موالي اليهود؟

قالوا: نعم.

قال:أفلا تجلسون أكلمكم؟

قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسـلام، وتلا عليهم القـرآن، قال: وكان ممـا صـنع اللـه بهم في الإسـلام، أن يهـودا كـانوا معهم في بلادهم... فلمـا كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنـه للنبي الذي توعدَكم به يهود، فلا تسبقَنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام(1).

التفت القارئ إلى الجالسين، وقال: ما تقولون في هذا الحوار؟

قـال أحـدهم: أرى أن رسـول اللـه ﷺ اسـتفاد في هـذا الحـوار من المنـاخ النفسـي والظروف المحيطة بالطرف الآخر، فالطرف الآخر هنا ــ وهم الخـزرج من أهـل المدينـة ــ يجاورهم اليهود وهم أهل كتاب، فلم يكن غريبا على أذهانهم الحديث عن الله تعالى وكتبـه ورسله فيما يسمعونه دائما من اليهود، وكانوا مهيئين نفسـيا لسـماع حـديث الإسـلام، فقـد

1) رواه ابن إسحق.

كانوا يحسون دائما بالحسرة أمام اليهود، فهم أميون ليس عندهم رصيد يواجهون به اليهود الذين يشعرون بتفوقهم العلمي وأفضليتهم على غيرهم، لأنهم أهل كتاب، ثم إن الحديث عن النبي المرسل كان يملأ جو يثرب، بل يهددهم اليهود به، فما إن تناهى إلى سمع الخزرج حديث الرسول ﷺ حتى قالوا: (والله إنه للنبي الذي توعدَكم يهود فلا يسبقُنكم إليه)

قال آخر: وأرى كذلك ذلك الثبات والهدوء الذي كان عليه رسول الله ﷺ وهو يخاطبهم.. إن ذلك السمت وحده كاف للتأثير في القلوب والعقول.

***

ظللت فترة من الزمن أتردد على تلك الحلقات أستمع فيها إلى هدي النبي ﷺ في الحوار، وآدابه فيه، وقد ملأني بالغرابة ما أراه من قوم يدعون أنهم يحتكرون السنة، وهم أبعد الناس عن تلك الآداب الراقية التي لم يكن يبديها رسول الله ﷺ مع من معه من المسلمين فقط، بل كان يبديها مع ألد أعداء الإسلام، وأشنع خصومه حتى لم يجدوا إلا أن يسلموا له، ويسلموا على يديه.

السعة

بعد أن مضت تلك المدة التي تشرفت فيها بدراسة ما ورد في السنة المطهرة والسيرة العطرة من مجالس الحوار التي عقدها رسول الله ﷺ مع أصناف الناس، انتقلت مع بعض رفاقي إلى القسم الرابع من أقسام الحوار، وقد وجدنا على بابه مكتوبا قصة حوار الله تعالى مع إبليس، وقد تعجبنا من وضع تلك القصة في ذلك المحل، ولذلك ما إن لاقانا الغزالي في مدخل ذلك القسم ـ كعادتنا به ـ حتى رحنا نسأله عن سر وضع تلك القصة في ذلك المحل، فقال: أتعرفون إبليس؟

ابتسمنا، وقلنا: ومن لا يعرفه؟.. ذلك الذي راح يتحدى ربه، لا يمكن أن يجهله أحد.

قال: ألا ترون كيف حاوره الله تعالى(1)، فبدأ بسؤاله عن سر تصرفه، ثم لما طلب منه النظرة أمهله؟

قلنا: أجل.. ذلك واضح.

قال: أرأيتم لو أن إبليس بدل أن يقول: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (لأعراف: 12)، قال: (يا رب.. لقد عظم علي أن أسجد لغيرك، فاغفر لي إن كنت قد أخطأت)(2)

1) اعتبر العلماء حوار الله تعالى مع إبليس مناظرة، قال الرازي:(دلّت المناظرات المذكورة في القرآن بين الله تعالى وبين إبليس على أنه تعالى كان يتكلم مع إبليس من غير واسطة، فذلك هل يسمى وحياً من الله تعالى إلى إبليس أو لا، الأظهر منعه، ولا بد في هذا الموضع من بحث غامض كامل) التفسير الكبير: 27/619.

2) روي أن إبليس استشفع بموسى عليه السلام إلى ربه أن يتوب عليه فشفع، فقال: يا موسى إن سجد لقبر آدم، فأعلمه، فقال بعد أن أظهر الغضب: لم أسجد له حيا فكيف أسجد له ميتا.

قلنا: لو قال ذلك ما كان إبليس إبليسا.

قال: أتقصدون أنه لو قال ذلك لم يطرد من رحمة الله.

قلت: أجل.. وفي السنة ما يدل على ذلك.. ففي الحديث قال رسول الله ﷺ:(إن عبدا من عباد الله آتاه الله مالا وولدا، فذهب من عمره عمر وبقي عمر، فقال لبنيه: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: إني والله ما أنا بتارك عند أحد مالا كان مني إليه إلا أخذته أو تفعلون بي ما أقول لكم، فأخذ منهم ميثاقا، قال: أما الأول، فانظروا إذا أنا مت، فأحرقوني بالنار، ثم اسحقوني، ثم انظروا يوما ذا ريح، فأذروني لعلي أضل الله، فدعي واجتمع، فقيل: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشية عذابك، قال: استقل ذاهبا فتيب عليه(1).

فإن هذا الرجل تصور أنه قادر على إضلال الله، ولكنه في حواره مع الله تأدب، وأبدى حجته في تواضع وعبودية، فغفر له.

قال أحد رفاقي: بل في القرآن الكريم ما يدل على ذلك.. فإن القرآن كما ذكر ما وقع فيه إبلس، ذكر ما وقع فيه آدم ﵇.. ولكن الفرق بينهما أن إبليس تعنت واستكبر، وآدم ﵇ تواضع، وقال مخاطبا ربه ـ ومعه زوجه ـ:﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (لأعراف: 23)

قال الغزالي: فقد عرفتم سر ما كتب في الباب من قصة إبليس وحواره مع ربه.

قلنا: لا.. لم نفهم.. نحن نعرف القصة من قبل.

قال: ألا ترون أن الله تعالى.. مع تعاليه وعظمته.. يحاور إبليس، وهو الذي عصاه، بل يعطيه فوق ذلك ما يطلبه من الإنظار؟

قلنا: ذلك صحيح.

قال: فهل هناك من هو شر من إبليس؟

قلنا: لا نعلم أحدا شرا منه.. فكل شر يحصل في الأرض له نصيب منه.

قال: فهل هناك من هو أعظم من الله؟

قلنا: ما تقول؟.. لو قلنا: نعم لكفرنا.

قال: فاعلموا إذن بأن الله تعالى في قدسه حاور شر خلقه، وأعدى أعدائه، فمن تكبر على أي شخص يريد أن يحاوره ـ مهما كان ـ فقد وضع نفسه في مرتبة أعظم من مرتبة الله، أو وضع من طلب محاورته في محل أخطر من المحل الذي جعل الله فيه إبليس.

---

1) رواه أحمد والحكيم والطبراني في الكبير عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

رأينا فروعا كثيرة في ذلك القسم، فقلنا: ما هذه الفروع؟

قال: هذه الفروع تستن بقوله ﷺ:(أنزلوا الناس منازلهم)[1]

قلنا: إن هذا الحديث ينزل كل منزل، فما منزله هنا؟

قال: المحاور الذي كلف بأن يخاطب الكل يعرف الأساليب التي يتعامل بها مع كل صنف، فلكل أسلوبه الخاص، ولكل منافذه الخاصة.

قلنا: فهل ننزل بهذه الفروع لنتعلم من أهلها؟

قال: أجل.. فلا يمكن لمن يريد أن يستن بسنة رسول الله ﷺ في الحوار أن يجهل هذا.

***

بعد أن درسنا بالتفصيل ما يرتبط بمناهج الحوار مع الملأ والعامة، وكيفية إجابتهم على ما ينتشر بينهم من شبهات، انتقلنا إلى فرع من فروع قسم السعة، وهو الفرع المسمى (الأحبار)، وقد كتب على باب هذا الفرع قوله تعالى:﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:46)

وقد كان هذا الفرع من أهم الفروع الدراسية في هذه المدرسة، وقد استفدنا منه مناهج كثيرة في التعامل مع أحبار الأديان المختلفة..

لا يمكنني أن أذكر لك كل ذلك، ولكني سأذكر لك حادثة وقعت بين بعض زوار هذه المدرسة والغزالي.. سأحكيها لك بحروفها.. فقد كانت هذه الحادثة من أهم ما رغبنا في الدراسة في هذا الفرع.

بمجرد أن دخلنا إلى هذا الفرع، رأينا رجلا جسيما صاحب لحية طويلة، يمسك بالغزالي بشدة، ويقول: اتق الله يا رجل.. ما الذي تريد أن تفعل بالمسلمين؟.. ألم ترتدع وقد حرق سلفنا كتب جدك؟

ابتسم الغزالي، ولم يرد عليه.. أردنا أن نتدخل، فنهرنا.. ثم قال للرجل الذي لا يزال يمسك بتلابيبه: رويدك ـ يا أخي ـ فلا يمكنني أن أنتصح لما لم أنصح به.. انصحني ـ أولا ـ ثم عنفني كما تشاء.

أطلق الرجل الغزالي، ثم قال: لك الحق في هذا.. لقد استفزني الغضب لله، ولرسول الله، فرحت ـ من غير شعور ـ أفعل ما أفعل.

قال الغزالي: تعال نجلس.. ولتذكر حجتك بتفاصيلها.. وليكن هؤلاء شهودا على ما نقول.. ألسنا في مدرسة حوار؟

[1] رواه أبو داود.

جلس الغزالي مع الرجل، وجلسنا في محل قريب منهما نسمع ما يقولان:

قال الرجل: لقد مررت على جمع هنا يقول كلاما تنهد له الجبال.

قال الغزالي: وما يقولون؟

قال الرجل: كله كفر وضلال.. فكيف أردده عليك؟

قال الغزالي: ألك حجة على إنكار ذلك؟

قال الرجل: بل لدي حجج كثيرة.. منها ما يرتبط بمصادرنا المقدسة، ومنها ما يرتبط بواقعنا.

قال الغزالي: يسرنا أن نسمعها منك، فحدثنا.. وابدأ بالدين.. فالدين مقدم على الواقع.. فلا اجتهاد مع نص.

قال الرجل: أول ذلك، وأبلغه قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:64)، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي ﴾ (آل عمران:20)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحج: 68)، فهذه الآيات الكريمة وأمثالها تغلق الباب أمام الحوار في العقائد، حيث أنها تحث النبي ﷺ في حال المجادلة على تفويض الأمر إلى الله، وعدم الخوض في الحوار الكلامي مع الآخرين.

هذا زيادة على أن قضايا العقيدة الإيمانية، يتعذر إخضاعها للمحاجة والجدل، ومن ثم ينبغي أن يترك شأنها لرب القلوب والضمائر.

قال الغزالي: فما تقول في قوله تعالى: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت: 46)

قال الرجل: هذه الآية تتعلق بالأمور الدنيوية المتصلة بالمعاملات الدائرة في إطار التعايش في علاقة المسلمين بغيرهم، فالخلاف حول العقائد يتعذر تجاوزه أو حتى الوصول فيه الى حل وسط، بل إن الحوار في مثل هذه الأمور العقدية قد يبعد ولا يقرب، ويورث المرارة ولا يبددها.

قال الغزالي: هذه حجتك الدينية، فما حجتك الواقعية؟

قال الرجل: لقد رأيت أن الحوار ما هو إلا وسيلة أراد القائمون عليه من خلالها اختراق عقول صفوة المفكرين المسلمين بهدف تحييدهم واخراجهم من دائرة الحوار الحقيقي، وذلك بإضفاء صفات السماحة والعصرية والتحضر والمرونة والتنوير وغير ذلك من المصطلحات التي تطلق على بعض المشاركين في هذه المؤتمرات.

بالإضافة إلى ذلك، فإن هدف مؤتمرات الحوار مع الأحبار تذويب الاسلام عن طريق

الإخاء الديني والحوار بين الأديان في ظل الدعوة الابراهيمية، ومثل هذه الـدعوات دعـوات خطيرة وخبيثة تستهدف عقيدة التوحيد عند المسلمين تحت شعار الوحدة بين الأديان، ومـا تفرع عن ذلك من محاولة طبع القـرآن والتـوراة والانجيـل في غلاف واحـد، وبنـاء مسـجد وكنيسة وبيعة في محيط واحد.

ولخطورة هذه الدعوة أصدرت اللجنـة الدائمـة للبحـوث العلميـة والافتـاء بالسـعودية فتوى جاء فيها: (لا يجوز لمسلم يؤمن بالله رباً وبالإسلام دينا وبمحمد نبيـاً ورسـولاً الـدعوة إلى هذه الفكرة الآثمة والتشجيع عليها وتسليكها بين المسلمين، فضـلاً عن الاسـتجابة لهـا، والدخول في مؤتمراتها وندواتها)

سكت الرجل، فقال الغزالي: هل فرغت ـ يا أخي ـ من ذكر حججك؟

قال الرجل: وهل ترى أن مثل هـذه الحجج يمكن أن تقـاوم.. إنهـا الصـارم المسـلول المجهز على كل محاور مشلول؟

قال الغزالي: فهل تأذن لي في أن أدلي بحججي؟

قال الرجل: تحدث كما تشاء.. ولكن إياك وبديهيات الدين.. فلا ينبغي أن ينـاقش أحـد في البديهيات.

قال الغزالي: سأكتفي بشاهدين.. وستجد فيهما الجواب المفصل على مـا ذكرتـه، فلا تقاطعني حتى أكملهما لك.

قال الرجل: فما **أولهما**؟

قال الغزالي: **القرآن الكـريم**.. اذهب، وافتح القـرآن الكـريم، فسـتجده يقـرر في مواضع كثيرة مبدأ الحوار مع أهل الكتاب وغيرهم، بل يضـع ضـوابط الحـوار معهم، ويـدعو إلى استخدام أرقى أنواع الخطاب وألطف العبارات في الحوار.

بل إنه فوق ذلك يقدم العديد من النماذج لأنواع من الحوار..

بل إنك في قراءتك للقـرآن الكـريم تجـد كـل شـيء قـابلا للحـوار، فلا مقدسـات ولا محرمات في الحوار، حتى في وجود الله تعالى وشخصية النبي ﷺ، فنحن نعلم أن القــرآن الكريم بسط كل هـذه الموضـوعات للحـوار مـع أهـل الشـرك والإلحـاد فقـد عـرض لكـل المفردات التي اتهم بها النـبي ﷺ في شخصـه وفي رسـالته: هـل هـو مجنـون أم عاقـل؟ سـاحر أم نـبي؟ كـاذب أم صـادق؟ قرآنـه بشـري أم إلهي؟.. ثم عـالج القـرآن كـل هـذه المسائل بكل موضوعية وعلمية.

بل إن الله تعالى مع عظمته وقدسيته حـاور إبليس، قـال تعـالى: ﴿ قَـالَ مَـا مَنَعَـكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (لأعراف:12)

وذكر القرآن الكريم حواره تعالى مع ملائكته، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَـالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَـةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَـبِّحُ بِحَمْـدِكَ

وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (البقرة:30)

ويذكر القرآن الكريم أن إبراهيم ﷺ حاور الملائكة، بـل إعـترض عليهم، قـال تعـالى: وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَـانَتْ مِنَ الْغَـابِرِينَ (32) (العنكبوت)، بل إن الله سمى حواره للملائكة جدالا، وهـو دليلا على تكـرر مراجعتـه لهم، قال تعالى: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَـوْمِ لُـوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَـاءَ أَمْـرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76) (هود)

وفوق هذا كله، فإن القرآن الكريم يحاور أهـل الكتـاب في قضـايا دينهم، لا يـترك في ذلك قضية من القضايا الكبرى إلا طرحها.

بل إنه ـ فوق ذلك كله ـ أمرنا بحوارهم دون أن يستثني عقيدة أو غيرها، قال تعالى: وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْـزِلَ إِلَيْنَـا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (العنكبوت:46)

فهذه الآية الكريمـة ــ فضـلاً عن مطالبتهـا بالجـدال بـالتي هي أحسـن ــ كأنهـا تقـول للمسلمين: إذا لم يكن في جعبتكم الأسلوب الأحسن في الجدال فلا تجادلوا أهل الكتاب.

وهي دعوة صريحة للحوار مـع أهـل الكتـاب، حـوار يركـز على الانطلاق من مـواطن اللقاء في الفكر والرسالة، والقواسم المشتركة مع أهل الكتاب، وعلى هذا الأساس كـانت الدعوة إلى بدء الحوار من قاعدة مشتركة في قضية الإيمان التي يمكن أن توحي بإمكانية اللقاء في القضايا الأخرى..

قاطعه الرجل قائلا: ولكن الولاء والبراء[1]..

قال الغزالي: ألم أطلب منك أن تمهلني إلى أن أكمل حججي الأربع؟

قال: لا بأس.. قد وعيت الشاهد الأول.. فاذكر لي الثاني.

قـال الغـزالي: الثـاني هـو **السـنة المطهـرة**.. ففي السـنة المطهـرة الكثـير من النصوص الدالة على أن رسول الله ﷺ حـاور من جـاءه من أهـل الكتـاب سـواء كـانوا من اليهود أو النصارى..

لاشك أنك تعرف كيف قابل رسول الله ﷺ نصارى نجران وإحسانه وفادتهم وسـماحه لهم بالصلاة في مسجده، وفوق ذلط محاورتهم في أمـور الـدين.. وهكـذا وحـواره ﷺ مـع اليهود، ودعوتهم للإسلام.

وهكذا فعـل صـحابته في عهـده، فـأقرهم.. لاشـك أنـك تعـرف مـا جـرى في مجلس

(1) ذلك أن من ذرائع المعارضين للحوار اعتبارهم الحوارتنازلاً عن مبادئ الإسلام وهدماً لقاعدة الولاء والبراء.. ومـا أكثر ما جني على الإسلام تحت ذريعة الولاء والبراء، وسوء الفهم للولاء والبراء.

النجاشي بأرض الحبشة بين مهاجري المسلمين والوفد القرشي الـذي ذهب لـردهم، حيث تلى جعفـر بن أبي طـالب قـدرا من سـورة مـريم يخـبر عن المسـيح وأمـه مـريم، وانتهى الحوار بمناصرة النجاشي للمسلمين على وفد قريش، والإذن لهم بالاقامة في الحبشة مــا شاءوا معززين مكرمين.

ولاشك أنك تعرف مـا وقـع في مجلس هرقـل ملـك الـروم، بإيليـاء (بيت المقـدس)، وتولى عرض الإسلام دحية الكلـبي الـذي كـان رسـول رسـول اللـه ﷺ إلى هرقـل،وانتهي الحوار بقبول هرقل لرسالة النبي إليه(1).

ولاشك أنك تعرف ما وقع في المدينة المنورة بين الرسول ﷺ وبين وفد نجران الـذي جاء محتجاَ على وصف عيسى بن مريم عليه السلام بأنه بشر وليس إلهاَ ولا ابن إله، وقال رسـول الله ﷺ: نعم إنه أخي وإنـه عبـد اللـه ورسـوله،وأن اللـه تعـالى لم يلـد ولم يولـد، ودعـاهم الرسول ﷺ إلى الإسـلام، فـأبوا فـدعاهم الرسـول إلى المباهلـة،فرفضـوا وقبلـوا الجزيـة، وأعطاهم الرسول عهد الأمان مؤكدا فيه الالتزام التـام بحمـايتهم والـدفاع عنهم، وحمايـة دور عبادتهم ضامناً لهم الحرية في العبادة وممارسة شعائرهم(2).

التفت الغزالي إلى الرجل، وقال: هذه بعض حججي، فما تقول فيها؟

قال الرجل: ولكن.. سد الذرائع.. ألا تعلم أن المفسدة مقدمة على جلب المصلحة؟

قال الغزالي: أنت تخاف على المسلمين أن ينحرفوا إلى غير الإسلام.

قال الرجل: أجل.. أليس هذا الخوف معتبرا؟

قال الغزالي: أجل هو معتبر.. ولكن.. ألا تخاف على هذه البشرية التائهة عن الإســلام أن تموت على غيره؟

قال الرجل: هي تائهة لا محالة.

قال الغزالي: ولكنا مسؤولون عن تيههم.. إذا جاءوا يوم القيامـة، وقـالوا: يـا رب.. إن هؤلاء قاطعونا، وحرمونا من النور الذي أنزلته، واستأثروا به دوننا، فما عسانا نجيب ربنا؟

قال الرجل: نقول: يا رب.. إنهم أسمعونا كلاما عظيما.

قال الغزالي: ألا تعلم أن الحوار هو الذي يكشف عن الجواهر، أم أنــك تريـد منهم أن ينافقوك، فيظهروا خلاف ما يبطنون.

سكت الرجل قليلا، ثم قال: صدقت.. لا أجد ما أجيبك به إلا أن أطلب منك أن تسـمح لي أن أنضم إلى هذه المدرسة، فعسى الله أن يفتح علي فيها من العلم مـا أتمكن بـه من إنقاذ أخ من إخواني في الإنسانية من ظلمات الجهل إلى نور الإسلام.

---

1) سنذكر التفاصيل المرتبطة بهذه الرسائل في فصل (الشاهد) من هذه الرسالة.

2) انظر التفاصيل المرتبطة بهذا في فصل (الشاهد) من هذه الرسالة.

قال الغزالي: بورك لـك هـذه الهمـة.. وأبشـر بمـا بشـر بـه رسـول اللـه ﷺ من يهتم بهمتك، فقال مخاطبا عليا :(انفذ على رسلك حتى تنزل بسـاحتهم، ثم ادعهم إلى الإسـلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خـيرٌ لك من حمر النعم)(3)

***

مكثت في ذلك الفرع برهة طويلة من الزمن درست خلالها كل ما جـادت بـه قريحـة علماء المسلمين في الحوار بينهم وبين سائر الملل والنحل.

وقد عرفت من تلك الدراسة المفصلة العميقة.. أنها جميعا لم تكن تنهـل إلا من بحـار القرآن الكريم، وبحار الرسول الهادي الذي جعله الله نورا للعالمين، كما جعله رحمة لهم.

قلت: فما حال تلك المدرسة، وكيف تركتها؟

قال: لقد تركتها بخير.. ولكنها تحولت إلى شر.

قلت: ما هذا؟.. وهل يتحول الخير إلى شر؟

قال: ليست المدارس بجدرانها.. ولكنها بأصحابها.. لقـد كـان الغـزالي هـو مـدير تلـك المدرسة وأستاذها، وكان النبي المحاور هو روح تلك المدرسة وسر حياتها..

قلت: فما حصل لهما؟

قال: أما الغزالي، فقد طعنـه بعض الحاقـدين الـذين أحرقـوا كتب جـده.. وأمـا النـبي المحاور، فقد راح أولئك الحاقدون يصورونه بصورة لا أستطيع أن أذكرها لك.

قلت: ما هي؟

قـال: صـورة نفوسـهم المملـوءة بالأحقـاد، فهم لا يسـمعون إلا أنفسـهم وأهـواءهم.. فلذلك راحوا يصفون الحوار بالهرطقة، والمحاورين بالمبتدعة.

قلت: فما وضعوا بدل الحوار؟

قال: السيف بنوعيه.

قلت: أللسيف نوعان؟

قال: نعم.. أما أحدهما، فالسـيف الـذي تعرفـه، وقـد انتـدبت لـه طائفـة منهم.. وأمـا الثاني، فسيف الحرمان؟

قلت: ما سيف الحرمان؟

---

3) رواه البخاري ومسلم.

قال: أنت أدرى الناس به.. ألا تعلم أن الكنيسة تعاقب من تنتقم عليه بحرمانه من بركات الكنيسة، والمسيحية؟

قلت: بلى.. أعلم ذلك.

قال: فقد راح هؤلاء يسلطون هذا السيف على كل الناس.. يرمونهم بما شاءت لهم أهواؤهم أن يرموهم به.

قلت: والمدرسة.. كيف حالها؟

قال: أما بنيانها، فباق.. ويوشك أن يقيض الله لها حفيدا من أحفاد الغزالي ليعيد لها الحياة.

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة الثالثة من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب.. ولم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تنزلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

رابعا ـ المعلم

قلت: فحدثني عن رحلتك الرابعة.

قال: كانت الحاضرة الرابعة من حواضر الإسلام التي قدر لي أن ألتقي فيها بوارث الهدي النبوي في مجال التعليم مدينة (شنقيط)..

وقد بدأت قصة التقائي بورثة هذا الهدي العظيم في صحراء قريبة منها..

كنت أسير في تلك الصحراء التي امتلأت حرا وجفافا، وأتعجب كيف استطاع النبي ﷺ أن يخرج من مثل هذه الصحراء أساتذة لا تزال جامعات العالم ومدارسه تنهل من علومهم، وتستفيد من حكمتهم، وتطمح لأن يكون لها من اتقاد الذهن، وحدة الذكاء، وصفاء الذاكرة ما كان لهم.

وبالرغم من أن هذه الخواطر كانت تملؤني بالأشواق الجميلة إلا أني مع ذلك كنت أشعر بألم عظيم.. لقد قلت لنفسي: كيف قصرت الأمة في حق هدي نبيها حتى جفت تلك الآبار التي حفرها لنا، فصرنا لا نجد ما نروي به العالم المتعطش إلى أكمل هدي، وأعظم هدي، وأنبل هدي؟

لقد صارت مدارسنا لا تخرج أمثال من تربوا في مدرسة رسول الله ﷺ.. وتعلموا فيها.. بل صارت تخرج المشاغبين والمشردين ومشتتي الذهن، وممن يستعملون علومهم لاقتناص الدنيا..

صارت تخرج أمثال بلعم بن باعوراء.. وأمثال أولئك الذين شبههم الله بالحمير التي تحمل أسفارا.

بينما أنا كذلك تتنازعني خواطر مسرة، وخواطر حزن، إذا بي أسمع صوتا عذبا يترنم بلامية الشنفرى الممتلئة بالغريب، ومما سمعته منها قوله:

أقيموا بني أمي، ... **فإني، إلى قومٍ**

فقد حمت الحاجاتُ، ... وشُدت، لِطياتٍ، مطايا

وفي الأرضِ مَنْأىً ... وفيها، لمن خاف

لَعَمْرُكَ، ما بالأرض ... سَرَى راغباً أو راهباً،

ولي، دونكم، أهلونَ: ... وأرقطَ زُهلول وَعَرفاءُ

هم الأهلُ. لا مستودعٌ ... لديهم، ولا الجاني بما

وكلٌّ أبيٌّ، باسلٌ. غير ... إذا عرضت أولى

وإن مــدتْ الأيــدي إلى ... بـــأعجلهم، إذ أجْشَـــعُ
ومـاذاك إلا بَسْـطَةٌ عن ... عَلَيهِم، وكــان الأفضَــلَ
وإني كفــاني فَقْــدُ منٍ ... بِحُسـنى، ولا في قربــه
ثلاثــةُ أصــحابٍ: فــؤادٌ ... وأبيضُ إصـــــــــليتٌ،

اقتربت من صاحب الصوت، فوجدتُه راعيا قد استلقى على رمال تلك الصحراء.. وهو يترنم بتلك الأبيات بلذة لا تعدلها لذة، وكأنه يتوهم نفسه في محفل كبير، وقد طرح جلابيب الرعاة، ليرتدي طيالسة الأدباء والبلغاء والعلماء..

حييته، فلم يشعر بتحيتي، فحركته بيدي، وقلت: مرحبا بصديقنا الشنفرى.. هل رضـي الشنفرى من حياته بعد عودته بأن يصير راعيا؟

ابتسم، وقال: وهل يمكن أن يتكبر على الرعي أحد بعد رعي رسول الله ﷺ؟

ثم أردف يقول: لو أن الشنفرى سمع قول رسول الله ﷺ: (ما بعث الله نبيا إلا راعي غنم)، فقيل له: وأنت يا رسول الله؟ قال: (وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط) (1)

وسمع ما حدث به جابر بن عبد الله من قوله: كنا مع رسـول اللـه ﷺ نجـني الكبـاث، فقال: عليكم بالأسود منـه فإنـه أطيبـه فـإني كنت أجنيـه إذ كنت أرعى الغنم، قلنـا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: (نعم، وما من نبي إلا وقد رعاها)(2)

وسمع ما حدث به أبو سعيد قال: افتخر أهل الإبل والشاء، فقال رسول الله ﷺ:(بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت وأنا راعي غنم لأهلي بأجياد)(3)

لو أن سمع كل هؤلاء الشهود لترك رماحه وسيوفه وجلس مع غنماته كمـا أجلس أنـا الآن معها.. وقد كفى العالم من شره، وكفاه العالم شره.

قلت: كيف رضيت لنفسك ـ مع ما منحته من قـدرة على التعلم ــ على الجلـوس بين الغنم.. ألم يكن الأجـدى بـك أن تجلس بين يـدي تلاميـذك، يقبـل هـذا يـدك، ويسـعى ذاك لخدمتك، وفوق ذلك تنال من الأجور ما لا تناله من هذه المهنة؟

قال: ومن لهذه الغنم المسكينة يرويها ويطعمها.. ومن للبشر الذين ينتظرون صــوفها ولبنها ولحمها..؟

قلت: لكل حرفته التي تصلح له.. وأنا لا أرى هذه الحرفة تصلح لك.

قال: إن كل من تـراه في هـذه الصـحارى مثلي يحفظـون مـا أحفـظ.. ويعلمـون مـا

1) رواه ابن سعد والبخاري وابن ماجه.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه أبو داود الطيالسي والبغوي وابن منده وأبو نعيم.

أعلم.. فهل نترك حرفنا ووظائفنا لنجلس جميعا معلمين وأساتذة؟

قلت: فهل تعلمتم إذن لتصيروا رعاة؟

قال: العلم شيء.. والحرفة شيء آخر.. نحن نتعلم لوجه الله، وابتغاء مرضاة الله، ثم نكل إلى الله أحوالنا.. فإن شاء أن يجعلنا في زمر الأساتذة حمدنا الله على ذلك مع اعتقادنا بعظم المسؤولية المنوطة بنا.. وإن شاء أن يجعلنا رعاة غنم حمدنا الله، واعتقدنا فضل ما نحن فيه.. فلسنا أشرف من رسول الله ﷺ ولا أشرف من الأنبياء.

قلت: متى توقفت عن طلب العلم؟

ابتسم، وقال: ومتى توقفت أنت عن أداء الصلاة؟

قلت: كيف تقول هذا؟.. لقد كنت أحسبك ذا علم وذا عقل.. هل يجوز للمسلم أن يتوقف عن أداء الصلاة؟.. إن الصلاة مفروضة في جميع الأحوال، ولو أن تؤديها بالإيماء.

قال: ومثلها العلم.. كلاهما فريضة من فرائض الله.. وكلاهما مما لا يجوز التوقف عن طلبه.. ألم تسمع قوله تعالى مخبرا عن دعاء النبي ﷺ: ﴿ وَقُل رَبِّ زِدْني عِلْماً ﴾(طه: 114)، وقوله تعالى وهو يبين رفعة أهل العلم:﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: 9)، وقوله تعالى:﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة: 11)، وقوله تعالى وهو يحصر الخشية في أهل العلم:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: 28)؟

وفوق ذلك.. فقد أخبر رسول الله ﷺ بأن العلم نوع من أنواع العبادة، بل هو من أفضلها، فقال:(أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع)[1]، وصرح ﷺ بذلك فقال:(فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع)[2]

وقال ﷺ في حديث آخر:(قليل العلم خير من كثير العبادة، وكفى بالمرء فقها إذا عبد الله، وكفى بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه)[3]

وقال ﷺ:(ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه)[4]

قلت: أراك تحفظ الكثير مما ورد في فضل العلم؟

قال: إن هذه الأحاديث وغيرها هي المحرك الذي حرك هممنا وحرك همم الأجيال الكثيرة من ورثة رسول الله ﷺ لطلب العلم.. فكيف لا أحفظها؟

---

1) رواه الطبراني في معاجيمه الثلاثة.

2) رواه الطبراني في الأوسط، والبزار بإسناد حسن.

3) رواه الطبراني في الأوسط.

4) رواه الدارقطني والبيهقي.

قلت: من رواها لـك.. أأخـذتها من الثقـاة العـدول.. أم تـراك أخـذتها من المدلسـين والضعفاء؟

نظر إلي بغضب، وقال: أتتهمني في ديني؟.. كيف أرضى أن آخـذ علم ديـني وأقـوال نبيي من المدلسين والضعفاء.. إن كل ما أرويه لدي أسانيده العاليـة إلى رسـول اللـه ﷺ.. ولولا خشية الإطالة عليك لذكرتها لك سندا سندا.. وعرفتك برجالها رجلا رجلا..

قلت: أنت محدث إذن.. فكيف ترضى بالرعي؟

قال: أراك تعود إلى ما بتتنا فيه.. أنا عبد لله.. وعبد الله لا يختار إلا ما اختار اللـه لـه.. ثم إن كل من تلاقيه من الرعاة والتجار والبنائين والخياطين يعلم ما أعلم، أو يعلم أكثر مما أعلم.. فهل يتركون حرفهم جميعا؟

قال ذلك، ثم انتبه إلى بعض نعجاته، وقـد ابتعـدت عن صـواحبها، فأسـرع إليهـا، وهـو يحدو بقول الحافظ العراقي في ألفية السيرة:

مَرُّوا على خَيمَـةِ أمِ … **وهْيَ علَى طريقِهِمْ**

وعندَها شَاةٌ أضرَّ الجَهْدُ … بِها وما بِها قـوًى تَشـتَدُّ

فَمَسَــحَ النــبيُّ منهــا … فَحَلبَتْ مـا قـدْ كفَـاهُمْ

وَحَلَبَتْ بعدُ إنـاءً ءاخـرَا … تُركَ ذاكَ عندَها وَسَافَرَا

جـزى اللـه ربُّ النـاس … رفيقين حَلاّ خيمتَي أم

همـا نزلاهـا بالهـدى … فقـد فـاز من أمسـى

فمـا حملت من ناقـة … أبـرّ وأوفى ذمـة من

عادت الشاة إلى حيث صواحبها، فاقتربت منه، وقلت: أرى الشاة قد أطاعتـك، أتـرى فهمت ما كنت تقرؤه عليها؟

قال: وما يمنعها أن تفهم.. إن لله في خلقه من الأسرار ما لا تطيق عقولنـا أن تحيـط به.

قلت: لقد كنت تقرأ من ألفية العراقي في السيرة.. فما تحفظ منها؟

ابتسم، وقال: أحفظها ـ بحمد الله ـ جميعا..

صحت متعجبا: أتحفظ ألف بيت كاملة؟

ابتسم، وقال: وما ألف بيت.. إنها أيسر علينا بحمد الله من شربة ماء..

قال ذلك، ثم نظر إلي، وقال: إن الذي تراه أمامك يحفظ عشـرات الآلاف من أبيـات

الشعر والنظم.. وأذكر أن أمي كانت تسكتني في صباي بألفية ابن مالك؟

قلت: أأمك تحفظها؟

قال: وكيف لا تحفظها؟.. وما لها لا تحفظها؟.. ألم تحفظ لنا الألفية النحو الذي نطق به رسول الله ﷺ؟

قلت: بلى..

قال: فلذلك ترى الجميع يحفظها هنا.

قلت: أراكم انشغلتم بعلوم الآلات عن علوم المقاصد؟

قال: وما علوم المقاصد؟

قلت: حفظ القرآن الكريم مثلا.. أليس الأجدر بكم بذل الجهد في حفظه بدل حفظ الأشعار التي لا تصلح إلا للأسمار.

قال: نحن لا نتحدث عن حفظ القرآن..

قلت: لم؟.. لقد يسره الله للذكر، فكيف عسر عليكم؟

قال: أرأيت لو أن من أهل بلدك من راح يعدد في محفوظاته سورة الفاتحة، ويفخر بها.. ما ترى موقف الناس منه؟

قلت: سيضحكون من بلاهته.

قال: فهكذا الأمر عندنا.. لو راح أحدنا يذكر حفظه للقرآن لأضحك الناس عليه.

قلت: أبلغ بهم احتقار القرآن الكريم إلى هذه الدرجة؟

قال: لا.. هذا من تعظيم القرآن لا من احتقاره.. هم يعتقدون أن حفظه فريضة لا نافلة، ولا يحق لأحد أن يزهو بأدائه الفريضة.

قلت: ما سر هذه الذاكرة العجيبة التي أوتيتموها من دون الناس؟

قال: نحن بحمد الله أخلصنا لله، وسلمنا أمورنا له.. ثم جلسنا بين أيدي ورثة رسول الله ﷺ نتأدب على أيديهم، وننهل من علومهم، وكأنا بين يدي رسول الله ﷺ فرزقنا الله من الفتوح على أيديهم ما لم نكن نحلم به.

قلت: فدلني عليهم.. فأنا لا همة لي في حياتي إلا البحث عن ورثة رسول الله ﷺ.

قال: هم كثيرون، فأيهم تطلب؟

قلت: لقد ذكر لي معلم الهداية فما لعل هذه الحاضرة هي بلده.. ولعل ورثتها هم

حملة مشعله.

قال: إن كان قد ذكر لك الفم الذي طهر لسانه بماء الحقائق، وزين بمواثيق الرقائق، وعتق من سجون العلائق، فصار بين الناس كالبدر المتلألئ، تنشق له حجب الظلمات، وتندك له صروح الطغاة.. فهذه البلاد هي بلاده، وهذه الأرض هي أرضه، وهذه الحاضرة هي حاضرته.

قلت: بلى.. لقد ذكر لي هذا.. إنك تحفظ ما قاله حرفا حرفا.. فهل التقيت بمعلم الهداية؟

قال: دعك من الفضول، فما وصل للأصول من تعلق بالفضول.

قلت: فأين أجد حامل هذا المشعل من مشاعل الهداية النبوية؟

قال: اذهب إلى مركز هذه المدينة.. وزر أي محضرة من محاضرها.. وستجد كل واحد منهم فمه هو ذلك الفم.. ووظيفته هي تلك الوظيفة.

***

سرت إلى حيث أرشدني الراعي، وأنا ممتلئ عجبا وإعجابا.. لقد أزاح ذلك الراعي ما تراكم على نفسي من الهموم والأحزان.. بل جعلني أشعر بأن البئر التي تركها رسول الله ﷺ.. بل الآبار التي تركها.. لا تزال ممتلئة بالمياه العذبة التي يمكن أن تسقي كل من يفد إليها ليرتوي من ينابيعها.

لا يمكنني أن أحدثك عن كل من لاقيته من الأساتذة والطلبة.. ولكني سأكتفي برجلين من الورثة.. أما أحدهما، فعرفت من صحبتي له قيمة الأدب وارتباط العلم بالأدب والأخلاق والروحانية.

وأما الثاني، فعرفت من صحبتي له أنواع المعارف وقيمتها وعلاقتها بالهدي النبوي.

الآداب

أما أول الرجلين، فقد كان اسمه محمد الأمين.. وكان رجلا ممتلئا بالحكمة والأدب والالتزام التام بالهدي النبوي..

لقد كان أول رجل لاقيته عندما دخلت حاضرة (شنقيط).. فقد دخلت أول محضرة من محاضر العلم فيها.. وقد كتب على بابها قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران:79)

في مدخلها التقيته، وقد كان عليه سيما المتوسمين، ونور ورثة النبيين.. سلمت عليه، وقد أصابني من هيبته ما منعنى من الاقتراب منه أو الحديث معه مع ما كان يظهر عليه من التواضع والبساطة.

لكنه دعـاني، وقـال: مرحبـا بـك في بلـدك، وأمـام أهلـك.. ومبـارك لـك تخرجـك من مدرسة الحوار الغزالية، فقل من يتخرج من تلك المدرسة هذه الأيام.

قلت: كيف عرفت ذلك؟.. أنا لم أر أحدا لأخبره.

قال: ألم ينبهك الراعي إلى أن لا تسأل مثل هذه الأسئلة؟

قلت: أجل.. وأعتذر إليك.. لاشك أنك صاحبي الرابع الذي أرشدني إليه معلم الهداية.

قال: أنا أحدهم.. فكل من تـراه في هـذه المدينـة ورثـة من ورثـة الهـدي النبـوي في التعليم.. ولذلك ترى بركاته علينا معشر الشناقطة.

قلت: بمن أبدأ منكم.. فإني الآن في متاهة..

قال: بي تبدأ.. وبي يبدأ كل طلبة العلم في هذه الحاضرة من حواضر الإسلام.

قلت: لم؟

قال: أنا الذي أكسو الطلبة حلة أهل العلم.. ولا يمكن للطـالب الـذي لم يكتس بهـذه الحلة أن يقبله أي معلم في هذه المدينة.

قلت: أعمامة هي تلـك الحلـة، أم قميص؟.. وهـل تشـبه حلـة الأزهـر، أم تشـبه حلـة القرويين؟.. أم تراها تشبه تلك الحلة التي أهداها الصالحي لمحمد الوارث[1]؟

قـال: هـذه الحلـة هي حلـة سـيد المرسـلين.. فلا يمكننـا أن نلقن طالبـا أي علم من العلوم ما لم يتحل بتلك الحلة المباركة.

قلت: فأين وجدتموها؟

قال: في هديه ﷺ.. وفي هدي ورثتـه من بعـده.. فنحن ننهـل منهمـا، ونـربي عليهمـا، ونبدأ بهما.

قلت: فما أثواب هذه الحلة؟

قال: أربع.. ولا تكتمل الحلة إلا بها.

قلت: فما هي؟

قال: العبودية.. والمجاهدة.. والسمت.. والإفادة[2].

قلت: أهذه سنة سننتموها في هذه الحاضرة من حواضر الإسلام، أم هي هـدي تلقـاه

1) ذكرناها في رسالة [النبي الإنسان]

2) استفدنا الكثير من الآداب الـتي نـذكرها من كتـاب (آداب العلمـاء والمتعلمين)، الحسـين ابن المنصـور اليمـني، وغيرها من المراجع الكثيرة في هذا الباب.

سلفكم عن خلفكم؟

قال: بل هي هدي تلقاه سلفنا عن خلفنا.. لقد كانت الأمة جميعا، وإلى فترة قريبة لا تعرف في العلم إلا هذا الهدي[1] إلى أن غزتها شلة المراهقين، فحولت مدارسها إلى مدارس المشاغبين.

قلت: ولكني أرى أن مدارس المشاغبين أكثر تطورا من هذه المحاضر التي أراها في هذه المدينة؟

قال: نعم هي أكثر منها تطورا في العمران.. ولكنها أعظم انحدارا في الإنسان.

قلت: فلم لم تجعلوها متفوقة في العمران؟

قال: لقد قعدت بنا الفاقة دون ذلك.. ثم إنا رأينا أن أكثر ما في ذلك العمران ترف، ولا يمكن للطالب أن يجمع بين الحقائق والترف.

قلت: فهل تسمح لي أن أستفيد منك ما ذكرته من حلة طلاب العلم النبوية؟

قال: ذلك واجب علي وعليك.. على أن تلتحق بطلبة هذه المحضرة.. لتنهل من آدابها ما يؤهلك لسائر المحاضر.

العبودية:

كان أول فرع من فروع الآداب بدأنا به دراستنا في محضرة الآداب هو فرع (العبودية)، وقد سألت الشنقيطي عن سر البدء بالعبودية، فقال: لقوله تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (العلق:1).. فلا يمكن أن يتعلم من يتعلم إلا بتعليم الله.. ولا يحق لمن تعلم بتعليم الله أن يغفل عن الله، أويحاد الله، أو ينشغل بعلمه عن الله.

قلت: فما أركان العبودية التي سنتعلم آدابها في هذا القسم؟

قال: اثنان: التجرد، والعمل.. فلا تتحقق العبودية إلا لمن تجرد بعلمه لله، ثم عمل بما يقتضيه علمه لوجه الله.

قلت: فهل ستعلمني علوم ذلك؟

قال: اجلس مع زملائك من طلبة العلم، وستتعلم معهم أسرار هذين الركنين.

التجرد:

جلست مع زملائي في حلقة العلم، وقد بدا لي أنهم كلهم جدد، فلم يكن أحد منهم

---

1) ويدل لهذا كثرة ما ألف في هذا الباب من متون وشروح ومؤلفات، ومن بينها (الجامع) و(الفقيه والمتفقه) كلاهما للخطيب البغدادي، و(تعليم المتعلم طريق التعليم) للزرنوجي، و(آداب الطلب) للشوكايى، و(أخلاق العلماء) للآجري، و(آداب المتعلمين) لسحنون، و(الرسالة المفصلة لأحكام المتعلمين) للقابسي، و(تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة.. وغيرها كثير.

يعرف الآخر.. لم نلبث إلا قليلا، حتى جاء الشنقيطي، وسلم علينا بأدب وتواضع، ثم راح يردد قوله ﷺ:(إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امريءٍ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)(1)

ثم قال: إن هذا الحديث الذي دأب أهل العلم على استفتاح مجالسهم ومصنفاتهم به هو الأساس الذي ينبغي أن تبدأ حياتكم به.. فلا يمكن للعالم ولطالب العلم أن يتحقق بعبودية العلماء حتى يعيشه ويتذوقه وتسير عليه حياته جميعا.

لقد ورد عن نبينا ﷺ الأحاديث الكثيرة المنبئة عن خطر قصد غير الله بطلب العلم، ففي الحديث الصحيح يصور رسول الله ﷺ مشهدا من مشاهد الآخرة، فيقول:(إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبك ولكنك قاتلت ليقال فلان جريء، فقد قيل ثم أمر ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فرفعها قال: قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته ومن قرآت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر بن فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر فسحب على وجهه حتى ألقي في النار)(2)

وفي حديث آخر قال ﷺ:(ثلاثة مهلكون عند الحساب: جواد وشجاع وعالم)(3)

وقال ﷺ:(إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك)(4)

وفي الحديث القدسي يقول ﷺ:(قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه، إذا كان يوم القيامة أتي بصحف مختمة فتنصب بين يدي الله تعالى، فيقول الله لملائكته: اقبلوا هذا وألقوا هذا، فتقول الملائكة: وعزتك ما رأينا إلا خيرا، فيقول: نعم لكن كان لغيري ولا أقبل اليوم إلا ما ابتغي به وجهي)(5)

وفي رواية أخرى:(إذا كان يوم القيامة يجاء بالأعمال في صحف مختمة، فيقول الله ـ عز وجل ـ: اقبلوا هذا وردوا هذا، فتقول الملائكة وعزتك ما كتبنا إلا ما عمل، فيقول: إن

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مسلم.

3) رواه الحاكم.

4) رواه وأحمد والترمذي وابن ماجه.

5) رواه مسلم وابن ماجه.

عمله كان لغير وجهي، وإني لا أقبل اليوم إلا ما كان لوجهي)

وفي رواية أخرى:(إن الملائكة يرفعـون عمـل العبـد من عبـاد اللـه يسـتكثرونه حـتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه فيوحي الله إليهم: إنكم حفظة على عمـل عبـدي وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي هذا لم يخلص لي في عملـه فـاجعلوه في سـجين، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ويحقرونه حتى يبلغوا به إلى حيث شـاء اللـه من سـلطانه فيوحي إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على نفسه، إن عبدي هذا أخلص لي عمله فاجعلوه في عليين)(1)

وفي حديث آخـر قـال ﷺ:(إن اللـه يحب الأبـرار الأتقيـاء الأخفيـاء الـذين إذا غـابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة)(2)

وفي حديث آخر قال ﷺ:(تعوذوا بالله من جب الحـزن واد في جهنم تتعـوذ منـه جهنم كل يوم أربعمائة مرة يدخله القراء المراءون بأعمالهم، وإن أبغض القـراء إلى اللـه تعـالى الذين يزورون الأمراء)(3)

قال بعض الطلبة: فكيف نتقي هذا الخطر العظيم الذي يهدد أهل العلم؟

قال: لا يتحقق ذلـك إلا بـأن تتجـردوا للـه، فلا تقصـدوا بعلمكم أي غـرض دنيـوي، من تحصـيل مـال أو جـاه أو شـهرة أو سـمعة أو تمـيز عن الأقـران.. وغـير ذلـك ممـا تشـتهيه النفوس..

قلت: ألا ترى ـ يا شيخنا الجليل ـ أن ذلك قد يقف بعجلة العلم؟

قال: ولم؟

قلت: نحن نرى في واقعنا أن طللبة العلم لا يستحثهم إلا الجـاه، والشـهادات العاليـة، والمناصب الرفيعة، والأموال التي تدر عليهم من كل محل.. وفوق ذلك كلـه نيلهم الجـوائز العالمية الكبرى التي يسيل لها لعاب الحريصين.

قال: لا حرج أن يسلم الطالب المجد، والعالم الفحل كل تلك الجـوائز.. ولكن الخطـر الكبير في أن يقصدها.

قلت: ما الفرق بينهما؟

قال: لقد فرق رسول الله ﷺ بينهما عندما قيـل لـه: أرأيت الرجـل يعمـل العمـل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ فقال: (تلك عاجل بشرى المؤمن)(4)

---

1) رواها ابن المبارك.

2) رواه ابن ماجه.

3) رواه البخاري في التاريخ، والترمذي وابن ماجه.

4) رواه مسلم.

قلت: فما سر هذا التفريق؟

قال: عندما تقصد شيئا، وتجعله هدفا بين عينيك، فإنك لن تتحرك إلا من خلالـه، وذاك يحجزك عن خير كثير .. وقد يضعك بين يدي شر كثير.

قلت: فاضرب لي مثالا على ذلك.

قال: لقد كنت في المدرسة الغزالية.. ولعلـك سـمعت الغـزالي، وهـو يقـول:(كم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة، ولا يجوز قبول شهادتهم فيمـا يتعلـق بالأطبـاء من أحكام الفقـه، ثم لا نـرى أحـداً يشـتغل بـه، ويتهـاترون على علم الفقـه لاسـيما الخلافيـات والجدليات والبلد مشحون من الفقهـاء بمن يشـتغل بـالفتوى والجـواب عن الوقـائع؛ فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تـولي الأوقـاف والوصـايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضـاء والحكومـة والتقـدم بـه على الأقـران والتسـلط بـه على الأعداء؟)(1)

قلت: بلى.. سمعت هذا.

قال: أرأيت لو أن هؤلاء الطلبة الذين انشـغلوا بمـا كفـوا.. وضـعوا بين أعينهم طاعـة الله، فراحوا يبحثون في فروض الأعيان والكفاية ما يحققها.. هل ترى مثـل هـؤلاء يـتركون لأهل الذمة الانشغال بهذه العلوم دونهم؟

قلت: لا.. لا أحسبهم يفعلون ذلك..

قال: وحينذاك ستكفى الأمة هذه الناحيـة كمـا تكفى غيرهـا من النـواحي، ولا يتحقـق ذلك إلا ببركة الإخلاص والتجرد.

قلت: صحيح ما ذكرت.. ولو أنهم فعلوا ذلك لكنا الآن أحسن حالا.. ولكن الوضــع الآن مختلف.

قال: لا.. الوضع واحد.. الإنسان واحد في جميع الأزمان.

قلت: كيف ذلك.. ونحن نرى أن أكثر ما وصلنا إليه من تطور لم نصل إليه إلا ببركـات حب الجاه والمال والشهرة؟

قال: ولكن شؤم حب المال والجاه والشهرة جعل هذا التطور الذي تفخر به البشـرية تطورا ممحوق البركة.. ولو أنها رعته بالإخلاص والتجرد لكان شأنها الآن مختلفا تماما.

قلت: كيف ذلك؟

قال: نحن ننظر إلى ما أوتينا، ولم ننظر إلى ما لم نؤت.. فانشغلنا بما أوتينا، وتصـورنا أنه النهاية.. ولو فكرنا فيما لم نؤت مع قدرتنا على أن يكون لنا لاعتبرنا أنفسـنا متخلفين لا

1) إحياء علوم الدين:1/21.

متقدمين، وفقراء لا أغنياء، وجهلة لا متعلمين.

قلت: كيف ذلك؟

قال: سأضرب لك مثالا على ذلك.. ألا ترى أن الشركات والأفراد.. وكل مراكز البحث تحتكر الكثير من بحوثها.. بل تشح به حتى يبقى غيرها تابعا لها.. وحتى تنسب براءات الاكتشاف والاختراع إليها لا إلى غيرها.

قلت: أجل.. أرى ذلك.

قال: ألا ترى أن ذلك يقف في وجه البحث العلمي؟

قلت: بلى..

قال: وكيف يكون الحال لو أن هذه الجهات تحلت بالإخلاص، فراحت تنشر بصدق كل ما توصلت إليه من علم، لا يهمها هل نسب إليها أم لم ينسب؟

قلت: حينها يختلف الوضع تماما.. حينها ستتحول الأرض جميعا إلى مركز أبحاث موحد.. وحينها سيكون الإنتاج العلمي مضاعفا.

قال: ذلك بعض بركات الإخلاص..

قلت: وما جميع بركاته؟

قال: الإخلاص يحول بين العلماء وطلبه العلم وبين الأهواء.. فلذلك سيخدم العلم الحاجات التي تتطلبها الحكمة، لا الحاجات التي يتطلبها الهوى.

قلت: وحينها ماذا سيحصل؟

قال: حينها لن تكون هناك قنابل نووية، ولا تلوث بيئة، ولا انحراف إنترنت، ولا قنوات ماجنة، ولا صحف فضائح..

قلت: تقصد أن يمتلئ العالم بالسلام.

قال: أجل.. حينها يعم السلام الذي جاء به الإسلام العالم.. فلن تشعر البشرية بلذة السلام إلا في رحاب الإسلام.

قلت: كل ما ذكرته جميل.. ولكن.. ألم تقرأ ما ذكر الغزالي من أن الجاه محبوب بالطبع؟

قال: بلى.. قرأت ذلك.

قلت: أتريد منا أن نقهر طبعنا، أم تريد من البشرية أن تتمرد على الفطرة التي فطرت عليها.

قال: لقد ذكر لنا نبينا ﷺ ما نملأ به هذه الفطرة.. وبما هو أكمل وأعظم من كل جاه ومنصب.

قلت: فحدثني حديث ذلك.

قال: من ذلك ما أخبر ﷺ عنه وهو يعدد فضل طالب العلم، فقال:(من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السم؟وات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)(1)

وقال ﷺ:(ما من رجل تعلم كلمة، أو كلمتين، أو ثلاثا، أو أربعا، أو خمسا مما فرض الله عز وجل فيتعلمهن ويعلمهن إلا دخل الجنة)(2)

وأخبر ﷺ عن بعض صور التكريم التي يقابل بها الملأ الأعلى أهل العلم، فقال مخاطبا من جاءه يطلب العلم: (مرحبا بطالب العلم إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب)(3)

بل إنه ﷺ أخبر أن درجة أهل العلم تداني درجة الأنبياء، فقال:(من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة)(4)

وأخبر أنه يوازي درجة الشهداء، فقال ﷺ: (إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد)(5)

أما الأجور المعدة لأهل العلم، فإنها أضعاف مضاعفة، قال ﷺ:(من طلب علما فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علما فلم يدركه كتب الله له كفلا من الأجر)(6)

ومن أكبر ميزات أجر العلم أن أجره غير منقطع، قال ﷺ:(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)(7)

العمل:

بقينا فترة مع الشنقيطي نتعلم أسرار التجرد لطلب العلم حتى شعرنا بأنفسنا ترق،

1) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.
2) رواه أبو نعيم.
3) رواه أحمد والطبراني.
4) رواه الطبراني في الأوسط.
5) رواه الطبراني في الكبير.
6) رواه الطبراني في الكبير.
7) رواه مسلم وغيره.

وبعقولنا تتقدس، وبأرواحنا تطمح إلى ما طمحت إليه أرواح الهمم العالية..

بعد أن رأى الشنقيطي منا ذلك، قال في حلقة من الحلقات، بعد أن أجـرى لنـا بعض الاختبـارات: مبـارك لكم فهمكم لسـر الإخلاص والتجـرد.. فهلمـوا إلى العمـل.. فلا ينفـع الإخلاص من دون عمل.

لقد ورد في النصوص الكثيرة عن رسول الله ﷺ اعتبار العمـل ركنـا من أركـان العلم النافع.. فلا يكمل العلم إلا بالعمل، كما لا يصلح العمل إلا بالعلم.

ولهذا كان ﷺ يستعيذ من العلم الذي لا ينفع، وهو العلم الـذي لا يسـتفيد منـه صـاحبه عملا صـالحا يقربـه إلى ربـه، قـال ﷺ:(اللهم إني أعـوذ بـك من علم لا ينفـع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها)(1)

وأخبر ﷺ عن بعض مشاهد المعانـاة الـتي يجـدها من لم يعمـل بعلمـه، فقـال:(يجـاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتنـدلق أقتابـه فيـدور بهـا كمـا يـدور الحمـار برحـاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: يا فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه)(2)

وقال ﷺ:(الزبانية أسرع إلى فسقة القراء منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولـون: يبـدأ بنـا قبل عبدة الأوثان؟ فيقال: لهم ليس من يعلم كمن لا يعلم)(3)

وقال ﷺ:(إن أناسا من أهل الجنـة ينطلقـون إلى أنـاس من أهـل النـار فيقولـون: بم دخلتم النار، فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم؟ فيقولون: إنا كنا نقول ولا نفعل)(4)

وقال ﷺ:(كل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به)(5)

وقال ﷺ:(أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه)(6)

وأخبر ﷺ أن من الأسئلة الخطيرة التي يسأل عنها العبد يوم القيامـة، وعلى أساسـها يقرر مصيره، سؤاله عن علمه فيما عمل فيه، قال ﷺ:(لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن مالـه من أين اكتسـبه وفيم أنفقـه، وعن جسمه فيم أبلاه)(7)

---

1) رواه مسلم وغيره.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه الطبراني وأبو نعيم.

4) رواه الطبراني في الكبير.

5) رواه ابن حبان.

6) رواه الطبراني والبيهقي.

7) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وقال ﷺ:(لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامـة حـتى يسـأل عن خمس: عن عمـره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمـل فيمـا علم)(1)

وقال ﷺ:(ما من عبد يخطب خطبة إلا الله عز وجل سائله عنها ما أراد بها)(2)

ولهذا اعتبر ﷺ من لم يعمل بعلمه شر الناس، فقد سئل ﷺ: يا رسول الله أي الناس شر؟ فقال ﷺ:(اللهم اغفر، سل عن الخير ولا تسل عن الشر، شرار الناس شرار العلماء)(3)

وفي الحـديث عن عمـار بن ياسـر قـال: بعثـني رسـول اللـه ﷺ إلى حي من قيس أعلمهم شرائع الإسلام، قال: فإذا هم قوم كأنهم الإبل الوحشية طامحة أبصارهم ليس لهم هم إلا شاة أو بعير، فانصرفت إلى رسول اللـه ﷺ فقـال: يـا عمـار مـا عملت؟ فقصصـت عليه قصة القوم وأخبرته بما فيهم من السهوة، فقال: (يا عمـار ألا أخـبرك بـأعجب منهم؟ قوم علموا بما جهل أولئك، ثم سهوا كسهوهم)(4)

وشبه رسول الله ﷺ من يعلم النـاس الخـير، وينسـى نفسـه بالسـراج الـذي يضـيء لغيره، وهو يحرق نفسـه، قـال ﷺ:(مثـل الـذي يعلم النـاس الخـير، وينسـى نفسـه كمثـل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه..)(5)

بل إنه ﷺ ـ وفق ذلك كله ـ سماه منافقا، فقال:(إني لا أتخـوف على أمـتي مؤمنـا ولا مشركا، فأما المؤمن فيحجزه إيمانه، وأمـا المشـرك فيقمعـه كفـره، ولكن أتخـوف عليكم منافقا عليم اللسان، يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون)(6)

وفي حديث آخر نفى ﷺ الإيمان على من لم يجمع بين العلم والعمل، فقـال:(مـا آمن بالقرآن من استحل محارمه)(7)

وهكذا حذر جميع الأنبياء عليهم السلام، كما وردت الآثـار عنهم بـذلك، فممـا روي عن عيسى عليه السلام قوله: (مثـل علمـاء السـوء كمثـل صـخرة وقعت على فم النهـر لا هي تشـرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع، ومثل علماء السـوء مثـل قنـاة الحش ظاهرهـا جص وباطنها نتن، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى)

1) رواه الترمذي بسند حسن في المتابعات.

2) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي.

3) رواه البزار، وهو غريب.

4) رواه البزار والطبراني.

5) رواه الطبراني بسند حسن.

6) رواه الطبراني بسند فيه الأعور، وثقه ابن حبان وغيره.

7) رواه الترمذي وقال: إسناده ليس بالقوي.

وقال:(كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته، وهو مقبل على طريق دنياه، وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به؟)

وقال: (مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها، فافتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد)

وفي أخبار داود ﷺ حكاية عن الله تعالى:(إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي، يا داود لا تسأل عني عالماً قد أسكرته الدنيا، فيصدك عن طريق محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي، يا داود إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً؛ يا داود من رد إلي هارباً كتبته جهبذاً، ومن كتبته جهبذاً لم أعذبه أبداً)

وذكر لنا أن رجلاً كان يخدم موسى ﷺ، فجعل يقول: حدثني موسى صفي الله، حدثني موسى نجي الله، حدثني موسى كليم الله، حتى أثرى وكثر ماله، ففقده موسى ﷺ فجعل يسأل عنه، ولا يحس له خبراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود، فقال له موسى ﷺ: أتعرف فلاناً؟ قال: نعم، قال: هو هذا الخنزير، فقال موسى: يا رب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا؟ فأوحى الله عز وجل إليه: لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه، ولكن أخبرك لم صنعت هذا به؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين.

التفت إلينا الشنقيطي، وقال: أتدرون سر كل هذه التشديدات؟

قلنا: ما سرها؟

قال: شيئان: أما أحدهما، فيرتبط بالعالم الذي انشغل بالعلم عن العمل، وأما الثاني، فبالذين يرون العالم، ويسمعون منه.

قلنا: فحدثنا عن الأول.

قال: لقد ضرب الله تعالى لذلك مثلين، فقال في أولهما:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (لأعراف:175 ـ 176)، فهو مثال على من تبحر في علوم كثيرة، ربما نال منها ثمرات غيرت مسار حياته المادية، ولكنه لم يلتفت إلى حقيقته التي تحولت كلبا إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، انسلخ من إنسانيته لأنه انسلخ قبل ذلك من آيات ربه.

ولذلك ورد في الآثار تشبيهه بالسراج الذي يضيئ لغيره، بينما هو يحترق.

أما الثاني، فقوله تعالى عن بني إسرائيل:﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الجمعة:5)، فبنو إسرائيل حملوا كتبهم وعرفوا ما فيها، ولكنهم نسوا ما فيها

من الهدي، ولم يشتغلوا بما يخرج حقيقتهم عن البهيمية التي أوقعتها فيها شهواتهم.

قلت: فكيف تطبق هذين المثلين على ما ورد في النصوص المقدسة من عقوبة الذي لم يعمل بعلمه؟

قال: إن القرآن الكريم يخبرنا عن الحقيقة من منبعها الصافي.. هو لا يستعمل ألــوان الطلاء التي نملأ بها حياتنا خداعا وغرورا.. إنـه يواجهنـا بالحقيقـة.. إنـه يقـول بصـراحة لمن تعلم العلوم الكثيرة، واجتهد في أن يقرأ المجلدات الضخمة: تريث قليلا، وانظر إلى نفسك في مرآة الحقائق، واقرأها.. ولا تنشغل بالقراءة عنها، فلعلك تجد فيهـا من الأدواء مـا يعيـد لها استقامتها وصحتها وعافيتها.

قلت: ولكن القرآن الكريم يشبه هذا الذي يصيح فيه بهذا بالحمار والكلب؟

قال: أجل.. إنـه يقـول لـه: إن لم تفعـل ذلـك، فلا فـرق بينـك وبين الحمـار والكلب.. فالحمار يحمل العلوم لكنه لا يستوعبها، ولا يعيشها.. والكلب ليس له من هم إلا اللهث، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث.

وهكذا طالب العلم الذي يظل يلهث وراء العلوم غافلا عن التحقـق بهـا، أو لاهثـا وراء مكاسب العلوم المرتبطة بالطين، غافلا عن مكاسب العلوم المرتبطة بحقيقته.

قلت: ولكن كيف يهان العالم وطالب العلم كل هذه الإهانة؟

قال: هو الذي أهان نفسه..

قلت: كيف ذلك؟

قال: أرأيت لو لقنا آلة جميع المعارف والعلـوم.. ووهبنـا لهـا من الـذكاء الصـناعي مـا يجعلها تستطيع أن تقوم بأي عمل.. هل يخرجها ذلك من كونها آلة؟

قلت: لا.. نعم هي آلة ثمينة.. ولكنها تظل آلة.. ولو عرضت نفسـها على المـرآة، فلن ترى غير آلة.

قال: فهكذا العالم الذي لم يعمل بعلمه.. إنه كسائر النـاس.. لـه شـهواتهم وأهـواؤهم ومطامحهم، هو في الظاهر اختلف عنهم بعلمه، لكنه في الحقيقة بقي هـو هـو.. بـل ربمـا يكون قد غذى لطائفه بـالكبر والخـداع والغش، فـزاد في انحرافـه على انحـراف العـوام.. ولذلك إذا ذهب إلى محكمة الله، فإنه لن يرى في مرآتها إلا حقيقته الـتي سـترها بالألفـاظ التي أجاد استعمالها والتلاعب بها.

قلنا: وعينا هذا.. وأدركنا خطره.. فحدثنا عن السر الثاني المرتبط بالذين يرون العالم، ويسمعون منه.

قال: هذا مما يزيد طين العالم بلة.. إن العالم في هذا المحل كاللص، بـل هـو أخطـر من ذلك.. هو كالمجرم.. لا.. بل هو كالمحارب.. بل هو أعظم من ذلك بكثير.

قلنا: كيف ذلك؟

قال: لقد عبر بعضهم عن ذلك فقال:(احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته)

قلت: زلة العالم هي خطؤه في علمه.. وخطؤه لا علاقة له بسلوكه.. ففرق بين الخطأ والخطيئة.

قال: الزلة زلتان: زلة الخطأ وزلة الخطيئة، وكلاهما مما لا ينجو منهما من لم يعمل بعلمه..

لقد أشار الله تعالى إلى ذلك، فقال: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (الحديد:16)

وبين في موضع آخر سبب قسوة قلوبهم، فقال: فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (المائدة:13)

لقد ذكر الله في هاتين الآيتين أن أول ما يصيب العالم قسوة القلب.. ذلك أن مقصد العلوم تهذيب الطباع وتليين القلوب.. فمن لم يلن قلبه مع أدوية العلوم، فلن يلين أبدا.

قلت: عرفت قسوة القلب.. وهي الخطيئة.. فأين زلة الخطأ؟

قال: لقد ذكرت الآية الثانية ذلك.. لقد ذكرت أن قسوة القلب أورثت فيهم خصلتين مذمومتين: أما إحداهما، فتحريف الكلم من بعد مواضعه.. وأما الثانية، فنسيانهم حظاً مما ذكروا به.

قلت: كيف ذلك؟

قال: العالم الذي لم يعمل بعلمه، سيجعل من علمه شباكا تصيد له ما يطلبه هواه، فلذلك قد يكتم ما أمر بنشره، وقد يحرف ما أمر بحفظه.

قلت: تقصد الفتاوى الضالة؟

قال: وأقصد الخطب الضالة والمواعظ الضالة والاحتساب الضال.. إن الانحراف يدخل على كل مشاعل الهداية إذا انحرف صاحبها.

قلت: أهذه فقط زلة الخطأ؟

قال: هناك زلة أخطر وأعمق.. إن الناس لا يسمعون بقدر ما يرون.. فلذلك تجدهم يتأثرون بسلوك العالم أكثر من تأثرهم بكلماته.. ومثل هذا العالم لن ينتج إلا المنحرفين.

وهناك صنف أخطر وأعظم يحول من العالم المنحرف معولا يهدم به الحقائق.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا ترى كيف تنهار الأحزاب الكبرى نتيجة للفضائح التي يقع فيها رؤساؤها؟

قلت: ذلك صحيح.

قال: فالعالم ـ في أذهان الناس ـ ممثل للدين وللقيم، فإذا انحرف كان ذلك فرصة لمن يريد ضرب الدين أو تشويهه.

قال بعض الطلبة: لقد روي في هذا أن رجلا قال لابن عباس : أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فقال:(إن لم تخش أن تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل، وإلا فابدأ بنفسك، ثم تلا: أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (البقرة:44)، وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (3) (الصف)، وقوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ (هود: 88)

قال بعض الطلبة: وعينا ـ يا شيخنا ـ كل ما ذكرته من ضرورة مزج العلم بالعمل، وقد ملأتنا شوقا إلى العمل، كما ملأتنا رهبة من تركه.. فما الذي ييسر علينا العمل الذي يجعلنا نتحقق بالعبودية؟

قال: ستدرسون هنا عشرة علوم.. كلها علوم عمل.. ولن تخرجوا من هذا القسم حتى تتقنوها جميعا.

قلت: فما **أولها**؟

قال: أن يشغلكم علم العمل عن علم الجدل .. لقد ضرب الغزالي لذلك مثالا، فقال: (فمثال من يعرض عن علم الأعمال، ويشتغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة، وقد صادف طبيباً حاذقاً في وقت ضيق يخشى فواته، فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب، وترك مهمه الذي هو مؤاخذ به، وذلك محض السفه)(1)

وفي هذا روي أن رجلاً جاء رسول الله ﷺ فقال: علمني من غرائب العلم، فقال له: ما صنعت في رأس العلم؟ فقال: وما رأس العلم؟ فقال ﷺ:(هل عرفت الرب تعالى؟) قال: نعم، قال: (فما صنعت في حقه؟) قال: ما شاء الله، فقال ﷺ: (هل عرفت الموت؟) قال نعم، قال: (فما أعددت له؟) قال: ما شاء الله، قال ﷺ:(إذهب فأحكم ما هناك، ثم تعال نعلمك من غرائب العلم)(2)

قال آخر: فما **الثاني**؟

قال: أن لا تشينوا العلم بشيء من الطمع.. فلا أضيع للعلم من الطمع..

---

1) الإحياء: 1/65.

2) رواه ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لهما.

قال آخر: فما **الثالث**؟

قال: أن تتعلموا المداومة على مراقبة الله تعالى في السر والعلانية، والمحافظة على خوفه في جميع الحركات والسكنات والأقوال والأفعال.. فإن العلم أمانة، وقد قال تعالى آمرا هذه الأمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (لأنفال:27)، وقال مخبرا عن علماء بني إسرائيل ضاربا لنا المثل بهم: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (المائدة:44)..

قال آخر: فما **الرابع**؟

قال: أن تتعلموا المحافظة على القيام بشعائر الإسلام، وظواهر الأحكام، كإقامة الصلوات في مساجد الجماعات، وإفشاء السلام للخواص والعوام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى بسبب ذلك، صادعين بالحق عند السلاطين، باذلين أنفسكم لله لا تخافون فيه لومة لائم، ذاكرين قوله تعالى: يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (لقمان:17)، ذاكرين ما كان عليه رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من الصبر على الأذى، وما كانوا يتحملونه في الله تعالى حتى كان لهم العقبى.

قال آخر: فما **الخامس**؟

قال: أن تتعلموا القيام بإظهار السنن، وإخماد البدع، والقيام لله في أمور الدين، وما فيه من مصالح المسلمين على الطريق المشروع، والمسلك المطبوع، لا ترضون من أفعاله الظاهرة والباطنة بالجائز منها، بل تأخذون أنفسكم بأحسنها وأكملها، فإن العلماء هم القدوة..

قال آخر: فما **السادس**؟

قال: أن تكثروا من الصلاة على النبي ﷺ وتعظيمه، فإن محبته وإجلاله وتعظيمه ﷺ واجب، والأدب عند سماع اسمه وذكر سنته مطلوب وسنة.

قال آخر: فما **السابع**؟

قال: أن تلازموا تلاوة القرآن الكريم، وأن تتعلموا الفكر في معانيه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، والوقوف عند حدوده.

قال آخر: فما **الثامن**؟

قال: أن تتعلموا كيف تستعملون الرخص في محالها وعند الحاجة إليها، ووجود سببها ليقتدي به نجيها، فإن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه.

قال آخر: فما **التاسع**؟

قال: أن تطهروا قلوبكم من كل غش، ودنس، وغل، وحسد، وسوء عقيدة وخلق، ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه، فإن العلم كما قال بعضهم: صلاة السر، وعبادة القلب، وقربة الباطن، فكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث، فكذلك لا يصح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته عن خبث الصفات وحدث مساوئ الأخلاق ورديها..

قال آخر: فما **العاشر**؟

قال: أن تأخذوا أنفسكم بالورع في جميع شؤونكم، وتتحروا الحلال في الطعام والشراب واللباس والمسكن، وفي جميع ما تحتاجون إليه لتستنير قلوبكم، وتصلح لقبول العلم ونوره، والنفع به.

المجاهدة:

بعد أن مكثنا مدة في الفرع الأول نتعلم علومه، ونتدرب على آدابه، انتقلنا إلى الفرع الثاني، وهو فرع المجاهدة، وقد سألنا ـ ونحن في الركن المرتبط بهذا من محضرة الآداب ـ شيخنا محمد الأمين الشنقيطي عن سر اعتبار المجاهدة ركنا من أركان آداب طلبة العلم وأهله، فقرأ قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:69)

ثم قال: هذه الآية تجيبكم على سؤالكم.. لقد وعد الله المجاهدين فيه أن يهديهم لسبيله.. فلذلك لا يمكن لطالب العلم أن يهتدي لسبل الله ما لم يجاهد نفسه في ذات الله.

ألستم ترون أن أول ما فعل جبريل عليه السلام مع رسول الله ﷺ في أول لقاء له به أن غطه ثلاث مرات حتى بلغ منه الجهد[1]؟

قلنا: بلى.

قال: وكان بالإمكان في أول مرة أن يقول له:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:1)؟

قلنا: بلى.

قال: ألم يكن رسول الله ﷺ إذا نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي يتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، فإذا كان على ناقة جثت الناقة، وأصاب عنقها الأرض من شدة ما يناله ﷺ عند نزول الوحي؟

قلنا: بلى.. ذلك كذلك.. فما سره؟ وما علاقته بالمجاهدة؟

قال: العلم ثقيل، فلا ينبغي أن يستخف به، ورسالة عظمى، فلا ينبغي إهانتها.

---

1) رواه البخاري وغيره.

قلنا: وكيف يستخف به؟ وكيف تهان؟

قال: إذا لم يعطه طالبه حقه من الجهد والبحث والنظر والمعاناة كان مستخفا به، وكان مستهينا بالرسالة التي يحملها.

قلت: فما حقه من الجهد؟

قال: لقد جعل الله لكل مسألة من مسائل العلم مفتاحها من المجاهدة، فمن لم تبلغ مجاهدته حق مفتاحها، فإنه لن يظفر من ذلك العلم إلا بالظواهر التي تملؤه بالغفلة، وتملأ نفسه بالغرور.

قلت: ألهذا سمى العلماء الباحث في مسائل العلم مجتهدا؟

قال: أجل.. ولم يطلقوا عليه هذه اللقب العظيم إلا بعد أن عانى الأمرين في البحث عن حقيقة العلم الذي صار مجتهدا فيه.

قلت: ما نوع هذا الجهد؟

قال: يختلف باختلاف المسائل: قد يكون رحلة تحقيق، وقد يكون اجتهاد تحصيل ومراجعة ومطالعة، وقد يكون معاناة تأمل، وقد يكون معاناة حفظ.

الرحلة:

قلت: فحدثنا عن الرحلة.. هل هي شرط في المجاهدة؟

قال: قد تكون شرطا.. فمن لم يظفر بالعلم في أرضه، فعليه أن يرحل إلى غيرها.. إن طالب العلم كتلك الشياه التي رأيتها في الصحراء، إذا لم نجد لها كلأ في محل بحثنا لها عن كلأ في غيره.

قلت: فهل في السنة ما يدل على ذلك؟

قال: كل السنة تدل على ذلك.. لقد قال رسول الله ﷺ:(اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم)(1)، إن رسول الله ﷺ في هذا الحديث يأمرنا بالرحلة، ولو إلى الصين.. فكل مكان يمكن أن ننال منه من العلم ما لم نكن نحلم بالتعرف عليه.

وقال في حديث آخر:(يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم، فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة)(2)

قلت: لقد ذكرتني برحلة موسى عليه السلام الطويلة من أجل البحث عن بعض مسائل العلم.. لقد مشي على قدميه إلى مجمع البحرين قاصداً الخضر عليه السلام حتى بلغ منه الجهد،

(1) رواه ابن عدي البيهقي وابن عبد البر في العلم.

(2) رواه الترمذي وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

ومع ذلك لم يستقر، ولم يهدأ له بال حتى بلغ مكان العالم الذي ذكره الله له.

قال أحد الطلبة: وقد ذكر الله تعالى رحلة ذي القرنين الطويلة، وهي ممتلئة بالبحث عن العلم وأسبابه[1]، قال تعالى:﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92)﴾ (الكهف)

قال آخر: هذه رحلة موسى ورحلة ذي القرنين عليهما السلام.. فهل رحل محمد ﷺ في طلب العلم؟

قال: أجل.. ألم يتلق محمد ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج من العلوم ما لم يتلق مثله في مكة المكرمة؟

قلنا: بلى.. وقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال عن الإسراء:﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الاسراء:1)، فاعتبر علة إسرائه هو أن يريه من آيات الله، وكل العلوم آيات الله.

وقال عن المعراج:﴿ النَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)﴾ (النجم)، فاعتبر رؤية آيات ربه الكبرى من مقاصد رحلته إلى السموات العلى.

قال: وهكذا وردت الآثار الكثيرة من هدي أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ.. فقد أجمعوا على أنه لن ينال العلم من اكتفى بالراحة دون الرحلة إلى أهل العلم.

التحصيل:

قلت: عرفنا الرحلة.. فحدثنا عن التحصيل والمراجعة.. وهل هي شرط في المجاهدة؟

قال: أجل.. هي شرط لا مناص منه لطالب العلم.. لقد أشار القرآن الكريم إليها، فقال تعالى مخبرا عن حرص رسول الله ﷺ ألا ينسى حرفا واحدا مما يوحى إليه:﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه: 114)، وقال:﴿ لَا

---

1) ذكرنا أدلة هذا، وما يمكن أن يستنبط منه أهل العلم في رسالة (مفاتيح المدائن)

تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19) (القيامة)

وبمثل هذا وردت الأسانيد، فعن ابن عباس قال: كان رسول الله يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه، فأنزل الله عز وجل: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ أي جمعه في صدرك، ثم تقرأه، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ فاستمع له وأنصت، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه[1].

قلت: ولكن الله طمأن نبيه ﷺ إلى أنه لن ينسى حرفا مما قرأه، فقال مبشرا نبيه : سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى (الأعلى:6)

قال: ولكن الله تعالى لم يبشرنا بما بشر به نبيه ﷺ.. فلذلك لا ينبغي أن يفتر طالب العلم لحظة عن علمه.. لقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك، فقال:(إن مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت)[2]، وفي حديث آخر قال ﷺ:(تعاهدوا القرآن، فوالذى نفسي بيده لهو أشد تفصيا من قلوب الرجال من الإبل من عقلها)[3]

قلت: فما الذي يعيننا على تحقيق هذا؟

قال: سبعة أمور إن فعلتموها يسر الله لكم ذلك.

قلت: فما **أولها**؟

قال: أن يبادر طالب العلم شبابه وأوقات عمره فيصرفها إلى التحصيل، ولا يغتر بخدع التسويف والتأمل، فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها.

لقد حكى عن ثعلب: أنه كان لا يفارقه كتاب يدرسه، فإذا دعاه رجل إلى دعوة شرط عليه أن يوسع له مقدار سورة يضع فيها كتاب ويقرأ.

وكان أبو بكر الخياط النحوي يدرس جميع أوقاته حتى في الطريق، وكان ربما سقط في جرف أو خبطته دابة.

وكان بعضهم إذا دخل الحمام يجعل من خارجه قارئاً يقرأ عليه.

قلت: فما **الثاني**؟

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

قال: أن يقطع طالب العلم ما يقدر على قطعه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل، فإنها كقواطع الطريق، ولذلك استحب الورثة التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن تقليلاً للشواغل، لأن الفكرة إذا توزعت قصرت عن درك الحقائق، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ولذلك يقال:(العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك)

قلت: فما **الثالث**؟

قال: أن يقنع من القوت بما تيسر، وإن كان يسيراً، ومن اللباس بما ستر مثله، وإن كان خلقاً.. فبالصبر على ضيق العيش، ينال سعة العلم، ويجمع شمل القلب عن متفرقات الآمال، فتفجر فيه ينابيع الحكم.

قلت: فما **الرابع**؟

قال: أن يقسم أوقات ليله ونهاره، ويغتنم ما بقي من عمره، فإن بقية العمر لا قيمة لها، وأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع، وأجود الأماكن للحفظ كل مكان بعيد عن الملهيات، كالنبات، والخضرة، والأنهار، وقوارع الطرق، وضجيج الأصوات، لأنها تمنع من خلو القلب غالباً.

قلت: فما **الخامس**؟

قال: أكل القدر اليسير من الحلال، لأن كثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب، وكثرته جالبة للنوم والبلادة، وقصور الذهن، وفتور الحواس، وكسل الجسم.

والأولى أن يكون أكثر ما يؤخذ من الطعام ما ورد في الحديث عن النبي ﷺ قال:(ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه)(1)، فإن زاد فهو إسراف، وقد قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف:31)

قلت: فما **السادس**؟

قال: أن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة عِلى ثمان ساعات، وهي ثلث الزمان، فإن احتمل حاله أقل من ذلك فعل.

ضحك بعض أصحابي، وقال: لقد ذكرتني برجل قال لخالد بن صفوان: مالي إذا رأيتكم تذاكرون الأخبار وتدارسون الآثار وتناشدون الأشعار وقع عليَّ النوم؟ فقال: لأنك حمار في مسلاخ إنسان.

وذكر عن سليمان الداري قال: إذا رأيت الرجل ينام عند الحديث، فأعلم أنه لا

---

1) رواه الترمذي.

يشتهيه، فإن كان يشتهيه طار نعاسه.

قال: ومع ذلك ينبغي لطالب العلم أن يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره بتنزه وتفرج في المستنزهات بحيث يعود إلى حاله، ولا يضيع عليه زمانه، فقد كان بعض أكابر العلماء يجمع أصحابه في بعض أماكن التنزه في بعض أيام السنة، ويتمازحون بما لا يضرهم في دين ولا عرض.

وينبغي أن يتجنب ما يعاب من الهزل والبسط بالفعل وفرط التمطي، والتمايل على الجنب والقفا والضحك الفاحش بالقهقهة.

قلت: فما **السابع**؟

قال: أن يترك كثرة المخالطة، فإن تركها من أهم ما ينبغي لطلب العلم، وخصوصاً لمن كثر لعبه وقلت فكرته، فإن الطباع شر آفة، وآفة العشرة ضياع العمر بغير فائدة، وذهاب المال والعرض إن كانت لغير أهل، وذهاب الدين إن كانت لغير أهله.

والذي ينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيد أو يستفيد منه، كما روي عن النبي ﷺ:(اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك)[1]

فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صالحاً، ديناً، تقياً، ورعاً، كثير الخير، قليل الشر، حسن المداراة، قليل المماراة، فإن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن احتاج واساه، أو ضجر صبره.

التأمل:

قلت: عرفنا ضرورة بذل الجهد للتحصيل.. فحدثنا عن التأمل.. وما مرادك منه؟ وهل هو شرط في المجاهدة؟

قال: أجل.. فلا ينبغي لطالب العلم أن يشغل جسده، ويترك عقله كسولا لا يبحث ولا يتأمل ولا يفكر.

قلت: فهل لهذا من دليل؟

قال: كل الأدلة مع هذا.. إن القرآن الكريم لا يحض على شيء كما يحض على إستعمال العقل والتأمل، لقد قال تعالى مبينا الغرض من نزول القرآن الكريم:﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (صّ:29)

فلآلئ الحقائق وجواهرها لا يمكن أن ينالها من قعد به عقله عن التفكير والتأمل، التفكر الذي لا ينشغل بالظواهر عن البواطن، أو ينشغل بالطلاء على الحقيقة.

ألم تسمع إلى الغزالي، وهو يقول في (جواهر القرآن):(إني أنبهك على رقدتك أيها المسترسل في تلاوتك، المتخذ دراسة القرآن عملا، المتلقف من معانيه ظواهر وجملا،

1) رواه البزار والطبراني في الأوسط.

إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضا عينيك عن غرائبها، أو ما كان لك أن تركب متن لجتها لتبصر عجائبها، وتسافر إلى جزائرها لاجتناء أطايبها، وتغوص في عمقها، فتستغني بنيل جواهرها، أوما تعير نفسك في الحرمان عن دررها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها)(1)

قلت: بلى.. وقد سمعته ينقل عن بعضهم قوله:(من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله، وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه)

قال: لا تحسبن هؤلاء الورثة مبتدعين في هذا، فإن القرآن كلام الله، وكلام الله لا يمكن لأحد أن يحصي أغراضه..

ولكن تحصيل كل هذا يحتاج إلى التأمل والتدبر والمعاناة.. فلا يمكن لعقول كسول أن يخرج بالقرآن عن كسوة الألفاظ التي جاء بها.. ولهذا، فإن المعلم الكامل هو الذي يربي تلاميذه على استعمال عقولهم، لا الذي يحضهم على التقليد.

ولهذا يعقب الله تعالى على القضايا التي لا يمكن للعقل أن يعرفها بادئ الرأي بكونها من اختصاص أولي الألباب.

ولهذا، فإن الأستاذ الماهر المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي لا يكتفي بأن يعطي تلاميذه المعلومة جاهزة من دون أن يمنحهم فرصة للتأمل والاجتهاد للوصول إليها، بل يدع لعقولهم فرصا كثيرة للنظر والبحث والتأمل.

قال بعض الطلبة: لقد ذكرتني بحديث لرسول الله ﷺ وهو أن النبي ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فرد النبي ﷺ عليه السلام قال: ارجع فصل فإنك لم تصل، فرجع الرجل فصلى كما كان صلى، ثم جاء إلى النبي ﷺ فسلم عليه، فقال رسول الله ﷺ:(وعليك السلام) ثم قال:(ارجع فصل فإنك لم تصل) حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق! ما أحسن غير هذا علمني، فقال ﷺ:(إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها)(2)

فقد علم ﷺ هذا الرجل الذي أساء في صلاته، ولم يحسن فيها بأسلوب عملي يجعل المتعلم يكتشف الخطأ الذي وقع فيه بنفسه.

الحفظ:

---

1) جواهر القرآن:21.

2) رواه البخاري ومسلم.

قلت: عرفنا التأمل.. فحدثنا عن الحفظ، ولم كان شرطا في المجاهدة؟

قال: إن طالب العلم المتفرغ له هو الذي يستعمل جميع ما وهبه الله من طاقات في خدمة العلم الذي يطلبه.. وبما أن الذاكرة من طاقات الإنسان، فإن طالب العلم يستثمرها أعظم استثمار.

فالعالم يحتاج إلى إحضار المعارف المختلفة في كل حين ليستنتج منها معارف جديدة، أو ليخدم بها من يريد أن يخدمه، وما لم تكن هذه المعارف حاضرة في ذهنه، فإنه لا يمكن أن يفيد بها أحدا، بل لا يمكن أن يستفيد هو نفسه منها.

قلت: فهل ورد في النصوص المقدسة ما يدل على ذلك؟

قال: أجل.. ألم تسمع قوله تعالى:﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآياتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت:49)؟

قلت: بلى..

قال: إن هذه الآية تحمل دعوة عظيمة للحفظ، فلا يمكن أن يتعلم من لم يحفظ.. ولهذا ربطت الآية بين الحفظ في الصدور، وبين أهل العلم، وكأنها تقول لطالب العلم: إن أردت أن تصير من أهله، فاشحذ ذاكرتك، ووسع صدرك ليصبح مخزنا للعلوم.

قلت: هذا في القرآن.. فهل ورد في السنة ما يدل عليه؟

قال: السنة تمتلئ بذلك.. فالرسول ﷺ ـ تشجيعا على الحفظ ـ يقدم حافظ القرآن على غيره في الإمامة وغيرها، فقد قال رسول الله ﷺ:(يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء، فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء، فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء، فأقدمهم سلما[1]، ولا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه)[2]

وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد، ثم يقول: أيهما اكثر أخذا للقرآن؟ فإن أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد[3].

قلت: هذا في حفظ القرآن الكريم.. فهل ورد في النصوص ما يدل على حفظ غيره؟

قال: كل ما ذكر في حفظ القرآن يدل على حفظ غيره، فلا يمكن أن يصير العالم عالما، وهو ناس لما تعلمه.

عن حذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاما ما ترك شيئا، يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي

1) قال الأشج في روايته: مكان سلما (سنا)

2) رواه مسلم.

3) رواه البخاري.

هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه)[1]

قلت: كـل مـا ذكرتـه لا يمكن لأحـد أن يجـادل فيـه.. لكـني أرى البعض يتهمـون من يحفظ.. ويعتبرونه مجرد وعاء.. وأن الكامل من يفهم، لا من يحفظ.

قال: والأكمل من يجمع بينهما، فيحفظ، ويفهم.. بل إنه لا يعين على الفهم شيء كمـا يعين عليه الحفظ.. فالحافظ الـذي يـردد بلسـانه مـا يحفظـه لا محالـة سـيردده في عقلـه وقلبه، فيفهمه ويستوعبه، فيجمع بين الحسنيين.

بالإضافة إلى أن الذي لا يحفظ لا يطيق أن يفيد بعلمه كل حين، فهو معلق بكراريسـه وكتبه إن حضرت أجاب، وإلا لم يطق جوابا.

قال بعض الطلبة: لقد ذكرتـني بحادثـة حصـلت للغـزالي كـانت سـببا في لجوئـه إلى الحفظ، قال يحكي عن نفسه: قطعت علينا الطريق، وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إلى مقدمهم، وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت، فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتي فقط، فمـا هي بشـيء تنتفعـون بـه، فقـال لي: ومـا هي تعليقتك؟ فقلت: كتب في تلك المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها، فضـحك، وقال: كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخـذناها منـك، فتجـردت من معرفتهـا، وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه، فسلم إلى المخلاة.

قال الغزالي: فقلت: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشـدني بـه في أمـري، فلمـا وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميـع مـا علقتـه، وصـرت بحيث لـو قطع على الطريق لم أتجرد من علمي[2].

قال آخر: وقد قال بعضهم في هـذا:(كـل علم لا يـدخل مـع صـاحبه الحمـام فلا تعـده علماً)

قلت: ولكن العلوم كثيرة.. بل هي أكثر من أن تنحصر.. فكيف يمكن حفظ كل ذلك؟

قال: إن الله تعالى بحكمته ورحمته زود الإنسان بطاقات عظيمة لا يمكن تصـورها أو حدها.. نحن فقط بكسلنا وضعفنا وقصورنا نتوهم أن الله أعطانا القليـل، فلـذلك نستسـلم للعجز، ونتعلل بالطاقة المحدودة.

لقد قال بعضهم يذكر هذا: إن الرجـل ليطلب العلم وقلبـه شِـعْبٌ من الشِّـعَاب، ثم لا يلبث أن يصير واديًا، لا يوضع فيه شيء إلا التهمه.

وقال آخر: كان العلماء يقولون:(كل وعاء أفرغت فيه شيئا فإنه يضيق إلا القلب، فإنـه كلما أفرغ فيه أتسع)

---

1) رواه مسلم.

2) طبقات الشافعية الكبرى: 6/85.

قلت: سلمت لك في هذا.. وفي تاريخنا ما يدل عليه.. فما أكثر حفـاظ الإسـلام.. لكن ما سر ذلك؟

قال: الهمة والصدق والصفاء.. ألا ترى كيف يحفظ قومـك الأفلام، فيوردونهـا مشـهدا مشهدا ولقطة لقطة؟

قلت: بلى.. أرى ذلك.

قال: فكم مجلدا هي تلك اللقطات المحفوظة؟

قلت: هي مجلدات كثيرة لا يمكن حصرها.

قال: فأفلام أهل العلم هي تلك الكتب.. لقد ترفعت همتهم عن السفاسف، ففتح الله عليهم من العلوم ومن حفظ العلوم ما ملأ غيرهم بالعجب.

قلت: رغبتنا في الحفظ.. فما الذي **يعين عليه**؟

قال: أوله الصفاء.. فلا يمكن أن تكتب في أوراق مكتوبة.. قـال تعـالى: كَمَـا أَرْسَـلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَـا لَمْ تَكُونُـوا تَعْلَمُونَ (البقرة:151).. انظر كيـف قـدم اللـه تعـالى التزكيـة على العلم.. فلا يمكن لمن تلطخ بالأوزار أن يستوعب الأسرار.

وقال تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (البقـرة: 282).. انظـر كيف قرن الله التقوى بالعلم.. فلا يتعلم حقيقة العلم إلا من اتقى الله حق التقوى.

قلت: هذا الأول.. فما الثاني؟

قال: تكرير ما تريد حفظه على قلبك.. فلا يثبت الحفظ مثل التكرار.. فعن علي قال: تزاوروا وتدارسوا الحديث، ولا تتركوه يدرس.

قلت: هذا الثاني.. فما الثالث؟

قال: المذاكرة.. مذاكرة ما تحفظ مع غيرك.. ليضبط لك ما لم تضـبطه، ويفتح عليـك ما نسيته، ويضيف لك جديدا إن كان عنده.. حدث سعيد بن جبير أن ابن عباس كان يقـول: يا سعيد اخرج بنا إلي النخل، ويقول: يا سعيد، حـدث، قلت: أحـدَّث وأنت شـاهد؟ قـال: إن أخطأت فتحت عليك.

قلت: هذا الثالث.. فما الرابع؟

قال: تعليم الناس ما تحفظ.. فليس شيء أكثر ترسيخا للعلم في الذهن من إنفاقــه.. فعن بعضهم قال: من سره أن يحفظ الحديث فليحدث به، ولو أن يحدث به من لا يشتهيه، فإنه إذا فعل ذلك كان كالكتاب في صدره.

السمت:

بعد أن انتهينا من دراسة ما يتطلبه الفرع الثاني من علوم وآداب، انتقلنا إلى الفرع الثالث، وهو فرع (السمت)

وقد سألنا ـ ونحن في الركن المرتبط بهذا من محضرة الآداب ـ شيخنا محمد الأمين الشنقيطي عن معنى السمت، وضرورته لطالب العلم، فقال: السمت الحسن هو التزام هيئة الصالحين في أحوالهم جميعا من كلام وفعال ومعاملات وهيئات وحركات وسكنات وغيرها.. فلا يمكن لطالب العلم إلا أن يميز عن غيره ليستفيدوا منه.

قلت: أليس قد أمرنا أن نكون كالناس؟.. فكيف تعتبر التميز شعارا للصالحين؟

قال: التميز نوعان: نوع هو محض كبر وسمعة ورياء.. وهذا قد حذر منه الصالحون.. قال علي: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص إذا ذم به.

قلت: هذا السمت الأول.. وهو السمت المذموم، وهو الذي كنت أعنيه، فما الثاني؟

قال: هو في ظاهره كالسمت الأول.. ولكن صاحبه ابتدأ بسمت الباطن، فحسنه وجمله وزينه.. فلما اعتدل باطنه بالطاعات زين الله ظاهره بما يملأ الله القلوب هيبة منه وتوقيرا له.

ولهذا اعتبر ﷺ هذا النوع من السمت من النبوة، فقال:(الهَدْي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة)(1)

وهذا يبين لنا أن الذي يتحلى بالسمت الصالح والهدي الصالح يُقتدى به ويحاكي بعض صفات النبوة، وكفى بذلك شرفاً.

قلت: أفي القرآن الكريم ما يشير إلى هذا؟

قال: يستحيل على الكتاب الذي فيه بيان كل شيء ألا يكون فيه مثل هذا.

قلت: فأين هو فيه؟

قال: فيه جميعا.. فكل آية في القرآن الكريم تحمل أدبا يزين به الباطن، ليبرز أثره بعد ذلك إلى الظاهر.. ألم تسمع قوله ﷺ:(أدبني ربي فأحسن تأديبي)(2)

قلت: بلى.. فاذكر لي نموذجا ييسر لي فهم ذلك.

قال: اقرأ ما ورد في صفات (عباد الرحمن) في القرآن الكريم.

أخذت أقرأ: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ (الفرقان:63)

---

1) رواه أحمد وأبو داود عن ابن عباس.

2) رواه أبو سعد بن السمعاني في أدب الإملاء.

قال: حسبك.. ألا ترى أن الآية بدأت وصف عباد الرحمن بكونهم يمشون؟

قلت: بلى.. ولكنها لو اكتفت بمشيهم فقط لما كان لعباد الرحمن في هذا أي ميزة.

قال: فبم وصفت مشيتهم؟

قلت: بالهون.. إنها ذكرت أنهم ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ﴾

قال: فهذا هو السمت الحسن الصالح.. والذي هو جزء من النبوة.. والذي نحرص على تعليمه هنا في هذه المحضرة.

قلت: أهو مرتبط بالمشي فقط؟

قال: بكل سلوك من سلوكيات الحياة.. فلكل سلوك هونه الخاص به.

قلت: فما سر بدئكم به قبل التعليم؟

قال: لأنه لا يمكن أن يتعلم من لم يكن له سمت أهل العلم.. فالمدارس المستنة بسنة رسول الله ﷺ تخرج المتأدبين لا المشاغبين.

قلت: أللسمت الحسن تأثيره في التحصيل؟

قال: لو لم يكن له تأثيره في التحصيل لم نبدأ به.. لقد صحبت الوارث.. ولعله أخبرك عن مجالس رسول الله ﷺ.. فحدثنا عما رواه لك من أحاديث في هذا.

قلت: أجل.. لقد حدثنا عن بعضهم قال: كنا عند رسول الله ﷺ ما يتكلم منا متكلم، كأن على رؤوسنا الطير(1).

وفي رواية: أتيت رسول الله ﷺ، وأصحابه حوله، وعليهم السكينة، كأنما على رؤوسهم الطير، فسلمت، ثم قعدت، وذكر الحديث(2).

وحدثنا عن آخر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله، كأنما على رؤوسنا الطير(3).

وحدثنا عن آخر قال: كنا إذا قعدنا عند رسول الله ﷺ لم ترتفع رؤوسنا إليه إعظاما له(4).

قال: هل كان يمكن لرسول الله ﷺ أن يعلم أصحابه، ويستفيد أصحابه من أحاديثه وتعليمه في مجلس ترتفع فيه الأصوات، ولا يرعى بعضهم حرمة بعض؟

---

1) رواه ابن حبان والحاكم، والذهبي، وأقره، ورواه الطبراني بسند صحيح.

2) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه.

3) رواه الطيالسي بسند صحيح، وابن أبي شيبة، وأحمد بن منيع.

4) رواه ابن حبان، والحاكم، وصححه الذهبي، وأقره.

قلت: لا.. لا يمكن ذلك.

قال: ولهذا كان رسول الله ﷺ يبدأ بالأدب قبل التعليم.. بـل إن القـرآن الكـريم حض عليه وأمر به، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (الحجرات:4)

قال بعض الطلبة: فما الذي سنتعلمه في هذا الفرع؟

قال: أربعة أنواع من السمت لابد لطالب العلم الذي يريد أن يستن بسنة رسول اللـه ﷺ منها، ليبارك له في علمه، وليحصل في أقل مدة ما لا يحصل غيره في أكثر منها.

قلنا: فما هي؟

قال: سمت مرتبط بنفسه، وسمت مرتبط بعلمه، وسـمت مرتبـط بدرسـه، وسـمت مرتبط بمعلمه.

مع نفسه:

كان أول ما بدأنا به دراستنا في فرع (السمت) السمت المرتبط بنـا، وبسـلوكنا تجـاه أنفسنا، وكان أول درس جمعنا بشيخنا الشنقيطي قرأ لنا فيه قوله ﷺ:(طلب العلم فريضة على كل مسلم، وواضع العلم عند أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب)(1)

ثم قـال: إن رسـول اللـه ﷺ في هـذا الحـديث يـدعونا إلى أن نقـدم التخلص من الخنزيرية قبل التعلم.. ألا ترون كيف أمرنا بطلب العلم، ثم نهى أن يوضـع العلم عنـد غـير أهله، وشبه من يفعل ذلك بمن يقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب؟

قلنا: ذلك صحيح.. فما المخرج من الخنزيرية؟

قـال: لقـد حفـظ سـلفنا عن سـلفهم إلى رسـول اللـه ﷺ في ذلـك أربعـة سـنن، وستتعلمون أصولها وأركانها في هذا الفرع.

قلنا: فما **أولها**؟

قال: أن يتخلق طالب العلم بما حث الشرع عليه من الزهد في الـدنيا، والتقلـل منهـا بقدر الإمكان، فإن ما يحتاج إليه منها على الوجه المعتدل من القناعة لا يعد من الدنيا..

قلت: فما سر احتياج الطالب للزهد(2)؟

قال: لأن الطالب الذي امتلأ قلبه بالشـهوات والأهـواء والرغبـات لن يبقى فيـه محـل للاستفادة من العلم.. وكيف يستفيد وآلـة العلم هي مـرآة القلب.. ومـرآة القلب منصـرفة إلى الرغبات.

---

1) رواه ابن ماجه وغيره.

2) ذكرنا بتفصيل مفهوم الزهد وآثاره السلوكية في رسالة (كنوز الفقراء)

قلنا: فما **الثاني**؟

قال: أن يتجنب كل خوارم المروءة من دنيء المكاسب ورذيلها، ويتجنب مواضع التهم وإن بعدت، ولا يقيل شيئاً يتضمن نقص مروءة، وما يستنكر ظاهراً، وإن كان جائزاً باطناً، فإنه يعرض نفسه بذلك للتهمة، ويوقع الناس في الظنون المكروهة، فإن اتفق وقوع شيء من ذلك منه لحاجة أو نحوها، أخبر من شاهده بحكمه، وبعذره ومقصوده، كيلا يأثم من رآه بسببه، أو ينفر عِنه، فلا ينتفع بعلمه ولا يستفيد بذلك الجاهل به، ففي الحديث عن أم المؤمنين صفية بنت حيي قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال ﷺ:(على رسلكما، إنها صفية بنت حيي)، فقالا: سبحان الله يا رسول الله؟ فقال: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً)(1)

قلنا: فما **الثالث**؟

قال: أن يطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الردية، كالغل، والحسد، والبغي، والغضب لغير الله تعالى، والغش، والكبر، والرياء والعجب، والسمعة، والبخل، والجبن والبطر والطمع، والفخر، والخيلاء، والتنافس في الدنيا، والمباهاة فيها، والمداهنَة والتزين للناس، وحب المدح بما لم يفعل، والعمى عن عيوب النفس، والاشتغال عنها بعيوب الخلق، والحمية، والعصبية لغير الله، والرغبة والرهبة لغيره، والغيبة، والنميمة، والبهتان، والكذب، والفحش في القول، واحتقار الناس ولو كانوا دونه، وغيرها من الصفات الخبيثة، والأخلاق الرذيلة، فإنها باب كل شر، بل هي الشر كله.

قلنا: فما المخرج من هذه الرذائل، وهي لا يكاد تنجو منها نفس؟

قال: لكل علاجه الذي به يعالج.. ألم يقل رسول الله ﷺ:(إن الله تعالى حيث خلق الداء خلق الدواء فتدواوا)(2)

قلت: إن رسول الله ﷺ يذكر في هذا الحديث دواء الأجساد.

قال: بل هو يذكر كل الأدوية.. فلا فرق بين مرض الروح ومرض الجسد.

قلنا: فما **الرابع**؟

قال: أن يعمر باطنه بالأخلاق المرضية، كدوام التوبة، والإخلاص، واليقين، والتقوى، والصبر، والرضى، والقناعة، والزهد، والتوكل، والتفويض، وسلامة الباطن، وحسن الظن، والتجاوز، وحسن الخلق، ورؤية الإحسان، وشكر النعمة، والشفقة على خلق الله والحياء من الله ومن الناس، ومحبة الله تعالى، هي الخصلة الجامعة لمحاسن الصفات.

وكل ذلك لا يتحقق إلا بمتابعة الرسول ﷺ كما قال تعالى:﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه أحمد، وللحديث روايات أخرى كثيرة لغير أحمد.

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (آل عمران:31)

مع علمه:

بعد أن درسنا وتدربنا على الآداب المرتبطة بالسمت مع النفس مدة، انتقلنا إلى الفرع الثاني للسمت، وهو السمت مع العلم، وقد بدأ الشنقيطي حديثه عن هذا النوع من السمت بقراءة عشر آيات من القرآن الكريم، يكرر كل واحدة منها مرات كثيرة، وقد سألناه عن سر قراءتها وتكراراها، فقال: لابد لمن يريد أن يدرس هذا النوع من السمت أن يقرأ هذه الآيات، ويكررها على نفسه، ويتدبرها، ويمعن في تدبيرها.

قلنا: لم؟

قال: لأنها الأساس الذي يبنى عليه السمت مع العلم.

قلنا: فما الذي يفهمه طالب العلم من الآية **الأولى**؟

قال: الآية الأولى، وهي قوله تعالى: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (البقرة: 120)، وهي تبين أن للعلم من المكانة ما يجعل صاحبه مترفعا عن اتباع غيره، فالعلم يُتبع ولا يتبع.. والعالم يُطلب ولا يطلب.

قلنا: فما الذي يستفيد من **الثانية**؟

قال: الثانية.. وهي قوله تعالى: وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة:247) تثني على ما آتى الله لوطا من سعة العلم.. وكيف ـ في المقابل ــ احتقره بنو إسرائيل لأنه لم يؤت سعة من المال؟

قلنا: بلى.. ذلك واضح في الآية.

قال: فمن احتقر العلم، وعظم المال، أو جعل العلم وسيلة للمال، فقد سلك سلوك بني إسرائيل في هذا.

قلت: ولكن المال لابد منه، وقد قال الله تعالى تعالى: وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً (النساء: 5)، فقد أخبر الله تعالى أن بالمال تقوم حياة الناس.

قال: فرق بين أن تستعمل المال، وبين أن تعظم المال.. من استعمل المال جعله خادما له، وانتفع بخدمته.. ومن عظم المال استعبده ماله، فصار خادما لماله.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) (الهمزة).. وقد أخبر الله تعالى عن مصير من هذا حاله، فقال: كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9) (الهمزة)

قلت: هذا جزاؤه في الآخرة.

قال: وهناك جزاء في الدنيا لمن انشغل بماله عن علمه.. وهو جزاء يكاد يشبه ما ذكره الله تعالى من جزاء الآخرة..

قلنا: فما هو؟

قال: إن هذا الذي استعبده ماله ستحطم إنسانيته بماله، وسيسجن في سجون ماله، وسيحرق بلهب ماله..

لقد اتفق على هذا جميع أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ.. ولهذا تراهم يحضون على تعظيم العلم واحترامه وعدم الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل عندما قدموا المال على العلم.

قال بعض الطلبة: أروي في ذلك ما قاله علي بن أبي طالب لتلميذه النجيب كميل، فقد قال له: (يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق)

قال آخر: وأروي عن أبي الأسود قوله: (ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك)

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من الثانية، فما الذي يستفيد من **الثالثة**، وهي قوله تعالى:﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:18)؟

قال: ألا ترون كيف عطف الله تعالى أهل العلم على نفسه، وعلى ملائكته؟

قلنا: بلى.. ذلك واضح.

قال: أفترون من شرف بالجلوس في ذلك المجلس الرفيع، وأحل في تلك المكانة الشريفة يرضى بالسفاسف، أو يرى أن هناك مجلسا أفضل من مجلسه، أو محلا أعلى من محله؟

قلنا: لا..

قال: فطالب العلم المستن بسنة رسول الله ﷺ عليه أن يشهد هذا.. فلا يرى أحدا أفضل منه مجلسا، ولا مكانة..

قلت: ولا الوزراء.. والأمراء.. والمدراء..

قال: وماذا يساوي الوزراء والأمراء والمدراء أمام الله.. إنهم كهباءة.. أو كقلامة.. أو كلا شيء..

وماذا يساوي الوزراء والأمراء والمدراء أمام الملائكة الذين هم رسل الله والمدبرات

أمرا والمصطفين الأخيار.

قلت: فهذه الآية تعالج الجاه إذن؟

قال: أجل.. فجاه أهل العلم هو العلم.

قال بعض الطلبة: أروي في ذلك عن سالم بن أبي الجعد قوله: اشتراني مولاي بثلثمائة درهم وأعتقني، فقلت: بأي شيء أحترف؟ فاحترفت بالعلم، فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً، فلم آذن له.

قال الشنقيطي: بهؤلاء العلماء ارتفعت منارة العلم والدين.. لا الذين يحتبون على أبواب الملوك والأمراء يستجدونهم ويكتبون المعلقات الطوال في مدحهم.

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من الثالثة، فما الذي يستفيد من **الرابعة**، وهي قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ (الرعد:37)؟

قال: ألا ترون كيف نفى الله ولايته ووقايته على من اتبع ما يتطلبه الهوى، وغفل عما يتطلبه العلم؟

قلنا: أجل.. ذلك واضح.

قال: فالعلم الذي ترفع على المال وترفع على السلطان لا ينبغي أن يذل أمام الهوى، فقد ذم الله تعالى طالب العلم الذي يقع أسير هواه، فقال:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)﴾ (الأعراف)

قال بعض الطلبة: بل إن الله تعالى اعتبر الهوى صنما من الأصنام التي تعبد من دون الله، فقال:﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا (41) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلا (42) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا (43)﴾ (الفرقان)

قال آخر: وقد ذكر رسول الله ﷺ ذلك، فقال:(ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع)(1)

قال الشنقيطي: وذلك لأن صاحب الهوى لن ينتقل من الخطأ إلى الصواب، أو من الصلاح إلى الفساد.. بل هو أسير هواه إن تراجع عن خطأ، فلن يقع إلا في غيره، وإن تاب عن معصية، فلن يقع إلا في غيرها.

قال بعض الطلبة: لقد روي في هذا عن ابن عباس قوله: (كان الرجل يعبد الحجر

---

1) رواه الطبراني.

الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية، فإذا وجد حجراً أحسن منه رمى به وعبد الآخر)(2)

قال: وهكذا عباد الهوى من العلماء: يتوب من صنم الشيوعية ليقع في صنم الليبرالية.. ويتوب من عبودية الحاكم ليقع في عبودية الوزير.. ويتوب من عبودية المال ليقع في عبودية الجاه.. وهكذا يظل يتردد بين عبودية وعبودية.

قلت: فمتى يتحرر؟

قال: إذا طلق الهوى، وكفر به.. وجعل الحقيقة هدفه.. حينذاك فقط سيتحرر.

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من الرابعة، فما الذي يستفيد من **الخامسة**، وهي قوله تعالى: قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً (الاسراء: 107)؟

قال: ألا ترون كيف وصف الله أهل العلم من الذين تحرروا من إسار الهوى؟

قلنا: أجل.. لقد وصفهم بالسجود.

قال: فأي علم لا يدلك على السجود، فهو جهل.. وأي علم لم يملأك بالعبودية فالجهل خير منه.

قلت: ولكن العلم أوسع من أن يختصر في هذا.. فالعلوم كثيرة؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى: وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7) (الروم)؟

قلت: بلى.. فما فيها من العلم؟

قال: ألا ترى كيف نفى الله تعالى العلم عن أكثر الناس.. أي وصفهم بالجهل.. ولكنه استدرك على من يتصور أن ما لديهم من رسوم علما.. فذكر أنه مجرد ظواهر لا تحمل اسم العلم الحقيقي؟

قلت: كيف لا تحمل اسم العلم الحقيقي؟

قال: لأن العلم الذي لا يثبت، ولا يسير مع صاحبه هو إلى الجهل أقرب منه إلى العلم.

قلت: لم أفهم.. فالعلم يظل علما.. ولن يصير جهلا أبدا.

قال: الصبي في صباه له علوم كثيرة.. فهو يظن أن السماء تنتهي حيث انتهى بصره.. وأن لعبته أفضل من تيجان الملوك..

قلت: وهل هذا يسمى علما؟

---

2) رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه.

قال: بالنسبة له هو علم..

قلت: نحن لا نسميها علوما.

قال: فهكذا الأمر بالنسبة للحقائق الأزلية.. فأكثر المعارف الـتي يزهـو بهـا العلمـاء لا تختلف كثيرا عن تلك المعارف التي يزهو بها الصبيان.

قلت: فهمت هذا.. فقربه لي.. فـإني من قـوم عبـدوا علـومهم، وصـار يصـعب عليهم فهم مثل هذا؟

قال: أرأيت لو أن البشرية استطاعت في يوم من الأيام أن تنفذ من أقطار السـماء.. كيف يصبح ـ حينها ـ صعودها إلى القمر؟

قلت: يصبح مجرد لعبة.. فالبشرية لو وصلت إلى هذا، فإن القمر حينها يصـبح جزيـرة لا كوكبا.. بل لعل الصبيان ـ حينها ـ يمتطون دراجاتهم للصعود إليه.

قال: فما ورد في النصوص المقدسة من الحقائق عن الكون يجعل من كـل مـا نـراه شيئا هينا لا يكاد يذكر..

قلت: فكيف يدل العلم على السجود؟

قال: من وعى هذا سجد لله لا محالة.. لقد قال الله تعـالى يـذكر ذلـك: وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ غَفُـورٌ (فاطر:28)

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من الخامسـة، فمـا الـذي يسـتفيد من **السادسة**، وهي قوله تعالى: يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِـرَاطاً سَـوِيّاً (مريم:43)؟

قال: أليس الابن تابعا لأبيه؟

قلنا: بلى.. وقد حدث جابر أن رجلا أتى النبي ﷺ، فقـال: يـا رسـول اللـه، إن لي مـالا وعيالا، وأنه يريد أن يأخذ من مالي إلى ماله، فقال رسول الله ﷺ:(أنت ومالك لأبيك)(1)

قال: وفي العلم.. هل يجوز للعالم أن يترك ما هـداه إليـه علمـه في مسـألة لأن أبـاه يقول بها؟

قال بعض الطلبة: لو فعل ذلك لصدق عليه قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْـزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَـاؤُهُمْ لا يَعْقِلُـونَ شَـيْئاً وَلا يَهْتَـدُونَ (البقـرة: 170)

قـال: فكمـا تحـرر العـالم من سـلطان المـال والجـاه والهـوى.. ينبغي أن يتحـرر من

(1) رواه ابن ماجه باختصار، ورواه الطبراني في الأوسط.

سلاطين الآباء والأجداد والجذور.. فليس للعالم من سلطان غير سلطان علمه.

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من السادسة، فما الذي يستفيد من **السابعة**، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الحج: 54)؟

قال: ألا ترون كيف وصف الله أهل العلم بالإخبات؟

قلنا: أجل.. ونحن نعلم أن الإخبات هو الخضوع.

قال: متى وصفهم بذلك؟

قلنا: بعد علمهم بأنه الحق.

قال: فالعالم الذي وصف بأنه تخلص من إسار الهوى والسلطان والمال والجذور وصف بالخضوع للحق.

قلنا: ذلك صحيح.

قال: وما كان جزاء من أخبت للحق؟

قلنا: لقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

قال: فهذا وعد من الله تعالى لمن لم يخضع إلا لما يطلبه الحق بأن يهديه إلى الصراط المستقيم.

قلنا: ذلك صحيح.

قال: وهذا يعني أن من تكبر على الحق، أو كتم الحق بعد أن علمه، أو لم يسلك السبيل الصحيح التي تهديه إلى الحق، فلن يهتدى سواء السبيل.

قلنا: ذلك كذلك.

قال: فهذه الآية ترسم لنا المنهج الموضوعي في العلم.. وهو المنهج المتحرر من كل قيد سوى قيد البحث عن الحقيقة.. وطالب العلم الذي لم يمتلئ بهذا، لن يزيده علمه إلا نفورا من الحق وإعراضا عنه.

قلت: ولكن المعلمين عندنا يربون تلاميذهم على التقليد؟

قال: من ربى تلاميذه على التقليد، فقد أحدث، ومن أحدث فقد ابتدع، ولا يبتدع إلا ضال.

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من السابعة، فما الذي يستفيده من **الثامنة**، وهي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا

إِلَّا الصَّابِرُونَ (القصص:80)؟

قال: ألا ترون كيف تحرر أهل العلم من إسار مجتمعاتهم، فراحوا يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر لا يبالون في ذلك لومة لائم.

قلنا: أجل.. فقد حكى الله تعالى عن موقف مجتمع هؤلاء لما عاينوا زينة قارون، فقال: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (القصص: 79)

قال: وذكر في نفس الوقت موقف أهل العلم المترفع الناصح.

قلنا: أجل..

قال: فالعالم هو الذي لا يستسلم للتقاليد والأعراف، فلا يخضع لسلطانها، ولا تستعبده بأهوائها، بل تكون له السلطة عليها.. فالعالم مؤثر لا متأثر، وفاعل لا مفعول، ومغير لا متغير.

قال بعض الطلبة: صدقت.. وقد ذكر رسول الله ﷺ بعض علماء بني إسرائيل، فقال: (لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم وأسواقهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (المائدة: 78)، وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس فقال: (لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا) (1)

قال آخر: وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (المائدة:78)، ثم قال: (كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يد الظالم، ولَتَأطرنَّه على الحق أطْرا أو تقصرنه على الحق قصرًا)(2)

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من الثامنة، فما الذي يستفيد من **التاسعة**، وهي قوله تعالى: وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (سبأ:6)؟

قال: ألا ترون كيف وصف الله النهاية التي يبلغها أهل العلم.. أو النتيجة التي يصلون إليها؟

قلنا: أجل.. لقد ذكر الله أن النتيجة النهائية التي يصل إليها أهل العلم هي أن يعلموا

1) رواه أحمد.

2) رواه الترمذي وابن ماجه.

أن ﴿ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

قال: فالعالم هو الذي لا يغفل عن هذا النوع من العلم.. لأنه لن يصل إلى لباب العلم به.

قلنا: فأين نجد هذا العلم؟

قال: العلوم صنفان: علوم حقائق.. وهي تدلك على أن كل ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه.. وعلوم سياسات.. وهي تدلك على أن كل ما أنزل على محمد ﷺ هو الصراط المستقيم الذي يتوافق مع الفطرة، ولا يصلح الإنسان إلا به.

قلت: فما فائدة هذا لطالب العلم؟

قال: أن لا يقتنع طالب العلم بأي نهاية حتى يصل إلى هذه النهاية.. وهذه النهاية لا حد لها.. فلذلك يظل طول عمره باحثا سالكا سائرا.

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من التاسعة، فما الذي يستفيد من **العاشرة**، وهي قوله تعالى:﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: 7)؟

قال: ألا ترون كيف وصف الله أهل العلم الراسخين فيه بالتسليم المطلق لله؟

قلنا: بلى.

قال: فطالب العلم لن يرسخ في العلم حتى يسلم هو وعلمه لله.

قلنا: عرفنا إسلام العبد لله.. فكيف يسلم علمه؟

قال: إذا عرف العلم قدره، فلم يتجاوز حدود ما أمر بعلمه، كان مسلما.. ألا ترون كيف سلم الراسخون لله في الحين الذي راح فيه المشاغبون يبحثون عن المتشابه ليجادلوا في دين الله.

قلنا: ذلك صحيح.

قال: فلن يصل طالب العلم للرسوخ في العلم حتى يكون هذا حاله..

مع درسه:

بعد أن درسنا وتدربنا على الآداب المرتبطة بالسمت مع العلم مدة، انتقلنا إلى الفرع الثالث للسمت، وهو السمت مع الدرس، وقد بدأ الشنقيطي حديثه عن هذا النوع بقوله ﷺ:(ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله تعالى ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)(1)

1) رواه مسلم وأبو داود.

وحدثنا أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما مجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى، ونحمده لما هدانا للإسلام، ومن علينا به، فقال: (أتاني جبريل ﷺ فأخبرني أن الله تبارك وتعالى يباهي بكم الملائكة)(1)

وحدثنا أنه بينما كان رسول الله جالسا في المسجد، والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، وذهب واحدٌ، فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما، فرأى فرجةً في الحلقة، فجلس فيها وأما الآخر، فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً. فلما فرغ رسول الله ﷺ، قال: (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة: أما أحدهم، فأوى إلى الله، فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر، فأعرض، فأعرض الله عنه)(2)

قلنا: ما سر إيرادك لهذه الأحاديث، وما علاقتها بسمت أهل العلم مع دروسهم؟

قال: هذه الأحاديث هي المنبع الذي منه يستقي طالب العلم ومعلمه ما ينشر فيهما سمت أهل العلم مع دروسهم.

قلنا: كيف ذلك؟

قال: لقد أخبر رسول الله ﷺ أن مجلس العلم مجلس يأوي فيه طلبة العلم إلى الله، فيكونون بجلوسهم فيه ضيوفا على الله.. وأخبر أنه مجلس تحضره الملائكة.. وأخبر أنه مجلس تستجاب فيه الدعوات، وتلبى فيه الطلبات.. ومثل هذا المجلس الذي شرف هذا التشريف ينبغي أن لا تقل هيبته عن هيبة الصلاة.

قلنا: نحن نعرف أركان الصلاة وفضائلها وموانعها ونواقضها.. فهل أثر عن سلفكم من أهل العلم ما يرتبط بمجلس العلم من أحكام؟

قال: أجل.. لقد اتفق جميع أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ على أن لمجلس العلم من الحرمة ما لا يقل عن حرمة الصلاة.. فلذلك سنوا فيه من الآداب ما يحفظ حرمته، ويعطيه حقه من التعظيم.

قلنا: فحدثنا عن ذلك.

قال: سأحدثكم عن عشر تجمع أصول ذلك.. أما فروعه فستتدربون عليها في هذا المجلس حتى لا تطردوا من حلق العلم.

قلت: وهل يمكن لمعلم أن يطرد من يتعلم على يديه؟

قال: لقد كان ذلك سنة السلف الصالح.. كانوا لا يرون أحدا يعكر مجلس العلم بالجدال وسوء الأدب إلا طردوه.

قلت: ألا ترى أنهم يقسون عليه بذلك؟

---

1) رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

2) رواه البخاري ومسلم.

قال: رب قسوة تحمل من الرحمة ما لا تحمله أي رحمة، ألم تسمع الشـاعر الحكيم، وهو يقول:

وقسـا لـيزدجروا ... فليقس أحيانـا

قلنا: بلى.. فحدثنا عن **الأول**.

قال: لقد ذكـر سـلفنا عن سـلفهم من أهـل العلم أن من آداب الطـالب والأسـتاذ إذا عزم على الجلوس مجلس التدريس أن يتطهر من الحـدث، وينظـف، ويتطيب، ويلبس من أحسن ثيابه اللائقة به بين أهل زمانه، قاصداً بذلك تعظيم العلم وتبجيل الشريعة.

قلنا: فحدثنا عن **الثاني**.

قال: أنتم تعرفون صلاة الاستخارة؟

قلنا: وما علاقتها بهذا؟

قال: لقد كان من سلفنا من يقدم على مجلسه هذه الصلاة.

قلنا: لم؟

قـال: حـتى يكـون تحركـه للعلم والتعليم بتحريـك اللـه لا بتحريكـه.. ثم إن في العلم مجاهيل، فهو يحتاج من الله أن يوفقه لسلوك متاهاتها.. ثم إن في العلم فروعا كثيرة، فهو يحتاج لأن يخير الله له خيرها، وأوفقها بالنسبة له.

قلنا: فحدثنا عن **الثالث**.

قال: أن ينوي بطلب العلم أو نشره تبليغ أحكام اللـه تعـالى الـتي ائتمن عليهـا، وأمـر ببيانها والازدياد من العلم، وإظهار الصواب، والرجـوع إلى الحـق والاجتمـاع على ذكـر اللـه تعالى والسلام على إخوانه من المسلمين والدعاء للسلف الصالحين.

يحكى عن بعضـهم أنـه كـان يكتب حـتى تكـل يـده، فيضـع القلم ثم ينشـد من بـاب الإشارة:

لئن كـان هـذا الـدمع يجـري صـبابةً ... على غـير ليلى فهـو دمـع مضـيع

قلت: حقيق بطالب العلم ومعلمه أن يفرح، فكيف يبكي هذا؟.. ألم يبلغه فضـل أهـل العلم؟

قـال: ألم تسـمع قولـه تعـالى:﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُـونَ مَـا آتَـوْا وَقُلُـوبُهُمْ وَجِلَـةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61)﴾ (المؤمنون)؟

قلت: بلى.. وقد سئل رسـول اللـه ﷺ عنهـا، فقيـل لـه: أهـو الرجـل يسـرق ويـزني

ويشرب الخمر، وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال: (لا، ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلي، وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه)(1)

قال: فأهل العلم هم أولى بالخشية من غيرهم.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: 28)

قلت: بلى..

قال: فأعظم الخشية هو أن يخاف المؤمن ألا يقبل منه.. لقد قال بعضهم يعبر عن ذلك:(الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم)

قلنا: فحدثنا عن **الرابع**.

قال: من آداب طالب العلم ألا يتحرك في طريقه إلى مجلس العلم إلا بصحبة ذكر.. فإذا وصل إليه سلم على من حضر وصلى ركعتين، فإن كان مسجداً تأكدت مطلقاً، ثم يدعو الله تعالى بالتوفيق والإعانة والعصمة، ويجلس مستقبلاً القبلة لقوله ﷺ:(أكرم المجالس ما استقبل القبلة)(2)

ويكون جلوسه بسكينة، ووقار، وتواضع، وخشوع، متربعاً، أو غير ذلك مما لا يكره من الجلسات، ولا يجلس مقعياً، ولا مستفزاً، ولا رافعاً إحدى رجليه على الأخرى، ولا ماداً رجليه أو إحداهما من غير عذر، ولا متكئاً على يديه إلى جنبه أو وراء ظهره، وليصن بدنه عن الزحف، والتنقل عن مكانه، ويديه عن العبث والتشبيك بهما، وعينيه عن تفريق النظر من غير حاجة، ويتقي المزاح وكثرة الضحك، لأنه يقلل الهيبة، ويسقط الحشمة.

قلت: فهل ورد في السنة ما يدل على كل هذا؟

قال: أجل.. ألم تسمع حديث جبريل عليه السلام الذي جاء يعلمنا فيه ديننا (3)؟

قلت: بلى.. بل أحفظه.

قال: إن هذا الحديث أصل من أصول أدب طالب العلم في درسه.. انظر كيف جلس، وكيف سأل، وكيف سمع، وكيف أجاب.. إن جبريل عليه السلام لم يعلمنا فقط أصول ديننا، بل علمنا مع ذلك السمت الذي نطلب به علوم ديننا.. فلا يمكن أن نتعلم الدين في مدارس المشاغبين.

قلنا: فحدثنا عن **الخامس**.

قال: أن يقطع طالب العلم كل ما يحول بينه وبين التفرغ للعلم والتنصت له والتأمل

---

1) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة.

2) رواه أبو يعلي والطبراني في الأوسط، عن ابن عمر مرفوعاً والطبراني في الكبير عن ابن عباس نحوه مرفوعاً.

3) رواه مسلم.

فيه.. فلا يدرس وقت جوعه، أو عطشه، أو همه، أو غضبه، أو نعاسه، أو قلقه، ولا في حال برده المؤلم، أو حره المزعج، فربما سمع ما لم يتحقق من سماعه، أو فهم ما لا يصح أن يفهمه.. وإن كان أستاذا ربما أجاب أو أفتى بغير الصواب، لأنه لا يتمكن من استيفاء النظر.

قلت: أهذا قياس على ما ورد في الحديث من نهيه ﷺ عن صلاة الحاقن(1).. ونهيه ﷺ عن صلاة الحازق(2)، وهو صاحب الخف الضيق.

قال: ليس ذلك قياسا.. بل العلم لا يختلف عن الصلاة.. فكما أن هذه الشواغل تصرف عن الصلاة، وتؤثر في خشوعها، فهي كذلك تصرف عن العلم، وتؤثر على معايشة الطالب ما يتعلمه.. وذلك يحول بينه وبين الاستفادة منه.

قلنا: فحدثنا عن **السادس**.

قال: أن يعطي لمجلس العلم حقه من الأدب.. لقد قال الله تعالى يشير إلى مجامع ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة:11).. انظروا كيف ربط الله تعالى بين المجالس والعلم.. وانظروا كيف أمر الله تعالى الجالسين بالطاعة المطلقة لمن يريد أن ينظم مجلسهم، فإذا أمرهم بالفسح فسحوا، وإذا أمرهم بالنشوز نشزوا؟

قلنا: فما هي آداب المجالس التي يجب على طالب العلم أن يراعيها؟

قال: أولها.. أن يجلس حيث انتهى به المجلس، فلا يتخير محلا دون غيره إلا لغرض، ولا ينبغي أن يزاحم من هو أولى منه على مجلسه.. لقد روي في الحديث: أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس.. وورد فيه كذلك أن رسول الله ﷺ كان يقول: (لِيَليني منكم أولوا الأحلام والنُّهَى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)(3)

قلت: ألا يحمل هذا التقديم نوعا من الجور ؟

قال: يستحيل على رسول الله ﷺ أن يقع في الجور.. بل هذا عين العدل.. أليس العدل هو أن تضع كل شيء في موضعه الذي وضعه الله فيه؟

قلنا: بلى..

قال: فالمجالس كذلك.. إن مجالس العلم قد تحتاج حوارا ومراجعات، ولا يصلح لهذا غير أولي الأحلام والنهى..

إن مجالس العلم كصفوف الصلاة تماما، وقد روي أن رسول الله ﷺ كان يقول:

---

1) رواه ابن ماجه والدار قطني.

2) عزاه رزين إلى الترمذي.

3) رواه مسلم.

(استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليليني منكم أولو الأحلام والنُّهى، ثم الذين يلـونهم، ثم الذين يلونهم) (1)

أتدرون لم قدم أولي الأحلام والنهى بهذه المرتبة دون غيرهم؟

قلنا: الحكمة في ذلك يسيرة.. فالإمام قد يحتـاج إلى من يفتح عليـه، وقـد يحتـاج إلى من يستخلفه.. ولا يصلح لذلك إلا أولو الأحلام والنهى.

قال: فهكذا مجلس العلم.. قد ينسى المعلم، فيذكر، وقد يخطئ فيصوب، وقد يراجـع فيحقق..

قلنا: عرفنا هذا، فهل هناك أدب غيره.

قال: من آداب المجـالس الـتي لا تسـتقيم مجـالس العلم إلا بهـا أن يحـترم الجـالس الجلساء، فلا يقيم أحدا من مجلسه ليجلس فيه دون.

قلت: أحفظ في ذلك قوله ﷺ:(لا يقيم الرَّجُلُ الرَّجُلَ من مجلسـه فيجلس فيـه، ولكن تَفَسَّحُوا وتَوسَّعوا)(2)

قلنا: وعينا هذا، ووعينا كل ما ورد في السنة من مثله.. فحدثنا عن **السابع**.

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى: يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَقُولُـوا رَاعِنَـا وَقُولُـوا انْظُرْنَـا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (البقرة:104)

قال بعض الطلبة: لقد نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية أن يتشبهوا بالكفـار في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يُعَـانُون من الكلام مـا فيـه توريـة لمـا يقصـدونه من التنقيص، فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا يقولون: راعنا، يورون بالرعونـة، كمـا قـال تعـالى مخبرا عنهم: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَـمِعْنَا وَعَصَـيْنَا وَاسْـمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْـمَعْ وَانْظُرْنَـا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا (النساء: 46)

وهكذا ورد في الأحاديث أنهم كـانوا إذا سَـلَّموا يقولـون: السـامُ عليكم، والسـام هـو: الموت.

قلنا: عرفنا هذا.. فما وجه الإشارة فيه إلى آداب طالب العلم مع درسه؟

قال: لقد ذكر سلفنا عن سـلفهم تطبقـا لهـذا أن أن يصـان مجلس العلم عن اللغـط، فإن الغلط تحته،.

قلنا: فإن حصل التعدي في هذا.. فماذا على المعلم؟

---

1) رواه رواه مسلم وأهل السنن، إلا الترمذي.

2) رواه البخاري ومسلم.

قال: لقد ذكر سلفنا عن سلفهم في هذا أن يزجر من تعدى في بحثه، أو ظهر منه لدد وسوء أدب، أو ترك إنصافا بعد ظهور الحق، أو أكثر الصياح بغير فائدة، أو أساء أدبه على غيره من الحاضرين أو الغائبين، أو ترفع في المجلس على من هو أولى منه، أو نام أو تحدث مع غيره أو ضحك، أو استهزأ بأحد من الحاضرين، أو فعل ما يخل بأدب الطلب في الحلقة، وكل ذلك بشرط أن لا يترتب على ذلك مفسدة تربو عليه.

قلنا: فحدثنا عن **الثامن**.

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى: وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (البقرة: 223)

قال بعض الطلبة: كيف تستشهد بهذا في هذا المحل؟.. إن هذا ورد في محل أنت تعرفه(1).

قال: فما قال ابن عباس في التقديم؟

قال الطالب: لقد ذكر أنه قول بسم الله.. وفي حديث آخر جمع التسمية مع الاستعاذة من الشيطان(2).

قال: فإن كنا قد أمرنا في ذلك المحل الذي قد تنتشر فيه الغفلة أن نقدم لأنفسنا بذكر، فكيف لا نفعل ذلك في مجلس العلم الذي هو محراب من محاريب التعبد لله.

قلنا: فما أثر عن سلفكم من العلماء في هذا؟

قال: لقد اتفق على هذا جميع أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ على أن على أهل العلم أن يقدموا على الشروع في البحث والتدريس قراءة شيء من كتاب الله تعالى تبركاً وتيمناً، ويدعو عقيب القراءة لنفسه، وللحاضرين، وسائر المسلمين، ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويسمى الله تعالى ويحمده، ويصلي على النبي ﷺ، ويدعو لنفسه وللحاضرين ووالديهم أجمعين، وهو واقف مكانه إن كان في مدرسة أو نحوها جزاء لحسن فعله وتحصيلاً لقصده.

قلت: ألا ترى أن في هذا تضييعا لوقت كثير؟

قال: الوقت يضيع باللغو.. لا بذكر الله.. والمدرسة عندنا هي المدرسة التي تعمق بالإيمان بالله، وتملأ القلب بحبه، وتملأ النفس بالتهذيب والأدب.. ولم نجد داواء يجمع لنا كل ذلك ككتاب الله وذكر الله، وقد قال رسول الله ﷺ:(ما اجتمع قوم في مجلس فتفرقوا، ولم يذكروا الله ولم يصلوا على النبي ﷺ إلا كان مجلسهم تره عليهم يوم

---

1) وهو قوله تعالى: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (البقرة:223)

2) الحديث رواه البخاري.

القيامة)(3)

قال بعض الطلبة: وفي حديث آخر، قال ﷺ:(ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله تعالى ولم يصلوا على نبيهم الا كان عليهم ترة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم)(1)

قلت: عرفنا بما يبدأ الدرس، فبم ينتهي؟

قال: لقد اتفق أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ على أن يقول المدرس عند ختم كل درس: (والله أعلم)، أو غيرها من الصيغ التي تدل على البراءة من الذات، واللجوء إلى الله.. أو يقول كلاما يشعر بختم الدرس كقوله: (وهذا آخره) أو (ما بعده يأتي إن شاء الله تعالى) ونحو ذلك، ليكون قوله (والله أعلم) خالصاً لذكر الله تعالى ولقصد معناه.

وقد ذكر سلفنا عن سلفهم في هذا أن الأولى للمدرس أن يمكث قليلاً بعد قيام الجماعة فإن فيه فوائد وآداباً له ولهم، منها عدم مزاحمتهم، ومنها أنه إن كان في نفس أحدهم بقايا سؤال سأله.

واستحبوا له إذا قام أن يدعو بقوله:(سبحانك اللهّ، اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك)

قال بعض الطلبة: لقد نص الحديث على هذا، فقد قال ﷺ:(من جلس في مجلس، فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا الله، أستغفرك وأتوب إليك؛ إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك)(2)

قال آخر: وفي حديث آخر: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرةٍ إذا أراد أن يقوم من المجلس: (سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك)، فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى؟ قال: (ذلك كفارةٌ لما يكون في المجلس)(3)

قلنا: فحدثنا عن **التاسع**.

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمان: 19)

قلنا: تقصد خفض الصوت.

قال: بحيث يسمعه السامعون.. فلا يتجاوز به مسامعهم، ولا يقصر به عنها.

---

3) رواه أحمد وابن حبان.

1) رواه الترمذي وابن ماجة.

2) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

3) رواه أبو داود، ورواه الحاكم.

قلنا: فما أثر عن سلفكم في هذا؟

قال: لقد اتفق أهل الله من ورثة رسـول اللـه ﷺ على أن على المعلم في درسـه ألا يرفع صوته زائداً على قدر الحاجة، ولا يخفضه خفضاً لا يحصل معه كمال الفائدة.

ورووا في ذلك عن النبي ﷺ قولـه:(إن اللـه يحب الصـوت الخفيض، ويبغض الصـوت الرفيع)(4)

وذكروا أن الأولى أن لا يجاوز صوته مجلسـه، ولا يقصـر عن سـماع الحاضـرين، فـإن حضر فيهم ثقيل السمع فلا بأس بعلو صوته بقدر ما يسمع.

وذكروا أنه لا ينبغي له أن يسرد الكلام سرداً، بل يرتله ويرتبه ويتمهل فيه ليفكـر فيـه هو وسامعه..

قلنا: فحدثنا عن **العاشر**.

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَـوْ كُنْتَ فَظّـاً غَلِيـظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْـرِ فَـإِذَا عَـزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران:159)

قلنا: هذه الآية جامعة من جوامع العلم، فما حظ المعلم منها؟

قال: لقد ذكر سلفنا عن سلفهم في ذلك آدابا:

منها أن يتودد المعلم لكل غريب أو جديد حضر عنده، وينبسط له لينشرح صدره، فإن للقادم دهشة.. ونصحوا بأن لا يكثر الالتفات والنظر إليه استغراباً له، فإن ذلك يخجله.

وذكروا أنه إذا أقبل بعض الفضلاء، وقـد شـرع المعلم في مسـألة أمسـك عنهـا حـتى يجلس، وإن جاء وهو يبحث في مسألة أعادها له أو أعـاد مقصـودها، وإذا أقبـل فقيـه وقـد بقي لفراغه وقيام الجماعة بقدر ما يصل الفقيه إلى المجلس، فليؤخر تلك البقية ويشـتغل عنها ببحث أو غيره إلى أن يجلس الفقيه، ثم يعيدها أو يتم تلـك البقيـة كيلا يخجـل المقبـل بقيامهم عند جلوسه.

ومنها أن يلازم الإنصاف في بحثه وخطابه، ويسمع السؤال من مورده على وجهه وإن كان صغيراً، ولا يترفع عن سماعه فيحرم الفائدة، ويكلم كل أحـد على قـدر عقلـه وفهمـه، فيجيب بما يحتمله حال السائل، ويتروى فيما يجيب بـه، وإذا سـئل عمـا لم يعلمـه قـال: لا أعلم أو لا أدري فمن العلم أن يقـول فيمـا لا يعلم: لا أعلم، أو اللـه اعلم، فقـد قـال ابن مسعود : (يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل بـه، ومن لم يعلم فليقـل اللـه أعلم، فـإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم)، وعن بعضهم: (لا أدري نصف العلم)

قلت: ألا ترى أن في قوله هذا حطا من قدره.. بحيث يتهمه طلبتـه بالجهـل، وهـو مـا

4) رواه الخطيب في الجامع.

يرفع ثقتهم فيه، ويمنعهم من الاستفادة منه؟

قال: ذلك عند أهل الدينا.. أما عند أهل الدين.. فالأمر مختلف تماما.. إن هذا القول عند أهل الدين والورع يدل على عظم محله، وقوة دينه، وتقوى ربه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته، وحسن تثبته.

مع معلمه:

بعد أن درسنا وتدربنا على الآداب المرتبطة بالسمت مع الدرس مدة، انتقلنا إلى الفرع الرابع للسمت، وهو السمت مع المعلم، وقد بدأ الشنقيطي حديثه عن هذا النوع بقوله ﷺ: (ليس منا من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه)(1)

فسألناه عن حق العالم، فقال: أول حق للعالم أن يعز ويكرم ويرفع قدره.. فرفع قدر العالم رفع لقدر العلم.. ومن أذل عالما، فقد أذل العلم، ومن أذل العلم، فقد أذل ما أمر الله بأن يعز.

قلت: فما علاقة ذلك بالعلم، وما تأثيره فيه؟

قال: لقد قال الشاعر الحكيم يبين سر ذلك:

إن المعلم والطبيب ... **لا ينصحان إذا هما**
فاصبر لدائك إن أهنت ... واصبر لجهلك إن

قلت: ألا يعني إعزاز العالم إذلالا للمتعلم؟

قال: هي ذلة عزة لا ذلة هوان.. لقد عبد الله بن عباس : ذللت طالبا فعززت مطلوبا.. وقال آخر: من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبدا .. وقال آخر: إذا قعدت، وأنت صغير حيث تحب قعدت وأنت كبير حيث لا تحب.

قلت: عرفنا الإجمال، فهات التفصيل..

قال: حقوق المعلم سبعة.. وهي بالسبعين أشبه منها بالسبعة.

قلنا: فما **أولها**؟

قال: أن لا يتكبر طالب العلم عن أخذ العلم عن أي عالم.. كان غنيا أو فقيرا.. معروفا بين الناس أو خاملا.. فرب علم تجده عند خامل، ولا تجد عند معروف.

قال بعض الطلبة: لقد قال رسول الله ﷺ يذكر ذلك:(الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها)(2)

---

1) رواه أحمد والترمذي.

2) رواه الترمذي وابن ماجه والإسناد ضعيف.

قال آخر: وقال علي : (خذ الحكمة أنى كانت، فهي تكون في صـدر المنـافق، فتلجلج من صدره حتى تخرج، فتسكن إلى صـواحبها في صـدر المـؤمن)، وقـال: (الحكمـة ضـالة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق)

قال آخر: وقال علي: (الشريف كل الشريف من شرفه علمه، والسؤدد حـق السـؤدد لمن اتقى ربه، والكريم من أكرم عن ذل النار وجهه)

قلنا: فما **الثاني**؟

قال: أن يقدر الجهد الذي يبذلـه معلمـه، فيعـترف لـه بـه، ويشـكره عليـه، فقـد قـال رسول الله ﷺ:(من لم يشكر الناس لم يشـكر اللـه)(1)، وفي روايـة:(لا يشـكر اللـه من لا يشكر الناس)(2)

بل ورد في حديث آخر ما هو أعظم من ذلك، حيث عبر بأفعل التفضيل ليدل على أن من الكمال شكر وسائط الجـود الإلهي، لينفي مـا قـد يتـوهم من أن ذلـك منـاف للتوحيـد، قال :(إن أشكر الناس لله تعالى أشكرهم للناس)(3)

قـال بعض الطلبـة: لقـد دعـا رسـول اللـه ﷺ إلى مقابلـة الإحسـان بالشـكر والثنـاء والاعتراف بالفضل لأهل الفضل، فقال :(من أعطى عطاء فوجـد فليجـز بـه، فـإن لم يجـد فليثن فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر)(4)

قال آخر: وقال :(من أولى معروفا فليذكره فمن ذكره فقـد شـكره، ومن كتمـه فقـد كفره)(5)

قال آخر: وقال :(من لم يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لا يشـكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر)(6)

قال آخر، وقد كان أكبر الجماعة سنا: صدق رسول الله ﷺ.. لقـد مارسـت في فـترة طويلة من عمري التـدريس في مـدارس الصـراع(7).. وكنت أرى الطلبـة كيـف يسـتهينون بمعلميهم، وكيف يحتقرونهم..

وقد كان لي بعض الأصدقاء من المعلمين، اسمه إبراهيم طوقان، وكان شاعرا، وقـد

1(1) رواه أحمد والترمذي بسند صحيح.

2(2) أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح.

3(3) أحمد ورواته ثقات والطبراني.

4(1) الترمذي وأبو داود وابن حبان في صحيحه.

5(2) الطبراني وابن أبي الدنيا

6(3) ابن أبي الدنيا وغيره بإسناد لا بأس به.

7) هذا مصطلح استعملناه كثيرا في رسائل السلام خاصة في مجموعاتها الأولى، ونريد به كل ما لم يبن على أسس السلام الذي جاء به الإسلام.

جمعه مجلس ذات يوم مع أحمد شوقي، فأخذ شوقي يترنم بقصيدته المعروفة، والتي يقول مطلعها:

قم للمعلم وفِّه … **كـــاد المعلم أن**

وقد لاقت القصيدة ترحيبا كبيرا من السامعين إلا من صديقي، الذي قام مغضبا، وراح يقول مرتجلا:

شوقي يقول وما … **قم للمعلم وفِّه**
اقعدْ فديتُك هل يكون … من كان للنشء الصغار
ويكاد يقلقني الأمير … كاد المعلم أن يكون
لو جرب التعليمَ شوقي … لقضى الحياةَ شقاوةً
حسبُ المعلمِ غمةً … مرأى الدفاتر بكرةً
مائةٌ على مائةٍ إذا هي … وجد العمى نحو العيون
ولو آن في التصليح … وأبيك لم أكُ بالعيون
لكنّ أصلَح غلطةً نحويةً … مثلًا وأتخذ الكتاب دليلا
مستشهدًا بالغر من … أو بالحديث مُفَصلًا
وأغوص في الشعر … ما ليس ملتبسًا ولا
وأكاد أبعث سيبويه من … وذويه من أهل القرون
فأرى حمارا بعد ذلك … رفع المضاف إليه
لا تعجبوا إن صِحْتُ … ووقعت ما بين البنوك
يا من يريد الانتحار … إن المعلم لا يعيش

قال آخر: صدقت.. لقد جربت مثلك التدريس في مدارس الصراع، وقد رأيت أن أكبر ما يبذله المعلم من جهد جهد ضائع، وما ذاك إلا لما ينقصهم من إكسير الأدب الذي دعا إليه رسول الله ﷺ.. وقد كان لي مثلك صديق أديب اسمه عبد الله بن سليم الرُّشَيد، وقد كتب في ذلك شعرا يقول فيه:

أروح وأغدو … **ويا بؤس من**
أريق عليها أعيني كلَّ … بهمة وقّادٍ وعزمة صابر
وكم وقفةٍ بين التلاميذ … بلهجة حَضَّاضٍ على

أمـزِّق سـاعاتي لـترقيع   وأهـدر عمـري بين جـد
وأحسـب أني بالتلاميـذ   شـيوخًا كبحـر بـاللآلئ
فألقـاهمُ من بعـد شـرٍّ   وإذ بصياحي كان صفقةَ
(زواملُ للأشـعار لا علم   بجيِّدها إلا كعلم الأباعر)

قلنا: فما **الثالث**؟

قال: أن تأخذ من العالم علمه، وما بدا لك من الحكمة منه، وتدع ما سوى ذلك.

قلنا: أذلك واجب أم حق؟

قال: هو واجب وحق.. أما كونه واجبا، فلأن الله تعالى حدد شرط الاتباع بالطاعة للـه ورسوله، فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ (الحجرات:1)

وأما كونه حقا.. فلأنه لا ينبغي لطالب العلم أن يكلف معلمه عنتا.

قلنا: وما العنت الذي يكلفه في هذا؟

قال: إن من يفعل هذا يطلب ـ من حيث لا يشعر ـ عصمة معلمه، وذلك مما لا يكـون إلا فيمن عصمهم الله، ونصت النصوص على عصمتهم، أما من عداهم، فهم عرضة للخطأ، ولا ينبغي لمن هو عرضة للخطأ أن نكلفه بالعصمة.

قال بعض الطلبة: لقد ذكرني حديثكم هـذا برجـل سـمعته ينـاظر في مجلس حافـل، وقد استدل عليه مخالفه بدلالة صحيحة، فكان جوابه عنها أن قال:(إن هـذه دلالـة فاسـدة، وجـه فسـادها أن شـيخي لم يـذكرها، ومـا لم يـذكره الشـيخ لا خـير فيـه)، فأمسـك عنـه المستدل تعجبا ؛ ولأن شيخه كان محتشما.

قال الشنقيطي: لا تحسبن هذا محدودا فيمن رأيت.. فما أكـثر من يلبس لبـاس العلم ظاهرا، بينما هو ـ في حقيقته ـ مقلد بشع التقليد، لا يتعصب إلا لمن ولاهم أمره، فهو يقبـل على قوم إقبالا تاما، كان حقا ما جاءوا به أو باطلا، ويدبر عن قـوم من المسـلمين غـيرهم، أو عن أقوام، كان حقا ما جاءوا به أو باطلا.

قال بعض الطلبة: لقد تصرفت مع هؤلاء تصرفا لست أدري مدى صوابه.

قال الشنقيطي: فما فعلت؟

قال: لقد رأيته يبغض الغزالي بغضا تاما، ويقبـل على فلان الفلاني إقبـالا تامـا.. فكنت أبدل الأسماء في نقولي، فأضع مقولات الغزالي باسم من أحبه، فكانت تعجبه، وكان يثـني عليها أتم الثناء.. وكنت أضـع مقـولات من أحبـه باسـم الغـزالي، فكـان ينكـر عليهـا إنكـارا شديدا، ويستعمل النصوص المقدسة في الإنكار عليه.

قال الشنقيطي: لقد ذكرتني بحادثة وقعت في عهد رسول الله ﷺ.. فقد ورد في قصة عبد الله بن سلام أنه بعد أن أسلم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا وكتم إسلامه، ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله، إن اليهود قد علمت أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، وأنهم قوم بهت، وأنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني، وقالوا في ما ليس في، فأحب أن تدخلني بعض بيوتك)

فأدخله رسول الله بعض بيوته، وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه فقال: يا معشر يهود، يا ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله قد جئتكم بالحق فأسلموا)، فقالوا: ما نعلمه، فقال: (أي رجل فيكم الحصين بن سلام؟)، قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا، فقال: (أرأيتم إن أسلم)، قالوا: أعاذه الله من ذلك، فقال: (يا ابن سلام اخرج إليهم)

فخرج عبد الله فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله، يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقا، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة: اسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه.

قالوا: كذبت أنت شرنا وابن شرنا، وانتقصوه.

قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟ قال: وأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها[1].

قلت: ألأجل هذا ورد نهي العلماء عن اتباعهم اتباعا مطلقا؟

قال: أجل.. لقد خاف العلماء الورعون أن يكونوا حجبا عن أشعة الحقيقة، فلذلك يحذرون من يتعلم على أيديهم من التبعية المطلقة لهم.

قال الشنقيطي: لقد كان قوله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:31) هو الذي جعلهم يذكرون هذا..

قال بعض الطلبة: لقد ورد في تفسيرها عن عدي بن حاتم قوله: أتيت النبي ﷺ، وهو يقرأ في سورة براءة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:31)، فقال: (أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه)[2]

قلنا: فما **الرابع**؟

---

1) رواه البيهقي.

2) رواه الترمذي وحسنه.

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى: فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (الفرقان: 59)

قلنا: فما في هذه الآية من حقوق العالم؟

قال: من حق العالم أن يسأل.. فلا أضيع للعلم من ترك السؤال والبحث والنظر.

قلت: فما تقول في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (المائدة: 101)

ومثلها ما ورد في أن النبي ﷺ (كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)(1)

قال: السؤال نوعان: سؤال عن علم يحتاج إليه، فذلك فضل، وهو ما ورد في النصوص الأمر به.

وسؤال هو أقرب إلى الجدل منه إلى العلم، وقد ضرب له القرآن الكريم ببني إسرائيل في قصة البقرة، فقد راحوا يضيقون على أنفسهم حتى ضيق الله عليهم، وقد قال ابن عباس : فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا وتعنتوا على موسى فشدد الله عليهم.

ولهذا كان النبي ﷺ يحذر من مثل هذا النوع من الأسئلة، ففي الحديث عن النبي ﷺ: (إن أعظم المسلمين جُرْمًا من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته)(2)، ولما سُئِل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلا فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكتَ سكتَ على مثل ذلك؛ فكره رسول الله ﷺ وعابها، ثم أنزل الله حكم الملاعنة(3).

ولهذا ورد في الحديث قوله ﷺ:(ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه)(4)، وقد قال لهم ﷺ هذا بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج، فقال رجل: أكُل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثًا، ثم قال ﷺ: (لا، ولو قلت: نعم لوجَبَتْ، ولو وَجَبَتْ لما استطعتم)

قلت: أراك تكر على ما دعوتنا إليه لتنهانا عنه؟

قال: لا.. لقد ميزت بين الأمرين.. فهناك فرق كبير بين أن تسأل لتعمل أو لتتعلم، وبين سؤالك الذي هو أقرب إلى الاقتراح منه إلى السؤال..

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

4) رواه مسلم.

لقد قال الله تعالى يذكر الثاني: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ (النساء: 153)

وقد ضرب له المثل بسؤال للحواريين، فقال تعالى: إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (المائدة:112)

ولهذا نهيت هذه الأمة أن يقع منها ما وقع لأهل الكتاب قبلها، فقال تعالى: أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْأِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (البقرة:108)

وقد حدث أبو العالية في سبب نزول الآية أن رجلا قال: يا رسول الله، لو كانت كَفَّاراتنا كَفَّارات بني إسرائيل! فقال النبي ﷺ:(اللهم لا نبغيها ـ ثلاثًا ـ ما أعطاكم الله خَيْر مما أعطى بني إسرائيل، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدُهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفَّارتها، فإن كفرها كانت له خزْيًا في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزيًا في الآخرة، فما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل، قال: وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (النساء: 110)، وقال: (الصلوات الخمس من الجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن) وقال: (من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت سيئة واحدة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها، ولا يهلك على الله إلا هالك)، فأنزل الله: أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ

قلنا: فما **الخامس**؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ (الأحزاب: 53)

قلنا: فما وجه الإشارة فيه؟

قال: أنتم تعلمون أن العلماء ورثة الأنبياء.. ولذلك، فإن هذا النوع من الأدب ليس خاصا برسول الله ﷺ.. بل هو مرتبط بورثته من العلماء.

قال بعض الطلبة: أروي في هذا عن علي قوله:(من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة، وتخصه بالتحية وأن تجلس أمامه، ولا تشيرن بيدك، ولا تغمزن بعينك عنده، ولا تقولن: قال فلان: خلاف قولك، ولا تغتابن عنده أحداً ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره لله تعالى، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته، ولا تسار في مجلسه ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تشبع من طول صحبته، فإنما هو كالنخلة ينتظر متى يسقط عليك منها شيء، وإن المؤمن العالم لأعظم أجراً من الصائم القائم الغازي في سبيل الله، وإذا مات العالم انثلمت في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء إلى

يو م القيامة)(1)

قال آخر: وأروي عن بعضهم قوله: (من تعظيم الشيخ، أن لا يجلس إلى جانبه ولا على مصلاه أو وسادته، وإن أمره الشيخ بذلك فلا يفعله إلا إذا جزم عليه جزماً يشق عليه مخالفته، فلا بأس بامتثال أمره في تلك الحال، ثم يعود إلى ما يقتضيه الأدب)

قلنا: فما **السادس**؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (الاسراء: 47)، وقوله تعالى مقابل ذلك: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (الزمر:18)، وقوله: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (الاحقاف:29)

قلت: هذه آداب الاستماع.

قال: أجل.. وما ذكرته هذه الآيات حاصر لها..

قلت: لاشك أن السماع شرط أساسي للتعلم، فلا يمكن أن يتعلم من لم يسمع.

قال: ولهذا حرص سلفنا من العلماء والصالحين من ورثة النبي ﷺ على تعليم طلبتهم حسن الاستماع، فلا يمكن أن يتعلم من لم يحسن الاستماع.

قلنا: فما ذكروا من ذلك؟

قال: مما ذكروا في ذلك أن الطالب إذا سمع الشيخ يذكر حكماً في مسألة أو فائدة مستغربة أو يحكي حكاية، أو ينشد شعراً وهو يحفظ ذلك، أصغى إليه إصغاء مستفيد له في الحال كأنه لم يسمعه قط.

فإن سأله الشيخ عند الشروع في ذلك عن حفظه له، فلا يجيب بنعم لما فيه من الاستغناء عن الشيخ فيه، ولا يقل لا لما فيه من الكذب، بل يقول:(أحب إن أستفيده من الشيخ، أو أن أسمعه منه، أو هو من جهتكم أصح)

ونصوا على أن على طالب العلم أن لا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه، أو من غيره ولا يساوقه فيه ولا يظهر معرفته به أو إدراكه قبل الشيخ، وينبغي أن لا يقطع على الشيخ كلامه أي كلام كان، ولا يسابقه فيه ولا يساوقه، بل يصبر حتى يفرغ الشيخ من كلامه ثم يتكلم ولا يتحدث مع غيره والشيخ يتحدث معه، أو مع جماعة المجلس.

وقد ورد في حديث هند بن أبي هالة، في وصفه للنبي ﷺ قوله:(كان إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأن على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا)(2)

---

1) رواه الخطيب في الجامع.
2) رواه البيهقي.

قلنا: فما **السابع**؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (المجادلة:8)

قلت: هذه الآية تؤكد النهي عن التناجي.. وهو نهي وردت فيه النصوص الكثيرة، وقد ذكر ﷺ علة النهي عنه، فقال:(إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَينَّ اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه)(1)، وفي رواية:(إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه؛ فإن ذلك يحزنه) (2)

قال آخر: وفي الآية نهي عن التحية بما لم يعملنا ديننا أن نحيي به.

قال آخر: وفي الآية نهي أن نتحدث في نفوسنا بما يخالف حديث ألسنتنا.

قال الشنقيطي: إن هذه الآية تتحدث عن جميع الآداب التي ترتبط بالكلام.. وهي في مجلس العلم أوجب منها في غيره، فلا يمكن لمن لم يضبط لسانه بضوابط الآداب أن يستفيد من معلمه شيئا.

الإفادة:

بعد أن انتهينا من دراسة ما يتطلبه الفرع الثالث من علوم وآداب، انتقلنا إلى الفرع الرابع، وهو فرع (الإفادة)

وقد سألنا ـ ونحن في الركن المرتبط بهذا من محضرة الآداب ـ شيخنا محمد الأمين الشنقيطي عن معنى الإفادة، فقال: إن طالب العلم كما لا يختلف عن النبتة التي تسقى، ويعتنى بها.. فهو لا يختلف ـ كذلك ـ عن النبتة في انتظار ثمارها ونتاجها وفوائدها.

قلنا: إن النباتات تختلف في ثمارها.. فما ثمار طالب العلم المستن بسنة رسول الله ﷺ؟

قال: لقد ذكر رسول الله ﷺ أصناف الثمار، فقال:(إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً فكانت منها طائفةٌ طيبةٌ، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفةٌ منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً. فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)(3)

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

ففي هذا الحديث ذكر رسول الله ﷺ ثمرتين صالحتين، وثمرة فاسدة.

أما الثمرة الأولى، وهي أصلح الثمار وأكملها، فهي ثمرة انتفعت بالعلم انتفاعا عظيما، حيث أنبتت من غيثه الكلأ والعشب الكثير الذي انتفع به الإنسان وغير الإنسان.

وأما الثمرة الثانية، فأمسكت من الماء ما انتفع به الناس بعد ذلك في سقيهم وزرعهم.

وأما الثمرة الثالثة، فلم تنتفع بشيء.. فلم تنبت كلأ، ولم تسق عطشانا.

قلت: فهل طلبة العلم يتوزعون على هذه الأصناف الثلاثة؟

قال: أجل.. فمن طلبة العلم من يداوم على طلبه ويحرص عليه، ويكون له من الذكاء وجودة الذهن ما يعينه عليه.. فذلك هو المحقق الذي ينتفع به الكل.

ومنهم من يحفظ للأمة دينها، ويحفظ ما جاء به نبيها من هدي، فيبلغه كما حفظه، فيستفيد من حفظه العموم والمحققون..

ومنهم الذي لا يطيق هذا ولا ذاك.. والأولى به أن ينصرف إلى ما قدر عليه من تجارة أو غيرها من المكاسب.

قلنا: فحدثنا عن الثمرتين الأوليين.

قال: لقد عبر العلماء عن علوم الأولى بأنها علوم دراية وتحقيق.. وعبروا عن علوم الثانية بأنها علوم رواية وحفظ.. وقد جمع بينهما ﷺ في قوله:(نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها، ثم بلغها عني، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) (1)

قلنا: فحدثنا عن واجبات كلا الصنفين ليحقق من الإفادة ما أمر الله به.

قال: هما ثنتان، من تحقق بهما، فقد تحققت له الإفادة بأكمل معانيها.

قلنا: فما هما؟

قال: النصح والتعليم.. فالعالم لا يكتفي بأحدهما عن الآخر.. لأن أحدهما لا يغني عن الآخر.

قلنا: فبأيهما يبدأ؟

قال: هما قرينان لا ينفك أحدهما عن الآخر.. فالنصيحة لا تكون إلا بعلم.. والعلم لا يكون إلا بنصيحة وعن نصيحة.

قلنا: فكيف نجمع بين العلم والنصح، فيكون علمنا نصحا، ونصحنا علما؟

---

1) رواه أحمد وابن ماجة.

قال: هي سبعة.. من استكملها، فقد استكمل الجمع بينهما، ومن ضيعها، أو ضيع آحادها، فإن له منهما بحسب ما له منها.

النية:

قلنا: فحدثنا عن أولها.

قال: هو ما أشار إليه ﷺ في حديث النيات.. فقد علمتم أن ذلك الحديث يدخل كل باب من الأبواب.

قلنا: فكيف يدخل هذا الباب؟

قال: من ذلك أن يقصد بتعليم طلبته وتهذيبهم وجه الله تعالى، ونشر العلم، وإحياء الشرع، ودوام ظهور الحق، وخمول الباطل، ودوام خير الأمة بكثرة علمائها، واغتنام ثوابهم، وتحصيل ثواب من ينتهي إليه علمه من بعدهم وبركه دعائهم له، وترحمهم عليه.

قلت: فما علاقة النية بالنصح؟

قال: لا نصح بدون نية.. ألم تسمع قوله تعالى:﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ (النساء: 35)؟

قلت: بلى .. وقد كتب بعض الأدباء إلى أخيه: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل.

ويروى عن بعض المريدين، أنه كان يطوف على العلماء يقول: من يدلّني على عمل لا أزال فيه عاملاً للّه تعالى فإني أحبّ أن لاتجيء عليّ ساعة من ليلٍ أو نهار إلاّ وأنا عامل من عمال اللّه تعالى، فقيل له: قد وجدت صاحبك اعمل الخير ما استطعت، فإذا أفترت أو تركته فهمّ بعمله، فإن الهامّ بعمل الخير كعامله.

قال: لقد روي في السنة ما يدل على تصديق ذلك.. فقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه، تبارك وتعالى قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك: فمن هم بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنةً كاملةً، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسناتٍ إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وإن هم بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئةً واحدةً)(1)

التبسيط:

قلنا: عرفنا الأولى.. فما الثانية؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر: 17)

---

1) رواه البخاري ومسلم.

قلنا: فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: إن العالم المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي يقرب لك المعلومة، ويبسطها، فتفهمها من غير عناء.

قلنا: فهل ورد في السنة ما يدل على ذلك؟

قال: كل السنة تدل على ذلك، فقد سلك رسول الله ﷺ في التعليم أساليب تربوية كثيرة تبسط المعلومات وتقربها: فكان تارة يضرب لهم الأمثلة، وتارة يستخدم الإشارة الحسية، كأن يحكي فعل شخص ما، وتارة يلغز لهم لينشطهم، وتارة يقص عليهم من أحوال الأمم الماضية، ليكون في ذلك عبرة لهم، وتارة يعلمهم عمليا، بأن يفعل هو ما يريد فيتابعونه عليه، وتارة يسألهم عن الشيء، ولم يسألوا عنه ثم يجيبهم، وتارة يجيبهم على سؤالهم بأكثر مما أرادوا لأجل فائدة عظيمة لهم، وغير ذلك كثير..

قال بعض الطلبة: مما يروى في ذلك أن رسول الله ﷺ كان يستعمل ـ أحيانا ـ الرسوم التوضيحية، فقد خطَّ مرة خطًّا مربعاً، وخطَّ خطًّا في الوسط خارجاً منه، وخطَّ خططا صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: (هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا)(1)

قال آخر: ومما يروى في ذلك عن عبد الله بن مسعود قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال:(هذا سبيل الله مستقيماً)، وخط عن يمينه وشماله ثم قال:(هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه)، ثم قرأ:﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: 153)(2)

قال آخر: وكان ﷺ يضرب المثل ليبسط بها المعلومة، ويقربها، ومما يروى في ذلك قوله ﷺ:(مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)(3)

التشويق:

قلنا: عرفنا الثانية.. فما الثالثة؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الصف: 10)

---

1) رواه البخاري.

2) رواه الحاكم، وقال: صحيح ولم يخرجاه.

3) رواه البخاري.

قلنا: فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: إن العالم المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي يشوقك إلى المعلومة، ويحببها لك، فتقبل عليها بكل كيانك، ولن تتحقق بالعلم، ولن تحقق فيه إلا إذا أقبلت عليه بكل كيانك.

قلنا: فهل ورد في السنة ما يدل على هذا؟

قال: كل السنة تدل على هذا.. فالنبي ﷺ كان يشوقهم إلى كل خير، ويحببهم فيه، فيقبلون عليه بقلوبهم وعقولهم ونفوسهم وجميع كيانهم.

قال بعض الطلبة: مما يدل على هذا أن النبي ﷺ في أحيان كثيرة كان يطرح المسألة على أصحابه متسائلاً: (أتدرون ما الغيبة؟)(1).. (أتدرون ما المفلس؟)(2) .. (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟)(3)

فهذه الأسئلة، وغيرها كانت تستحث على التفكير والبحث والتأمل.. وهو ما يجعل الدرس مشوقا بعيدا عن كل أسباب الملل.

العناية:

قلنا: عرفنا الثالثة.. فما الرابعة؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:159)

قلنا: فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: إن العالم المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي يحل من تلاميذه محل الوالد من ولده، فهو يعطف عليهم، ويرحمهم، ويستعمل كل الوسائل التي تؤلف قلوبهم، لينصرفوا إلى العلم انصراف محب لا مبغض، وانصراف راغب فيه لا راغب عنه.

قال بعضهم: صدقت.. فكم من علوم لم يحل بيننا وبينها إلا سوء خلق معلميها، وكم من علوم لم يحببنا فيها إلا ما طبع الله عليه أساتذتها من خلق ونبل.

قال الشنقيطي: ولهذا، فإن العالم المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي يستعمل كل الوسائل ليقرب قلوب تلاميذه إليه، وإلى العلم الذي يحمله.

قلنا: فهل ورد في السنة ما يدل على هذا؟

---

1) رواه مسلم.

2) رواه مسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

قال: كل السنة تدل على هذا.. وإن شئتم التقريب، فاقرؤوا ما ورد عنه ﷺ من مراعاته لمستويات الناس وظروفهم المختلفة، فعن أبي رفاعة قال:انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب قال: فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه، قال: فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إلي فأتي بكرسي حسبت قوائمه حديداً، قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ وجعل يعلمني مما علمه الله ثم أتى خطبته فأتم آخرها(1).

الرفق:

قلنا: عرفنا الرابعة.. فما الخامسة؟

قال: هو ما أشار إليه قوله ﷺ:(إن الله رفيقٌ يحب الرفق في الأمر كله)(2)، وقوله ﷺ :(إن الله رفيقٌ يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه)(3)، وقوله ﷺ:(إن الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا ينزع من شيءٍ إلا شانه)(4)

قلنا: فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: إن العالم المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي يرفق بتلاميذه أثناء تعليمه، فلا ينهرهم، ولا يكهرهم، ولا يؤذهم، ولا يغضب عليهم، بل يلين لهم، ويعفو عما يبدر منهم إلى أن تهذب نفوسهم وتصفو طباعهم.

قلنا: عرفنا فضل الرفق.. فهل في السنة ما يدل عليه في هذا الباب؟

قال: أجل.. ومن ذلك ما حدث به بعضهم قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني(5)، ولا ضربني ولا شتمني، قال: (إن هذه الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن)، أو كما قال رسول الله ﷺ(6).

قال آخر: ومما يروى في هذا ما حدث به أبو حميد الساعدي قال: استعمل النبي ﷺ رجلاً من بني أسد يقال له ابن اللتبية على صدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي لي،

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه مسلم.

4) رواه مسلم.

5) ما كهرني: أي ما انتهرني.

6() رواه مسلم وأبو داود.

فقام النبي ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول: هذا لك وهذا لي، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟)(1)، فلم يفصح الرسول ﷺ عن اسمه مع أن كثيراً من الصحابة يعلمون هذا الذي عناه الرسول ﷺ، ولكن لما كان القصد هو التحذير من الفعل المذموم وبيان ضرره وسوء عاقبته حتى لا يقع في الآخرون، شهر بالفعل دون الفاعل، إذ ليس هناك مصلحة ترجى من ذكر اسم الفاعل.

التأليف:

قلنا: عرفنا الخامسة.. فما السادسة؟

قال: هو ما أشار إليه قوله ﷺ:(المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)(2)، وقوله ﷺ:(إن أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون)(3)

قلنا: فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: إن المعلم المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي يملأ مجلسه بالطمأنينة والراحة والسعادة، فلا يشعر تلاميذه بأي ثقل أو ضيق أو ملل.

قلنا: فكيف يكون ذلك؟

قال: بأن يكون لهم صاحبا قبل أن يكون لهم أستاذا، وأن يكون معهم رعية قبل أن يكون عليهم أميرا.

قلنا: فهل في السنة ما يدل على ذلك؟

قال: كل السنة تدل على ذلك.. فقد كان رسول الله ﷺ كأحدهم، فلم يكن يتميز عليهم بشيء.. قال بعضهم يصفه:(والله ما كان رسول الله تغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يغدى عليه بالجفان، ولا يراح بها عليه، ولكنه كان بارزا، من أراد أن يلقى نبى الله لقيه، كان يجلس على الأرض، ويطعم ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف خلفه، ويلعق يده)(4)

وقد أشفق الصحابة على رسول الله مما يصيبه من تلك المخالطة، فطلبوا منه أن يتخذوا له محلا خاصا، فأبى، ففي الحديث: قال العباس : يا رسول الله إني أراهم قد آذوك، وآذاك غبارهم، فلو اتخذت عريشا تكلمهم فيه، فقال رسول الله :(لا أزال بين

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه أحمد والطبراني.

3) رواه الطبراني في مكارم الأخلاق.

4) رواه أحمد في الزهد، وابن عساكر.

أظهرهم يطئون عقبى وينازعوني ثوبي، ويؤذيني غبارهم، حتى يكون الله هو الذي يرحمني منهم)(1)

قلت: فمخالطة المعلم لتلاميذه هي ما تريده بالتأليف.

قال: أجل.. فالمعلم الذي يخالط تلاميذه، ويتخذهم أصحابا يفيدهم أكثر بكثير من ذلك الذي يستعلي عليهم.

قال بعض الطلبة: ولكن بعض المعلمين يـرى أن في ذلـك سـقوطا لحرمـة الأسـتاذ.. فلذلك يفرض من السنن ما يملأ مجلس العلم هيبة من أستاذه.

قال: لا يمكن أن ينجح المعلم إلا إذا فـرض هيبتـه على تلاميـذه.. ولكن هـذه الهيبـة لا تعني الكبر.. ولا تعني كل ما يفرضه الكبر من سنن..

لقد قال أنس بن مالك : (ما كان شـخص أحب إليهم من رسـول اللـه ﷺ، وكـانوا إذا رأوه لم يقوموا له، لما يعلمون من كراهيته لذلك)(2)، بل إن رسول الله ﷺ قال:(من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار)(3)

قلت: فهل سن رسول الله ﷺ سننا غير هذا لتحقيق الألفة؟

قال: كثيرة هي تلك السنن التي تؤلف القلوب:

منها بذل السلام.. كما قال رسول الله ﷺ:(إذا لقي أحدكم أخـاه فليسـلم عليـه، فـإن حالت بينهما شجرة، أو جدار، أو حجر ثم لقيه، فليسلم عليه)(4)، وقال ﷺ:(لا تدخلوا الجنـة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حـتى تحـابوا، أو لا أدلكم على شـيء إذا فعلتمـوه تحـاببتم؟ أفشـوا السلام بينكم)(5).. انظروا كيف اعتبر رسول الله ﷺ بذل السلام سببا للمحبة وواسطة لها.

ومنها بذل المكافآت المختلفة للمتعلم، ليبعثه ذلك على المزيد من النشاط..

قاطعته قائلا: ألا يقدح ذلك في الإخلاص؟

قال: الإخلاص أرفع وأقدس من أن يقدح فيه مثل هذا.. ألم تسمع قولـه ﷺ في مثـل هذا:(تلك عاجل بشرى المؤمن)(6)

---

1) رواه ابن إسحاق الزجاجي في تاريخه.

2) رواه الترمذي في كتاب الأدب وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

3) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

4) رواه أبو داود.

5) رواه مسلم وأبو داود في الأدب وابن ماجه.

6) رواه أحمد ومسلم وابن ماجة.

قلت: إن من قومنا من يقدمون مكافآت مادية للمتفوقين؟

قال: لقد فعل ذلك رسول الله ﷺ.. فعن عبد الله بن الحارث قال: كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثيراً من بني العباس ثم يقول: (من سبق إلي فله كذا وكذا)، قال: فيستبقون إليه، فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلزمهم[1].

ولكن رسول الله ﷺ ـ فوق هذا ـ كان يهديهم من المكافآت ما لا يمكن أن يقدر بثمن.

قلنا: وما هو؟

قال: الدعوة الصالحة.. ألم يقل رسول الله ﷺ:(أما إن العبد إذا قال لأخيه المسلم: جزاك الله خيرا فقد بالغ في الدعاء)[2]

التزكية:

قلنا: عرفنا السادسة .. فما السابعة ؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران:164)

قلنا: إن هذه الآية تتحدث عن وظائف الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ

قال: وهي تتحدث عن وظائف ورثتهم من بعدهم.

قلنا: فما هي الثامنة منها؟

قال: هي التزكية.. فالعالم هو الذي لا يكتفي بتثقيف عقلك.. بل يضيف إلى ذلك، أو يقدم لذلك تثقيف نفسك وروحك وعقلك.

قلت: تقصد الجمع بين التعليم والتربية؟

قال: أجل.. فالعلم جواهر كريمة، ولا ينبغي للجواهر الكريمة أن توضع على القمامات.

قلنا: فاذكر لنا أمثلة من السنة تدل على ذلك.

قال: كل السنة تدل على ذلك.. وإن شئتم مثالا مقربا.. فإليكم ما حدث به ابن عباس تلميذ رسول الله ﷺ.. فقد حدث أن رسول الله ﷺ قال له واعظا:(يا غلام إني أعلمك

---

1) رواه أحمد.

2) رواه ابن عساكر.

كلمات: احفظ اللّه يحفظك، احفظ اللّه تجده تجاهك، إذا سألت فسأل اللّه، وإذا استعنت فاستعَنْ باللّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت عَلَى أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّه لك، وإن اجتمعوا عَلَى أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)(1)، وفي رواية:(احفظ اللّه تجده أمامك، تعرف إلَى اللّه في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا)

المعارف

ذاك هو الرجل الأول.. وتلك بعض أحاديثي معه.. أما الرجل الثاني، فقد كان اسمه هو الآخر (محمد الأمين).. وكان الناس يفرقون بين الأول والثاني بتلقيب الثاني بـ (المرابط)، لانشغاله التام بجميع أنواع المعارف والعلوم، فلا تكاد تذكر أمامه علما، إلا وجدت عنده منه حظا وفهما وخبرة.

ولم يحصل لي التشرف بصحبته إلا بعد أن مكثت مدة في محضرة الآداب، أتلقى من آدابها بعض ما ذكرته لك.. مما ملأني يقينا بأن ما تركه محمد ﷺ من هدي في هذا الباب لا يمكن أن يلحقه فيه أحد من أهل الدينا أو من أهل الدين.. وعلمت علم اليقين أن البشرية لو تمسكت بهديه في هذا الباب وحده لتحول العلم شمسا من شموس الهداية، ونورا من أنوار السلام.

في بداية صحبتي له دخلت محضرته.. وكانت محضرة مختلفة تماما عن محضرة الآداب التي كنت فيها.. فلم تكن محضرة عامرة بالطلبة، وإنما كانت محضرة عامرة بالكتب والمخطوطات.. بل فوق ذلك رأيت فيها مرقبا فلكيا متطورا.. ومجموعة كبيرة من المجاهر المتطورة.. بل فوق ذلك رأيت في بعض أقسامها مخابر لا تختلف عن المخابر الحديثة.

بعد أن امتلأت دهشة بكل هذا.. اقتربت من المرابط.. ولم أكن حينها أعرفه.. وقلت: ما هذا؟.. أهذه محضرة للعلم؟

قال: أجل.. ولكن دخولها مشروط بالمرور على محضرة أخي وسميي محمد الأمين.

قلت: لقد تخرجت على يده.. فمن أنت؟

قال: أنا الوارث الثاني الذي تتعلم على يديه أن محمدا ﷺ لم يكن يعلم الآداب فقط، بل كان يعطينا أصول العلوم، وأسسها، ومناهجها، وأصنافها..

وعلى يديه ستعلم أن كل ما تراه في العالم من أنواع المعارف والعلوم معارف شرعية لا يتمثل بسنة النبي ﷺ في كمالها إلا من بحث فيها، ولم تحل بينه وبينها الحوائل.

قلت: إن هناك من يختصر العلوم فيما ورد في النصوص المقدسة أو ما ورد في تفسيرها.

(1) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

قال: صدق من قال هذا..

قلت: فكيف يستقيم ما ذكرت مع ما ذكر؟

قال: لا يستقيم ما ذكر إلا بما ذكرت.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32) (عبس)

قلت: بلى.. فما قال فيها ابن عباس ومجاهد؟

قال: إن هذه الآية لن نسأل فيها ابن عباس ولا مجاهدا.. بل نسأل فيها علماء التغذية، وعلماء الأرض.. وغيرهم من العلماء الذي نظروا ودققوا، فرأوا ما لم نر، وسمعوا ما لم نسمع.

قلت: أتقصد أن علوم التغذية وعلوم الأرض علوم شرعية بهذا الاستدلال؟

قال: أجل.. ألم يأمرنا الله بالنظر.. أليس قوله: انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ (الأنعام: 99)، وقوله: انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (يونس: 101) تشبه قوله تعالى: وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (البقرة:43)؟

قلت: بلى.. فكلاهما فعل أمر.

قال: فكيف نفرق بين أحدهما فنعتبره واجبا، ونغرق كتب الفقه بمباحثه وعلومه، ثم نقصر في الواجب الثاني، ولا نهتم به، بل ولا نعتبره، بل يسقط بعضنا في أوحال البدعة، فيتهم تلك العلوم التي دعا القرآن الكريم، ودعا نبينا ﷺ إلى تعلمها، فيعتبرها علوما بعيدة عن الدين أو حاجبة عنه؟

قلت: ولكن التخصص مع ذلك يدعو إلى أن تكون هناك علوم دين وعلوم دنيا؟

قال: ليس هناك مقابلة بين الدين والدنيا عندنا.. فالدين عندنا هو سياسة الدنيا.. ولا دنيا عندنا إن لم تسس بسياسة الدين.

قلت: فما تسمي هذه العلوم الكثيرة التي يعتبرها البعض مزاحمة لعلوم الدين؟

قال: هي ثلاثة لا تخرج عنها: حقائق، وسياسات، وصنائع.

الحقائق:

قلت: فما الحقائق؟

قال: الحقائق هي العلوم التي لا تكر عليها جيوش الشبهة والشك، ولا تهزمها جيوش الأيام والليالي.

قلت: تقصد قطعيتها وأبديتها؟

قال: أجل.. فلا علم لما لم يثبت في وجه الأيام، أو لم يثبت في وجه الشبهات.

قلت: فما العلوم التي تدخل في هذا الباب؟

قال: كل العلوم التي لا يستفاد منها إلا معرفة حقائقها.

قلت: مثل ماذا؟

قال: الفلك مثلا.. فكل ما ورد في علم الفلك هو من علوم الحقائق.. وهو تطبيق لقوله تعالى: قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (يونس:101)

قلت: فما علاقة هذا النوع من العلوم بالدين؟

قال: لا يمكن أن يتحقق المؤمن بمعارف الدين إلا بعد أن يتحقق في هذه العلوم ويرسخ قدمه فيها.

قلت: قرب لي ذلك بمثال.. فإن عقلي تستعصى عليه الحقائق المجردة.

قال: أرأيت لو أن ملكا من الملوك أراد أن يبين لشخص ما أنه ملك، فماذا يفعل؟

قلت: لا شك أنه سيأمر بمن يطوف به في أنحاء البلاد ليرى مدى اتساع مملكة الملك، ومدى خضوعها لملكها.

قال: فنزه عقلك عن شبه التشبيه.. واربط هذا المثل بحقائق الأزل والأبد.. فإنه لن تعرف أن الله ملك إلا بالطواف في مملكته.. فكلما رسخت معرفتك بعظم مملكة الله كلما رسخ في نفسك عظم كون الله ملكا.

قلت: صدقت في هذا.. فإني أرى لبعضهم معرفة هزيلة بالكون.. وأرى معها هزالا في معرفة هؤلاء بالله..

قال: ولهذا قال الله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (فاطر:28)

انظر.. كيف ذكر الله تعالى خشية العلماء بعد ذكره لأصناف المكونات.. فلا يعظم الله حق تعظيمه من لا يعرف المكونات ويبحث فيها ويمتلئ عجبا بما فيها.

قلت: صحيح ذلك.. وليس ذلك خاصا بهذا.. فلا يمكن أن نعرف شاعرا ما لم ندرس أشعاره، ولا رساما دون أن ندقق في لوحاته، ولا ممثلا دون أن نرى ما أبدعه في

تمثيلياته.. وهكذا فكل شيء يعرف من خلال آثاره.

قال: ولهذا طولبنا بالتعرف على الآثار لنصل إلى المؤثر.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم:50)؟

قلت: بلى..

قال: فالله تعالى اعتبر نظرنا في الكون نظرا في أفعال الله الدالة على صفاته.. فنقرأ من خلال الكون صفات المكون، ونتعرف على المكون من خلال مكوناته.

قال: وهكذا.. فالله تعالى يأمرنا بقراءة الرحمة الإلهية من خلال حياة الأرض بعد موتها، قال تعالى:﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم: 50)

ويأمرنا بالاستبشار تفاؤلا بفضل الله، وفرحا بالله، وتنسما لرحمة الله عند هبوب الرياح التي يرسلها الله، قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (لأعراف:57)

ويعلمنا أن نقرأ لطف الله وخبرته المحيطة بكل شي من خلال حروف الماء الساقطة على الأرض المخضرة، قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (الحج:63)

ويعلمنا أن نقرأ علم الله وقدرته من خلال السطور المبثوثة في تقلب الزمان بأعمارنا، قال:﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (النحل:70)

قلت: فأنتم إذن ـ في هذه المحضرة ـ تدرسون العلوم الحديثة؟

قال: غرور البشر هو الذي سماها كذلك.. أما نحن فلا نسميها علوما حديثة، بل نسميها علوم الحقائق.. فكل علم منها يدلنا على حقائق الأزل والأبد.

قلت: عهدنا بأن من يدرس هذه العلوم يمتلئ قسوة.. ألا تخافون من القسوة؟

ابتسم، وقال: من درس هذه المعارف على طريقة أهل الله، فإنه لن يزداد إلا خشوعا وإيمانا وسعادة..

قلت: كيف ذلك؟

قال: إن النظرة العرفانية لسطور المكونات تكسبها من الجمال ما لا يكسبها أي وصف بشري، فلا مقارنة بين من يرى ذات الزهرة التي سرعان ما تذبل، فيحزن لذبولها بقدر ما سره تفتحها، وبين من يرى في ابتسام الزهرة لطف الله ورحمته وجماله.

السياسات:

قلت: حدثتني عن علوم الحقائق.. فحدثني عن علوم السياسات.

قال: علوم السياسات هي التي تفقهك في كيفية سياسة الدين، وكيفية سياسة الدنيا.. أو هي التي تعلمك كيف تسوس جسدك ونفسك وعقلك وقلبك وروحك وسرك وكل لطائفك.. ثم كيف تسوس بعد ذلك بيتك ومجتمعك ووطنك وأمتك والعالم أجمع..

قلت: إن أكثر العلوم يدخل في هذا الباب.

قال: نعم.. فنحن هنا ندرس علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم السياسة والعلوم الطبية.. وكل العلوم التي تهتم بالسياسات المختلفة.

قلت: ما ارتبط منها بالدين، وما ارتبط بالدنيا.

قال: ألم أذكر لك أنه ليس هناك دين ولا دنيا إلا في أذهان الغافلين.. فجل رب الدنيا أن يسلم دنياه للشياطين.. وجل أهل الله أن يروا في الدارين غير الله.

قلت: ألا تخافون بالانحجاب بالدراسات الاجتماعية والنفسية عن الله؟

قال: لا حجاب إلا حجاب الوهم.. وقد تخلصنا منه بحمد الله بتحقيق الإيمان.. ولذلك لا تزيدنا هذه العلوم إلا تحقيقا وعروجا.

لقد قال لنا شيخنا بديع الزمان إبان دراستنا عليه:(العلوم التي تبحث في حقيقة الموجودات - كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان.. ـ هذه العلوم التي هي (حكمة الاشياء) يمكن ان تكون حكمة حقيقية بمشاهدة التجليات الكبرى لاسم الله (الحكيم) جل جلاله في الاشياء، وهي تجليات تدبير، وتربية، ورعاية. وبرؤية هذه التجليات في منافع الاشياء ومصالحها تصبح تلك الحكمة حكمة حقاً، أي باستنادها الى ذلك الاسم (الحكيم) والى ذلك الظهير تصبح حكمة فعلاً، وإلاّ فإما أنها تنقلب الى خرافات وتصبح عبثاً لا طائل من ورائها أو تفتح سبيلاً الى الضلالة، كما هو الحال في الفلسفة الطبيعية المادية..)

ويذكر علة مهمة لذلك غابت عن العلوم الحديثة، فأغرقتها في الجزئية، وأبعدتها عن جمال الوحدة والتناسق والكمال، فقال:(إن نظر النبوة والتوحيد والايمان يرى الحقائق في نور الالوهية والآخرة ووحدة الكون لأنه متوجه اليها، أما العلم التجريبي والفلسفة الحديثة فانه يرى الامور من زاوية الاسباب المادية الكثيرة والطبيعة لأنه متوجه اليها، فالمسافة اذن بين زاويتي النظر بعيدة جداً. فرب غاية عظيمة جليلة لدى أهل الفلسفة تافهة وصغيرة لا تكاد ترى بين مقاصد علماء اصول الدين وعلم الكلام. ولهذا فقد تقدم اهل العلم التجريبي كثيراً في معرفة خواص الموجودات وتفاصيلها واوصافها الدقيقة في حين تخلفوا كثيراً حتى عن ابسط المؤمنين وأقلهم علماً في مجال العلم الحقيقي وهو العلوم الإلهية السامية والمعارف الاخروية)

الصناعات:

قلت: فما علوم الصناعات؟

قال: هي كل العلوم التي نستطيع بها تسخير ما سخره الله لنا من أشياء.. فقد جعل الله تعالى للتسخير مفاتيح لا يمكن أن يسخر شيء من دونها.

قلت: فما هذه المفاتيح؟

قال: لقد ذكرها الله تعالى، وذكر ضرورتها للإنسان، فقال: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (البقرة:31)

قلت: أعلوم الأسماء هي علوم الصنائع؟

قال: من علوم الأسماء ما هو علوم صنائع.. فلا يمكن للإنسان أن ينزل إلى الأرض من دون أن تكون لديه مفاتيح التعامل مع برها وبحرها، وريحها ورياحها.

قلت: أفي القرآن الكريم إشارة إلى هذا النوع من العلوم؟

قال: في القرآن الكريم جميع حقائق الأشياء.. فكيف يغيب عنه هذا؟

قلت: فأين هو؟

قال: في كل القرآن.. كل الآية لو نظرت إليها بهذا المنظار، فتستفيد منها من الحقائق ما لم تكن تحلم به.

قلت: فاذكر لي ما ورد به التصريح.. فلا طاقة لي بالتلميح والإشارة.

قال: لقد قال تعالى عن ذي القرنين: إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (الكهف:84)

قلت: إن من قومي من يحتقرون هذه العلوم، ويعتبرون الخوض فيها انحرافا عن الكتاب والسنة.

ابتسم، وقال: سلاما.. سلاما..

قلت: ما تعني؟

قال: لقد قال الله تعالى واصفا عباده المؤمنين المحققين: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً (الفرقان:63)

قلت: أترميني بالجهل؟

قال: أرمي من قلت بقوله بالجهل.. والعالم أن رفع من أن يجيب جاهلا.

قلت: العالم لا يتكبر.. فكيف لا يجيب الجاهل؟

قال: الجهل نوعان: جهل سببه عدم العلم.. وهذا هو ميدان العـالم.. فالعـالم محـارب للجهل.. وجهل سببه الكبر.. ولا دواء لهذا إلا أن يتخلص من كبره.

قلت: فما جهل هؤلاء؟

قال: هو جهل كبر.. لا جهـل علم.. لقـد كـان أهـل الجاهليـة يحتقـرون هـذا النـوع من العلوم، فلذلك لم يكن يمارسها عندهم إلا العبيد، فلمـا جـاء القـرآن الكـريم أخـبر أن هـذه الصناعات كان يمارسها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ليعلي من شأنها، ويرفع ذلك الاحتقار الذي ورثه هؤلاء عن أولئك.

قلت: صدقت.. فقد ذكر القرآن الكريم صناعة الحديد، ونوه بها، وذكر اشتغال الأنبيـاء والصالحين بها، فقال تعالى: آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (الكهف:96)،ـ وقـال تعـالى: وَلَقَـدْ آتَيْنَـا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (سـبأ:10)، بـل قـرن بـإنزال الحديـد إنـزال الكتاب، فقالتعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَـا مَعَهُمُ الْكِتَـابَ وَالْمِـيزَانَ لِيَقُـومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحديد:25)

قال: ومثل ذلك ذكر الصناعات النسيجية وأنواعها وأغراضاها، فقال تعالى: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَـوْمَ إِقَـامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ (النحل:80)

وذكر ما يرتبط بـالعمران من أعمـال، فقـال تعـالى: وَبَـوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِـذُونَ مِنْ سُـهُولِهَا قُصُـوراً وَتَنْحِتُـونَ الْجِبَـالَ بُيُوتـاً فَـاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَـوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِـدِينَ (لأعراف: 74)

وذكر الصناعات المرتبطة بالنقـل، فقـال تعـالى: وَالْخَيْـلَ وَالْبِغَـالَ وَالْحَمِـيرَ لِتَرْكَبُوهَـا وَزِينَـةً وَيَخْلُـقُ مَـا لا تَعْلَمُـونَ (النحـل:8)، وقـال تعـالى: وَاصْـنَعِ الْفُلْـكَ بِأَعْيُنِنَـا وَوَحْيِنَـا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (هـود:37)، وقـال تعـالى: وَعَلَيْهَـا وَعَلَى الْفُلْـكِ تُحْمَلُونَ (المؤمنون:22)

بل إن القرآن الكريم دعانا إلى بذل كل الجهود لتحصيل جميـع أنـواع القـوى، ويـدخل فيها هذا النوع من أنواع القـوى، قـوة الصـناعة والسياسـة، فقـال تعـالى: وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَـا

اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (لأنفال: 60)

***

التفت صاحبي إلى، وقال: هذه بعض حكايتي مع ورثة النبي المعلم.

قلت: إن هؤلاء ورثة عظماء.

قال: ولم يكونوا عظماء لولا استنانهم بسنة نبيهم ﷺ.. لقد كان رسول الله ﷺ هو معلمهم ومؤدبهم وحادي أرواحهم، ومثقف عقولهم.

قلت: صدقت في ذلك.. فلا أراهم يفعلون شيئا إلا الاهتداء بهديه، والسير على قدمه.

قال: ولذلك بورك لهم في علمهم.. فصار علمهم كأقواتهم.. يتناولون منه كما يتناولون منها.

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة الرابعة من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب.. ولم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تنزلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

خامسا ـ القدوة

قلت: فحدثني عن رحلتك الخامسة.

قال: بعد أن خرجت من (شنقيط) قصدت بلدة من بلاد الجزائر العريقة يقال لها (غرداية).. وفيها التقيت حامل (مشعل القدوة) من مشاعل الهداية النبوية.. وفيها تعرفت على (النبي القدوة).. سأقص عليك القصة من البداية:

كنت أسير في تلك المدينة.. أقلب الطرف في متاجرها، معجبا بتناسقها ونظامها وسلامها.. وأمام أقدم مسجد من مساجدها العتيقة التقيت رجلا كان الناس يطلقون عليه لقب الشيخ أطفيش[1].. لم يكن يتكلم كثيرا.. ولكني مع ذلك رأيت له من التأثير في ذلك المجتمع المحافظ ما لم أر لأفصح الخطباء.

قلت له: من أنت.. لكأني بك أحد الذين قصدهم (معلم الهداية)؟

قال: أنا الذي أنطق من غير لسان.. ولكني إذا نطقت خرس كل لسان.

قلت: فأنت الذي يحمل المشعل الخامس من مشاعل الهداية النبوية؟

قال: إن كان القدوة هو الذي يحمل هذا المشعل.. فأنا ذلك الرجل.

قلت: فـ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ (الكهف: 66)

قال:﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ (الكهف: 67)

قلت:﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ (الكهف: 69)

قال: فسر معي، ولا تحدثني إلا إذا أذنت لك.

سرت معه طيلة ذلك اليوم، وطيلة أيام كثيرة.. وقد رأيت من أمره من العجب ما ملأني مهابة منه..

لقد اجتمعت في شخصه جميع الكمالات.. فقد كان عارفا عابدا ورعا زاهدا عالما يملك شخصية الإمام والقائد والمعلم من غير أن ينبس في كل ذلك ببنت شفة.

وقد أثار في نفسي من التساؤلات ما وددت أن يأذن لي معه بالكلام، ولكنه لم يفعل، ولولا أني ذكرت قصة موسى ﵇، وما حصل بسبب كلامه من فراقه للخضر ﵇ لكنت ملأته بالأسئلة، وبالجدل.

---

1) أشير به إلى العلامة الكبير محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح أطفيش الإباضي (1236 ـ 1332هـ، 1820-1913م)، الملقب بقطب الأئمة.. ولد في جنوب الجزائر، وطلب العلم منذ صغره ونبغ فيه فاشتغل بالتدريس والتأليف في بدايات شبابه حتى قيل إن مؤلفاته بلغت ثلاثمائة مؤلف، على الرغم من مشاركته في قضايا عصره، من مؤلفاته الكثيرة، ثلاثة كتب في التَّفسير أشهرها (هميان الزاد إلى دار المعاد) في ثلاثة عشر مجلدًا، والهميان هو الوعاء الذي يضع فيه المسافر زاده. وهو كتاب كبير الحجم..

بعد فترة طويلة من صحبتي له، وبعد ما عرف مني حرصي على التعرف على سر ذلك التأثير العظيم الذي أحدثه في مجتمعه، وفي غير مجتمعه أذن لي في الكلام، فلم أجد إلا أن أسأله عن سر ذلك التأثير الذي جمع بين القوة والصمت، فقلت: يا إمام.. لقد عهدنا الأئمة أصحاب ألسنة، فكيف قعد بك لسانك دونهم؟

قال: لم يقعد بي لساني.. فأنا ــ بحمد الله ــ سليم معافى.. ولكني رأيت الناس وخبرتهم، وعلمت أنهم يوظفون أبصارهم أكثر مما يوظفون آذانهم.. فلذلك رحت أملأ أبصارهم بما يقربهم من ربهم.

قلت: ولكن سنة نبينا ﷺ تحثنا على الكلام.

قال: وهي تحثنا على الفعال قبل أن تحثنا على الكلام.. بل قد تكتفي بالفعال عن الأقوال.. ألم تسمع قوله ﷺ:(صلوا كما رأيتموني أصلى)(1)

قلت: بلى.. وسمعت معها قوله ﷺ:(لتأخذوا عني مناسككم، فاني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه)(2)

قال: فالنبي ﷺ دعا أصحابه إلى التأسي بأفعاله.. فدعا إلى أن يصلوا كصلاته، ويصوموا كصومه، ويحجوا كحجه.

قلت: ولكن الناس اختلفوا.

قال: اختلفوا في الأواني.. ولم يختلفوا في المعاني.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد كان النبي ﷺ يوسع على أمته في أفعال الجوارح، فيؤدي العمل الواحد في صور مختلفة.

قلت: هذه الأواني.. فما المعاني؟

قال: الحقائق التي من أجلها تتحرك الجوارح.. ألا ترى أن الجوارح لا تتحرك في كل ذلك إلا لمرضاة الله خشوعا لله، وخضوعا له؟

قلت: بلى.. ولم أر من يخالف في ذلك.

قال: فهذا هو القدوة الذي يملأ الحياة بالإيمان وبحقائق الإيمان.. إنه لا يشغل الناس بالحركات، بل يشغلهم بما تعنيه الحركات.

قلت: أنا رجل رحل من بلاد بعيدة طلبا لمناهج الهدي.. ولا أريد منك إلا تفصيلا يؤكد

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مسلم.

لي هذا حتى أعلم أنه منهج نبوي صحيح.. فما أخطر البدعة في مثل هذه السبيل.

قال: لقد كان رسول الله ﷺ هو القدوة الأول في كل أموره..

لقد كان العابد الأول الذي جعل من الصلاة قرة عينه، فكان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، ويبكي حتى تبلل دموعه لحيته.

وكان يديم الصيام حتى يظن من حوله أنه سيصوم الدهر كله، وأحيانا يواصل الليل بالنهار في الصيام، فيمضي يومين أو أكثر لا يتناول طعاما، بعد الغروب، وهو ما نهى عنه أصحابه ولهذا قالوا له: أتنهانا عن الوصال وتواصل؟ فقال:(وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني)(1)

وكان دائم الذكر لله تعالى في كل أحواله، وعلى كل أحيانه، بقلبه ولسانه.

ومع ذلك كله كان دائم الخشية له سبحانه، كثير الاستغفار، كثير التوبة، وهذا من كمال عبوديته، وعظم مقام الألوهية عنده، وفي هذا كان يقول:(إنه ليغان على قلبي، وإني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة)(2)، وكان يقول:(يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إلى الله عز وجل في اليوم مائة مرة)(3)

وكان مع هذا أزهد الناس في الدنيا، وأرضاهم باليسير منها، مع ما فتح الله له من الفتوح، وأفاء عليه من الغنائم، ولكنه لقي ربه ولم يشبع من خبر الشعير ثلاثة أيام متوالية، وكان الشهر يمر تلو الشهر ولا يوقد في بيته نار، إنما عيشه على الأسودين: التمر والماء.. وكان ينام على الحصير حتى يؤثر في جنبيه.. ورآه عمر بن الخطاب يوما كذلك، فبكى توجعا له وإشفاقا عليه، واقترح عليه بعضهم أن يهيئوا له فراشا ألين من هذا، فقال لهم:(ما لي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها)(4)

وكان ﷺ مع ذلك كله يعيش في حياته قمة التوازن(5):

فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف، احتج به العلماء على مثل ما احتج به أولئك.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه أحمد ومسلم والنسائي وابو داود.

3) رواه ابن ماجة وابن السني.

4) رواه أحمد والحاكم.

5) عدة الصابرين:229.

وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم، احتج بـه الـداخلون في الـدنيا والولاية، وسياسة الرعية، لإقامة دين الله، وتنفيذ أمره.

وإذا احتج به الفقير الصابر، احتج به الغني الشاكر.

وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها، احتج بـه العـارفون على فضل المعرفة.

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم، احتج بـه أربـاب العـز والقهـر للمبطلين والغلظـة عليه والبطش بهم.

وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانـة، احتج بـه أربـاب الخلـق الحسـن والمـزاح المباح الذي لا يخرج عن الحق، وحسن العشرة للأهل والأصحاب.

وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به في المشهد والمغيب، احتج به أصـحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه في وجهه.

وإذا احتج به المتورعون على الورع المحمود، احتج به الميسرون المسهلون الـذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها.

وإذا احتج به من صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه، احتج بـه من راعى إصـلاح بدنـه ومعيشته ودنياه، فإنه بعث لصلاح الدنيا والدين.

وإذا احتج به من لم يعلـق قلبـه بالأسـباب ولا ركن إليهـا، احتج بـه من قـام بالأسـباب ووضعها مواضعها وأعطاها حقها.

وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع، احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع.

وإذا احتج بـه من أخـذ بـالعفو والصـفح والاحتمـال، احتج بـه من انتقم في مواضـع الانتقام.

وإذا احتج به من أعطى لله ووالي الله، احتج به من منع لله وعادى لله.

وإذا احتج به من لم يدخر شيئا لغد، احتج به من يدخر لأهله قوت سنة.

وإذا احتج به من يأكل الخشن من القـوت والأدم كخـبز الشـعير والخـل، احتج بـه من يأكل اللذيذ الطيب كالشوي والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه.

وإذا احتج به من سرد الصوم، احتج به من سـرد الفطـر، فكـان يصـوم حـتى يقـال لا يفطر، ويفطر حتى يقال لا يصوم.

وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه، احتج به من باشرها بنفسه فآجر واستأجر، وباع واشترى، واستسلف وأدان ورهن.

وإذا احتج به من رحم أهل المعاصي بالقدر، احتج به من أقام عليهم حدود الله فقطع السارق وجلد الشارب.

وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر، احتج به من أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة، فإنه حبس في تهمة وعاقب في تهمة.

ولذلك كله استطاع ﷺ أن يؤثر في نفوس أصحابه ويحتويها ليعجنها بما يرضي الله، ويبلغها كمالها المستطاع.

قلت: وعيت كل هذا.. فما سره؟.. وما سر تلك النصوص الكثيرة التي تحدث عن كل حركة من حركاته ﷺ؟

قال: سرها هو أن النبي ﷺ كان يعيش معهم كواحد منهم.. فلم يكن في حياته يتميز بشيء عنهم.. لقد كان من سنته ﷺ مخالطة أصحابه ومشاركته في حياتهم الحلو منها والمر، وكان يربيهم خلال تلك المشاركة بفعله قبل أن يربيهم بقوله.

سأذكر لك هنا موقفا اعتاد العلماء نقله من باب إثبات المعجزات الحسية المتعلقة بتكثير الطعام، ولكني سأذكره هنا لنرى المعجزة التربوية في شخص رسول الله ﷺ، فالرسول ﷺ هومعجزة الحديث لا كثرة الطعام:

فعن جابر قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة، فجاءوا النبى ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت فى الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبى ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل (أو أهيم) فقلت: (يا رسول الله إئذن لى إلى البيت)، فقلت لامرأتى:(رأيت بالنبى ﷺ شيئاً ما كان لى فى ذلك صبر، فعندك شىء؟)، قالت:(عندى شعير وعناق)، فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة، ثم جئت النبى ﷺ و العجين قد انكسر و البرمة بين الأثافى قد كادت أن تنضج، فقلت:(طعيّم لى فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان)، قال:(كم هو؟) فذكرت له، قال:(كثير طيب، فقل لها لا تنزع البرمة و لا الخبز من التنور حتى آتى)، ثم نادى المهاجرين و الأنصار فقال لهم:(يا أهل الخندق، إن جابر قد صنع سوراً فحىّ هلا بكم)، فلما دخل جابر على امرأته قال:(ويحك جاء النبى ﷺ بالمهاجرين و الأنصار ومن معهم) قالت:(هل سألك كم طعامك؟) قال (نعم)، قالت:(الله ورسوله أعلم)

ثم جاء النبى ﷺ فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم

ويخمّر البرمة و التنور إذا أخذ منه شىء، ويقـرب الى أصـحابه، ثم يـنزع، فلم يـزل يكسـر الخبز ويغرف حتى شـبعوا وبقى بقيـة، قـال:(كلى هـذا واهـدى، فـإن النـاس قـد أصـابتهم مجاعة)(1)، وفى رواية:(فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوا وانصرفوا، وإن برمتنا لتغط كمـا هى، وإن عجيننا ليخبز كما هو)

فالنبي ﷺ يعصب الحجر على بطنه من الجوع، وعنـدما يـدعى إلى الطعـام يـأبى أن يأكل والناس جائعون، وعندما يحضر مجلس الطعام لا يتصدر المجلس، وإنما يقـوم يكسـر الخبز ويجعل عليـه اللحم ويخمّـر البرمـة و التنـور، ويقـرب إلى أصـحابه، ثم يـنزع، إلى أن اطمأن إلى شبعهم.

هذا هو القدوة الذي يبذل من التضحية ما يكسب به ثقة أتباعه ويحتويهم احتـواء تامـا ويصعد بهم إلى أرفع درجات التربية.

قلت: وعيت هذا.. فما تأثير ذلك كله في أصحابه.. إن المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله هو المنهج المؤثر.. فهل كان هذا المنهج مؤثرا؟

قال: لقد كان تأثيره أعظم من كل تأثير.. لقد كانت مشاركة ﷺ للصحابة أكـبر حـافز لهم على تلك التضحيات التي قدموها، وقد كانوا يقولون عندما يرون جهد الرسول ﷺ:

لئن قعدنا والنبي يعمل   لذاك منا العمل المضلل

وهذه المشـاركات كـانت فرصـة عظيمـة لـه ﷺ لتربيـة أصـحابه وتـوجيههم بالمقـال والفعال، فعن جابر قال: قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد: أرأيت إن قتلت فأين أنـا؟ قـال:(في الجنة) فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قتل.

وعن سهيل بن سعد قال: قـال النـبي ﷺ يـوم خيـبر:(لأعطين الرايـة غـداً رجلاً يفتح على يديه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله)، فبات النـاس ليلتهم أيهم يعطى، فغـدوا كلهم يرجوه، فقال:(أين علي؟)، فقيل: يشتكي عينيه، فبصق ﷺ في عينيـه ودعـا لـه فـبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه فقال:(أقاتلهم حـتى يكونـوا مثلنـا، فقـال:(انفـذ على رسـلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخـبرهم بمـا يجب عليهم ؛ فواللـه لأن يهـدي الله بك رجلاً خير لك من أن يكون لك حمر النعم)(2)

***

ما استتم صاحبي حديثه هـذا حـتى وجـدنا أنفسـنا قـد قطعنـا المرحلـة الخامسـة من

1) رواه البخارى.

2) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى.

الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب.. ولم يخطر على بالي طيلة هـذه المرحلـة مـا كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تنزلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتـديت بهـا بعـد ذلـك إلى شمس محمد ﷺ.

سادسا ـ المربي

قلت: فحدثني عن رحلتك السادسة.

قال: بعد خروجي من غرداية، سرت إلى بلدة أخرى من بلاد الجزائر العريقة يقال لها (تلمسان)، وما إن دخلتها وسرت على ثراها، حتى امتلأت نفسي بأشواق غريبة تريد أن ترفعني عن أجواء الأرض وتضاريسها لتضعني في أجواء أنقى، وتضاريس أطهر..

لست أدري سر ذلك التسامي الذي امتلأت به نفسي في تلك اللحظة، مع أن المدينة التي كنت أتجول في شوارعها كانت ممتلئة بالعمران والحضارة، سواء منها ما ورثته من القرون السالفة، أو ما بنته من إيحاء هذا القرن.. فلم يكن في ظاهرها ما يدعو إلى الزهد والتسامي.. بل كان ظاهرها يدعو إلى التثاقل إلى الأرض والانشغال بمتاعها.. وهذا ما ملأني بالغرابة..

لكن الغرابة سرعان ما زالت..

لقد كنت في ذلك الشارع المسمى (العباد).. وهو شارع من شوارع تلمسان الغارقة في القدم.. وهو يحوي ضريح الولي الصالح والمربي الكبير فخر تلمسان وشرفها (أبي مدين شعيب)[1]، أو ما يسميه الناس ـ كل الناس ـ في تلك المدينة (سيدي بومدين)

شد سمعي، وأنا أقطع ذلك الشارع، أصوات عذبة، وكأنها قادمة من القرون السالفة، بل من عهد أبي مدين نفسه.. كان الصوت يردد قصيدة أبي مدين التي يقول فيها:

الله قل وذر الوجود | **إن كنت مرتاداً بلوغ**
فالكــــل دون اللـــه إن | عـــدمٌ على التفصـــيل
من لا وجـود لذاتـه من | فوجـــوده لـــولاه عين

لست أدري هل كانت المعاني السامية التي تمتلئ بها هذه الأبيات.. أم كان ذلك الصوت الجميل الذي يعانق السماء.. أم كانت تلك الروحانية العميقة التي أصابتني في تلك المدينة.. لست أدري أي هؤلاء جذبني من حيث لا أشعر لأنضم إلى تلك الحلقة النورانية، فأشدو بما تشدوا، وأترنم بما تترنم؟

بعد أن انتهى الإنشاد، وعادت إلي نفسي، وعدت إلى الأرض، نظرت فيمن حولي، فوجدت سبعة كالكواكب يتوسطهم شمس رنت إليه أحداقهم، وهوت إلى كعبته قلوبهم.

نظر إلي أحدهم، وقال: أبشر.. فأنت الآن بين يدي سيدي أبي مدين..

---

1) أشير به إلى الولي الكبير أبي مدين شعيب بن حسين الأنصاري، أصله من (حصن قطنيانة) قرية تابعة لإشبيلية في الأندلس، هاجر إلى بجاية صغيراً، وعاش فيها، وتوفي في (العباد) في ضواحي تلمسان عام: (594هـ) وقيل قبل ذلك.

قلت: أتقصد ضريح أبي مدين؟

قال: لا.. أقصد وارث أبي مدين.. فهذه الشمس التي تراها أمامك هي شمسه.. فإن شئت أن تنعم بدفئها، ونورها، فعليك بصحبتها، فلا يمكن للكواكب أن تستنير بنور الشمس إلا إذا طافت بها، ولم تر غيرها.

قلت: لكن لي شمسي التي بها أطوف.. إن شمسي هو محمد رسول الله.. وأنا أستغني بشمسه عن كل شمس، وبأشعة نوره عن كل أشعة.

قال: كلنا نستمد من تلك الشمس.. ولكنا نحتاج إلى الورثة الذين نتعلم على أيديهم كيف نتأدب مع تلك الشمس التي لا يستفيد منها إلا من تأدب معها.. لقد كان سيدي أبو علي يقول:(من أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب)

قلت: أنا أبحث عن ورثة الهداية الذين ينشغلون بإصلاح الخلق.. ولو انشغلت بإصلاح نفسي لحاسبني ربي على تضييع أمة نبيه.

قال: وهل يمكن لأحد أن يصلح قبل أن يصلح؟.. إن كلمة واحدة من قلب ممتلئ بالأنوار لها من التأثير ما لا يعدله آلاف الخطب، وآلاف آلاف المواعظ.. لقد قال سيدي أبو العباس المرسي:(كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار، حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة، فتقبل من أحدهما، وترد على الآخر)

وعبر عن ذلك سيدي ابن عطاء الله في بعض حكمه، فقال:(كل كلام يبرز، وعليه كسوة القلب الذي منه برز)

قال آخر: لقد اتفق العارفون على أن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان.. واتفقوا على أن إنهاض الحال أكثر من إنهاض المقال.. وإذا اجتمع الحال والمقال فهو البحر الطام والنجم الثاقب التام.

قلت: لم أفهم الإذن.. الدعوة إلى الله واجب مطلقا.. فكيف تحتاج إلى إذن؟

قال أحدهم: ألم تسمع قوله تعالى في وصف رسول الله ﷺ:﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ (الأحزاب:46)؟

قلت: بلى..

قال: فهذه مرتبة من مراتب الدعوة إلى الله.. وهي أشرف المراتب وأعلاها.. ومن

تحققت له، فقد ظفر بالإكسير الأحمر الذي يحول به معادن من يصلحهم إلى جواهر كريمة لا تستطيع جميع أدناس الدنيا أن تنجسها.

قلت: لقد سمعت في فترة من فترات عمري بعض من يدعي هذا.. لكني صرفت عنه، وأنا أمتلئ ضحكا.. لقد رأيته ينصب الفاعل، ويرفع المفعول.. فقلت في نفسي: إن من لم يؤتمن على الفاعل والمفعول كيف يؤتمن على دين الله وعلى ما يدعيه.

قال أحدهم: العبرة عند أهل الله بالمعاني لا بالأواني..

قال آخر: لقد ذكرتني ببعض النحويين دخل مجلس الحسن بن سمعون ليسمع كلامه، فوجده يلحن، فانصرف ذاما له، فبلغ ذلك الحسن، فكتب يقول له:(إنك من كثرة الإعجاب رضيت بالوقوف دون الباب، فاعتمدت على ضبط أقوالك مع لحن أفعالك، وإنك قد تهت بين خفض ورفع ونصب وجزم، فانقطعت عن المقصود، هلا رفعت إلى الله جميع الحاجات، وخفضت كل المنكرات، وجزمت عن الشهوات، ونصبت بين عينيك الممات.. والله يا أخي ما يقال للعبد لم لم تكن معرباً؟ وإنما يقال له: لم كنت مذنباً.. ليس المراد فصاحة المقال، وإنما المراد فصاحة الفعال، ولو كان الفضل في فصاحة اللسان لكان سيدنا هارون أولى بالرسالة من سيدنا موسى حيث يقول:﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (القصص:34)

قلت: صحيح ما ذكرتموه.. ولكني مع ذلك أرى من يستغرق في عالم نفسه، فهو لا يخرج من خلوة حتى يدخل خلوة.. وليس له مع كل ذلك أي همة لإصلاح الأمة، ولا لتوجيهها.

نظر إلي أبو مدين بابتسامة، وكأنه أراد أن يقطع ذلك الحديث الذي كاد يتحول إلى جدل، وقال: كيف تركت إخواني من الشناقطة؟

تعجبت من سؤاله هذا.. لكني حاولت أن أستر تعجبي، وقلت: هم بأحسن حال.. تركتهم يبثون العلوم التي جاء بها رسول الله ﷺ ليشقوا بها حجب الظلمات، ويدكوا بها صروح الطغاة.

قال: فهل تعلمت من علومهم؟

قلت: أجل.. والحمد لله.. لقد رزقني الله من علومهم ما أرى أني بحاجة إليه.

قال: فأنت الآن تحتاج إلى تعلم أسرار التطهير والعروج.

قلت: ما التطهير.. وما العروج !؟

قال: تطهير أرض النفوس من الأدناس.. والعروج بالأرواح إلى قدس الأقداس.

قلت: فأنت سادس أصحابي إذن؟

قال: إن كان السادس هو المرشد المربي، فأنا ذلك..

قلت: فهل تأذن لي في صحبتك لأتعلم أسرار التربية والإرشاد؟

قال: ما كان للمرشد أن يمنع من قصده.

قلت: لكني سؤول لجوج في المسألة.. وأخاف أن يحصل لي ما قاله أهل هذا الشأن من أن من قال لشيخه:(لم؟) لا يفلح.

قال: هم لم يقصدوك بهذا.. إنما قصدوا المجادل الذي يقف به جدله عن الحق.. لقد قصدوا ما ورد في الحديث من أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: كل بيمينك. قال: لا أستطيع ! قال: لا استطعت ــ ما منعه إلا الكبر ــ قال: فما رفعها إلى فيه(1).

ويقصدون ما ورد في الحديث عن جابر بن عبدالله قال: أتى رجل بالجعرانة النبي ﷺ منصرفه من حنين وفى ثوب بلال فضة، ورسول الله ﷺ يقبض منها ويعطى الناس، فقال: يا محمد اعدل، قال:(ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل، لقد خبت وخسرت إذا لم أكن أعدل) (2)

قلت: عرفتك، ويشرفني أن أصحبك، وأن أتتلمذ على يديك.. فمن هؤلاء الذين أحاطوا بك كما تحيط الهالة بالشمس؟

قال: كل هؤلاء رجال من أهل الله.. عرفوا من حقائق السلوك وحقائق الوصول ما أهلهم لبذله لأهله الذين يطلبونه.

أشار إلى أحدهم، وقال: أما هذا، فاسمه الجنيد، وهو كجده أبي القاسم الجنيد بن محمد القواريري ذلك المربي بفنون العلم، المؤيد بعيون الحلم، المنور بخالص الإيقان وثابت الإيمان (3).

ثم أشار إلى الثاني، وقال: أما هذا، فشاه الكرماني، وهو كجده أبي الفوارس الكرماني شاه بن شجاع، ذلك الذي تعرى من الأغراض، تحرزاً من الأعراض، كان من أبناء

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ مختلفة.

3) هذه التعريفات التي نوردها في بداية ذكر أسماء هؤلاء الأولياء مقتبسة من كلام أبي نعيم في حلية الأولياء.

الملوك، وتشمر للسلوك، تخفف للاستباق، متحققاً بالاشتياق، كان ظريفاً في الفتوة، عريفاً في المروءة..

ثم أشار إلى الثالث، وقال: أما هذا، فأبو هاشم الزاهد، وهو كجده أبي هاشم كان إلى الحق وافداً، وعن الخلق حائداً، وفيما سوى الحق زاهداً.

ثم أشار إلى الرابع، وقال: أما هذا، فأحمد بن محمد بن عطاء، وقد كان كجده أبي العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، ذلك العامل الظريف والكامل النظيف، كان مودع القرآن شعاره، وظاهر البيان دثاره، له اللسان المبسوط والبيان بالحق مربوط..

ثم أشار إلى الخامس، وقال: أما هذا فرويم بن أحمد، وهو كجده أبي الحسن رويم بن أحمد.. ذاك الفطن المكين، له البيان والتبيين، والرأي المتين، كان بالقرآن عالما، وبالمعاني عارفا، وإلى الحقائق عاكفا، قلد بفصل الخطاب، ولم تؤثر فيه العلل والأسباب.

ثم أشار إلى السادس، وقال: أما هذا، فإبراهيم الخواص، وهو كجده أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الخواص.. ذاك المتبتل المتوكل، تبتل عن الخلق وتوكل على الحق، له في التوكل الحال المشهور والذكر المنشور.

ثم أشار إلى السابع، وقال: أما هذا فأبو يزيد البسطامي.. وهو كجده أبي يزيد.. ذلك التائه الوحيد، الهائم الفريد، الذي تاه فغاب، وهام فآب، غاب عن المحدودات إلى موجد المحسوسات والمعدومات، فارق الخلق، ووافق الحق.

قلت: هذه أسماء أعرفها.. ولكني كنت أظن أن البلى قد عضها بنابه، وأن السنين قد طوتها بجيوشها.

قال: لا تسئ ظنك بأمة نبيك.. فالخير فيه وفي أمته إلى يوم القيامة، ويستحيل أن يأتي يوم من الأيام ليس فيه من آثار نبيك ﷺ ما يجعله بين الناس حجة، وللناس إماما، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (لأنفال:33)؟

قلت: بلى.. وقد ذهب الأمان الأول، وبقي الثاني.

قال: بل كلاهما باق..

قلت: وهل محمد ﷺ حي؟

قال: هو حي الأحياء وسيدهم.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:154)، وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (آل عمران:169)؟

قلت: بلى.. لكن هذه في الشهداء.

قال: ومحمد ﷺ هو سيد الشهداء.. أليس الشهيد هو الذي بذل دمه وماله في سبيل الله؟

قلت: بلى..

قال: ومحمد ﷺ بذل كل شيء لله.. ألم تسمع قوله تعالى: قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الأنعام:162)؟

قلت: بلى.. ولكن ما ذكرته مقصور على حياة الآخرة؟

قال: ليس عند أهل الله دنيا ولا آخرة.. ولا وقت ولا مقت.. الكل عند أهل الله سواء.. حجبتهم حقائق الأزل والأبد عن الزمان والمكان.. فانطوى المكان والزمان.

قلت: أشعر ببعض لطائفي تتحرك لما ذكرته من المعاني.

قال: أبشر.. فأنت أهل للسلوك إذن.. فلا يقبل السالك عندنا حتى يكون مريدا راغبا.. ألا ترى أنا نسمي أصحابنا مريدين؟

قلت: بلى.. وأنا مستغرب من هذه التسمية متعجب منها.. بل رأيت البعض ينكرها.

قال: هل ينكرون قوله تعالى: وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنعام:52).. وقوله تعالى: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (الكهف:28)؟

قلت: كيف يتجرأ أحد على معارضة القرآن الكريم؟

قال: فما نذكره عن المريد لا نريد به إلا هذا.. فالمريد عندنا ليس إلا الراغب في الله المشتاق إلى الله، من أنساه الله كل ما سواه.

قال الكرماني: لقد حدثني النباحي قال: طمعت يوماً في شيء من أمور الدنيا فحملتني عيناي ونمت فسمعت هاتفاً في منامي وهو يقول: (أويجمل يا فتى بالحر المريد إذا وجد عند مولاه كل ما يريد أن يركن بقلبه إلى العبيد؟)

قال الجنيد: قال لي السري السقطي: (للمريد عشر مقامات، التحبب إلى الله بالنافلة، والتزين عنده بنصيحة الأمة، والأنس بكلام الله، والصبر على أحكامه، والأثرة لأمره، والحياء من نظره، وبذل المجهود في محبوبه، والرضاء بالقلة، والقناعة بالخمول)

قلت: إن كلامكم يملأ قلبي بأشواق غريبة.

قال: فهلم لتصحبنا.

قلت: فما الفروع التي أصحبكم فيها.. فلا يحل لي أن أقدم على شيء، وأنا لا أعرف بدايته ولا نهايته.

قال: لقد ذكرتهما لك.. أما بدايته: فتطهير أرض النفوس من الأدناس.. وأما نهايته التي لا تنتهي: فالعروج بالروح إلى قدس الأقداس.

قلت: فهما خطواتان فقط؟

قال: هما خطوتان.. وفي كل خطوة منهما مقامات لابد لك من المرور عليها.

قلت: أمقامات الهمذاني أم الحريري؟

قال: مقامات أهل الله..

قلت: لقد ذكر لي بعضهم أن هذا المصطلح بدعة..

قال: فاقرأ عليهم قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ (الاسراء: 79)، واقرأ عليهم قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ (مريم: 73)

وإن كانوا يقولون من قول خير البرية، فاقرأ عليهم قوله ﷺ:(من قال حين يسمع النداء، اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة)(1)

قلت: ليس الشأن في اللفظ.. وإنما الشأن في المراد منه.. فهل تريدون منه ما ورد في النصوص المقدسة.

قال: ألم تسمع بأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.. فلا خير فيما لم يأت به الكتاب والسنة.

قلت: فما تريدون بالمقامات؟

قال: تلك المراحل التي يقطعها المريد السالك في رحلته إلى الله..

قلت: وعيت هذا.. ولكني امرؤ ملأ الله قلبي بالمخافة من البدع.. وقد سمعت من

(1) رواه البخاري.

الناس من يذكر أن هذا السبيل سبيل بدعة.. وليس لسبيل البدعة من نهاية إلى الضلال.. وليس للضلال من نهاية إلا النار..

قال: أليس الإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مراقبة ومشاهدة؟

قلت: بلى.. وقد وضح رسول الله ﷺ ذلك في حديث الدين، وقد قال عن الإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1]

قال: فلذلك نحن نعتقد أن رسول الله ﷺ هو مؤسس هذه الطريقة.. فليس ما نحن فيه إلا البحث عن مقام الإحسان.. ذلك المقام الذي نعبد الله فيه، وكأننا نراه.

التطهير

بعد أن امتلأت قناعة بصحة المنهج التربوي الذي يسير عليه أبو مدين وجماعته من أهل الله طلبت منه أن انضم إلى مريديهم، فأسير كما يسيرون، وأمر بالمقامات التي يمرون بها، لأنال ثمار هذا الشعاع من أشعة الهداية النبوية، لكني اشترطت عليهم أن لا أسير خطوة معهم إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة.

وقد وافقوني على ذلك، بل حثوني عليه.. وأخبروني أن كل أهل الله نص على هذا، ودعا إلى هذا، فلا خير في هدي يعارض ما جاء به رسول الله ﷺ.

الخشية:

كان أول منزل بدأت به سيري إلى الله منزل (الخشية)، وقد سرت إليه بصحبة رويم.. وكان منزلا بعيدا عن العمران، وممتلئا بالمهابة.. قال لي رويم، وهو يشير إليه: هذا منزل خصصه أهل الله لملأ القلوب بالخشية.. وسترى فيه قوما من الناس لا هم لهم إلا ملأ قلوبهم بكل ما يملؤها بالخشية، وستجلس معهم، وستتأدب معهم بآداب هذا المقام.

قلت: لقد عرفت شرطي.. فأنا لا أقدم على أمر حتى أعلم حكم الله فيه.

قال: كل النصوص المقدسة.. وكل أهل الله.. مجمعون على أن الخشية مقام من مقامات السالكين إلى الله، وأنه لا يمكن أن يتحرك السالك حركة في طريق أهل الله إلا إذا صحبته الخشية من الله.

لقد قال تعالى يذكر ذلك، ويدعو إليه:﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (طه:3)، وقال:﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور:52)، وقال:﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ (الأحزاب: 39)، وقال:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الملك:12)

وقال في وصف عباد الرحمن:﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا

---

1) رواه مسلم.

كَانَ غَرَاماً إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ (الفرقان: 65 ـ 66)

وقال في وصف عباده المقربين:﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ (الاسراء: 57)

وأخبر تعالى أن توريث الأرض لا يكون إلا للخائفين من الله، قال تعالى:﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (ابراهيم: 14) بعد قوله تعالى:﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِم﴾ (ابراهيم: 14)

وهكذا، فإن جميع نصوص القرآن الكريم تدل على أن الأمن من عذاب الله، والنجاة منه مرتبطة بمدى الخوف من الله، ومن العذاب الذي أعده لمن عصاه.

قلت: هذا الشاهد الأول.. فأين الشاهد الثاني؟

قال: قال: لقد ورد في النصوص الكثيرة اعتبار الخشية من الله خلقا من أخلاق المؤمنين، ومقاما من مقامات السالكي، ففي الحديث قال ﷺ:(لا يلج النار رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم)(1)

وقال ﷺ:(سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمامٌ عادلٌ، وشابٌ نشأ في عبادة الله تعالى، ورجلٌ قلبه معلقٌ في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمالٍ، فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)(2)

وقال ﷺ:(ليس شيءٌ أحب إلى الله تعالى من قطرتين وأثرين: قطرة دموعٍ من خشية الله، وقطرة دمٍ تهراق في سبيل الله. وأما الأثران: فأثرٌ في سبيل الله تعالى، وأثرٌ في فريضةٍ من فرائض الله تعالى)(3)

قلت: هذا ما ورد به النص من أقوال النبي ﷺ.. فهل ورد في الفعل ما يؤكده، فإني رأيت نفرا يحتقرون مثل هذا المقام، ويعتبرنه دليلا على قصور السالكين.. وهم يذكرون أن العارفين الكبار بمنأى عنه؟

قال: لقد كان رسول الله ﷺ أعرف العارفين بالله، وكان مع ذلك أعظم الناس خشية لله، وقد حدث جابر أن رسول الله صنع شيئا، فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخطب، فحمد الله، ثم قال: (ما بال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية)(4)

قلت: هذا فعل رسول الله ﷺ.. فما فعل الورثة من بعده؟

---

1) رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ.

4) رواه البخاري ومسلم.

قال: لا يكتمل إرث الوارث حتى تصح نسبته لمورثه.. ورسول الله ﷺ لم يورث دينارا ولا درهما وإنما ورث علوما وأعمالا وأحوالا.. فمن أخذ حظه منها، فهو الوارث.

قلت: فأخبرني من أخبارهم ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، وتقر له عيني، وتنبعث به همتي.

قال: أما أصحاب رسول الله ﷺ الذين تتلمذوا على يديه، فقد كانوا أعظم الناس مخافة لله، وقد وصفهم علي فقال:(لقد رأيت أثراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فما أري أحداً يشبههم، والله إن كانوا ليصبحون شعثاً غبراً صفراً، بين أعينهم مثل ركب المعزي، قد باتوا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، إذا ذكر الله مادوا كما تميد الشجرة فى يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين)

قلت: هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ.. فما فعل من بعدهم؟

قال:

منهم من سار على هديهم، وسلك سبيلهم، وهؤلاء لا تخلو منهم الأرض.. وقد وصفهم علي فقال:(لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهر مكشوف وإما خائف مقهور لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته، وكم وأين أولئك؟ هم الأقلون عدداً الأعظمون قدراً، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من وراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الغافلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه وأمناؤه وعماله في أرضه والدعاة إلى دينه)، ثم بكى وقال: (واشوقاه إلى رؤيتهم)

قلت: فحدثني من أخبارهم.. فلا تصفو القلوب إلا بأخبار الصالحين.

قال: لقد كان علي بن الحسين إذا توضأ اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

وقرىء عند يحيى البكاء: وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (الأنعام:30)، فصاح صيحة مكث منها مريضاً أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة.

قلت: لقد دب الانحراف إلى هذه الأمة، فنسيت خشية ربها، وراحت تنشغل بمخافة الشياطين.

قال: ونحن في هذا المنزل الذي تراه أمامك نحيي هذه السنة العظيمة من سنن رسول الله ﷺ.

قلت: عرفت سنية الخشية، ولم أعرفها تأثيرها السلوكي؟

قال: ألم تقرأ ما قصة القرآن الكريم علينا من قصة ابني آدم؟

قلت: بلى.. لقد قال الله تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30)﴾ (المائدة)

قال: ألا ترى أن الخشية من الله هي الحصن الذي تحصن بـه الأخ الصالح، فلم تمتد يده لقتل أخيه؟

قلت: بلى.. ذلك صحيح، وقد ذكره القرآن الكريم.

قال: ما ذكره إلا لنعتبر به.. إن جميع جيوش الدنيا، وجميع شرطتها، وجميع مخابراتها لن يستطيعوا أن ينشروا الأمن الذي تنشره مخافة الله وخشيته..

ليس ذلك في هذا وحده.. بل في كل شيء..

لقد رويت النصوص الكثيرة الدالة على تأثير الخشية في تزكية النفس وطهيرها:

ومن ذلك ما روي أنه انطلق رجل ذات يوم، فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء، وهو يقول لنفسه:(ذوقي نار جهنم، ذوقي ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً ﴾ (التوبة: 81)، جيفة بالليل، بطالة بالنهار، فبينا هو كذلك إذا أبصر النبي ﷺ في ظل شجرة، فأتاه، فقال:(غلبتني نفسي)، فقال له النبي ﷺ:(ألم يكن لك بد من الذي صنعت، لقد فتحت لك أبواب السماء، ولقد باهى الله بك الملائكة)[1]

بعد أن ذكر لي رويم هذه الأحاديث وغيرها امتلأت شوقا لأن يكون لي هذا المقام العظيم من مقامات أهل الله.. فدخلت المنزل.. وكان منزلا ممتلئا بالبركات.. وقد رأيت في الخشية ـ مع ما فيها من أحزان وآلام ـ من السرور واللذة ما لا يعدله أي سرور ولا لذة.

الرجاء:

بعد أن غادرت منزل الخشية، واستفدت من علومه وأهله ما ملأني بخشية الله، انتقلت مع ولي آخر من أولياء الله من أصحاب أبي مدين، وهو ابن عطاء، إلى منزل الرجاء، وفي الطريق إليه طلبت منه أن يحدثني عن الشهود العدول الذين يشهدون لهذا المنزل، على الشرط الذي شرطته عليهم، فقال: الرجاء ـ كما عرفه أصحابنا ـ هو السكون لفضله تعالى بشواهد العمل في الجميع، وإلا كان اغتراراً[2].

قلت: ما يعني هذا؟

قال: الرجاء الرباني هو الذي يدفعك إلى طلب ما ترجوه.. والرجاء الشيطاني هو

1) رواه ابن أبي الدنيا وهو مرسل وخرج الطبراني نحوه من حديث بريدة موصولا وفي اسناده من لا يعرف حاله.

2) قواعد التصوف، ص74.

الذي يقعد بك عنه.. وقد سماه الله تعالى أماني، فقال: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً (النساء: 123)

وقد اعتبر رسول الله ﷺ صاحب هذا النوع من الرجاء عاجزا، فقال:(الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني)(1)

وقد أشار القرآن الكريم إلى تأثير الرجاء في السلوك، فقال: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (الأحزاب: 21)، وقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (البقرة:218)

وقال ـ في مقابل ذلك ـ عن الذين عطلوا هذا المقام: إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (يونس:7)

قلت: علمت تأثير الرجاء في السلوك.. فكل مَنْ رجا شيئا طلبه، وشمر عن ساعد الجد والاجتهاد بصدق وإخلاص حتى يناله.. ولكن ما تعلمته في منزل الخشية ملأني بالخشية حتى صرت لا أرى في الكون ولا في النصوص إلا ما يملأ قلبي خشية لله.

قال: ستتعلم هنا كيف تعالج الخشية بالرجاء.. والرجاء بالخشية.. فتكون راجيا في خشيتك، وخاشيا في رجائك.. فالكامل هو الذي جمع بينهما.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أنت تعلم أن الرجاء والخوف وغيرهما من مقامات التطهير.. وهي مقامات يتعامل معها أطباء القلوب كما يتعامل الأطباء مع الأدوية، فالدواء الذي قد يسبب آلاما في أعضاء أخرى لا يكتفي به، بل يصف معه الطبيب الناصح الدواء الذي يزيل آثاره السلبية.

ولهذا يقترن في القرآن الكريم ذكر أسباب الخوف مع أسباب الرجاء حتى لا يطغى أحدهما على الآخر، لأن الكمال في اعتدالهما، والقصور في طغيانهما، ومن ذلك قوله تعالى: نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (الحجر:50)، وقد روي في في سبب نزولها عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال:(لا أراكم تضحكون)، ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رجع علينا القهقرى، فقال:(إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد إن الله يقول: (لم تقنط عبادي؟ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (الحجر:50)

ومثله قوله تعالى: غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (غافر:3)

قلت: ولكني رأيت بعض من في منزل الخشية يبالغ في هذا المنزل مبالغة ملأتني بالمهابة.

---

1) رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ.

قال: صحيح ما فعل.. فالكمال قد يقتضي المبالغة في أحدهما في بعض المراحل لإيصاله إلى درجة الاعتدال، ومثل ذلك مثل من به عوز لمادة معينة يحتاجها جسمه، فإنه قد يبالغ فيها لإيصال جسمه إلى حال الاعتدال.

قلت: فالكمال في اعتدال الخشية والرجاء إذن؟

قال: أجل.. لأن مقتضاهما واحد.. ولذلك قيل: (لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا)، وقال علي يحث بعض ولده على هذا:(يا بني، خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك)

قلت: فما سر هذا الاعتدال؟

قال: إن أهل الله لا ينظرون في الخوف والرجاء لأعمالهم، وإنما ينظرون إلى أوصاف الله المقتضية للخوف والرجاء، ولذلك قال ابن عطاء الله معبرا عن حال العارفين في ذلك:(من علامة الاعتمادِ على العَمَلِ، نُقْصانُ الرَّجاءِ عند وجودِ الزَّللِ)

أي أن من علامات تعويل العامل على عمله أن ينقص رجاؤه في رحمة الله عند وجود زلته، لأن العارفين لا يشاهدون لأنفسهم عملاً، فلذلك لا ينقص أملهم في رحمة الله إذا قصروا في الطاعة أو اكتسبوا زللا.

قلت: وعيت ما ذكرته من هذا.. فهل ورد في النصوص المقدسة ما يمكن أن يستجلب به حال الرجاء؟

قال: أجل.. وسترى تفاصيل ذلك في هذا المنزل..

قلت: فحدثني عن بعض ذلك..

قال: من ذلك قوله تعالى، وهو يحثنا على الرجاء، وينهانا عن القنوط من رحمته: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر:53)

وقال تعالى مبشراً بسعة رحمته:﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾(لأعراف: 156)

أما السنة المطهرة، فقد ورد فيها الكثير من النصوص التي تبين سعة رحمة الله، وهي بالتالي من أفضل أدوية الرجاء:

ففي الحديث الشريف، قال رسول الله ﷺ:(والذي نفسي بيده لو لم تُذْنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم)[1]

وقال ﷺ:(يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة، فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء بالسيئة، فجزاء سيئة مثلها أو أغفر. ومن تقرب مني شبراً، تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب

1) رواه مسلم.

مني ذراعاً، تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي، أتيته هرولةً، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئةً لا يشرك بي شيئاً، لقيته بمثلها مغفرةً)(1)

وحدث جابر قال: جاء أعرابيٌ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ فقال: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك به شيئاً، دخل النار)(2)

وقال رسول الله ﷺ:(والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله تعالى، فيغفر لهم)(3)

وقال ﷺ: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمده عليها، أو يشرب الشربة، فيحمده عليها)(4)

بعد هذه الأحاديث وغيرها مع ابن عطاء دخلت إلى منزل الرجاء، وقد كان منزلا ممتلئا بأنوار عجيبة، تملأ النفس سرورا ولذة ومتعة، وتملأ الصدر انشراحا وسكينة وطمأنينة.. ولكنها مع ذلك لا تزيد الجوارح إلا نشاطا، ولا الهمة إلا ارتفاعا.

التوبة:

ما إن خرجت من منزل الرجاء حتى شعرت بحاجتي إلى إجراء تصفية شاملة لنفسي التي كانت ممتلئة بالكدورات.. وشعرت في نفس الوقت بحاجتي إلى تطهير سجل سيئاتي من تلك الذنوب التي قد ينزل بي ما رتب عليها من عقوبات..

فلذلك ما إن خرجت حتى بادرت إلى شيخي أبي مدين طالبا منه أن يبين لي سبيل هذه التصفية وعلومها، فأرشدني إلى الكرماني، وقال: عليك بصحبته.. فمنزله هو منزل التوبة.. ولم يصحبه أحد إلا فقه من فقه التوبة ما يعود به كيوم ولدته أمه.

ذهبت إلى الكرماني، وأخبرته بقول أبي مدين، فطلب مني أن أصحبه إلى منزل التوبة، وقد كان منزلا في ضواحي تلمسان، وكان أبيض اللون، وقد رأيت عمالا كثيرين يحيطون به، فمنهم من ينقي أرضه، ومنهم من يعيد صباغته، ومنهم من يرسل بالمياه على أوراق أشجاره ليطهرها من الغبار الذي امتلأت به.

سألت الكرماني عن التوبة، وسرها، وكونها منزلا من منازل السائرين، فقال: التوبة ترك الذنوب على أجمل الوجوه..

قلت: أجمل الوجوه !؟

قال: أجل.. فالاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت

---

1) رواه مسلم.

2) رواه مسلم.

3) رواه مسلم.

4) رواه مسلم.

لأجل كذا، أو يقول: فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك.. وهذا الأخير هو التوبة(5).

وحقيقة التوبة تنتظم في ثلاثة أمور: علم، وحال، وفعل.. وهي مرتبة بهذا الترتيب: فالعلم الأول، والحال الثاني، والفعل الثالث.. والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت.

فالعلم الذي هو (معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب) إذا تمكن من الذي يريد التوبة أحدث تألما للقلب بسبب فوات المحبوب، (فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى وانبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابساً، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر)

قلت: فقد آل أمر التوبة إلى العلم؟

قال: أجل.. ولكنه علم مخصوص.. وهو العلم الذي يريك خطر الذنوب، وكونها حجابا بينك وبين كل مرهوب، أو كونها سبيلا لكل شقاوة وضلالة ومرارة.. وحين تعلم هذا وتتيقن به سيصيبك الألم لا محالة.. وحينذاك ستقدم على التوبة، وستفكر فيها.

قلت: لقد حصل لي هذا.. فأنا ما امتلأت خشية من الله، ورغبة فيما في يد الله حتى شعرت بأن ذنوبي هي الحجاب الحائل بيني وبين فضل الله.. وما شعرت بهذا حتى طلبت منزل التوبة.

قال: لقد وفقت عندما طلبت التوبة على يد شيخك.

قلت: لم؟.. ألا يكتفى من المرء بأن يتوب لله من غير واسطة؟

قال: التوبة الكاملة لابد فيها من الواسطة.. ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ (النساء: 64)؟

قلت: هذه عن رسول الله ﷺ.

قال: وهي تصدق على ورثته.

قلت: ألا بد من هذا؟

قال: إن للتوبة أركانا وشروطا وحقيقة.. وفي كل ذلك مسالك ومهالك.. والشيطان يحضر فيها كما لا يحضر في شيء آخر.. ولابد للتائب أن يبحث عن تلك الحقائق التي يتقي

5) المفردات ص76.

بها مداخل الشيطان، فتصدق توبته، وتنصح، فقد قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (التحريم:8)، فوصف التوبة بالنصح.. ولن تنصح التوبة إلا بالعلم والورع، ولا علم بدون معلم.

قلت: أهناك توبة غير نصوح؟

قال: أجل.. التوبة توبتان:

توبة عامة.. وهي التي أشار إليها قوله تعالى: وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (النور: 31)، أي ارجعوا إلى الله من هوى نفوسكم، ومن وقوفكم مع سهواتكم وحظوظكم، عسى أن تظفروا ببغيتكم فى المعاد، وكى تبقوا ببقاء الله فى نعيم لا زوال له ولا نفاد.

وتوبة خاصة، وهي التي أشار إليها قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (التحريم:8)، وهي من النصح، أي أنها خالصة لله تعالى مجردة، لا تتعلق بشئ، ولا يتعلق بها شئ، وهو الاستقامة على الطاعة، من غير روغان إلى معصية، كما تروغ الثعالب، وألا يحدث نفسه بذنب متى قدر عليه، وأن يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصا لوجهه، كما ارتكبه لأجل هواه مجمعا عليه بقلبه وشهوته، فهذه هى التوبة النصوح، وهذا العبد هو التواب المتطهر الحبيب.

قلت: لقد رأيت البعض ينكر مثل هذه التقسيمات، فتحقق الناس عنده بالمقامات سواء، ولا معنى للتفريق بينهم في ذلك بين خصوص وعموم؟

قال: لا.. لقد أخطأ من قال ذلك.. لقد فرق القرآن الكريم بين درجات الناس، فذكر المقربين من السابقين.. وذكر المقتصدين.. وذكر الظالمين لأنفسهم.. وذكر غير ذلك من المراتب..

قلت: فحدثني عن رسول الله ﷺ.. فأنا لا أحب أن أتحرك حركة إلا على قدمه.

قال: لقد ورد في النصوص الكثيرة ما يدل على رجوع رسول الله ﷺ إلى ربه مع أنه الطاهر المطهر المعصوم من كل الذنوب[1].. فقد قال رسول الله ﷺ: (إني لأستغفر الله، وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة)[2]

قلت: فهل ورد في النصوص المقدسة ما يطمئن التائب إلى قبول توبته؟

---

1) رددنا على الشبهات المرتبطة بهذه النصوص في رسالة (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.

2) رواه البخاري والترمذي.

قال: أجل.. لقد ورد في ذلك الكثير.. وستراها في هذا المـنزل.. فلا يمكن ليـائس أن يتوب.. إنا هنا نبدأ بمداواة اليأس بعلاج الأمل في عفو الله.. فـإذا مـا تـاب العبـد تـاب اللـه عليه لا محالة.

اسمع ما يقول ﷺ في هذا.. لقد قال:(إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتـوب مسـيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)(1)

وفي حديث آخر قال ﷺ:(إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)(2)

بعـد هـذه الأحـاديث وغيرهـا مـع ابن عطـاء عن التوبـة، ومـا ورد فيهـا من النصـوص المقدسة، ومن فهوم أهل الله، دخلت منزل التوبة، وقـد كـان باطنـه كظـاهره، تجلت فيـه جميع قيم الجمال والنظافة، فهو وأهله لا يحرصـون على شـيئ حرصـهم على الصـفاء، ولا يعتبرون شيئا من الأشياء يستحق أن يتخذ عدوا غير الكدورة.. الكدورة بجميع أنواعها.

التقوى:

لم أخرج من منزل التوبة برغبتي، فقد أخبرني أهله أن التوبة ليس لهـا حـد ولا نهايـة، وقد قال تعالى: ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَـاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُـهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَـأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْـهِ ثُمَّ تَـابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُـوا إِنَّ اللَّهَ هُـوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة:118)

لكن شيخي أبا مدين طلب مني أن ألتحق بالزاهد ليدلني على منزل آخـر من منـازل التطهير، هو منزل التقوى.

سرت مع الزاهد إلى منزل التقوى، وقد كانت الطريق المؤدية إليـه محاطـة بأشـواك كثيرة.. فلم نكن نسير فيها إلا بجهد وعناء.. وكنت كل لحظة أصـيح في صـاحبي (الزاهـد): احترز.. فإن رماحا من الأشواك تريد أن تشوكك.

بعـد أن وصـلنا إلى قـرب الـدار سـألت الزاهـد عن سـر تلـك الأشـواك، ولم لم يقم أصحابه من أهل الله بقلعها، فقال: أهل الله هم الذين غرسوها؟

قلت: وهل يغرس أهل الله الشوك؟.. عهدي بهم يغرسون الورود والرياحين.

قال: عندما رأوا غفلة الخلق عن أشواك البـاطن راحـوا يـذكرونهم بأشـواك الظـاهر، ليعبروا من الظاهر إلى الباطن.

قلت: أراك ترمي إلى شيء، فصرح.. فلا طاقة لي بالتلميح.

قال: لقد سئل بعضهم: ما التقوى؟ قال: هل وجدت طريقاً ذا شوكٍ؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيتُ الشوك عدلت أو جاوزته أو قصّرت عنه، قال: ذاك التقوى.

---

1) رواه مسلم.

2) رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ.

قلت: لقد وردت النصوص القرآنية الكثيرة تذكر التقوى.. وقد وجدت أنها تذكرها لغرضين:

أما أولهما، فالحث عليها، والدعوة إلى التمسك بها باعتبارها من أخلاق المؤمنين، ومن ذلك قوله تعالى: وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (البقرة:48)، وقوله: وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (البقرة:103)

وأما الثاني، فذكر الجزاء العظيم المرتبط بأهلها، ومن ذلك قوله تعالى: قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (آل عمران:15)، وقوله: الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (آل عمران:172)، وقوله: لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (آل عمران:198)

بعد أن أكملت قراءة هذه الآيات وغيرها، قال لي: ألا ترى اهتمام القرآن الكريم بالتقوى؟

قلت: أجل.. فهو يحث عليها كل حين.. ويذكر أصناف الأجزية التي وعد بها أهلها.. ولم أقرأ لك مما ورد في القرآن الكريم إلا ما يدل على المجامع، أما التفاصيل، فأكثر من أن تنحصر.

قال: فأنت لا تحتاج إلى الشهود إذن؟

قال: أما شاهد القرآن الكريم، فقد عرفناه، فحدثني عن شاهد السنة.

قال: مثلما ورد في القرآن الكريم الحث على التقوى، فقد وردت السنة كذلك.. فليست السنة إلا بيانا للقرآن الكريم، وتأكيدا لحقائقه، وتطبيقا لتوجيهاته.

قلت: فحدثني عما ورد عن رسول الله ﷺ من الحث على التقوى، والترغيب فيها.

قال: من ذلك قوله ﷺ: (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس بهذ حذراً لما به بأسُ)(1)

وقال ﷺ: (من سرَّه أن يكون أكرم الناس فليتقِ اللهَ)(2)

وقال ﷺ: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى ههنا، التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ـ بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر

1) رواه أحمد والترمذي وحسّنه ابن ماجه والحاكم.

2) رواه الحاكم والبيهقي والطبراني وأبو نعيم.

أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرامٌ: دمه وعرضه وماله)(1)

وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الناس فقال: (التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غلَّ ولا حسد)(2)

وعن أبي ذر قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2)(الطلاق)، فجعل يرددها حتى تعب فقال: يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم)(3)

قلت: عرفت كل هذا ووعيته.. لكني أتساءل عن سر كل هذا الفضل الذي أولته هذه التعاليم المقدسة للتقوى.

قال: لأن التقوى هي الزمام الذي تزم به النفس، والحصن الذي تحتمي به من المعاصي.. ومن حصل التقوى فقد حصل على الملكة التي تملؤه بكل خير، وتفرغه من كل شر.

قلت: فهي مَلَكة إذن؟

قال: أجل.. ولم يكن لها هذا الفضل لو لم تكن كذلك.. فالملكات هي التي تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر.. ومن كانت له ملكة التقوى، فإنها لن تدله إلا على الخير، ولن تنهاه إلا عن الشر.. ومن ربى نفسه ومن وكلت إليه مسؤوليتهم على التقوى، فإنه لن يخاف سوءا لا على نفسه، ولا عليهم، كما قال تعالى يشير إلى ذلك: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (المائدة:93)

قلت: فهل تعتمدون في التربية على هذا؟

قال: أجل.. لا يمكن للمربي أن يربي دون أن يعلم ما تمتلئ به النفوس من أخلاق، وما طبعت عليه من خلال.. ليتوصل من خلال ذلك إلى رسم منهج إصلاحي لها.

قلت: فأنتم في هذا المنزل تفعلون هذا؟

قال: أجل.. نحن نبدأ فندرس نفوس من يقدمون علينا، وما يرغبون فيه، وما يرهبون منه، وما يقدرون عليه، وما يعجزون عنه.. لندلهم من خلال ذلك كله على التقوى المرتبطة بهم.

قلت: ألكل صنف من الناس تقواه؟

قال: أجل.. فمن الناس من يكون في جبلته متقيا شر طلب الرئاسة، فلذلك لا يحتاج

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح، والبيهقي.

3) رواه الحاكم والبيهقي وابن مردويه.

إلى تربيته عليها.. ومن الناس من يكوف عفيفا طاهرا، فلا نحتاج أن نتكلم معه عن العفاف وغض البصر.. وهكذا..

قلت: إن هذا يحتاج من الداخل إلى هذا المنزل أن يفضح نفسه؟

قال: لقد نص أهل الله على هذا.. فكما يحتاج المريض إلى أن يفضح مرضه عند طبيب جسده، فكذلك مريض الروح يحتاج إلى أن يفضح نفسه عند طبيب الروح.

قلت: لكن شريعتنا نهتنا عن الفضيحة؟

قال: نهتنا عن الفضيحة التي يقصد منها التشهير، لا الفضيحة التي يقصد منها التطهير.. ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء:64)؟

قلت: أفي السنة ما يدل على هذا؟

قال: أجل.. ألم تسمع تلك الأسئلة الكثيرة التي تأتيه ﷺ، والتي تدل على حال قائليها؟

قلت: بلى.. ومن ذلك ما روي أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارا يؤذيني، فقال له: (أخرج متاعك فضعه على الطريق)، فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فجعل كل من مر به قال: مالك؟ قال: جاري يؤذيني، فيقول: اللهم العنه، اللهم أخزه! قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، وقال:(لا أوذيك أبدًا)(1)

ونحن نعتمد هذا وغيره مما ورد في السنة المطهرة.. فلدينا في هذا المنزل فقهاء وعلماء، كما لدينا علماء نفس وخبراء اجتماع، فالتقوى لا تتحقق بكمالها إلا في ضوء هذه الخبرات جميعا.

قلت: فهلم بنا إليه، فما أشوقني لأن أتعلم علوم التقوى، وأتدرب عليها.

دخلت مع الزاهد إلى منزل التقوى.. فرأيته من خير المنازل، وأكثرها بركات، لقد رأيت بعيني فيه قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (لأعراف:96)

وشهدت فيه تحقيق قوله تعالى:﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ (الطلاق: 2)، فلم تكن تخطر على بالي في ذلك المنزل شبهة تريد أن تردعني عن التقوى وتزجرني عنها حتى يأتي فضل الله المخزن في التقوى، فيخرجنا منها سالما غانما.

العروج

بعد أن مكثت ما شاء الله لي أن أمكث في ذلك المنزل المبارك بصحبة (الزاهد

1) رواه البزَّار وأبو داود في كتاب الأدب.

ومن فيه من الخبراء والعلماء شعرت بحلاوة في قلبي لا أستطيع لها تعبيرا ولا وصفا، فاستأذنت الزاهد أن أذهب إلى شيخي (أبي مدين) لعلي أعرف سرها، فأذن لي.

التوكل:

عندما دخلت عليه كان في مجلسه (الخواص)، وكانا يتذاكران في التوكل، وما إن دخلت عليهما حتى أسرع الخواص إلي يلتزمني، ويقول: أهلا بك في منازل المتوكلين.

قلت: تلك منازل عالية، فكيف عرفت أني من أهلها؟

قال: التوكل هو صنعتي[1]، ولا يعجز الصانع أن يتعرف على أهل صنعته.

قلت: أللمتوكلين سيما خاصة؟

قال: لكل مقام سيماه الخاصة التي يعرفه من خلالها أهل الله.

قلت: أليس ذلك نوعا من الاستشراف للغيب؟

قال: أليس في قدرة الطبيب الخبير أن يتعرف على الداء بمجرد النظر إلى المريض؟

قلت: بلى.. هناك أطباء كثيرون يقدرون على ذلك.

قال: جل ربك أن يجعل في أطباء الجسد من يقدر على هذا، ثم لا يجعل في أطباء الروح من يقدر عليه.

قلت: وما هذا المنزل؟.. وكيف أتأدب بآدابه؟

قال: اصحبني لتتأدب بآدابه.

قلت: فذرني ـ أولا ـ أسأل شيخي عن حلاوة عرضت لقلبي لم أعرف لها تفسيرا.

قال: تلك حلاوة التوكل.. فللتوكل من الحلاوة ما لا يعدله شيء.

قلت: كيف عرفت ذلك؟

قال: ألم تشعر بطمأنينة عظيمة.. وكأنك ملك على عرشك.. كلما احتجت شيئا رزقا أو غيره جاءك من غير عناء ولا تعب؟

قلت: بلى.. ذلك صحيح.. لم أشعر بالراحة في يوم من أيام حياتي كما شعرت في صحبة هذه الحلاوة.. لقد صرت أتخيل أن لدي كل شيء.. وأنه لم يفتني شيء.. فلذلك زالت كل أحزاني، وارتفعت كل شكواي.

---

1) نرى من خلال دراسة طبقات الأولياء تخصص الكثير منهم في الحديث عن بعض مقامات السلوك دون بعضها، وقد اشتهر الخواص من بينهم خصوصا بالتخصص في التوكل، ولذلك رمزنا به إليه في هذا المحل.

قال: فهذا هو التوكل.. فاصحبني لتتعلم علومه.. ففي كل منزل من منازل السلوك ممالك ومهالك.. ولن ينجو منها إلا من اتقى بالعلم الذي علمه الله لأهل الله ببركة متابعتهم لرسول الله ﷺ.

سرت مع الخواص إلى منزل التوكل، وقد كان منزلا في غاية الإبداع والجمال والقوة، يخيل إلى الناظر إليه أنه قائم في الهواء من غير أعمدة، ولكنه يقوم على أعمدة كثيرة لا يراها الكثير.. ومع ذلك فهي أقوى من كل شيء..

لقد ذكرني رؤيتي لها قوله تعالى:﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (الرعد: 2)

ورأيت طيورا كثيرة تأوى إلى ذلك المنزل، والسرور يملأ محياها، فهي تغرد بكل ألحان الرضا، فذكرتني رؤيتي لها بقوله ﷺ: (لو أنكم تتوكلون على الله حق وتوكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً)(1)

أردت أن أسرع بالدخول إليه لما امتلأت به عيني من رونق جماله، لكني تذكرت ما اشترطت به على نفسي وعلى أهل الله ممن وفقني الله لصحبتهم، فقلت: كيف أدخل بدون الشهود العدول الذين يشهدون لحركتي.

قال: أما الشاهد الأول.. كلام ربك.. فهو ممتلئ بالأمر والثناء على المتوكلين:

أما الأمر بالتوكل والحث عليه، فقد قال تعالى:﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: 159)، وقال:﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:51)، وقال:﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: 129)

وأما الثناء على المتوكلين، وتبيان ما لهم عند الله، فقد قال تعالى:﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا: هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيْمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ (الأحزاب:22)، وقال:﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174)﴾ (آل عمران)، وقال:﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ (الطلاق: 3)، وقال:﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل:99)

قلت: هذا الشاهد الأول.. فهات الشاهد الثاني.

قال: لقد ورد في السنة ـ التي هي بيان للقرآن الكريم ــ الكثير من النصوص التي تحث على التوكل، وتبين فضل أهله، وما أعد لهم من جزاء عند الله:

ومن ذلك قوله ﷺ:(عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط(2)، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحدٌ إذ رفع لي سوادٌ عظيمٌ فظننت أنهم أمتي، فقيل

1) رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ.

لي: هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذابٍ)، ثم ذكر سبب دخولهم الجنة بغير حساب، فقال: (هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون) (1)

انظر هذا الفضل العظيم الذي أعده الله للمتوكلين.. إنهم من دون الناس.. يدخلون الجنة من غير حساب.. وذلك لأنهم لم يثقوا إلا في الله، فحطت ثقتهم في الله عنهم أوزارهم، فراحوا إلى الجنة من غير حساب ولا عذاب.

وعن جابرٍ أنه غزا مع النبي ﷺ قبل نجدٍ، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معهم، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرةٍ، فعلق بها سيفه، ونمنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابيٌ فقال: (إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائمٌ، فاستيقظت وهو في يده صلتاً، قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله ـ ثلاثاً ـ)، ولم يعاقبه وجلس(2).

وعن أم سلمة أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: (بسم الله، توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي)(3)

قلت: قبلت كل هؤلاء الشهود.. وما كان لي أن أعرض عنهم.. ولكني بين قوم اختلفوا في التعامل مع هذه النصوص المقدسة، فمنهم من راح يفسر التوكل بالاستغراق في التوحيد ونبذ الأسباب، واعتبار الأخذ بها قدحا في التوكل.

ومنهم من راح يستغرق في الأسباب، ويؤول هذه النصوص، ويحملها على محامل تنفي التوحيد، وتجعل من التوكل مجرد اسم لا حقيقة وجودية له.

قال: إن من قرأ هذه النصوص بإيمان وصدق ويقين فهم التوكل على الله حق فهمه، فلم يجنح به إلى أي جهة من الجهات.. لا جهة الإفراط، ولا جهة التفريط.. وهذا ما أحوج أهل الله لبناء هذا المنزل، ووضع الأسوار التي تحيط به، والتي تمنع دخول المتطفلين إليه.

قلت: فما ذكروا من هذه الأسوار؟

قال: لقد ذكروا أن التوكل ـ كسائر المقامات ـ ينتظم من علم، وحال، وعمل.

قلت: فما **العلم** المرتبط بالتوكل؟

قال: التوحيد.. كل مقامات التقديس تبدأ بالتوحيد، وتنتهي به.

---

2) الرهيط: تصغير رهطٍ، وهم دون عشرة أنفسٍ.

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه أبو داود، والترمذي وغيرهما.

قلت: فما التوحيد الذي لا يصير المتوكل متوكلا إلا بتعلمه؟

قال: هو ما وردت به الأذكار من قوله ﷺ:(من قال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قـدير في يـوم مائـة مـرة كـانت لـه عـدل عشـر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حـرزا من الشـيطان يومـه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك)[1]

قلت: لقد وردت النصوص الكثيرة تحث على هذا الذكر، وتبين فضله.

قال: إن هذا الذكر العظيم يحتوي على مجامع العلوم التي يقوم عليها بنيـان التوكـل: فالتوكل ينبني على التوحيد الذي يترجمه قولك: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له)، والإيمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك (له الملك)، والإيمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولـك (وله الحمد)

ولذلك من قال (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملـك ولـه الحمـد وهـو على كـل شيء قدير) تم له الإيمان الذي هو أصل التوكل.

قلت: ما أكثر من يقول هذا، ولكني لا أرى عليه حال المتوكلين.

قال: ليس القول قول اللسان وحده.. القول ما قال الفؤاد.. ولـذلك، فقـد ذكـر أهـل الله أن للتوحيد ـ الذي هو منبع التوكل وأصله ـ أربع مراتب، وهو بذلك ينقسـم كـالجوز إلى لب، وإلى لب اللب، وإلى قشر، وإلى قشر القشر.

فالرتبة الأولى من التوحيد: هي أن يقول الإنسان بلسانه (لا إله إلا الله)، وقلبـه غافـل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين.

والثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه، كمـا صـدق بـه عمـوم المسـلمين وهـو اعتقـاد العوام.

والثالثة: أن يشاهد ذلك بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشـياء كثيرة، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.

والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحـداً، وهي مشـاهدة الصـديقين، حيث لا يـرى إلا واحداً.. ويطلق عليه أهل الله لقب (الفناء)

قلت: الفناء !؟.. دخلنا في الهرطقات.. هذا ما كنت أحذر منه؟

قال: لا تستعجل.. فليس الفناء ما يفهمه المتطرفون الموغلون في الحس.. فناء أهل الله فناء أرقى وأطهر وأنبل..

لقد ذكره سيد ببيانـه البليـغ، فقـال في بيانـه لمـا تمتلئ بـه النفس من معـاني قولـه

1) رواه البخاري ومسلم.

تعالى: هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (الحديد:3):(وما يكاد يفيق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض، حتى تطالعه حقيقة أخرى، لعلها أضخم وأقوى: حقيقة أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة، فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه؛ ومن ثم فهي محيطة بكل شيء، عليمة بكل شيء هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (الحديد:3)

قلت: ومع ذلك فقد ذكر أن هذه الحال ليست كمالا.

قال: المتوقف عند هذه الحال والمستلذ لها لا شك في نقصه.. فهو قد انقطع به الطريق... أو لم يفهم الغاية منه... فالخالع للكون الفاني لن يفهم مراد الله من رسائل الكون حتى يعيد لبسه من جديد، باسم الله، لا باسمه الذي لا وجود له.

قلت: هذا العلم.. فحدثني عن **الحال**؟

قال: الحال هو الركن الركين للتوكل.. كما أن الحال هو الركن الركين لجميع المقامات، ذلك أنه الواسطة بين العلم والعمل، وهو صفة في النفس راسخة تدعو إلى إلى ما يقتضيه العلم.

وبما أنه حال قلبي، فقد اختلفت عبارات أهل الله في التعبير عنه.. فعبر عنه بعضهم بقوله:(التوكل: الانخلاع من الحول والقوة)

وقال آخر:(التوكل: الاستسلام لجريان القضاء فى الأحكام)

وقال آخر: (التوكل: الاسترسال بين يدى الله تعالى)

وقال آخر:(التوكل: ترك الإيواء إلا إلى الله)

ولم يستطع آخرون أن يعبروا عن حالهم، فقالوا:(التوكل سر بين العبد وبين الله)

قلت: وما تقول أنت في هذا؟

قال: التوكل مشتق من الوكالة، يقال: وكَّل أمره إلى فلان أي فوضه واعتمد عليه فيه.. والتوكل ـ بهذا ـ عبارة عن اعتماد القلب وعلى الوكيل وحده.

فمن ادعى عليك دعوى باطلة، فوكلت من يكشف دعواه وبطلانها لم تكن متوكلاً عليه ولا واثقاً به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقدت فيه أربعة أمور: منتهى الهداية، ومنتهى القوة، ومنتهى الفصاحة، ومنتهى الشفقة.

أما الهداية، فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلاً.

وأما القدرة والقوة، فليستجرئ على التصريح بالحق، فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يجبن، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو

صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به.

وأما الفصاحة، فهي ـ أيضاً ـ من القدرة في اللسان على الإفصاح عن كل ما اسـتجرأ القلب عليه وأشار إليه: فلا كل عالم بمواقع التلبيس قـادر بذلاقـة لسـانه على حـل عقـدة التلبيس.

وأمـا منتهى الشـفقة، فيكـون باعثـاً لـه على بـذل كـل مـا يقـدر عليـه في حقـه من المجهود، فإن قدرته لا تغني دون العناية به إذا كان لا يهمه أمره ولا يبالي به ظفـر خصـمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك.

قلت: هذا مثال جيد.. وهو أيسر فهما على قومي، فهم كثيرا ما يحتـاجون إلى توكيـل المحامين.. وهم لا يطلبون منهم إلا من تحققت له الكمـالات الـتي تهيئـه لهـذه الوظيفـة.. وهم في أحيان كثيرة يقتنعون بدون ما ذكرت بكثير.

قال: إذا عرفت هذا، فقس عليه التوكل على الله تعالى، فإن ثبت في نفسـك اعتقـاد جازم أنه لا فاعل إلا الله ـ كما علمت في الركن الأول من أركان التوكل ـ واعتقـدت ــ مـع ذلك ـ تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثم تمام العناية والعطف والرحمة بجملة العباد والآحـاد، وأنـه ليس وراء منتهى قدرتـه قـدرة، ولا وراء منتهى علمـه علم، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، اتكل لا محالة قلبك عليه وحـده، ولم يلتفت إلى غـيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

قلت: ما بال الناس.. كلهم يعتقدون ما ذكرت.. ولكنهم لا يجدون ما تذكر من أحوال؟

قال: ذلك يعود إلى أحد أمرين: إما ضعف اليقين بإحدى هـذه الخصـال الأربعـة، وإمـا ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد ينزعج تبعاً للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين، فـإن من يتنـاول عسـلاً، فشـبه بين يديه بنجاسة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله مع كونه عسلا.

ولهذا، فإن التوكل لا يتم إلا بقوة القلب، وقوة اليقين جميعـاً، إذ بهمـا يحصـل سـكون القلب وطمأنينته، فالسكون في القلب شيء، واليقين شيء آخر، فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم ﷺ: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ (البقرة: 260)، فالتمس أن يكون مشاهداً إحياء الميت بعينه ليثبت في خيالـه، فـإن النفس تتبـع الخيـال وتطمئن بـه ولا تطمئن بـاليقين في ابتـداء أمرهـا إلى أن تبلـغ بـالآخرة إلى درجـة النفس المطمئنة؛ وذلك لا يكون في البداية أصلاً، وكم من مطمئن لا يقين له.

قلت: علمت هذا، وأيقنت به.. فما درجات الناس فيه؟

قال: كثيرة.. لا يمكن حصرها.. ولكن مجامعها ثلاث:

أما الدرجة الأولى، فما وصفته لـك من توكيـل المخاصـمين للمحـامين، وثقتهم فيهم، فيكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل.

وأما الدرجة الثانية، وهي أقوى: فهي أن يكون حاله مع الله تعالى كحـال الطفـل مـع أمه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلى أحد سواها، ولا يعتمد إلا عليها.. فمن كـان بالـه إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقـاً: فإن الطفل متوكل على أمه.

أمـا الدرجـة الثالثـة، وهي أعلى الـدرجات، فهي أن يكـون بين يـدي اللـه تعـالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل.. وهو الذي قـوي يقينـه بـأن اللـه تعـالى هـو مجري الحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات..

قلت: فما الفرق بين هذا والذي قبله؟

قال: فرق عظيم.. فالصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها، أما هـذا، فهو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه، فالأم تطلبه، وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه، فالأم تحمله، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه.

قلت: إنك بهذا تعتبر نهاية التوكل تؤول إلى الذين انشغلوا بالله عن الأسباب.. فراحوا يتركون الأسباب انشغالا بالله.

قال: أهل الله أعمق علما، وأحكم حكمة من أن يقعوا في مثل هذه المهالـك.. إن مـا ذكرته لك أحوال إيمانيـة يمتلئ بهـا القلب.. أمـا الجـوارح، فإنهـا لا تـترك مـا أنيـط بهـا من وظائف.. بل هي تؤديها عبودية خالصة لله.. وهي تعلم أن الله هو الفاعل والمؤثر..

لقـد قـال الغـزالي عنـد ذكـره **لأعمال المتـوكلين**:(اعلم أن العلم يـورث الحـال، والحال يثمر الأعمال، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بـالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وكاللحم على الوضم، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف ينـال مقـام من مقامـات الـدين بمحظورات الدين؟)(1)

وقبله قـال الحكيم الترمـذى فيمن تـرك الطلب والسـعى، وتواكـل بحجـة أن الـرزق يطلب العبد كما يطلبه أجله:(إن كانوا قعدوا ينبغى لهم أن يقومـوا وأن يطلبـوا، تحـرزا من الطمع وفساد القلب، فلا يضيع حق الزوجة والولد، برغم أن أرزاقهم على اللّه، فهذا تـارك للسبيل والسنة، لقوله تعالى:﴿ وَعَلَى الْمَوْلُـودِ لَـهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْـوَتُهُنَّ بِـالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقـرة: 233)(2)

وقبلهما قال سـهل بن عبـد اللّه:(من طعن فى الحركـة، فقـد طعن فى السـنة، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان، والتوكل حال النبى ﷺ، والكسب سـنته، فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته)(3)

---

1) الإحياء: 4/265.

2) آداب المريدين وبيان الكسب، للحكيم الترمذى، ص168.

3) طبقات الصوفية، ص465.

قلت: إن ما ذكرته عن الغزالي وهؤلاء الأولياء الكبار عظيم، وهو يفند كل شبهة في هذا الباب.. ولكني مع ذلك سمعت أن بعض من ينسب لأهل الله يقعون في أعمال من ترك الأسباب، وهم يفسرون بها التوكل، ويسيئون إليه أعظم إساءة.

قال: ولذلك بنى أهل الله هذا المنزل، ليدخلوا المريدين فيه إلى ممالك التوكل، ويحموهم من مهالكه.. وهذا الذي ذكرته من مهالكه.

لم أجد إلا أن أسرع إلي هذا المنزل المبارك، فأدخله، ويدخل معي إليه شيخي فيه ومرشدي (الخواص)، وقد رأيته منزلا ممتلئا بالبركات، وفيه من أنوار الإيمان واليقين، ومن حقائق السلام والسكينة ما لا يمكن للسان أن يعبر عنه.

الشكر:

مكثت مدة في منزل التوكل أتتلمذ على أهله، وأتدرب على أيديهم، وأحصل من العلوم ما أحتاج إليه لتحقيقه، حتى سكنت إليه سكونا كليا، وقلت في نفسي:(هذه هي داري التي كنت أبحث عنها، وفيها يطيب مقامي)

ما قلت ذلك في نفسي حتى جاءني أمر من شيخي (أبي مدين) يطلب مني أن أذهب إلى صاحبي السادس (الجنيد)، لأترقى على يديه إلى مقام (الشكر)، وأنزل منزله.

لم أجد إلا أن ألبي أمر شيخي.. فسرت إلى الجنيد الذي كان ينتظرني، وكأني معه على ميعاد، فما إن اقتربت منه حتى قال لي: هيا بنا إلى منزل الشكر.. فلا سار من لم ينزل ذلك المنزل..

قلت: إن السائرين إذن قليل.. فقد قال الله تعالى:﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: 13)؟

قال: الواصلون قليل.. أما السائرون.. فمنهم من يسير إلى منازل الملك، ومنهم من يسقط في مهاوي الهلك.

قلت: فما العاصم الذي يعصمنا من الهلك؟

قال: من تمسك بالملك، وبمن يرسله الملك، فلم يخطو خطوة إلا بحسب إشارته، وبعد إذنه وصل لا محالة إلى منازل الملك، ومن امتلأت نفسه بالأهواء، فراح يعرض عن رسول الملك، فإنه لا محالة سيقع في مهاوي الهلك.

قلت: ذكرتني بالشهود العدول.. فحدثني عن الشهود العدول الذي يشهدون لهذا المنزل.

قال: أما القرآن الكريم.. فقد تحدث عن الشكر آمرا وحاثا، كما تحدث عنه مثنيا ومرغبا:

أما حديثه عن الشكر آمرا وحاثا، فمنه قوله تعالى:﴿: فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي

وَلا تَكْفُرُونِ (البقرة:152)، وقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (البقرة:172)، وقوله: فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (النحل:114)

وأخبر تعالى أن الغرض من تصريف الآيات وبث النعم هو لفت القلوب إلى شكر مولاها، فقال: وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (لأعراف:58)، وقال: وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (لأنفال:26) وغيرها من الآيات الكريمة.

وقد أخبر الله تعالى أن هذا هو مقام أهل الله من أنبياء الله ورسله وأوليائه، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (ابراهيم:37)

وقال عن يوسف عليه السلام: وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (يوسف:38)

وقال عن سليمان عليه السلام: فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (النمل:19)، وقال عنه: قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (النمل:40)

وقال عن لقمان عليه السلام:)وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (لقمان:12)

وأخبر عن الفضل العظيم الذي خصصه لأهل هذا المنزل العظيم، فقال: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (ابراهيم:7)

قلت: هذا الشاهد الأول.. وهو الشاهد الأعظم.. فحدثني عن الشاهد الثاني، ذلك الذي مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (النجم)؟

قال: لقد وردت الروايات الكثيرة تحدث عن دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ بفعله وقوله ـ لهذا المقام العظيم من مقامات الدين.. ففي الحديث قال صلى الله عليه وآله وسلم:(من أكل من طعام، فقال: الحمد لله الذي أطعمتني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن لبس ثوبا جديدا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)(1)

(1) رواه أبو داود والحاكم، وليس في رواية الحاكم (وما تأخر)

وقال رسول الله ﷺ:(كل أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأ فيه بـ: الحمد لله، فهو أقطع)(1)

وقال رسول الله ﷺ: (إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمـرة فـؤاده؟ فيقولـون: نعم، فيقـول: فمـاذا قـال عبـدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع فيقـول اللـه تعـالى: ابنـوا لعبـدي بيتـاً في الجنـة، وسـموه بيت الحمد)(2)

وقال رسول الله ﷺ:(إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلـة فيحمـده عليهـا، ويشـرب الشربة، فيحمده عليها)(3)

وقال رسول الله ﷺ:(خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرا صابرا، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا، من نظر في دينه إلى من هو فوقـه فاقتـدى بـه، ونظـر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه كتبه الله شاكرا صـابرا، ومن نظـر في دينه إلى من هو دونه، ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فاسـف على مـا فاتـه منـه لم يكتبه الله لا شاكرا ولا صابرا)(4)

وقال ﷺ:(الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر)(5)

وقال ﷺ:(قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما ذكرتني شكرتني وإذا ما نسيتني كفرتني)(6)

وقال ﷺ:(قال موسى يا رب كيف شكرك ابن آدم؟ فقال: علم أن ذلـك مـني، فكـان ذلك شكره)(7)

وقال ﷺ:(قلب شاكر ولسان ذاكر وزوجة صالحة تعينك على أمور دنيـاك ودينـك خـير ما اكتنز الناس)(8)

وقال ﷺ:(لأنا أشد عليكم خوفا من النعم مني من الذنوب، ألا إن النعم التي لا تشـكر هي الحتف القاضي)(9)

---

1) رواه أبو داود وغيره.

2) رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ.

3) رواه مسلم.

4) رواه الترمذي.

5) رواه أحمد والترمذي وأبو داود والحاكم.

6) رواه الطبراني في الأوسط.

7) رواه الحكيم عن الحسن مرسلا.

8) رواه البهقي.

9) رواه ابن عساكر عن المنذر بن محمد ابن المنذر بلاغا.

وقال ﷺ:(هذا والذي نفسي بيده، من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد)(1)

وقـال ﷺ:(إن عبـدا من عبـاد اللـه قـال: يـا رب لـك الحمـد كمـا ينبغي لجلال وجهـك ولعظيم سلطانك، فأعضلت بالملكين، فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء، فقالا: يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها؟ فقال الله عزوجل ــ وهـو أعلم بمـا قالـه عبده ـ: ماذا قال عبدي؟ قالا: يا رب إنه قد قال: يا رب لك الحمد كمـا ينبغي لجلال وجهـك ولعظيم سلطانك، فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني عبدي فأجزيه بها)(2)

قلت: عرفت فضل الشكر.. فقد ملأتنا هذه النصوص المقدسة ترغيبـا فيـه.. فمـا هـو الشكر؟.. هل هو تلك الكلمات الـتي تقولهـا ألسـنتنا، وقلوبنـا غافلـة عن معناهـا؟.. أم هـو معاني معينة في القلب.. ومـا هي تلـك المعـاني؟.. ولم حكم اللـه بقلـة الشـاكرين؟.. ولم كانت لهم الزيادة دون غيرهم؟.. ولم كان هذا مقاما من مقامات التقديس؟.. ولم..

قاطعني، وقال: رويدك.. ليس في هذا المحل تتعلم هذه العلوم.. علوم الشكر لا تنال إلا في منازل الشكر.

قلت: لكني تعودت أن لا أدخل محلا حتى أكون عارفا بأصوله.. فما أصوله؟

قال: لقد ذكر أهل الله ـ الذين مزجـوا بين الفهـوم الراقيـة للنصـوص المقدسـة، مـع التجربة الروحية العالية ـ هذه الأصول، ورتبوها كما ترتب العلوم، فصار للشكر علمـا قائمـا بذاته له أصوله وفروعه وكل ما يرتبط به من أحكام.

قلت: لكني لا أرى هذا العلم يدرس؟

قال: تلك الغفلة.. الغفلة التي جعلتنا نهتم بنواقض الطهارة أكثر من اهتمامنا بنـواقض الشكر.

قلت: فما الحل؟

قال: الرجوع إلى الورثة الذين عرفوا هذا الدين.. وفهموه.. وعاشـوه.. ثم ذهبـوا بعـد ذلك كله يملأون المصنفات نصحا لعباد الله.

قلت: لقد ذكر لي من قبلك أن كل مقام ينتظم من علم وحال وعمل.

قال: وهكذا الشكر.. فكل شيء ينتظم من علم وحال وعمل..

قلت: فما **علم** الشكر؟

قال: هو ينتظم من ثلاثة أمور: عين النعمة، ووجه كونها نعمة في حقه، وبـذات المنعم

1) رواه الترمذي.

2) رواه ابن ماجة.

ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه.

قلت: هذا ما تقتضيه القسمة العقلية، ذلك أنه في كـل نعمـة من النعم لابـد من هـذه الثلاثة: نعمة، ومنعم، ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة.

قال: هذا في الشكر عموما.. أما في حق الله تعالى، فلا يتم الشكر إلا بأن يعـرف أن النعم كلها من الله تعالى، وأنه هو المنعم الوحيد، وأن الوسائط مسخرون من جهته.

وتتأسس هذه المعرفة على التقديس، وذلك بأن يعرف أن الله هـو القـدوس، وأنـه لا مقدس إلا واحد، وما عداه غير مقدس.. ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلـك الواحد فقط، فالكل نعمة منه، فتقع هـذه المعرفـة في الرتبـة الثالثـة، إذ ينطـوي فيهـا مـع التقديس والتوحيد: كمال القدرة والانفراد بالفعل.

وقد عبر رسول الله ﷺ عن هذا، فقال:(من قال سبحان اللـه والحمـد للـه ولا إلـه إلا الله والله أكبر كتب له بكل حرف عشر حسـنات)(1)، وقـال:(أفضـل الـذكر لا الـه الا اللـه، وأفضل الدعاء الحمد لله)(2)، وقال:(والحمد لله تملأ الميزان)(3)

فسبحان الله كلمة تدل على التقديس، ولا إله إلا الله كلمة تدل على التوحيد، والحمد لله كلمة تدل على النعمة من الواحد الحق.. والحسنات بإزاء هـذه المعـارف الـتي هي من أبواب الإيمان واليقين.

وتمـام هـذه المعرفـة ينفي الشـرك في الأفعـال، فمن أنعم عليـه ملـك من الملـوك بشيء، فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلاً في تيسـير ذلـك وإيصـاله إليـه فهـو إشـراك بـه في النعمة، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجـه، بـل منـه بوجـه ومن غـيره بوجـه، فيتـوزع فرحه عليهما فلا يكون موحداً في حق الملك.

قلت: وعيت هذا، فلا يشكر إلا من أفرد الله بالشكر، واعتقد أن الخير كله بيده.. فمـا يثمر هذا من **الأحوال**؟

قال: لقد اختلفت تعابير أهل الله عن تلك الحال اللذيـذة الـتي يجـدونها عنـد حصـول هذه المعرفة في قلوبهم..

فقال بعضهم:(لست بشاكر مادمت تشـكر، وغايـة الشـكر التحـير، وذلـك أن الشـكر نعمة من الله يجب الشكر عليها وهذا لا يتناهى)

وقال آخر:(شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليا)

وقال آخر:(الشكر معرفة العجز عن الشكر)

---

1) رواه ابن أبي الدنيا بإسناد لا بأس به.

2) رواه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان.

3) رواه مسلم.

وقال آخر:(الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة)

قلت: فما تقول أنت؟

قال: إن الملك الذي يريد الخروج إلى سفر، فيهدي فرسا لبعض الناس.. فـإن هـؤلاء الناس سينقسمون في فرحهم بالفرس إلى ثلاثة أقسام:

أمـا الأول، فيفرحـون بـالفرس من حيث إنـه فـرس.. وهـذا فـرح من لاحـظ لـه في الملك، بل غرضه الفرس فقط، ولو وجده في صحراء فأخذه، لكان فرحه مثل ذلك الفرح.

أما الثاني، فيفرحون به لا من حيث إنه فرس، بل من حيث يسـتدلون بـه على عنايـة الملك بهم، وشفقته عليهم واهتمامه بجانبهم، ولو وجـد هـؤلاء هـذا الفـرس في صـحراء أو أعطـاهم إيـاه غـير الملـك لكـانوا لا يفرحـون بـه أصـلاً لاسـتغنائهم عن الفـرس أصـلاً أو استحقارهم له بالإضافة إلى خلوه من نيل المحل في قلب الملك.

أما الثالث، فيفرحون به لأجل الخروج به في خدمة الملك، فيتحملـون مشـقة السـفر لينالوا بخدمته القرب منه، وهم لا يريدون من ذلك إلا مشاهدة الملك والقرب منه، حتى لو خيروا بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختاروا القرب.

قلت: عرفت أحوال الشاكرين للملك الذي أهدى فرسا، فما حال الشاكرين لله الـذي أعطى من النعم ما لا يحصى؟

قال: هم كذلك ثلاثة.. وبينهما درجات لا يعلمها إلا الله:

أما الأولون، فحالهم كحال الذي يفرح بالفرس لا بالمعطى، وهـذا حـال كـل من فـرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه، وهو بعيد عن معنى الشكر.

وأما الثانية، فهي داخلـة في معـنى الشـكر من حيث إنـه فـرح بـالمنعم، ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الإنعام في المسـتقبل، وهـذا حـال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه.

أما الشكر التام فهو في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة اللـه تعـالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام، فهذا هو الرتبة العليا.

قلت: وعيت هذا، فما **الأعمال** التي تثمرها هذه الأحوال؟

قال: لقد عبر الشاعر عن ذلك وأحسن، فقال:

أفـــــادتكم النعمـــــاء مـــــني ثلاثة	يـــدي ولســـاني والضـــمير المحجبا

وقد قيل للجنيد ـ وهو ابن سبع سنين ـ: يا غلام ما الشكر؟ فقـال: (أن لا يعصـى اللـه

بنعمه)

قلت: ما يعني هذا؟

قال: من فرح بشيء فرحا استولى على كيانه، فإنه لا محالة سيتحرك بموجب ما يهديه إليه فرحه.. فمن فرح بمركوب ركبه، ومن فرح بمأكول أكله.. ومن فرح بشيء ارتبط به.

وهكذا فرح من رأى نعم الله عليه، فإنه لا محالة يستعملها.. ولكن الفرق بين استعماله لها واستعمال غيره هو أنه يستعملها في طاعة مولاه الذي أهداها له.. فلا يحق لمن أهديت له هدية أن يستعملها في مضادة من أهداها له.

قلت: فاضرب لي أمثلة على ذلك.

قال: شكر القلب ــ مثلا ــ وهو تصور النعمة، والاعتراف بها للمنعم، والعزم على طاعته، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ:(عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له)(1)

وشكر اللسان ـ مثلا ـ هو الثناء على المنعم بفضله، ومما يروى في ذلك أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماءٍ كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (أصبح من عبادي مؤمنٌ بي، وكافرٌ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب)(2)

وهكذا شكر سائر الجوارح، فشكرها هو مكافأة النعمة بفعل الجوارح من خلال خضوعها واستجابتها لأمر الله تعالى ونهيه، كما قال تعالى:﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: 13)

وقد روي أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقيل له: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: (أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً؟)(3)

قلت: سلمت بهذا، ووعيته.. ولكن شبهة ترد على خاطري.. وربما ترد على خواطر الكثير، وهي أن في الشكر حظا للمشكور.. وبما أن الله غني عن عباده غنى مطلقا، فكيف يطلب منا أن نشكره، وكيف يعتبر الشكر مقاما من مقامات الوصول إليه؟

قال: تعالى الله عن الحظوظ.. فالله هو الغني الحميد، وكل ما نفعله ليس إلا

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

لمصالحنا.. فالله الكريم الجواد الحكيم اللطيف بعباده، اقتضى جوده وحكمته أن يرتبا لطفه بعباده على أسباب من العبادة والسلوك.. وليس لله من ذلك شيء.

لقد قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي يشير إلى ذلك:(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضالٌ إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائعٌ إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني فأعطيت كل إنسانٍ مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[1]

قلت: شبهة أخرى تعرض لي، كما تعرض لغيري.. ولست أدري الجواب فيها.. أنا أعلم أن كل ما نتعاطاه باختيارنا نعمة من نعم الله.. فكيف نشكر نعمة بنعمة، وهل يمكن أن يشكر أحد نعمة بنعمة أخرى؟

قال: لقد خطر هذا الخاطر لداود وموسى ـ عليهما السلام ـ فقال كلا منهما لله: يا رب كيف أشكرك، وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟ فأوحى الله تعالى إلى كل منهما: (إذا عرفت هذا فقد شكرتني)

كنا نسير، ونحن نتحدث هذه الأحاديث.. وكانت الطريق المؤدية إلى منزل الشكر في منتهى الجمال، فالأزهار تحيط بها من كل جانب.. والروائح العطرة تملؤنا بنشوة إيمانية عظيمة.. وفوق ذلك كانت الطيور تحلق فوق رؤوسنا، لتمتعنا بأجمل ما وهبها الله من ألحان.

ما إن وصلت مع الجنيد إلى منزل الشكر حتى وجدتني مستغرقا استغراقا كليا في مشاهدته والتنعم بجماله.. لقد كان منزلا لا يمكن لأحد في الدنيا أن يصفه.. ولذلك غفلت عن صاحبي، ورحت أسرع في الدخول إليه.. وقد وجدت في داخله ما لا تسع بحار الدنيا التعبير عنه.

الصدق:

بعد أن مكثت ما شاء الله لي أن أمكث في منزل الشكر جاءني أمر من شيخي أبي مدين بأن أسير صحبة أبي يزيد البسطامي إلى منزل الصدق.. فلم أجد إلا أن أطيعه.. فسرت إلى أبي يزيد.. وقد كان أول ما قال لي أبو يزيد: أجئت تطلب مقام الأنبياء؟

1) رواه مسلم.

قلت: لا طاقة لي بهذه التعابير.. فكف عني يا أبا يزيد.. وحدثني بما يعرفه الناس، فإني لا أريد للساني أن يقع في أي شطحة من الشطحات.

قال: لقد وصف الله أنبياءه بالصديقية.. ولذلك فالمتحقق بالصدق عندنا متحقق بمقام من أعظم مقامات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لقد قال الله تعالى في إبراهيم ﷺ: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ (مريم: 41)، وقال في إدريس ﷺ: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ (مريم: 56)، وقال في إسماعيل ﷺ: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ (مريم: 54)، وقال في يوسف ﷺ: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ (يوسف: 46)

قلت: فما دام الأمر خاصا بالأنبياء.. فليس لي حق في أن أطلب ما لا يكون.

قال: إن الأنبياء هم محل القدوة.. والله لم يرسلهم إلا لنسير على خطاهم ونهتدي بهديهم، ألم تسمع قوله ﷺ:(من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جبينه غير أنه لا يوحى إليه)[1]؟

قلت: بلى.. وصدق رسول الله ﷺ.

قال: وهكذا الصدق.. فمن كان له حظ من الصدق كان له حظ من النبوة..

قلت: لم أسمع النص يذكر هذا..

قال: لا بأس.. فلنترك هذا.. فقد ورد في النصوص المقدسة اعتبار الصادقين من أرفع الناس درجة.. قال الله تعالى:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات:15)، وقال تعالى:﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر:8)، وقال تعالى:﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:23)

وأخبر تعالى بأن الغرض من أنواع البلاء هو تمحيص الصادقين وتمييزهم عن غيرهم، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت:3)

وأخبر عن الجزاء العظيم المعد للصادقين، فقال:﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (المائدة:119)

ولهذا كله أمر الله تعالى بالصدق، وبالكينونة مع الصادقين، فقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة:119)

---

1) رواه الطبراني.

قلت: هذا الشاهد الأول.. فهات الشاهد الثاني.

قال: لقد وردت الروايات الكثيرة عن النبي ﷺ تبين فضل الصدق وعظم درجة الصادقين، فقد قال النبي ﷺ: (إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)(1)

وقال ﷺ:(دع ما يريبك إلى ما لا يبريبك؛ فإن الصدق طمأنينةٌ، والكذب ريبةٌ)(2)

وقال: (من سأل الله، تعالى، الشهادة بصدقٍ بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه)(3)

وقال:(البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما)(4)

وجاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما عمل الجنة؟ قال: الصدق، إذا صدق العبد بر، وإذا بر آمن، وإذا آمن دخل الجنة، قال: يا رسول الله، وما عمل النار؟ قال: (الكذب، إذا كذب العبد فجر، وإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل النار)(5)

وحذر ﷺ في مقابل ذلك من الكذب، واعتبره من خصال المنافقين، فقال:(أربعٌ من كن فيهن كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن، كانت فيه خصلةٌ من نفاقٍ حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)(6)

وقال ﷺ:(من تحلم بحلمٍ لم يره، كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قومٍ وهم له كارهون، صب في أذنيه الآنك يوم القيامة، ومن صور صورةً، عذب، وكلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخٍ)(7)

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الصدق.. أليس هو مطابقة كلامنا للواقع؟

قال: الكلام جزء من تصرفاتنا، ومطابقته للواقع لا تعدو مطابقة جزء من تصرفاتنا للواقع.. والصدق أخطر من ذلك بكثير.

قلت: فما مجالاته إذن؟

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه الترمذي وقال: حديثٌ صحيحٌ.

3) رواه مسلم.

4) رواه البخاري ومسلم.

5) رواه أحمد من رواية ابن لهيعة.

6) رواه البخاري ومسلم.

7) رواه البخاري.

قال: لقد تحدث أهل الله عن الكثير من مجالاته.. وقد جمعها بعضهم في ستة معـان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصـدق في الوفـاء بـالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها.

فمن اتصف بالصدق في جميع هذه المعاني فهو صديق لأنه تحقق بالصدق في جميـع معانيه.. ثم هم أيضاً على درجات، فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهـو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه.

قلت: فحدثني عن **صدق اللسان**.

قال: صدق اللسان هو أن يطابق القول الواقع.. سواء كان ذلـك في الإخبـار، أو فيمـا يتضمن الإخبار وينبه عليه.. وبما أن الخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، فإن الوفـاء بالوعد والخلف فيه يدخل في هذا النوع من الصدق.

قلت: إن صدق اللسان معروف مشهور.. وأكثر الناس يحصر الصـدق فيـه.. فحـدثني عن **صدق النية والإرادة**.

قال: النية الصادقة هي التي تتوجه إلى الله بصدق وإخلاص، فلا يكـون لهـا من بـاعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجها شوب من حظوظ النفس بطل صدقها.

ولـذلك ورد في حـديث الثلاثـة الـذين هم أول من تسـعر بهم النـار قولـه ﷺ:(إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشـهد فـأتى بـه فعرفـه نعمـه فعرفهـا، قـال: فمـا عملت فيها؟ قال: قاتلت فيـك حـتى استشـهدت، قـال: كـذبك ولكنـك قـاتلت ليقـال فلان جريء، فقد قيل ثم أمر ثم أمر به فسـحب على وجهـه حـتى ألقي في النـار، ورجـل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فرفعها قال: قـال: فمـا عملت فيهـا؟ قـال: تعلمت العلم وعلمته ومن قـرآت فيـك القـرآن. قـال: كـذبت ولكنـك تعلمت ليقـال عـالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر بن فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى بـه فعرفـه نعمـه فعرفهـا. قـال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيهـا لـك قـال: كـذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر فسحب على وجهه حتى ألقي في النار)(1)

ولذلك قال تعالى عن المنافقين: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَـافِقُونَ قَـالُوا نَشْـهَدُ إِنَّكَ لَرَسُـولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَـاذِبُونَ (المنـافقون:1)، فمـع أنهم قـالوا (إنك لرسـول اللـه)، وهـذا صـدق، ولكن كـذبهم، لا من حيث نطـق اللسـان، بـل من حيث ضمير القلب.

قلت: فحدثني عن **صدق العزم**.

قال: ألا ترى أن الإنسان قد يقدم العـزم على العمـل، فيقـول في نفسـه: إن رزقـني الله مالاً تصدقت بجميعه، أو بشـطره.. أو إن أعطـاني اللـه تعـالى ولايـة عـدلت فيهـا ولم

1) رواه مسلم.

أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق؟

قلت: بلى.. كلنا يقول ذلك.

قال: فهذه العزيمة قد يصادفها حقيقة من نفسه وهي ــ حينذاك ــ عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة.

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن **صدق الوفاء بالعزم**.

قال: قد تسخو النفس بالعزم في الحال.. إذ لا مشقة في الوعد والعزم.. ولكنه إذا حقت الحقائق، وحصل التمكن، وهاجت الشهوات، انحلت العزيمة، وغلبت الشهوات، ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه.

لقد قال الله تعالى يشير إلى هذا النوع من الصدق:﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: 23)

لقد روي في هذا عن أنس قال: عمي أنس بن النضر سُميت به، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر، فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبْتُ عنه، لئن أراني الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيَنَ الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبل سعدَ بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو، أينْ، واهًا لريح الجنة أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قُتل قال: فَوُجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته ـ عمتي الرُّبَيّع ابنة النضر ـ: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه، قال: فنزلت هذه الآية:﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: 23)، قال: فكانوا يُرَون أنها نزلت فيه، وفي أصحابه(1).

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن **صدق الأعمال**.

قال: هو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به..

قلت: أتقصد أن لا يعمل حتى يأنس من نفسه الصدق في عمله؟

قال: لا.. لا أقصد أن يترك الأعمال الظاهرة.. ولكن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر.

قلت: فاضرب لي مثالا على ذلك.

قال: من قام في الصلاة ـ مثلا ـ على هيئة الخشوع في صلاته، وهو ليس يقصد به مشاهدة غيره، ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته.. فهذه أعمال تعرب بلسان

---

1) رواه مسلم وغيره.

الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب.

قلت: إن ما ذكرته شديد.. فما المنجاة منه؟

قال: بتعلم علوم الصدق.. وهي العلوم التي تجعل سريرته تستوي مع علانيته، فيكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره.

قلت: لقد ذكرتني بقول الشاعر:

إذا السـر والإعلان في	**فقـد عـز في الـدارين**
فإن خالف الإعلان سراً فما	على سعيه فضل سوى الكـد
فمـا خـالص الـدينار في	ومغشوشـه المـردود لا

قال: لقد قال رسول الله ﷺ في دعائه يشير إلى هذا:(اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي واجعل علانيتي صالحة)(1)

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن **الصدق في مقامات الدين.**

قال: ذاك أعلى أنواع الصدق وأعزها.. فلجميـع مقامـات الـدين من الخـوف والرجـاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكـل والحب وغيرهـا.. مبـاد ينطلـق الاسـم بظهورهـا، ثم لهـا غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها.

ولهذا قال تعالى في وصفه لأعمال:﴿ إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ آمَنُـوا بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات:15)

قلت: فاضرب لي مثلا يقرب لي ذلك.

قال: سأضرب لك مثلا بالخوف من الله أو الخشية منه.. لا شك أنك تعرف أنـه مقـام من مقامات الدين؟

قلت: أجل.. وهو من مقامات التطهير.. وقد مررت على منزله.

قال: ألا ترى أنه ما من عبد يؤمن بالله واليـوم الآخـر إلا وهـو خـائف من اللـه خوفـاً ينطلق عليه الاسم، ولكن الحقيقة تجعل الخائفين الصادقين قلة قليلة جدا؟

قلت: كيف ذلك؟

قال: أما ترى حال أكثر هؤلاء إذا خافوا سلطاناً أو قاطع طريق، كيف تصـفر ألـوانهم، وترتعـد فرائصـهم، وتتنغص معيشـتهم، ويتعـذر عليهم الأكـل والنـوم.. وقـد يـنزعجون عن الوطن فيستبدلون بالأنس وحشة، وبالراحة تعبا وبالمشقة تعرضا للأخطار؟

قلت: أجل.. وحق لهم ذلك.. فمثل هذا الخوف طبيعة لا يمكن الانفكاك عنها.

1) رواه الترمذي.

قال: ولكنهم مع لا يظهر عليهم عند ذكر النار وشدة عذابها ما يظهر عليهم عند ذكر اللصوص.. مع أن النار أخطر وأعظم جلبا للخوف.

قلت: ذلك صحيح.. وقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها)(1)

قال: ولهذا، فإن الصادق هو الذي لا يثق في نفسه.. بل يسلمها لمن يثق فيه من أهل الله ليربيها ويهذبها ويجعلها صالحة لربها.

قلت: فهل أجد في هذا المنزل من أهل الله من يدلني على هذا حتى أصحح من نفسي ما تدعيه؟

قال: هذا المنزل هو منزل التصحيح.. وهو المنزل الذي تكشف فيه الروح عن حقيقتها لتهذب وتصفى وتصبح صالحة لربها.

قلت: فهلم بي إليه..

دخلت منزل الصدق.. وقد كان منزلا في منتهى الجمال والقوة واللذة.. ولولا ما جاءني من أمر شيخي أبي مدين لما خرجت منه.

المحبة:

بعد مكوثي مدة طويلة في منزل الصدق أتعلم علومه، وأتأدب بآدابه، جاءني أمر من شيخي أبي مدين لأرحل معه إلى منزل المحبة.. ذلك المنزل الذي يتربع على أعلى قمة من قمم الجبال المحيطة بتلمسان.

ما إن دخلت على شيخي أبي مدين حتى أشار إلى قمة الجبل الذي بني فيه منزل المحبة، وقال: هلم بنا إلى ذلك المنزل..

قلت: لا طاقة لي بتسلق الجبال..

قال: من لم يطق صعود الجبال لن ينال من هذا الطريق إلا الفتات.. فإن رضيت بالفتات، فاذهب إلى شأنك.. وإن أردت الكمال.. فهيا معي إليه.

قلت: لم لم يبن ذلك المنزل في هذه السفوح.. أو ـ على الأقل ـ في تلك التلال؟

قال: حتى لا يدعي المحبة إلا من هو أهل لها.. فالمحبة هي غاية الغايات، ومقصد المقاصد..

قلت: أعلم أن المحبة هي غاية الغايات ومقصد المقاصد.. ولكن لم لم يسهل لها الطريق كما سهل للشكر طريقه؟

1) رواه الترمذي.

قـال: المحبـة في حقيقتهـا تعـني المحـو والفنـاء والـذوبان.. فلـذلك لا يحب إلا من استرخص روحه في سـبيل محبوبـه.. فـأول خطـوة في المحبـة هي قتـل النفس في ذات الله:

قلت: أليس هناك خلاف في هـذا.. فـإني أحب أن أفـر من الشـدة إلى اليسـر.. وقـد علمت أن رسول الله ﷺ (ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما حتى يكـون إثمـا، فـإذا كـان إثما كان أبعد الناس من الاثم)(1)؟

قال: ليس هناك خلاف في هذا.. ولهذا شرط اللـه تعـالى لحقيقـة الصـدق في الحب القتال في سبـيل الله، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُـوصٌ﴾ (الصـف:4)، وقـد روي في سـبب نزولهـا أن المؤمـنين قـالوا:(لـو نعلم أحب الأعمال إلى اللّه لعملنا به، فدلهم اللّه على أحب الأعمال إليه)

ولهذا كان من علامة حب اللـه حب المـوت في ذات اللـه، كمـا قـال تعـالى مخاطبـا اليهود الذين زعموا أنهم أحباب الله وأولياءه: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَـادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَـاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الجمعة:6)

وقد قال البويطي لبعض الزهاد:(أتحب الموت؟) فكأنه توقف، فقال: لـو كنت صـادقاً لأحببته، وتلا قوله تعالى: ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الجمعة:6)، فقال الرجـل: فقـد قال النبي ﷺ:(لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ المَوْتَ)(2)، فقال: (إنما قاله لضر نزل به، لأنّ الرضا بقضـاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه)(3)

قلت: فإن هذا يجعل من أهل هذا المنزل أفرادا؟

قال: لقد قال الله تعالى يبين قلة هذا النوع من السـالكين: ﴿ وَالسَّـابِقُونَ السَّـابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآَخِرِينَ (14)﴾(الواقعة)

قلت: فصف لي أهل هذه المنزل.. لعل ما تصفه منهم يشوقني إليهم، وإلى المــنزل الذي سكنوا فيه.

قال: لقد جاء في أثر إلهي أوحى اللـه بـه إلى بعض أهلـه في وصـفهم:(إن لي عبـاداً أحبهم ويحبونني، ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم ويذكرونني وأذكرهم، وينظـرون إليَّ وأنظـر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتـك)، فقـال: يـا رب ومـا علامتهم؟

---

1) رواه أحمد وعبد الرزاق.

2) رواه مسلم وغيره.

3) ومع ذلك، فهناك أسباب يمكن كراهية الموت بسببها مع تحقق المحبة، وقد أشار إلى مجـامع ذلـك الغـزالي في قوله:(فإن قلت: من لا يحب الموت فهل يتصوّر أن يكون محباً لله؟ فأقول: كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد، وهذا ينافي كمال حب الله تعالى لأنّ الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة، فإنّ الناس متفاوتون في الحب) انظـر: الإحيـاء: (4/331

قال: (يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جنهم الليل، واختلط الظلام، وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم وافترشوا إلى وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إليَّ بإنعامي، فبين صارخ وباكي وبين متأوّه وشاكي بعيي ما يتحلمون من أجلي وبسمعي ما يشتكون من حبي. أوّل ما أعطيهم أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم. والثالثة: أقبل بوجهي عليهم أفترى من أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟)

ما قال ذلك حتى شعرت بروحي ترق، وبجسدي يشف معها، وما هي إلا لحظات قصار حتى وجدت نفسي بقرب ذلك المنزل الذي لم أجد في حياتي منزلا أجمل ولا أكمل ولا أقدس منه.

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة السادسة من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب.. ولم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تنزلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

سألت صاحبي عن أبي مدين وكيف تركه، فقال: لقد تركته يمد يديه إلى الناس يبايعهم على السير في طريق الله، وقد كثر أتباعه كثرة لم أكن أتصور أن تبلغ ما بلغت.

قلت: فما رأيت من سر ذلك؟

قال: لقد وضع الله تعالى في الإنسان ما يملؤه بالأشواق إليه.. ولذلك قد يشرق الإنسان أو يغرب، وقد يتيه ما يتيه، ولكنه لا يجد في الأخير ملجأ إلا عند الله.

قلت: عند الله.. لا عند أبي مدين.

قال: ألا تعلم أن الله إذا أراد أن يهبك الشفاء دلك على الطبيب النطاسي الذي يخلصك من دائك؟

قلت: ذلك صحيح..

قال: فكذلك إذا أراد الله لقلبك الشفاء دلك على أهله العارفين به الذين إذا رؤوا ذكر الله..

قلت: ففي الإسلام رجال دين إذن هم واسطة بين العباد وربهم؟

قال: هم وسائط هداية ودلالة، لا وسائط وزارة وتدبير.. وهم لا يختلفون عن الفقهاء، بل يكملونهم.. فالفقيه يعتني بإصلاح الظواهر ليجعلها موافقة للشريعة، وهؤلاء يعتنون

بإصلاح البواطن ليجعلوها محلات صالحة لتنزل المواهب الإلهية.

سابعا ـ الخطيب

قلت: فحدثني عن رحلتك السابعة.

قال: بعد خروجي من تلمسان سرت قاصدا مدينة (فاس).. تلك المدينة العريقة التي تشرفت بأن بناها حفيد من أحفاد رسول الله ﷺ (1).. قدم إليها بما معه من الحرص على دين الله ليبني فيها أسس حضارة نشرت أشعتها على جميع المغرب العربي.. بل امتد شعاعها إلى جميع العالم الإسلامي فترة طويلة من الزمان.

كان الظرف الذي نزلت فيه هذه المدينة قاسيا.. فقد كانت الأحقاد الصليبية التي مثلها المستعمر تملأ المدينة بأجواء من الرعب والفتنة..

في ذلك الجو الذي أحسست بضيقه على نفسي.. كما أحسست بضيقه على نفوس الناس.. التقيت حامل مشعل (الخطابة) من مشاعل الهداية النبوية.. وهو العلامة الأديب الخطيب المناضل (محمد علال الفاسي)(2)

لقد استعمل الصليبيون الحاقدون كل ما لديهم من أساليب لقمع سكان مدينة فاس الطيبين.. فلم يعد أحدهم يجرؤ على أن ينبس ببنت شفة منافحا عن حق، أو صادا عن باطل..

لقد كان الصوت الوحيد الذي يسمعه أهل فاس صباحهم ومساءهم هو أصوات الحقد المحمية بالقنابل والمدافع وجميع ما أنتجته هذه الحضارة من وسائل الدمار.

لكن محلا واحدا غفل عنه أولئك الصليبيون، أو اطمأنوا إلى سكونه، فلم يخطر على بالهم إلزامه بما ألزموا به غيره من الصمت.. كان ذلك المحل هو المنارة التي استطاعت أن تطفئ جميع الظلمات التي نشرها المستعمر الصليبي الحاقد.

لقد كان ذلك المحل هو المسجد.. وكانت المنصة التي قاومت جميع الأحقاد، وكانت السبب الأكبر في تطهير فاس من رجسها، هي المنبر الذي اعتلاه رسول الله ﷺ ليؤسس من خلاله مدينة الإسلام وحضارة الإسلام وقيم الإسلام.. وكان الرجل الذي ورث رسول الله ﷺ أحسن وراثة في اعتلائه ذلك المنبر هو (محمد علال الفاسي)

دعني أقص عليك قصة التقائي به من البداية..

كنت أسير في بعض الأحياء في تلك المدينة.. ممتلئا إعجابا بما ضمته من حضارة

---

(1) تأسست مدينة فاس عام 193هـ، على يد مولاي إدريس بن إدريس من نسل الحسن بن علي الذي اتخذها عاصمة له.. وقد ظلت في أكثر عهودها عاصمة للمغرب حتى احتل الفرنسيون المغرب في عام 1912.

(2) نشير به إلى محمد علال الفاسي (1326 ـ 1394 هـ)، وهو أحد رواد الفكر الإسلامي، وبطل النضال الزعيم السياسي والمقاوم الصامد والأستاذ الخطيب الأديب محمد علال ابن العلامة الخطيب المدرس الكاتب المفتي عبد الواحد عبد السلام بن علال الفهري نسبا، القصري ثم الفاسي مولدا ودارا ومنشأ.. وكان خطيبا شاعرا صاحب قضية قضى حياته كلها من أجلها.. ولذلك اخترناه لهذا الفصل، بالإضافة إلى كونه من رواد التقريب بين المذاهب الإسلامية.

عريقة..

وقفت قرب جامع القرويين أتأمل شموخ بنيانه، وصمود أركانه رغم كل تلك السنين الطوال التي مرت به[1].. ولست أدري كيف رحت، والغضب قد استفزني، أخاطب نفسي، وكأنني أنفس عنها ما امتلأت به من ضيق.. لقد رحت أقول ــ وأنا أجتهد أن أكتم أنفاسي قدر ما استطعت ــ: ارحلوا أيها الحاقدون من هذه البلاد.. فهذه البلاد ليست بلادكم.. وهذه الأرض ليست أرضكم.. وهؤلاء الناس الطيبون ليسوا شعبكم..

ارحلوا.. وإن شئتم أن ترجعوا بعدها، فارجعوا إخوانا لا أعداء، وتلاميذ لا أساتذة، فهؤلاء الذين تغزونهم وتستعمرونهم وتستسخرونهم هم مشاعل النور التي يهتدى بها، وهم مسالك السلام التي تحفظ البشر والأرض من الصراع..

بينما أنا كذلك أخاطب نفسي بهذا ومثله.. وفي قلبي من الغليان ما لا يعلمه إلا الله.. شعرت بشخص يقترب مني، ثم يخاطبني بصوت جهوري جميل قائلا: ارفع بها صوتك.. لتعلو برفعه الرايات، وتنتشر المكرمات.

قلت: أنت صاحب المشعل الثامن من مشاعل الهداية إذن؟

قال: إن كان الخطيب هو صاحب ذلك المشعل، فأنت أمامه؟

قلت: لكني لا أرى للخطابة أي تأثير..

قال: عندما يكون الخطيب ميتا، فلن يكون لخطبته أي تأثير، فلا يمكن للميت الذي لا يملك الحياة أن ينشر الحياة في غيره.

قلت: أيمكن أن يعلو ميت تلك الخشبة المقدسة التي تشرفت بصعود رسول الله ﷺ على درجاتها؟

قال: ما أكثرهم.. ما أكثر أولئك الميتين الذي ينشرون الموت.

قلت: فكيف يحيون؟

قال: أترى هذا الجامع؟

قلت: أجل.. وكيف لا أراه.. إنه جامع القرويين.. قد كنت أسمع أحاديث عذبة عنه، وأنا الآن بين يديه.

قال: في هذا المسجد نجمع الخطباء لنعيد لهم الحياة.. ولنعيد لخطبهم الحياة.

---

1) يعتبر جامع القرويين بفاس من بين المعاهد العلمية التي ظلت تقوم بدورها التعليمي منذ إنشائها إلى زماننا هذا، بل يُعد أقدم جامعة علمية في العالم، وذلك بدليل أن جامعة بولونيا الإيطالية أسست عام 1119م، 513هـ، وجامعة أكسفورد الإنجليزية عام 1229م، 627هـ، وجامعة السوربون الفرنسية أسست في القرن الثالث عشر الميلادي، وتم بناء مبناها في القرن السابع عشر الميلادي.

بينما أسس جامع القرويين في الأول من رمضان عام 245هـ، 30 نوفمبر عام 859م.

قلت: بم؟.. ألديكم الإكسير الذي ينشر الحياة في الموتى؟

قال: أجل.. لقد ترك لنا رسول الله ﷺ هديا كثيرا، وقد اهتدينا به للوصول إلى هذا الإكسير.. فإن شئت أن تنال شيئا منه لتبشر به، فهلم معي.

قلت: وأولئك الغلاظ.. أتراهم مطمئنين إلى ما أنتم فيه؟.. ألا تخشى أن يداهموننا ليخرجوننا إلى المعتقلات والسجون، أو يصبوا فينا ما علمتهم الشياطين من فنون سفك الدماء؟

قال: لقد ترك لنا رسول الله ﷺ من فنون الحكمة ما نتقي به شرهم..

قلت: أتحتالون عليهم؟

قال: كما احتال الغلام على الساحر.. وكما احتال نعيم بن مسعود على جيوش المشركين.. نحن هنا لا نتقن شيئا كما نتقن فنون الحيل.. فلا يمكن لمن تعوزه مثل هذه الفنون أن يفعل شيئا.

قلت: لكني لا أزال أسمع بذم الحيل.. وقد ذكر الله تعالى عن أهل السبت ما ذكر.

قال: تلك حيل أهل السبت، وهي حيل من إملاء الشياطين لخدمة أهواء النفوس.. أما حيلنا فليس لها من هدف إلا رفع رايات الحق، ونشر مكرمات الفضائل.

قلت: فما العلوم التي تعلمونها في هذا الجامع؟

قال: كثيرة..

قلت: لقد شرفني الله، فتعلمت في كثير من مدارس الإسلام..

قاطعني، وقال: لذلك ستقتصر هنا على تعلم الخطابة.. فلا يمكن لمن يريد أن يكون داعية إلى الله أن يغفل عن تعلم هذا العلم.

***

دخلنا جامع القرويين، فرأيت فروعا كثيرة، فسألت الفاسي عنها، فقال: في كل ركن من هذه الأركان نعلم فنا من فنون الهداية وعلما من علومها.

قلت: فأين ركن الخطابة.. ذلك الذي تريد مني أن أتعلمه؟

قال: لن تدخله إلا بعد أن تمر على بعض الناس، فإن رأوك أهلا له أذنوا لك بالدخول، وإلا ردوك بالتي هي أحسن.

ذهب بي الفاسي إلى محل اختبار الخطباء، وطلب منهم النظر في قدراتي، ومدى استعدادها لهذا الفن من فنون الهداية.

بعد اختبارات كثيرة منها ما يرتبط بالعلم، ومنها ما يرتبط بالقدرات الصوتية، ومنها ما يرتبط بالنضج التربوي، ومنها ما يرتبط بالنواحي الأمنية.. أذن لي بالدخول إلى قاعة الخطابة، وقد تعجبت إذ وضعوا على عيني عصابة حتى لا أرى شيئا.

وبعد أن سرت في سراديب كثيرة، فتحوا العصابة عن عيني، فوجدت نفسي في مغارة تملأ النفس رعبا، التفت، فرأيت ناسا كثيرين، كل منهم يعتلي صخرة، ويخطب بقوة، وكأنه أمام الجماهير العريضة من الناس.

سألت الفاسي عن سر هذا، فقال: نحن هنا نعلم الخطباء جميع فنون الخطابة.

قلت: فلم اخترتم هذه المغارة؟.. ولم عسرتم السبيل إليها كل ذلك التعسير؟

قال: لسببين: أما أولهما، فهو ما رأيته من أولئك المصارعين الذين ملأوا الأرض لهيبا والنفوس ظلمات.. وأما الثاني، فما عبر عنه الحكيم بقوله:(ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لن يتم نتاجه)

قلت: فهمت الأول، ولم أفهم الثاني؟

قال: ألم تتعلم في مدرسة أبي مدين ما يحمله الجاه من بذور الانحراف؟

قلت: بلى.. لقد عرفت أنه سم زعاف، لا يحل بنفس إلا أوردها المهالك.

قال: فالمنبر الذي يرتقي عليه الخطيب هو المزرعة التي يستنت فيها الجاه.. ألا تراه كيف يصعد أعلى درجاته ليقول للناس:

أنـــا ابن جلا وطلاع **متى أضع العمامة**

قلت: عهدي بالإسلام يحرم كل ما يغذي الشر في النفوس، فكيف ترك المنبر مع خطره هذا؟

قال: كما ترك المال ترك المنبر.. فالنفس تحب المال كما تحب الجاه.. وقد جاء الشرع بتهذيب حب المال حتى لا تتحقق به إلا المصالح، وجاء بتهذيب الجاه فجعل جاه المسلم في جاه دينه.

قلت: ما تعني بذلك؟

قال: إن المسلم الذي امتلأ قلبه حبا لله لا يصعد هذه المنابر ليقول للناس:(اعرفوني)، ولكن يصعده ليقول للناس:(إني أمثل أعظم دين في الدنيا، وأمثل أقدس القيم، فاعرفوها)

قلت: فأنتم تعلمون هؤلاء هذا؟

قال: أجل.. ولا نجـيزهم إلا بعـد أن نعلم لهم من الصـدق مـا يحـول بينهم وبين طلب الجاه الشيطاني الذي يختصر جميع القيم في ذواتهم.

الدعوة:

اقتربنا من أحد الخطباء، وقد كان صاعدا على صخرة كبـيرة، فسـمعناه يـردد بصـوت عال أول خطبة للنبي ﷺ خطبها في مكة المكرمة، والتي رواها ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:214) صعد النبي ﷺ الصفا، فجعـل ينـادي: (يـا بـني فهر، يا بني عدي) لبطون قـريش حـتى اجتمعـوا، فجعـل الرجـل إذا لم يسـتطع أن يخـرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجـاء أبـو لهب وقـريش، فقـال: (أرأيتكم، لـو أخـبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟)، قالوا: نعم، مـا جربنـا عليـك إلا صـدقا، قـال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)، فقال أبو لهب: تبا لك سـائر اليـوم، ألهـذا جمعتنـا؟ فنزلت:﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْـهُ مَالُـهُ وَمَـا كَسَـبَ (2) سَيَصْـلَى نَـارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3)﴾ (المسد)(1)

وقال رسول الله - ﷺ - في هذه الخطبة أيضا: (يا بني كعب بن لؤي، أنقـذوا أنفسـكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسـكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النـار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يـا فاطمـة أنقـذي نفسـك من النـار؛ فـإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها)(2)

تعجبت من ترديد الخطيب لمثل هذه الخطبة، وقلت للفاسي: ما هذا؟.. أهـذا الرجـل ممثل أم خطيب؟

قال: بل هو خطيب.

قلت: وهذه الخطبة.. هل تريدون منه إلقاءها إلى الناس؟

قال: وما يمنعها من ذلك؟

قلت: إنها خطبة تاريخية لا واقعية.

قال: كل ما قاله نبيك ﷺ حياة وواقع.. وقد رأينا أنه لا يصلح الواقع إلا كلام نبينا ﷺ

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مسلم.

قلت: ولكن الناس لن يعوه.

قال: بل الناس لا يعون شيئا كما يعـون كلام نـبيهم، ولا يفهمـون أحـدا كمـا يفهمـون نبيهم.

قلت: فحدثني عما في هذه الخطبة مما لم أنتبه إليه.

قال: أولا.. انظر.. لقد كانت هذه الخطبة أشهر خطب النبي ﷺ، وبهـا انتقلت الـدعوة من السر إلى العلن، ومع ذلك لم تؤد إلا بكلمات قلائل، ووقت يسير.

قلت: فما مبادئ الخطابة التي تحملها[1]؟.. أليس لكل شيء مبادئه وقوانينه؟

لسـت أدري كيـف خـرج لي بعض الرجـال، وكـأنهم كـانوا يتصـنتون لمـا أقـول، قـال أحدهم: لقد شملت هذه الخطبة مع اختصارها كـل مبـادئ الخطبـة الناجحـة، ففيهـا يتجلى مبدأ التبشير والإنذار، فالخطيب المسلم هو الذي يبشر الناس، ويفتح أمامهم آفـاق الأمـل، ولا يثبط هممهم، وهو أيضا ينذرهم من سوء المصير لمن لم يعتـبر بالآيـات والسـنن، وأتبـع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

قال آخر: انظر كيف اختار رسـول اللـه ﷺ أعلى وسـيلة تختصـر مسـاحات المكـان، وتخاطب أكبر عدد من الناس في أسرع وقت ممكن، فصعد جبل الصفا.

قال آخر: لقد كانت كلمة:(يا صباحاه) التي استهل بها الرسول ﷺ خطبة الصـفا غايـة البدايات الجيدة، والاستهلاك الحسن، والمدخل المثير للانتباه والاهتمام، والمحـرك للـوعي، والملفت للنظر في مجتمع ديدنه الحروب التي كانت تنشب بين قبائله لأتفه الأسباب.

قـال آخـر: ثم انظـر قدرتـه ﷺ على بث الثقـة في الجمهـور.. فهي من أهم عوامـل الإقناع في الاتصال، وهذا يعني ثقة القائم بالاتصـال بمـا عنـده، وبقيمـه، وأهدافـه، وغاياتـه السامية، وثقة الناس في صدقه، وأمانتـه، وعدلـه، وهـذه الدلالـة تؤكـد على أهم مـؤهلات القائم بالاتصال، والقائم بالاتصال في هـذه الخطبـة هـو الرسـول ﷺ الـذي انـتزع اللـه لـه إجماعا عاما من قريش بأنه الحكم العدل والصادق الأمين.

قال آخر: ثم انظر كيف كان رسول الله ﷺ يلح عليهم ويكرر.. فـالتكرار أسـلوب من أساليب الإعلام، وهو التكرر الذي يساعد العمل الإعلامي على الانتشار بين الجماهير، ويعـد من أجدى الأساليب الإعلاميـة، وأكثرهـا فاعليـة في تغيـير اتجاهـات الـرأي العـام إذا أتقنـه القائم بالاتصـال، وأخـذ في اعتبـاره الأوقـات الـتي يتم فيهـا التكـرار، والوسـائل الإعلاميـة الملائمة، والظروف المرتبطة بها، والسوابق الإعلامية، والتأثير الممكن حدوثه.

---

1) من مراجع هذا الفصل كتاب (الجوانب الإعلامية في خطب الرسول ﷺ)

انصرف الرجال، فسألت الفاسي عنهم، فقال: هؤلاء أساتذة هذه المغارة.. إنهم يدرسون الخطب، ومدى تأثيرها، وهم يستعملون لذلك كل ما فتح الله به على البشرية من علوم.

التربية:

تركنا الخطيب الأول، وانتقلنا إلى خطيب آخر، رأيته يرتقي منبرا كالمنابر التي أراها في المساجد، ولكنه كان منبرا بسيطا لا تكلف فيه ولا زخرفة، وقد عجبت منه إذ رأيته يردد أول خطبة جمعة للرسول ﷺ في المدينة المنورة في بني سالم بن عمرو ، قال: (الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به، ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا، وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله عزوجل، فاحذروا ما حذركم الله عز وجل من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكرى وإنه تقوى لمن عمل به على وجل مخافة، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله تعالى من أمر السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله تعالى يكن له ذكرا، فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما، وإن تقوى الله توقي مقته وتوقي عقوبته، وتوقي سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجه، وترضي الرب، وترفع الدرجة، خذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة ولا قوة الا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لها بعد الموت، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله تعالى يكفه ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)(1)

ويردد بعدها خطبة أخرى لرسول الله ﷺ جاء فيها بعد بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله:(أما بعد أيها الناس: فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالا وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟ فينظر يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرة

---

1) رواه ابن جرير.

فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته)(1)

بعد أن انتهى من خطبته، قال بعض الأساتذة الذين كانوا يلتفون حوله: انظروا براعة الاستهلال والبداية المثيرة للانتباه في هذه الخطبة ...انظروا كيف ابتدأت الخطبة بذكر المسلمات الفكرية والعقدية لجماعة المسلمين لتبني الرأي العام على أساس عقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد..

قال آخر: وفي هذه الخطبة نرى رسول الله ﷺ كيف يستثير الدوافع الإيمانية والإنسانية في المخاطبين، فقد جاءت الوصية بالتقوى ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية في جميع روايات الخطبة.. وجاءت استثارة الدوافع الإنسانية في الدعوة للتكافل في المجتمع الإسلامي والبذل للمحتاجين.

قال آخر: وانظروا كيف راعى رسول الله ﷺ أحوال المخاطبين.. يؤكد ذلك أسلوب الدعوة إلى التعاون بعد التأكيد على قضايا الإخلاص لله تعالى وتقواه في السر والعلانية، وقد جاء هذا الأسلوب في صياغة بارعة تربط التآلف والتكافل الاجتماعي بالإيمان بالله الواحد الأحد والإيمان باليوم الآخر والجزاء والحساب في الدار الآخرة.

التوعية:

تركناهم يستنبطون من الخطبة ما يستنبطونه من المعاني، ورحنا إلى مجموعة من الخطباء، كان يبدو عليهم الانفعال الشديد:

أما أولهم، فقد سمعناه يردد خطبة رسول الله ﷺ **يوم بدر**، والتي قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه:(أما بعد: فإني أحثكم على ما حثكم الله عز وجل عليه، وأنهاكم عما نهاكم الله عز وجل عنه، فإن الله عز وجل عظيم شأنه، يأمر بالحق ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهله، على منازلهم عنده، به يذكرون، وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق، لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه. وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله عز وجل به الهم وينجي به من الغم، وتدركون به النجاة في الآخرة، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله عز وجل يقول:﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (غافر: 10)، انظروا إلى الذي أمركم به من كتابه، وأراكم من آياته، وأعزكم بعد الذلة، فاستمسكوا به يرضى به ربكم عنكم، وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمرا، تستوجبوا الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير، يغفر الله

1) رواه البيهقي.

لي وللمسلمين)(1)

وسمعنا آخر يردد خطبته ﷺ **يوم الفتح**، والتي قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه:(إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لن تحل لأحد كان قبلي، وإنها حلت لي ساعة من نهار، وإنها لن تحل لأحد بعدي، فلا ينفر صيدها، ولا يختلى شوكها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يفدى، وإما أن يقتل)(2)

وردد خطبته ﷺ في ذلك اليوم حين وقف على باب الكعبة يقول:(لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو موضوع تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد، بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظامها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا ﷺ هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات:13)، يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال ﷺ:(اذهبوا فأنتم الطلقاء)(3)

وسمعنا آخر يردد خطبته ﷺ في **غزوة تبوك**، والتي جاء فيها:(أيها الناس، أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد ﷺ، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدي هدي الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدي ما اتبع، وشر العمى عمى القلب، واليد العيا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة حين يحضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا دبرا، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل، وخير ما وقر في القلوب اليقين، والارتياب من الكفر، والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول من جثى جهنم، والكنز كي من النار، والشعر من إبليس، والخمر جماع الإثم، والنساء حبالة الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المأكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر إلى الآخرة، وملاك العمل خواتيمه، وشر الروايا روايا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه من معصية الله عز

1) رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه ابن إسحق.

وجل، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتألى على الله يكذبه، ومن يغفر يغفر لـه، ومن يعـف يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله، ومن يبتـغ السمعة يسمع الله به، ومن يصبر يضعف الله له، ومن يعص اللـه يعذبـه اللـه، اللهم اغفـر لي ولأمتي - قالها ثلاثا - ثم قال: أستغفر الله لي ولكم)(1)

ثم مررنا على خطباء كثيرين كل منهم يردد الخطب المختلفة التي قالها رسـول اللـه ﷺ في مواطن الشدة التي مر بها، سألت الفاسي عن سر هـذه الخطب الكثـيرة، وكيفيـة تعـاملهم معهـا، فقـال: هـذه الخطب هي زادنـا، وهي طريقنـا إلى النـاس، وهي في نفس الوقت حصننا ضد هؤلاء المصارعين الذين جاءوا بأحقادهم ليملأوا حياتنا ضيقا وضنكا.

قلت: فكيف كانت زادا لكم؟

قال: إن هذه الخطب تذكرنا بالآلام العظيمة التي مـر بهـا رسـول اللـه ﷺ وأصـحابه، وتذكرنا بالهمم التي كانوا يحملونها في ظل تلك الآلام.. ولهذا نحن نتزود من تلك الهمم مـا نرفع به هممنا.

قلت: فكيف كانت طريقكم إلى الناس؟

قال: الناس يختلفون في كل شيء إلا في نبيهم ﷺ.. فلذلك لا يعون شـيئا كمـا يعـون حديثه.. ونحن نستثمر ذلك في توعيتهم وتربيتهم وملأ قلوبهم بأنوار الهداية.

قلت: وعيت كل هذا، ولا أحسب أني أخالفك فيه.. ولكنك ذكرت أن هذا هـو حصـنكم من المصارعين، فكيف يكون ذلك؟

قال: المصارعون يعتبرون حديثنا عن نبينا من الدين المحض الذي لا يـرون حرجـا من الحديث فيه.. فلذلك نحن نستغل غفلتهم في هذا.. فنملأ حياتنا بالمناسبات المختلفـة الـتي نملأ بها قلوب الناس وعيا وتربية وهداية.

المصارعون يرونها مناسبات دينية محضة، ولا يعلمون أن الهمم العالية تولـد في تلـك المناسبات.. ولا يغلب المصارع شيء كما تغلبه الهمم العالية.

***

مكثت فترة طويلة مع الفاسي أتعلم منه أسرار الخطب النبوية، وفقههـا، ومـا تحملـه من المعاني الرفيعة.. وقد اهتديت من خلال صحبتي لـه إلى أن رسـول اللـه ﷺ هـو سـيد الخطباء ومعلمهم.. وأن الخطابة المؤثرة والفاعلة لا تكتمل إلا لمن اهتدى بهديه فيهـا، فلم ينشغل بزخرفة ألفاظه، ولا أهواء نفسـه عن المعـاني الرفيعـة الـتي كـان رسـول اللـه ﷺ يرتقي المنابر لأجلها.

***

1) رواه البيهقي في الدلائل وابن عساكر في تاريخه.

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة السابعة من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب.. ولم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تنزلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

ثامنا ـ المفتي

قلت: فحدثني عن رحلتك الثامنة.

قال: بعد خروجي من المغرب الأقصى سرت قاصدا تونس، وبالضبط إلى أعرق مدينة فيها مدينة القيروان..

بمجرد دخولي المدينة خطرت على بالي مسائل كثيرة من العلم، ومعضلات كثيرة من الفقه، حاولت بما تعلمته من العلوم في المدارس المختلفة أن أجد لها حلا، فلم أستطع، وكأنها كانت مشفرة بشيفرة دقيقة لا يمكن لأي قرصان في الدنيا أن يجد لها حلا.

حاولت أن أصرف خواطرها عن ذهني، فلم تنصرف.. بل راحت تلح علي إلحاحا، وكأنها تطلب حلا عاجلا، أو كأنها شعرت بأن في تلك المدينة من يفتح أبوابها، ويحل معضلاتها، فلذلك راحت تطالبني بأن أبحث عنه.

بينما أنا كذلك إذا بي أرى رجلا.. كان أبسط الناس في مظهره.. يقترب مني، ويقول: لقد قال رسول الله ﷺ:(شفاء العي السؤال)(1).. فابحث عن شفائك في السؤال، فلا يتعلم إلا لسان سؤول.. وإياك من الكبر، فقد قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (لأعراف:146)

قلت: من أنت؟.. وكيف بدا لك أن توجه لي هذه الموعظة؟

قال: أنا أخ من إخوانك.. وقد قال رسول الله ﷺ:(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)(2)

قلت: بورك فيك، ويشرفني أن يؤاخيني رجل مثلك.. ولكني أسألك عن سر توجيه هذه الموعظة بالذات لي.. لم لم تعظني بالتصدق مثلا.. أو بالصلاة.. أو بغيرها.. فأمور الدين كثيرة لا يمكن حصرها.. فلم خصصت من بينها ما خصصت؟

قال: لسببين..

نظرت إليه، والابتسامة تملأ فمي، وأنا أقول: فما أولهما؟

قال: أولهما أني دللتك على ثمرة المواعظ وغاياتها.. فالمواعظ المثمرة هي التي تدلك على العمل الصالح، وتثير همتك إليه.. ولا يمكن أن يكون العمل صالحا إلا إذا كان وفق ما يقتضيه العلم.. ولا يمكن أن تتعلم ما لم تسأل.

---

1) رواه أحمد وأبو داود والحاكم.

2) رواه البخاري ومسلم.

قلت: عرفت الأول.. وبورك فيك.. فما الثاني؟

قال: لقد شرفني الله، فصحبت بعض ورثة رسول الله ﷺ في هذا الباب.. باب الفتيا.. وقد صار لي فيه نوع من الفراسة.. وقد رأيت في وجهك ما أنبأني بحاجتك إلى حل بعض المعضلات، وإزالة بعض المشكلات.. فتقدمت إليك بما تقدمت.

قلت: أصابت فراستك، ولم تخطئ.. فمن هذا الوارث الذي تنصحني بأن أقصده لحل ما خطر على بالي..

قال: لا يفتى وسحنون(1) في القيروان..

قلت: من هذا السحنون(2) الذي تدعي له ما تدعي؟

قال: إنه حامل مشعل الهداية الذي يجيب عن كل سؤال، ويحل كل إشكال، ويرفع كل معضلة، ويزيل كل مشكلة.

صحت: ذاك من أبحث عنه.. لقد أخبرني معلم الهداية أني لا أنال الفم الثامن من أفواه الهداية إلا عند من ذكرت.

قال: فهيا بنا إليه إذن.. فقد قال رسول الله ﷺ:(الدال على الخير كفاعله)(3)

قلت: سأسير معك.. ولكني لن أسأله عن أي مسألة مما خطر على بالي حتى أستوثق من كونه وارثا للنبي ﷺ في هذا الباب.

قال: صدقت في هذا.. فما أكثر الأدعياء.. وقد قال رسول الله ﷺ:(إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فافتوا بغير علمٍ، فضلوا وأضلوا)(4)

قلت: إن وارث هذا الفن من فنون الهداية لا ينبغي إلا أن يكون عالما.. فلا يمكن أن يفتي الجاهل.. فهل ترى سحنونا كذلك؟

قال: أجل.. ولولا ذلك ما تصدى للإفتاء.. لقد أخذ العلم عن أهل المشرق وأهل المغرب.. بل لم يدع محلا من المحال فيه علم من العلوم إلا قصده.. لقد شهد له..

---

1) نشير به إلى القاضي الفقيه المالكي الكبير عبد السلام بن سعيد بن حبيب، أبو سعيد التنوخي، الملقب بسحنون (160ـ 240هـ، 777 ـ 854م)، ولد بالقيروان وأصله من الشام، قرأ على عبدالرحمن بن القاسم تلميذ الإمام مالك وغيره، انتهت إليه رياسة العلم في المغرب، كان زاهدًا لا يهاب سلطانًا في الحق، وكان رفيع القدر عفيفًا أبي النفس، ولي قضاء القيروان إلى أن مات، وكان يقول: قبح الله الفقر أدركنا مالكًا وقرأنا على ابن القاسم. يريد أن الفقر منعه الرحلة إلى المدينة ليأخذ عن الإمام مالك، حصل له من التلاميذ ما لم يحصل لأحد من أصحاب الإمام مالك، وهو الذي نشر علم مالك بالمغرب. ومن أشهر آثاره كتاب المُدَوَّنة الذي صنفه في مذهب الإمام مالك.. وقد اخترناه في هذا الفصل ممثلا للفقيه المفتي.

2) نقل في المدارك عن بعض شيوخ إفريقية، أنه قال: سمي سحنون باسم طائر حديد لحدّته في المسائل.

3) رواه أحمد وأبو يعلى.

4) رواه البخاري ومسلم.

قاطعته قائلا: لا يكفي أن يكون المرء عالما حتى يستحق هذا المنصب الجليل، فقد يكون عالما، ولكن الدنيا تجذبه بحبالها، فلا يفتي بما يمليه علمه، بل يفتي بما يمليه هواه.

قال: كلهم قد تجذبه الدنيا غير سحنون.. لقد بلغ من العمر ثمانين سنة.. وهو لا يزال عصيا على كل من يريد أن ينحرف به عن العلم الذي تعلمه، والأدب الذي تأدبه.

لقد قال فيه صاحب لي اسمه عيسى ـ وهو من العلماء ـ: كان سحنون صمته لله، وكلامه لله، إذا أعجبه الكلام صمت، وإذا أعجبه الصمت تكلم.

قلت: لا يمكن أن يظهر الورع إلا فيمن احتوته المناصب.. وتملكته كراسيها وثقلت به إلى الأرض.

قال: كلهم قد تثقل به الكراسي إلا سحنون.. لقد ولي القضاء بعد أن ألح عليه حاكم هذه البلدة.. فلم يترك مظلمة إلا وردها.. لقد رأيته في اليوم الذي ولي فيه القضاء راكباً على دابة، ما عليه كسوة ولا قلنسوة، والكآبة في وجهه، ما يتجرأ أحد يهنّيه، فسار حتى دخل على ابنته خديجة، وكانت من خيار الناس، فقال لها: اليوم ذبح أبوك بغير سكين.

قلت: وصحبته للسلاطين.. فإن العالم لا يفسد إلا بصحبتهم.

قال: لقد سمعته مرات كثيرة يقول: ما أقبح بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيه. فيسأل عنه، فيقال:هو عند الأمير، هو عند الوزير، هو عند القاضي، فإن هذا وشبهه شرٌّ من علماء بني إسرائيل، وبلغني إنهم يحدثونهم من الرخص ما يحبون، مما ليس عليه العمل، ويتركون ما عليه العمل، وفيه النجاة، لهم، كراهة أن يشتغلوهم. ولعمري لو فعلوا ذلك لنجوا، ووجب أجرهم على الله، فوالله لقد ابتليت بهذا القضاء، وبهم، ووالله ما أكلت لهم القمة، ولا شربت لهم شربة، ولا لبست لهم ثوباً، ولا ركبت لهم دابة، وما أخذت لهم صلة، وإني لأدخل عليه، فأكلمهم بالتشديد، وما عليه العمل وفيه النجاة. ثم أخرج عنهم، فأحاسب نفسي، فأجد عليّ الدرك مع ما ألقاهم به في الشدة والغلظة، وكثرة مخالفتي هواهم، ووعظي لهم. فوددت أن أنجو مما دخلت فيه كفافاً.

قلت: قد يكون الورع متشددا يضيق علي ما وسع الله.. وأنا لا أحب أن أترك ما رخصه لنا الشرع.

قال: وسحنون لا يقول إلا بهذا.. لقد ذكر لي عن بعض شيوخه قوله:(إنما الفقه الرخصة من ثقة، أما التشديد فيحسنه كل أحد)

قلت: قد يكون في المفتي كل ما ذكرت.. ولكنه لا يكون صاحب بصيرة يعرف بها الواقع، فلذلك يخطئ في تطبيقه الأحكام.

قال: كلهم قد يقع في هذا إلا سحنون.. فهو ملم بالواقع محيط به.. بل لم أره يجيب

عن مسألة إلا بعد أن يحيط بكل ما يرتبط بها علما.. لقد سمعته مرات كثيرة يقول: (أجـراً للناس على الفتيا، أقلّهم علماً. يكون عند الرجل باب واحد من العلم، فيظن أن الحـق كلـه فيه)

وسـمعته يقـول:(إني لأسـأل عن المسـألة، فـأعرف في أي كتـاب وورقـة وصـفحة وسطر، فما يمنعني عن الجواب فيها إلا كراهة الجرأة بعدي على الفتيا)

وقد قلت له مـرة: تأتيـك المسـائل مشـهورة مفهومـة، فتـأبى الجـواب فيهـا. فقـال: (سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال)

***

ما وصلنا من حديثنا إلى هذا الموضع حتى بلغنا أعرق مسجد بالقيروان، وهو المسجد الذي كان منارة للعلم والهدى قرونا طوالا..

دخلت ـ مع صاحبي ـ من بابه الواسع، فرأيت رجلا ربع القامة، بين البياض والسـمرة، حسن اللحية، كثير الشعر، أعين، بعيد ما بين المنكبين، حسن اللباس(1).

رأيته يجلس على منصة عاليـة.. وعلى منصـة على يمينـه جلس رجـال عليهم سـمت العلماء، وعلى منصة على يساره جلس ناس من العامة..

أشار صاحبي إليه، وقال: هذا هو سحنون.. فهيا بنا.. ولا تنسى أن تتأدب بين يديه..

قلت: أراه قد فرق بين الناس.. فإلى أيهما نذهب؟

قال: أما الصنف الأول، فهو لمن يريد أن يسأل عن المسائل، ثم ينصرف بعدها.. وأما الصنف الثاني، فهو لأهـل العلم.. لمن يريـد منهم أن يتعلم أصـول الفتـاوى وآدابهـا ليسـتن بسنة رسول الله ﷺ في ذلك.. وهذا يحتاج إلى صحبته مـدة من الـزمن لتترسـخ فيـه تلـك الأصول وتتثبت..

قلت: فهيـا بنـا إلى حيث يجلس الصـنف الثـاني.. فأنـا لم أخـرج من بلادي إلا لأجـل الأصول..

قال: ومسائلك التي تريد أن تسأل عنها؟

قلت: إذا تعلمت الأصول.. فسيسهل علي أن أجيب عنها.

جلسنا حيث يجلس أهل العلم.. وقد حاولت أن ألتزم بجميع مـا تعلمتـه من آداب في محاضر شنقيط.. وقد جعل ذلك سحنونا يلتفت إلي، وهو يبتسم، ثم يعود إلى ما كان فيـه، ويقول: لقد ذكر الأئمة خمسة أصول للفتوى.. اسـتنبطوها من كلام رسـول اللـه ﷺ وكلام

---

1) هذه صفة سحنون كما في كتاب (المدارك) نقلا عن أبي العرب.

العلماء.. فقالوا:(لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال: أولها: أن تكون له نية، فإن لم تكن له نية، لم يكن عليه نور، ولا على كلامه نور، والثانية: أن يكون له حلم ووقار وسكينة، والثالثة: أن يكون قويا على ما هو فيه وعلى معرفته، والرابعة: الكفاية (أي من العيش) وإلا مضغه الناس، والخامسة: معرفة الناس)

وقد رأيت أن هذه الأصول تؤول إلى أربعة.. لاشك أنكم تعرفونها: إنها العلم والورع والرفق والبصيرة.

العلم:

قال رجل من أهل العلم: فحدثنا عن العلم.. ولم كان ركنا من أركان الفتوى؟

قال: لقد ذكر رسول الله ﷺ هذا الشرط، فقال:(إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فافتوا بغير علمٍ، فضلوا وأضلوا)(1)

لقد أخبر رسول الله ﷺ في هذا الحديث عن الشرط الأساسي للمفتي، فلا يمكن للمفتي أن يفتي إلا فيما له فيه علم ومعرفة وخبرة.. لقد قال الله تعالى يشير إلى الخبرة، وهي التعمق في العلم، ومعرفة تفاصيله ودقائقه:﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (الفرقان: 59)

قالوا: فحدثنا عن العلوم التي يجب على العالم تعلمها قبل الجلوس للفتيا.

قال: إن كان المستفتي يفتي في كل شيء.. فعليه أن يتعلم كل شيء: فروعه وأصوله..

قالوا: أفبالحفظ وحده يمكن أن يفتي؟

قال: لا.. لقد عرفتم أن الحفظ رواية.. ولا تكفي الرواية ما لم تكن معها دراية.

قالوا: أيلزم أن يحفظ هذا عن ظهر قلب؟

قال: لا.. ليس بالضرورة ذلك.. وإن كان الأكمل هو ذلك.

قالوا: لقد ذكرت علوم الدين.. فهل يلزم المفتي أن يعلم علوم الدنيا؟

قال: يعلم منها ما يمكنه من فهم ما يريد أن يجيب عنه.. فلا يحل الحكم إلا بعد العلم..

قالوا: إن هذا يستدعي اقتناء كتب كثيرة.

قال: لا ينفع الاقتناء ما لم تكن معه همة تناطح الجوزاء.. فلا يستفيد من الكتب مقتنيها، وإنما يستفيد منها قارئها.. وقد قيل لبعضهم: إن فلانا جمع كتبا كثيرة، فقال: هل

---

1) رواه البخاري ومسلم.

فهمه على قدر كتبه؟ قيل: لا. قال: (فما صنع شيئا! ما تصنع البهيمة بالعلم؟!).. وقال رجل لرجل كتب، ولا يعلم شيئا مما كتب: مالك من كتبك إلا فضل تعبك وطول أرقك، وتسويد ورقك!

قالوا: فما تقول فيمن يتعلم مذهبا من المذاهب، فهو يكتفي بالفتوى على أساسه؟

قال: له ذلك إن تخلى عن التعصب، وقال لمن استفتاه: هذا ما عندي، واذهب لغيري، فقد تجد عنده ما هو أفضل أو أرجح مما وجدت عندي.

قالوا: فإن لم يقل ذلك، وحرج على مستفتيه أن يتبعه؟

قال: يكون قد حجر ما وسعه الله، وضيق على الناس، وقد يكون في تضييقه ما ينفرهم.

الورع:

قالوا: حدثتنا عن العلم.. فحدثنا عن الورع.

قال: لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الركن في قوله تعالى:﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (الاسراء:36)

وطبقه رسول الله ﷺ فيما روي أن رجلا أتى رسول الله فقال: أي البقاع شر؟ فقال: (لا أدري)، فلما أتاه جبريل عليه السلام قال: (يا جبريل، أي البلدان شر؟ قال: لا أدري حتى أسأل ربي عز وجل، فانطلق جبريل عليه السلام ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم جاء فقال: يا محمد، إنك سألتني أي البلدان شر؟ فقلت: لا أدري، وإني سألت ربي عز وجل: أي البلدان شر؟ فقال: أسواقها)[1]

قالوا: وعينا هذا، فما السبيل إليه؟

قال: أربعة.

قالوا: فما هي؟

قال: أن لا تتكلموا فيما لا تعلمون، وأن لا تتكلموا بكل ما تعلمون، وأن لا تكتموا ما تعلمون، وأن لا تحرفوا ما تعلمون.

قالوا: فحدثنا عن الأول.

قال: هو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ في قوله:(من أفتى بغير علم كان إثم ذلك

1) رواه أحمد.

على الذي أفتاه)(1).. فالمفتي الورع هو الذي لا **يتكلم إلا فيما يعلم**.. وقد كان هذا سنة رسول الله ﷺ وسنة ورثته من بعده، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (ثلاث وثلاث وثلاث ! فثلاث لا يمين فيهن، وثلاث الملعون فيهن، وثلاث أشك فيهن ، فأما الثلاث التي لا يمين فيهن: فلا يمين للولد مع والده، ولا للمرأة مع زوجها، ولا للمملوك مع سيده، أما الملعون فيهن فملعون من لعن والديه، وملعون من ذبح لغير الله، وملعون من غير تخوم الارض، وأما التي أشك فيهن: فعزيز لا أدري أكان نبيا أم لا ! ولا أدري ألعن تبع أم لا ! ولا أدري الحدود كفارة لأهلها أم لا)(2)

وفي حديث آخر قال ﷺ:(لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري: أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله)(3)

قالوا: فما تقول في الموقف ممن يفتي بغير علم؟

قال: هو مجرم كالمجرمين.. وليس للمجرم من جزاء إلا العقوبة.. وأول العقوبة الحجر عليه.

قالوا: وعينا هذا، فحدثنا عن الثاني.

قال: هو ما أشار إليه رسول الله ﷺ في قوله:(كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع)(4)، وقوله:(بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع)(5)

قالوا: فما في هذا من الورع الذي يجب على المفتي أن يمارسه؟

قال: المفتي الوارث هو الذي **لا يتكلم في كل ما يعلم**، فقد يكون ما يتكلم فيه غير صحيح، فيتحمل وزر نقل الكذب وإشاعته، وقد يكون ما يتكلم فيه غير نافع، فيتحمل وزر الضرر الذي أصاب به من أفتاه.

قالوا: وعينا هذا.. فلا يكون العالم عالما حتى يتثبت مما يعلمه.

قال: ذلك لا يكفي.. فقد يعلم الشيء ويتثبت منه، ولكنه لا ينغي له أن يلقيه إلا لأهله، أو في الوقت المناسب له.. فالدواء قد يكون نافعا، لكنه إن أعطي لمن لا يحتاجه أضر به.

قالوا: وعينا هذا، فحدثنا عن الثالث.

---

1) رواه ابن ماجة.

2) رواه الاسماعيلي في معجمه، وابن عساكر.

3) رواه البخاري ومسلم.

4) رواه أبو داود.

5) رواه مسلم.

قال: أن **لا يكتم ما يعلم**.. لقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (البقرة:42)، وقوله تعالى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (البقرة:146)، وقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (البقرة:159)، وقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (البقرة:174)

وأشار إليه رسول الله ﷺ في قوله:(من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)(1)، وقوله ﷺ:(إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كتم حديثا فقد كتم ما أنزل الله)(2)، وقوله ﷺ:(مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدث به كمثل الذي يكنز الكنز ثم لا ينفق منه)(3)، وقوله ﷺ:(ناصحوا في العلم، فإن خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانته في ماله، وإن الله عز وجل مسائلكم)(4)

قالوا: وعينا هذا، فحدثنا عن الرابع.

قال: أن **لا تحرفوا ما تعلمون**.. لقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (البقرة:75)، وقوله تعالى: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً (النساء:46)

وأشار إليه رسول الله ﷺ، فقال:(أحب العمل إلى الله عز و جل سبحة الحديث، وأبغض الأعمال إلى الله عز و جل التحريف، فقلنا: يا رسول الله، وما سبحة الحديث؟ قال: (يكون القوم يتحدثون، والرجل يسبح)، قلنا: يا رسول الله، وما التحريف؟ قال: (القوم يكونون بخير فيسألهم الجار والصاحب فيقولون: نحن بشر)(5)

قالوا: فكيف نحرف في الفتوى؟

قال: تتلاعبون بها كما يتلاعب الصبيان بالكرة.

قالوا: كيف ذلك؟

---

1) رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان.

2) رواه ابن ماجه وفيه انقطاع.

3) رواه الطبراني.

4) رواه الطبراني.

5) رواه الطبراني.

قال: عندما تصرفون وجوه الناس إليكم بصرف وجه الشريعة عنكم.

قالوا: كيف ذلك؟

قال: عندما تقدمون رضا الناس على رضا الله، وتخافون سخط الناس، ولا تخافون سخط الله.

الرفق:

قالوا: فحدثنا عن الركن الثالث.

قال: لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الركن في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة: 185)، وقوله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة: 6)، وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ (النساء:28)

وأشار إليه رسول الله ﷺ في قوله:(إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا)(1)، وقوله:(إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)(2)، وقوله:(هلك المتنطعون) قالها ثلاثا(3)، وقوله:(لا تشددوا على أنفسكم يشدد الله عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ (الحديد: 27)(4)، وقوله:(إنكم لن تدركوا هذا الأمر بالمغالبة)(5)، وقوله:(إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين)(6)، وقوله:(إياكم والغلوا في الدين، فانما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)(7)، وقوله:(إياكم والتعمق في الدين، فان الله تعالى قد جعله سهلا، فخذوا منه ما تطيقون، فان الله يحب ما دام من عمل صالح، وإن كان يسيرا)(8)

وطبقه رسول الله ﷺ في حياته، فـ (ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله

---

1) رواه البخاري.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه أحمد ومسلم.

4) رواه أبو داود.

5) رواه ابن سعد وأحمد وابن حبان.

6) رواه الترمذي.

7) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة والحاكم.

8) رواه أبو القاسم بن بشران في أماليه.

فينتقم لله، وما ضرب شيئا بيده ولا امرأة ولا خادما إلا أن يكون يجاهد في سبيل الله)[9]

قالوا: ما تقصد بإيرادك لكل هذه النصوص؟

قال: لأدعو إلى إحياء سنة قد أميتت، وهدي قد ضيع.

قالوا: وما هو؟

قال: الرفق.. فمن أعظم سنن رسول الله ﷺ الرفق.

قلت: يحق لرسول الله ﷺ أن يفعل ذلك، فهو رسول الله ﷺ.. وهو صاحب هذه الشريعة السمحة، ومفتيها الأول.. ولكن الفقهاء ليسوا إلا خدما للنصوص المقدسة، فما هدتهم إليه ساروا على ضوئه، كان في ذلك حرج، أو لم يكن.

نظر إلي مبتسما، وقال: مرحبا بك بيننا.. كيف تركت أخي محمدا؟

قلت: أي محمد تقصد؟

قال: الفاسي.. ذلك الذي ورث سنة الخطابة من رسول الله ﷺ.

قلت: تركته بأحسن الأحوال.

قال: الحمد لله..

ثم قال بعدها، وكأنه لم يقطع حديثه بأي قاطع: ليس في الشريعة حرج.. حتى ما كان منها شديدا، فهو البساطة واليسر والرحمة..

قلت: فكل فتاوى الفقهاء إذن بساطة وسماحة ويسر؟

قال: لا.. هناك من الفقهاء من هو مغرم بالتشديد على الناس، وقد يشدد على نفسه معهم، ولكنه مخطئ في ذلك سنة رسول الله ﷺ.. فرسول الله ﷺ لم يكن يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

قلت: ولكن قوة الشريعة قد تضيع مع التيسير؟

قال: قوة الشريعة في حب أهلها لها، والتزامهم بها، وتحقيق مصالحهم بذلك الالتزام.. بهذا تكون الشريعة القوية.. لا بالتشريعات التي قد تثقل كواهلهم، ولكنها في نفس الوقت تملأ بواطنهم بالخراب.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا ترى بعض المفتين يتسرع ويتشدد في أحكام الطلاق، فيهدم أحدهم بيوت المسلمين بكلمة واحدة لا يحسب لها أي حساب.

---

9) رواه البخاري ومسلم.

البصيرة:

قالوا: فحدثنا عن الركن الرابع.

قال: لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الركن في قوله تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (ابراهيم:4)

قالوا: فما في هذه الآية من العلم المرتبط بهذا؟

قال: إن هذه الآية تأمرنا بأن نعرف ألسنة قومنا حتى نخاطبهم بها.. فلا نخاطبهم بألسنة لا يفهمونها، أو لا يقبلونها، أو لا يقبلون عليها.

قالوا: إن قومنا يتحدثون بالعربية.. ونحن نتحدث معهم بها.

قال: ليس ذلك فقط ما تشير إليه الآية.

قالوا: فما الذي تشير إليه غير هذا؟

قال: لقد جعل الله ـ بحكمته في عباده ولطفه بهم ـ لكل عصر وبيئة لسانا أو لغة تميزها، وتعبر عن وجهتها، واللغة ليست مجرد ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، بل هي أعمق من ذلك، فهي تتصل بخصائص التفكير، وطرائق الفهم والإفهام.

قالوا: فكيف نتعلم ألسنة قومنا؟

قال: بسبعة سبل.. كل سبيل منها يقربكم مرحلة إلى من تفتونه.

قالوا: فما **أولها**؟

قال: أن تعتمدوا على مخاطبة العقول بالمنطق، لا على إثارة العواطف بالمبالغات..

قالوا: فما **الثاني**؟

قال: أن تدعوا التكلف والتقعر في استخدام العبارات والأساليب، وأن تعتمدوا اللغة السهلة القريبة المأنوسة..

قالوا: فما **الثالث**؟

قال: أن تذكروا الحكم مقرونا بحكمته.. فالقرآن حين يفتي في الخمر ـ وقد سألوا عنها ـ يقول:﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (البقرة: 219)

وهكذا عندما يفتي في أحكام الحيض، قال تعالى:﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ

أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة:222)

وهكذا عندما يفتي في حكم القتال في الشهر الحرام، قال تعالى:﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:217)

وهكذا في جميع الأحكام الشريعة.. ففي تقسيم الفيء بين الفئات المستحقة له، ومنهم اليتامى والمساكين وابن السبيل، يذكر الله تعالى الحكمة في ذلك فيقول:﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر:7)، فقد ذكر أن العلة هي أي ﴿لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾، أي حتى لا يكون المال متداولا بين طبقة الأغنياء وحدهم، ويحرم منه سائر الطبقات، فهذا مصدر الشرور، وهو أبرز خصائص الرأسمالية الطاغية.

حتى العبادات الشعائرية يأمر بها القرآن مقرونة بعلل وأحكام تقبلها الفطر السليمة، والعقول الرشيدة، ففي الصلاة يقول:﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت: 45)

وفي الصيام يقول:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:183)

وفي الزكاة يقول:﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة:103)

وفي الحج يقول:﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (الحج:28)

قالوا: فما **الرابع**؟

قال: الواقع..

قالوا: ما تقصد بذلك؟

قال: إن من أعظم الأشياء خطرا على المفتي أن يعيش بين الكتب، وينفصل عن الواقع..

***

مكثت فترة طويلة مع الشيخ سحنون أتعلم منه أسرار الفتاوى، وفقهها، وما تحمله من معاني الهداية الرفيعة.. وقد اهتديت من خلال صحبتي له إلى أن رسول الله ﷺ هو

سيد المفتين ومعلمهم.. وأن الفتوى المؤثرة والفاعلة لا تكتمل إلا لمن اهتدى بهديه فيها.

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة الثامنة من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب.. ولم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تنزلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتـديت بهـا بعـد ذلـك إلى شمس محمد ﷺ.

تاسعا ـ المحتسب

قلت: فحدثني عن رحلتك التاسعة.

قال: بعد أن خرجت من تونس، جاءني خطاب من بعض أهلي لأسير إلى دمشق في حاجة عرضت لهم فيها، فأسرعت أحث خطاي إليها تاركا بعض قلبي في ذلك البلد الصالح الذي امتلأت فيه بحب سحنون، وحب من يحيط به من العلماء والصالحين.

في دمشق، التقيت الوارث التاسع الذي تعلمت على يديه فن الاحتساب، وهو الفن التاسع من فنون الهداية.. وقد قدر الله أن يكون هذا الوارث سببا في قضاء الحاجة التي تركت تونس من أجلها.

في ديوان المظالم.. في دمشق.. وهو ديوان كانت دمشق لا تزال تحتفظ به، ولا تزال تحتفظ باسمه، وقفت أمام المسؤول عنه أعرض حاجتي، وكان المسؤول قاسيا شديدا، وكأنه مطمئن إلى أنه الخصم والحكم، وأنه ليس هناك من ديوان يعقب على ديوانه، ويستأنف أحكامه على الأحكام التي يصدرها ديوانه.

بعد أن خرجت يائسا من عنده، وأنا أقول في نفسي: هذا ديوان الظلمة، لا ديوان المظالم.. وهؤلاء خصوم، لا محامون.. وعند هؤلاء تموت الحقوق.. لا ترد الحقوق.

ما قلت هذا حتى وقف بجانبي بهامة أرفع من الجبال، وقال: ارفع صوتك بها.. فلا يمكن للصوت المنخفض أن يفعل شيئا.

قلت: أتريد أن تزج بي في السجن؟

قال: إن كان السجن هو ثمن صوت الحقيقة العالي، فادفع هذا الثمن، فلا يمكن للمستضعف أن يخرج من ضعفه إلا برفع صوته.

قلت: أنت تحضني على الثورة؟

قال: أنا أحضك على ثورة أهل السلام، لا على ثورة أهل الصراع.

قلت: وما الفرق بينهما؟

قال: ثورة أهل الصراع تقتل الحياة، وتسفك الدماء، وتنبت الموت.. أما ثورة أهل السلام، فثورة تنبت الحياة، وتثمر الأمل، وتقتل الألم.

قلت: أنا مسلم.. ولست شيوعيا.. والإسلام لا يعرف أي ثورة.

قال: بل يعرف ثورة أهل السلام.. فلا يمكن لدين يهتم بالإنسان وحقوق الإنسان أن لا يعرف الثورة.

قلت: لم أر في كتابنا المقدس أو في كتب تراثنا اسم الثورة.

قال: فهل رأيت (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) و(الاحتساب)؟

قلت: أجل.. فأولهما وردت به النصوص المقدسة، وثانيهما وردت به كتب الفقه والتراث.. بل امتلأت به كتب الفقه والتراث.

قال: أليست الحسبة هي الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر الذي ظهر فعله، والإصلاح بين الناس؟

قلت: أنت تردد ما ذكره الماوردي من تعريف الحسبة.

قال: كلهم ذكر ذلك.. وكلهم حض على الثورة على فعل المنكر، والثورة على ترك المعروف.

قلت: أنا موافق على كلامك.. ولكني أكره كلمة (الثورة)، فهي تذكرني بالدماء المسفوكة والجثث المرمية على الطرقات.

قال: لا ينبغي لأهل الحق أن يحول بينهم وبين الحقائق أي حجاب.. فهل تترك الحرية لأن الديمقراطيين يدعونها.. وهل تترك التنوير لأن الظلاميين يدعونه.

قلت: لا..

قال: فلا ينبغي أن تكره الثورة إذن..

قلت بيني وبين نفسي: لقد ذكر لي معلم الهداية هذه الكلمة.. ولكني نسيت ما قال بالضبط.

قال: لا شك أنه ذكر لك الفم الذي يثور على المحو، ليطفئ السراب، ويمحو الضباب.

قلت: أجل.. لقد ذكر هذا.. لكأن فمك هو الفم التاسع.

قال: إن كان الاحتساب هو الفم التاسع، ففمي هو ذلك الفم.

قلت: فمن أنت؟

قال: أنا العز الذي أعز الله به الدين، فصار عز الدين[1].

قلت: أأنا الآن بين يدي سلطان العلماء؟

---

1) نشير به إلى الإمام عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي (المعروف بالعز بن عبد السلام) (577 - 660هـ، 1181 - 1262م)، الملقب بسلطان العلماء، وهو فقيه أصولي شافعي، كان يلقب بسلطان العلماء وبائع الملوك. ولد بدمشق ونشأ وتفقه بها على كبار علمائها. كان علمًا من الأعلام، شجاعًا في الحق، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، جمع إلى الفقه والأصول العلم بالحديث والأدب والخطابة والوعظ.

قال: إن كان سلطان العلماء هو الذي لا يسكت على منكر، فيسرني أن أكون ذلك الرجل.

قلت: فهل تأذن لي في صحبتك؟

قال: من الصعب أن يصحب مثلي.. فإن كنت تطيقني.. فأهلا وسهلا بصحبتك.

قلت: فبم نبدأ علمنا؟

قال: بالنهي عن المنكر الذي حصل لك.. فلا يمكن أن نسكت عن منكر.

قلت: لكنك تعلم ضعفي.

قال: ضع بين عينيك (الله).. وسر، فستتزعزع الجبال لمرآك.

سرت معه، وأنا أشعر بعزة عظيمة لم أشعر بمثلها في حياتي.. وقد تعجبت لما حصل لي..

فالمسؤول الذي كان قد ردني أبشع رد قام إلي يحييني ويحيي معي العز، ثم لم يلبث حتى انصرف برهة، وعاد إلي بما يرفع مظلمتي..

طلب مني العز أن أشكره، ثم خرجنا من مكتبه، ونحن نشيع بالتحيات الطيبات المباركات.

لم يخطر على بالي شيء كما خطر على بالي أن أسأل العز عن سر هذا، فقال: لن تفقه هذا حتى تتعلم أسرار الحسبة(1)..

قلت: وما أسرارها؟

قال: سران..

قلت: فقط.. ما أيسرهما إذن.

قال: بل ما أصعبهما.

قلت: فما هما؟

قال: الإخلاص، والنصح.

الإخلاص:

قلت: فما الإخلاص؟

(1) اختصرنا الكلام عن الحسبة هنا باعتبارها من الولايات التي تقوم عليها العدالة في النظام الإسلامي، وقد فصلنا الحديث عنها في رسالة (عدالة للعالمين)

قال: أن لا تريد بالحسبة إلا وجه ربك، ألا ترى أن، أن الحسبة مشتقة من الاحتساب وهو طلب الأجر كما قال ﷺ:(من أدى خمس صلوات إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)(1)، وقال ﷺ:(من لقي الله لا يشرك به شيئا وأدى زكاة ماله طيبة بها نفسه محتسبا وسمع وأطاع فله الجنة)(2)، وقال :(إن قتلت في سبيل الله صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر كفر الله عنك خطاياك إلا الدين، كذلك قال لي جبريل آنفا)(3)، وقال :(من أذن سبع سنين محتسبا كتب الله له براءة من النار)(4)، وقال :(الطاعون كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء وأن الله تعالى جعله رحمة للمؤمنين فليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد)(5)

قلت: وقال :(من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)(6)، وقال :(من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)(7)

قال: وأحاديث أخرى كثيرة..

قلت: أعلم ذلك.. فما تريد من هذا؟

قال: أساس الأعمال هو الإخلاص لوجه الله.. فلا يمكن لأحد أن يقبلك وأنت تعبد نفسك.. ألا ترى ذلك الرجل كيف أقبل عليك كل ذلك الإقبال لما عدت إليه.

قلت: أجل.. وقد تعجبت من ذلك أيما تعجب.

قال: إن الله تعالى يلقي على من يحتسب في سبيله من المهابة ما تندك له الجبال.

قلت: لقد ذكرتني بسميك العز بن عبد السلام.. فقد روي أنه علم مرة بوجود حانة تبيع الخمور في القاهرة، فخرج إلى السلطان نجم الدين أيوب في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العساكر مصطفين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته ـ على عادة سلاطين الديار المصرية ـ وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السطان وناداه: يا أيوب، ما حجتك عند

---

1) رواه الحاكم في تاريخه وأبو الشيخ.

2) أحمد عن أبي هريرة.

3) مسلم.

4) الترمذي، وقال: غريب.

5) البخاري.

6) البخاري.

7) مسلم.

الله إذا قال لك: ألم أبوىء لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فقال السلطان: هل جرى هذا؟ فقال الشيخ: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور، وغيرها من المنكـرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة! يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون، قال: يا سيدي، هذا أنا مـا عملته، هذا من زمن أبي. فقال الشيخ: أنت من الـذين يقولـون: ﴿ إِنَّا وَجَـدْنَا آبَاءَنَـا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الزخرف: 22)؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة.

وعندما سأله أحد تلاميذه لما جاء من عند السلطان ـ وقد شاع هذا الخبر ـ: يا سيدي كيف الحال؟ فقال: يا بني، رأيته في تلك العظمة فأردتُ أن أهينه لئلا تكـبر نفسُـه فتؤذيـه. فقلتُ: يا سيدي، أما خفتَه؟ قال: والله يا بني استحضرتُ هيبة الله تعالى، فصار السـلطان قُدّامي كالقط[1].

النصح:

قلت: علمت الأول، ولا أحسب أني أجادلك فيه.. فالكل متفق عليه.. فما الثاني؟

قال: النصح.. ألا ترى أن النبي ﷺ سمي النصيحة ديناً، وجعلها من حقـوق المسـلمين فيما بينهم، وبايع بعض صحابته على النصح لكل مسلم، وعدد جوانب النصح ومجالاته.

قلت: أجل.. فلم كان النصح ركنا من أركان الاحتساب؟

قال: الاحتساب إخلاص لله.. والنصح إخلاص للمحتسب عليه.. فلا يمكن لأحد أن يقبل احتسابك، وهو يشعر أنك تغشه.

قلت: صدقت.. وقد عبر عن ذلك الخطابي، فقال: (النصيحة كلمة يعبر بها عن جملـة هي إرادة الخير للمنصوح له)[2]، وقال الـراغب: (النصـح تحـري فعـل أو قـول فيـه صـلاح صاحبه)[3]،

قال: ومثل ذلك قال محمد بن نصر المروذي: (قال بعض أهل العلم: هي عناية القلب للمنصوح له كائناً من كان)[4]

قلت: فكيف أكون ناصحا لمن أحتسب عليه؟

قال: سبعة إن فعلتها، فقد اكتمل نصحك، وإن ضيعتها، فقد ضيعت نصحك.

---

1) طبقات الشافعية الكبرى: 8/212.

2) معالم السنن: (4/125)

3) المفردات: (ص 494)

4) جامع العلوم والحكم: (ص 111)

قلت: فما **أولها**؟

قال: أن لا تنصحه بما طلبه هـواك.. بـل انصـحه بمـا أمـره ربـه.. فلا ينبغي للعبـاد أن يعبدوا غير ربهم، ألم تسمع قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَـدَيِ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (الحجرات:1)؟

قلت: بلى.. وهل يمكن أن ينصح أحد أخاه في مثل هذا؟

قال: كثيرون يفعلون ذلك.. فمنهم من يرى رأيا، ولا يرى غـيره، ثم يـروح يقـدم رأيـه على كل رأي، ومذهبه على كل مذهب.

قلت: أولئك المتعصبون.

قال: أجل.. إنهم يجعلون من آرائهم دينـا يـدينون بـه من دون اللـه، فيـدعون لـدينهم، ويغفلون عن دين الله.

قلت: علمت أولها، فما **ثانيها**؟

قال: أن لا تنكر عليه إلا فيما اتفق الكل على طلب تركه، ولا تأمره إلا بما اتفق الكـل على طلب فعله.

قلت: أعلم هذا.. فقد نص الفقهاء على أنه لا إنكار على المختلف فيـه..وقـد قـال في هذا بعضهم: (إذا رأيت الرجل يعمـل العلم الـذي اختلـف فيـه، وأنت تـرى غـيره فلا تنهـه)، وقال: (ما اختلف فيه الفقهاء، فلا أنهي أحداً من إخواني أن يأخذ به)، وقـال آخـر: (لا ينبغي للفقيه أن يحمل الناس على مذهب، ولا يشدد عليهم)[1]

قال: وعلى هذا نص الكل.. ولا ينبغي للفقيه إلا أن ينص على هذا.

قلت: علمت هذا..فما **ثالثها**؟

قال: أن تحرص على ألا تنصحه إلا سرا.. حـتى لا تكـون نصـيحتك فضـيحة.. وحـتى لا تستثير من جنود نفسه من يحول بينه وبين قبول نصيحتك.

قلت: أعلم هذا، وقد قال في هذا بعض الفقهاء: (من وعظ أخاه فيما بينه وبينه، فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه)[2]، وقال آخر: (المؤمن يستر وينصـح، والفاجر يهتك ويعير)، وقال آخر: (وإذا نصحت فانصح سراً لا جهراً، وبتعـريض لا تصـريح، إلا

---

1) انظر: الآداب الشرعية: [1/186]

2) جامع العلوم: (ص:77).

أن لا يفهم المنصوح تعريضك، فلابد من التصريح)[1]

قال: وعلى هذا نص الكل.. ولا ينبغي للفقيه إلا أن ينص على هذا.

قلت: علمت هذا..فما **رابعها**؟

قال: أن تتلطف مع من تنصحه، فقبول النصح كفتح الباب، والباب لا يفتح إلا بمفتاح مناسب، والمنصوح امرؤ له قلب قد أغلق .. وحتى يترك المنصوح الأمر أو يفعله لابد له من انفتاح قلبه له، ولابد لهذا القلب من مفتاح، ولن تجد له مفتاحاً أحسن ولا أقرب من لطف في النصح، وأدب في الوعظ، ورفق في الحديث.

قلت: أعلم هذا، وقد قال في ذلك بعضهم: (كان من كان قبلكم إذا رأى الرجل من أخيه شيئاً يأمره في رفق، فيؤجر في أمره ونهيه، وإن أحد هؤلاء يخرق بصاحبه، فيستغضب أخاه، ويهتك ستره)[2]

قال: وقبله قال رسول الله ﷺ: (ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه)[3]

قلت: علمت هذا، فما **خامسها**؟

قال: أن لا تلزم من نصحته بما نصحته، فقد قال الله تعالى لأشرف خلقه: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ﴾ (الشورى: 48)، وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور:54)، وقال حاكيا عن رسله: ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (يّس:17)

قلت: لقد قال في ذلك بعضهم: (ولا تنصح على شرط القبول منك، فإن تعديت هذه الوجوه، فأنت ظالم لا ناصح، وطالب طاعة وملك، لا مؤدي حق أمانة وأخوة، وليس هذا حكم العقل، ولا حكم الصداقة، لكن حكم الأمير مع رعيته)[4]

قال: وعلى هذا نص الكل.. ولا ينبغي للفقيه إلا أن ينص على هذا.

قلت: علمت هذا..فما **سادسها**؟

---

1) الأخلاق والسير: (ص44).

2) جامع العلوم: (ص77)..

3) رواه البخاري ومسلم.

4) الأخلاق والسير: (ص44).

قال: أن تختار المحل المناسب للنصيحة، فلا تنصحه إلا في الوقت والمحل الذي تراه مناسبا لها، وقد قال في ذلك ابن مسعود :(إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وفترة وإدباراً، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها)

قلت: علمت هذا.. فما **سابعها**؟

قال: أن لا تذكر لمن تنصحه ذنبه.

قلت: فكيف أنكر عليه إذن؟

قال: إذا رأيت عاصيا، فحدثه عن شؤم معصيته، ولا تحدثه عن اقترافه لها.. فإنك إن فعلت ذلك عيرته، وإذا عيرته منعته من قبول نصيحتك.

قلت: صدقت، وقد وردت النصوص المقدسة بذم التعيير، وقد جاء في الحديث قوله ﷺ:(لا تُظْهِرِ الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك)(1)، وقال ﷺ:(من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله)(2)

قال: وعلى هذا نص الكل.. ولا ينبغي للفقيه إلا أن ينص على هذا.

قلت: فقهت الجملة، فأين التفاصيل؟

قال: اصحبني إلى مدرسة الحسبة لتتعلم الحسبة، وأسرار التأثير فيها.

قلت: ألا تزال توجد مثل هذه المدارس في هذا الزمن؟

قال: وما يمنع من وجودها؟

قلت: لقد استبدلت الآن بغيرها.

قال: لقد آثر أهل البلدة المباركة، وآثر حكامها أن لا يستبدلوا هذا لما رأوا من بركاته.

قلت: فدلني على هذه المدرسة.. فما أشد شوقي لأن أرى في ديار الإسلام مثل هذه المدرسة.

***

مكثت فترة طويلة مع العز بن عبد السلام أتعلم منه أسرار الحسبة، وفقهها، وما تحمله من معاني الهداية الرفيعة.. وقد اهتديت من خلال صحبتي له إلى أن رسول الله ﷺ هو سيد المحتسبين ومعلمهم.. وأن الاحتساب المؤثر والفاعل لم يكتمل إلا لمن اهتدى

---

1) رواه الترمذي، وقال: حسن غريب.

2) رواه الترمذي.

بهديه فيه.

***

ما استتم صاحبي حديثـه هـذا حـتى وجـدنا أنفسـنا قـد قطعنـا المرحلـة التاسـعة من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب.. ولم يخطر على بالي طيلة هـذه المرحلـة مـا كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تنزلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتـديت بهـا بعـد ذلـك إلى شمس محمد ﷺ.

عاشرا ـ الشاهد

قلت: فحدثني عن رحلتك العاشرة.

قال: خرجت من دمشق متوجها إلى المدينة المنورة.. تلك المدينة العظيمة التي شرفت بأن تكون المنارة التي امتد نورها إلى المشرق والمغرب، فمنها انطلق الدعاة إلى الله يحررون عباد الله، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

لا أكتمك أني بمجرد أن تنسمت أريج المدينة العطر حتى راح قلبي الذي امتلأ بحب حبيبه يشدو بما قال الشاعر الصالح:

أتيتُك راجلاً وَوَدِدْتُ	**مَلَكْتُ سَوَاد عيني**
وما لي لا أسِيرُ على	إلى قبرٍ رسولُ الله

أمام قبر رسول الله ﷺ.. وفي ذلك المحل الذي تذوب فيه القلوب، وتنهمر العيون، وتتصل الأرض بالسماء، وينمحي الزمان والمكان.. أحسست بروحي ترفرف في الملأ الأعلى في عوالم الجمال التي لا كدورة فيها ولا شوائب.. وهناك.. وفي ظلال تلك السعادة التي ليس فوقها سعادة.. تذكرت أولئك الملايير من البشر الذين رضوا بأن يعيشوا في الظلمات تاركين هذه الأشعة العظيمة الجميلة الدافئة المنيرة التي أرسلها الله لتكون رحمة للعالمين.

تذكرتهم، فامتلأت هما وحزنا.. لا عليهم وحدهم.. بل علي وعلى جميع المسلمين الذين راحوا يكتمون ما أمر الله بنشره، ويشوهون ما أمر الله بتزيينه، فملأوا أعين العالم بالغشاوة التي تحول بينهم وبين منبع الحقائق، ومصدر النور، ومشعل الهداية، ومربع الرحمة.

في ذلك المحل تذكرت الآيات التي تخبرنا بأن هذا الدين ليس خاصا بنا، وتبشرنا بأن رسول الله ﷺ هو رحمة للعالمين، ولا يحق لنا أن نحتكره لأنفسنا، فـ (المحتكر ملعون)(1)، و(لا يحتكر إلا خاطئ)(2)..

تذكرت قوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:33)، وقوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (الفتح: 28)

وتذكرت تبشير الله لنبيه ﷺ بدخول الناس في دين الله أفواجا:﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ (النصر: 2)

---

1) جزء من حديث رواه الحاكم وابن ماجة.

2) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي.

وتذكرت تلك الأحاديث التي بشر فيها رسول الله ﷺ البشرية بأنه سيأتي اليوم الذي ترمي فيه أغلال الشياطين لتتحرر من عبوديتها، ومن عبودية الأهواء والشهوات التي تنصرف بها عن حقيقتها.

تذكرت قوله ﷺ:(ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعِزِّ عزيز، أو بِذُلِّ ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر)(1)

وصحت في نفسي من حيث لا أشعر: متى يأتي ذلك اليوم؟.. متى ترتفع الظلمات عن هذه البشرية التائهة؟.. متى تتنزل أنوار الهداية؟.. متى يدخل الناس في دين الله أفواجا؟

بينما أنا كذلك أخاطب نفسي.. شعرت بيد تربت على كتفي وتقول لي: تعال.. فقد آن لك أن تلقى من يسلك القفار، ويقطع البحار، لينشر الأنوار.

قلت: تقصد الفم العاشر.. ذلك الذي أبحث عنه.

قال: إن كان الفم العاشر هو فم (الشاهد).. فهو ما سأدلك عليه؟

قلت: عرفت الحكيم والواعظ والمحاور والمعلم والقدوة والمربي والخطيب والمفتي والمحتسب.. فما الشاهد؟

قال: ألم تقرأ قوله تعالى عن وظائف رسول الله ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ (الأحزاب: 45)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ (المزمل: 15)؟

قلت: بلى.. وقرأت مثلها قوله تعالى عن وظائف الأمة: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (البقرة: 143)، وقوله تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الحج:78)

قرأت هذا.. فما يعني؟

قال: هذا يعني أن الشهادة وظيفة من أعظم وظائف رسول الله ﷺ، ووظيفة من أعظم وظائف الأمة(2).

قلت: أعرف الشهادة التي هي الموت في سبيل الله.. وأعرف الشهادة التي ترتبط بالقضاء.. وأعرف الشهادة التي تعني الحضور.. فما الشهادة التي ذكرت في هذا المحل؟

---

1) رواه أحمد.

2) تحدثنا عن الشهادة وعلاقتها بالسياسة في رسالة (مفاتيح المدائن) من (رسائل السلام)

قال: هي جميع ذلك.. وهي غير ذلك..

قلت: لم أفهم.

قال: لقد كان الصالحون يذكرون أربع مراحل لسير السالكين: أولها السير من النفس إلى الله، وهي رحلة البحث عن الله.. وثانيها: سير الإنسان من الله في الله، بحثا عن معرفة الله.. وثالثها: سير الإنسان مع الله إلى خلق الله.. ورابعها: سير الإنسان مع الله بين خلق الله، لإنقاذ خلق الله.

قلت: فأي سير منها يحقق الشهادة التي هي وظيفة الأمة؟

قال: هي المرحلة الأخيرة من سير السالكين.. وهي رحلتهم لإنقاذ خلق الله من عبودية الشيطان.

قلت: ولكن هذه وظيفة الحاكم لا وظيفة الداعية.. فالحاكم هو الذي يسير الجيوش التي تفتح أقطار الأرض، وتجعلها بأيدي المسلمين.

قال: لا.. ليست هذه هي الشهادة.. الشهادة أخطر من هذا.. والحاكم الصالح لا يبحث عن الاستيلاء على الأراضي، وإنما يبحث عن الاستيلاء على العقول والقلوب.

قلت: أجل.. فقد نصت النصوص القطعية على حرية الاعتقاد والتعبد، فلكل ذي دين دينه ومذهبه، لا يُجبر على تركه إلى غيره، ولا يُضغط عليه ليتحول منه إلى الإسلام.

قال: أجل.. فالهداية مصلحة شخصية، والضلال مضرة شخصية، ودور المؤمن هو الدعوة للمصلحة والتنفير من المضرة، لا الإلزام بذلك، قال تعالى: قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ(يونس:108)وقال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ(الزمر:41)

والقرآن الكريم يخبرنا أن دور المؤمن هو الدعوة لا السيطرة على من يدعوه أو إكراهه، قال تعالى: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (عبس:21)

وهو يخبرنا أن الإيمان والكفر حرية شخصية تتبع مشيئة صاحبها لا الإلزام الخارجي، قال تعالى: وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا(الكهف:29)

قلت: أعرف هذا.. ولكني لا أزال أتساءل عن سر الشهادة التي هي وظيفة هذه الأمة نحو سائر الأمم.

قال: الشهادة تتحقق بأن تكون الأمة نموذجا صالحا تهتدي بهديها الأمم، بل تحن لسلوك سبيلها.

قلت: فكيف تتحقق هذه الشهادة في منتهى كمالها؟

قال: تعال معي لأدلك على من يعلمك علوم ذلك.

قلت: أتريد أن تبعدني من هذا المحل الطيب الذي لا حياة للقلب إلا به؟

قال: اجعل هذا المحل في قلبك، وسر حيث شئت، أنسيت ما قال لك معلم الهداية؟

قلت: لقد قال لي:(سر في الأرض.. فلن ينال الهداية ولا علوم الهداية إلا من سار في الأرض، وخبر البشر، وتعلم لغة الطير، وسلك مسالك النحل، وسكن قرى النمل)

قال: فسر.. فبالله إن تسر تر العجائب.

***

سرت مع الرجل في بعض الأحياء العتيقة من المدينة المنورة إلى أن دخلنا دارا لم تكن تبعد كثيرا عن مسجد رسول الله ﷺ.. ولكنها في ظاهرها كانت دارا غريبة.. فلم تكن تشبه أي دار من تلك الدور المحيطة بها.. لقد كانت وكأنها من عالم آخر.

قلت: أهي دار عتيقة من تلك الدور التي لا نزال نرى مثلها في الآثار؟

قال: لا.. بل هي دار عصرية حديثة.. بل هي أكثر تطورا من جميع ما رأيته من دور.. ومع ذلك، فهي تحتفظ بجميع حلل الأصالة..

قلت: دعني من الدار.. وحدثني عما رأيت داخلها.

قال: لقد رأيت سبعة رجال عليهم سيما الورثة.. جلس كل واحد منهم في ناحية من النواحي، وأمامه الكثير من الأجهزة المتطوره.. وهو يتعامل معها بانفعال عجيب حتى أنهم لم يلتفتوا إلي، بل لم يرني أحد منهم.

لقد خطر على بالي، وأنا أراهم أولئك العلماء والباحثين الذين يجلسون أمام مكاتبهم وأجهزتهم، وهم يرقبون باهتمام وحرص أي صاروخ يطلق، أو أي مركبة تريد أن تنفذ من أقطار الأرض.

قلت لصاحبي: أهذه وكالة فضاء؟

قال: لا.. هذه وكالة هداية.. وهي مختصة بالشهادة.

قلت: ومن هؤلاء؟

قال: هؤلاء مهندسو شهادة.. كل عقل منهم لا يفكر إلا فيها.. وكل فم فيهم لا ينطق إلا بها.

قلت: فهم انتحاريون إذن؟

قال: لا.. بل حياتيون.. إن أفكارهم لا تحل بموضع إلا ملأته بأنوار الهداية والإيمان والحياة.. إنهم لا ينشرون الدمار بل ينشرون الحياة.

قلت: لكأني أعرف وجوههم.. وكأني لا أعرفها.

قال: نعم هم الظاهرون الباطنون..

قلت: فعرفني بهم.

أشار إلى أحدهم، وقال: هذا **القمي**(1) وهو رجل لا همة له إلا توحيد المسلمين، وتحقيق التآلف بينهم، فقد رأى أن فرقتهم هي السبب في انشغال بعضهم ببعض، وترك ما طلب منهم من دعوة الأمم إلى الله، وقد رأى أنه لا يمكن أن يدخل الناس في دين الله أفواجا، وهم يرون المسلمين يتصارعون تصارع الديكة، فراح يبحث عن علل الفرقة، وعن أدوية الوحدة والتقارب.

أشار إلى آخر، وقال: ذاك **الكواكبي**(2).. وهو رجل ذاق مرارة الاستبداد، فراح ينفر منه، ويدعو إلى العدالة التي جاء بها الإسلام.. فلا يمكن أن يدخل الناس في دين الله أفواجا، وهم يرون حكام المسلمين أباطرة وقياصرة وأكاسرة ونماردة.

أشار إلى آخر، وقال: ذاك **محمد إقبال**(3)..

---

1) نشير به إلى الإمام العظيم تقي الدين القمي، وهو مؤسس دار التقريب بالقاهرة، وأبرز من سعى في التقريب بين المذاهب الإسلامية.

2) نشير به إلى عبد الرحمن الكواكبي (1271-1320هـ)، وهو رحالة من الكتاب الأدباء، ومن رجال الإصلاح، وُلد وتعلم في حلب، وأنشأ فيها جريدة الشهباء فأغلقتها الحكومة، وجريدة الاعتدال، فعُطِّلت.

له من الكتب أم القرى؛ طبائع الاستبداد، وكان لهما عند صدورهما ردود فعل قوية، وكان كبيرًا في عقله وهمته وعلمه ومن كبار رجال النهضة الحديثة.

تناول في كتابه أم القرى أسباب انحطاط المجتمع الإسلامي بتوسع وتفصيل، وأرجعها إلى 18 سببًا دينيًا، و12 سببًا سياسيًا، و15 سببًا أخلاقيًا وتربويًا، وقد بحث الكواكبي في هذه الأسباب على شكل حوار بين عدد من الشخصيات التي تخيَّلها، وتناولها بالتفصيل وبإيراد الحُجج والبراهين، فكانت تحليلاً علميًا لواقع المجتمع العربي الإسلامي في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

3) أشير به إلى محمد إقبال (1288-1355هـ)، وهو عالم وفيلسوف وشاعر، كان يحث على الوحدة السياسية والروحية بين جميع الشعوب الإسلامية، وقد حاول أن يعيد صياغة الأفكار الأساسية للعقيدة الإسلامية باللغة الأكاديمية للعالم الحديث.

ظل طيلة حياته المجيدة يدافع عن الإسلام والمسلمين في المحافل الدولية والمؤتمرات الإسلامية والكتب والأشعار التي أبدعها، ويحاول قدر طاقته إيقاظ المسلمين من غفلتهم، ومساعدة الأمة الإسلامية على النهوض، وكان إقبال دائمًا يعطف على الفقراء والمساكين، يجلس معهم، ويهتم بأمرهم، ويخالطهم في الطعام والشراب.

كما كان يدعو المسلمين إلى المشاركة في حركة الحضارة والتقدم، وينبذ الفكر الذي يكتفي من الدين بالعلاقة بين العبد وربه في صورة العبادات.

لم يترك إقبال فرصة إلا نصح فيها إخوانه من المسلمين، فيخاطب المسلم ويقول له: (اقرأ مرة أخرى في سيرتك الأولى، اقرأ دروس الصدق والعدل والشجاعة، لأنك أنت المنشود؛ لتسود العالم مرة ثانية، أنت تملك العالم بالأخوة وتحكمه بالمحبة، ما الذي محا استبداد (قيصر) وشدة (كسرى)؟! أكانت هناك قوة في العالم تحارب الجبابرة سوى قوة (علي) كرم الله وجهه، وفقر (أبي ذر) وصدق (سليمان) ؟!)

قلت: أعرفه.. الشاعر المعروف.. ما الذي جاء به إلى هنا.. لقد كنت أحسبه ميتا.

قال: مثله لا يموت.. لقد جاء إلى هنا ليهندس للشهادة.. لقد رأى ما عليه المسلمون من ذلة ومهانة وعجز.. فراح يبحث عن أسباب ذلك، ويدعو إلى علاجه.. لقد علم أنه لا يمكن أن يدخل الناس في دين الله أفواجا، وهم يرون المسلمين بذلك الذل وتلك المهانة.

أشار إلى آخر، وقال: ذاك **مرتضى مطهري** [1].. وهو رجل ذاب في الشريعة، فصار مرآة لأحكامها، ومشعلا من مشاعل الدعوة إليها.. لقد رأى أن سبب انصراف الناس عن الدخول في دين الله أفواجا ما عليه الحكومات من انحراف عن شريعة الله.. فلذلك نذر حياته على الدعوة لتصحيح هذا الانحراف، وتقويم هذا الاعوجاج.

أشار إلى آخر، وقال: ذاك **شكيب أرسلان**[2].. لقد رأى ما عليه المسلمون من تخلف عن ركب الحضارة.. فراح يبحث عن أسباب ذلك، ويدعو إلى علاجه.. فقد علم أنه لا يمكن أن يدخل الناس في دين الله أفواجا، وهم يرون المسلمين بذلك التخلف.

أشار إلى آخر، وقال: ذاك **الشعراوي**[3].. لقد رأى أن ما عليه المسلمون من بعد عن كتاب ربهم، وعن بحار العلوم التي يبشر بها هو السبب في ذلك الجهل والتخلف الذي

---

1) أشير به إلى المفكر الإسلامي الكبير آية الله الشهيد الشيخ مرتضى مطهري (1338هـ ـ 1399هـ)، يعتبر من أوائل المؤيّدين للثورة الإسلامية التي قادها الإمام الخميني.

من مؤلّفاته : العدل الإلهي، الملحمة الحسينية، نظام حقوق المرأة في الإسلام، الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري، نهضة المهدي(عليه السلام) في ضوء فلسفة التاريخ، الإنسان والقضاء والقدر، إحياء الفكر في الإسلام، في رحاب نهج البلاغة، التعرّف على القرآن، الدوافع نحو المادّية، الإنسان في القرآن، المجتمع والتاريخ، الإنسان والإيمان، الإنسان الكامل، مسألة الحجاب .

استُشهد في الرابع من جمادى الثانية 1399هـ على يد زمرة المنافقين الذين أطلقوا النار عليه، وعلى أثر انتشار نبأ استشهاده أعلن الحداد العام في الجمهورية الإسلامية، ودُفن بجوار مرقد السيّدة فاطمة المعصومة في قم المقدّسة .

2) نشير به إلى الأمير شكيب أرسلان (1286 ـ 1366هـ، 1869 ـ 1946م)، وهو شاعر وكاتب ومفكرٌ وعالمٌ موسوعي.. رأى شكيب أرسلان أن العدو الأول للإسلام والمسلمين هو الجهل، وأن ارتفاع نسبة الأمية هي السبب في تأخر المسلمين، وعليهم أن يحاربوه بكل ما يملكون، وكتب في ذلك كتابًا من أعظم الكتب تأثيرا، وهو (لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم) بأسلوب سهل ممتع؛ لكي يوقظ الأمة الإسلامية من سبات الجهل والتأخر.

بالإضافة إليه كتب كتبًا عديدة عن الإسلام والمسلمين تصل إلى خمسين كتابًا لا يزال بعضها غير مطبوع، من أهمها كتاب (حاضر العالم الإسلامي) و(تاريخ غزوات العرب) و(الحلل السندسية في الحلة الأندلسية) و(عروة الاتحاد بين أهل الجهاد)..

بالإضافة إلى مئات البحوث والمقالات المنشورة في الصحف والمجلات، وله مذكرات مخطوطة باللغة الفرنسية، تصل إلى 20،000 صفحة، وترك ما لا يقل عن 30،000 رسالة، ما زالت مخطوطة.

3) نشير به إلى الشيخ محمد متولي الشعراوي (1329 - 1419هـ)، العالم الفقيه المفسِّر الداعية، أحد دعائم الفكر الإسلامي الحديث بمصر، وركيزة من ركائز الدعوة الإسلامية في النصف الثاني من القرن العشرين.

كان للشيخ الشعراوي أسلوب فريد في التفسير يجمع بين أصالة التفاسير القديمة ومعاصرة الواقع العلمي المبتكر، له باع طويل في التوفيق بين الدين والعلم، وربط حقائق الإسلام بأحدث النظريات العلمية المعاصرة.

ليس للشيخ الشعراوي مؤلفات بعينها، غير أن أصحاب الأقلام ودور النشر الكبرى وهيئات علمية كثيرة أخذت أحاديثه المذاعة تليفزيونيًا وإذاعيًا، وتسجيلاته المختلفة وطبعتها في صورة مجلدات وكتب كبيرة بالإضافة إلى مئات المقالات في الصحافة العربية والإسلامية.

قعد بهم عن وظيفة الشهادة التي كلفوا بها.. فراح يبحث عن السبل التي يبلغ بها كلام ربه، ورسالة ربه ليدخل الناس من خلال أنوارها في دين الله أفواجا.

أشار إلى آخر، وقال: ذاك **ديدات**[1].. لقد رأى أن ما عليه المسلمون من جهل بما يعتقده البشر من عقائد وأفكار هو السبب في قعودهم عن الدعوة إلى الله، ومواجهة الغافلين بالحجة والبرهان، ولجوئهم بدل ذلك إلى السيف والسنان.. فراح يعلمهم أسرار المسايفة بالحجة والبرهان، بدل المسايفة بالسيف والسنان.

الوحدة

بينما نحن كذلك، إذا بالقمي يقوم من مجلسه، وهو في غاية السعادة والسرور، ويصيح في الجمع: لقد وجدت الحل.. لن يرفضه أحد.. سيقبله الكل.. وستنحل العقدة.

استبشرت الجماعة جميعا لاستبشاره، وراحت تكبر، ثم تحاوره فيما جاء به.. سأنقل لك بعض ما ينفعك من الحوار الذي دار بين القمي وبين مهندسي الشهادة.

قال مطهري: نحن نعلم صدقك في بحثك يا سيدنا الفاضل، يا حبيب آل بيت رسول الله ﷺ، ونعلم أن الله لن يضيع جهد باحث.. فاذكر لنا ما وجدت، وبشرنا عسانا نستفيد مما وصلت إليه في إزالة العواقب التي تحول بيننا وبين ما نريده.

قال القمي: لقد وجدت أن الصخرة الكؤود التي تقف بيننا وبين الشهادة التي أمرنا بها هي تفرقنا واختلافنا وانشغال بعضنا ببعض.. لقد صرنا كأولئك الأطفال الأغبياء الذين انشغلوا عن واجباتهم بالصراع بينهم.. فراح عدوهم يستغل ذلك الصراع لينشر كل فتنة، ويقتل كل إصلاح.

قال الشعراوي: صدقت في هذا.. لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من عواقب الفرقة، فقال:﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر:14)

انظروا حكمة القرآن الكريم.. لقد اعتبر كل ما حصل لهؤلاء من رعب وضعف وذلة وعدم عقل هو ما كان بينهم من خلاف..

ولهذا نرى النصوص القرآنية الكثيرة تأمرنا بالتآلف، وتحذرنا من عواقب الاختلاف قال تعالى:﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ

---

1) نشير به إلى أحمد حسين ديدات (1337هـ- 1918م)، وهو داعية إسلامي كبير من جنوب إفريقيا (أصله من مدينة سيرات بالهند، وقد هاجر والده إلى دولة جنوب أفريقيا بعد وقت قصير من ولادته)، ظلَّ يعمل في مجال الدعوة الإسلامية حوالي خمسة وثلاثين عامًا. اشترك في العديد من المؤتمرات الإسلامية الإقليمية والدولية، وألقى محاضرات كثيرة في العديد من الدول الإسلامية وغير الإسلامية مثل: المملكة العربية السعودية والبحرين والإمارات العربية وبريطانيا والولايات المتحدة، وعقد مناظرات عديدة مع خصوم الإسلام والمناوئين له.

بالإضافة إلى ذلك، قام بإنشاء معهد السلام الإسلامي لتدريب الطلاب على القيام بالدعوة الإسلامية، وأصدر العديد من الكتيبات والمنشورات التي تردّ على خصوم الإسلام، وتدحض مزاعمهم.

اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (آل عمران:103)

وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (الأنعام:159)

وقال: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (الروم:32)

وقال: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (الانبياء:92)

وقال: وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (لأنفال:46)

قال شكيب(1): صدقت.. لقد جاء محمد ﷺ بهذا الدين رسولا إلى الناس جميعاً، وكان من أبرز مبادئه التسوية بين جميع الشعوب، وعدم الاعتراف بالفروق التي ألف الناس أن يعترفوا بها، ويتعاملوا على أساسها، وكانت بعثته ﷺ في وقت بلغت فيه العصبيات أوجها، فكانت كل أمة تعتز بنفسها، وتعتد بما عندها، وتعتبر جنسها هو خير الأجناس، وكان العرب أنفسهم منقسمين قبائل وأفخاذاً وبطوناً، وكل قبيلة تعتقد أنها خير القبائل، وتحتفظ بأنسابها، ولا تختلط بغيرها، حتى كان منهم قبائل لا تُصهر إلى غيرها، ولا يصهر غيرها إليها، وسمّوا أنفسهم (بالجَمَرات) تشبيها بالنار التي تتقى، ولا يجرؤ أحد على مسها.

فلما جاء رسول الله ﷺ هدم ذلك كله، ونادى فيهم بقول ربه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات:13)، ثم كان تصرفه ﷺ في سياسة المؤمنين مبنياً على هذا المبدأ السامي: مبدأ إهدار العصبيات، وهدم عوامل التفرق والتقاطع حتى ألف الله به بين جميع القلوب، وبنى من هذه اللبنات المفككة صرحاً قوياً متماسكا استندت اليه دعوة الحق، واحتمى به الإسلام وهو ناشئ غض، حتى جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

لقد امتن الله بذلك على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، فقال: وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)(الأنفال)، وقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) (آل عمران)..

قاطعه الشعراوي، والسرور باد على وجهه، وهو يقول، وبيده مصحفه الصغير يقرأ منه: انظروا.. إن هذه الآية التي تبين نعمة الله على المؤمنين بالتآليف والتآخي عقبت بهذه

---

1) انظر: مقالا بعنوان (المسلمون أمة واحدة)، محمد علي علوبه باشا (رئيس جماعة التقريب) مجلة رسالة الإسلام، العدد الأول، بتصرف.

الآية التي تأمر بأداء ما تتطلبه الشهادة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. اسمعوا.. قال تعالى: وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (آل عمران: 104)

ثم عقبت هذه الآية بقوله تعالى: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (آل عمران:105)

وبذلك حصرت آية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يدل على وجوب الألفة وحرمة الفرقة.. وكأنها تقول لنا:(إن من لم يستطع أن يملأ عالمه بالسلام والألفة لا يستطيع أن يملأ عوالم غيره بها.. وإن من لم يستطع أن يرتب بيته، فهو أعجر من أن يرتب بيوت غيره)

قال ذلك، ثم التفت بأدب إلى شكيب، وقال: اعذرني.. فأنت تعلم طبعي.. واصل حديثك..

ابتسم شكيب، وقال: بورك فيك وفي هذه اللطيفة التي ذكرتها..

لقد ذكرت لكم أن النصوص المقدسة كلها تحض على الألفة وتعتبرها من نعم الله العظمى على عباده.. وهكذا ظل الأمر في حياة رسول الله ﷺ..

فلما اختار الله رسوله ﷺ الى جواره .. فعلت السياسة فعلها، وعادت العصبيات إلى سابق عهدها، فتعددت الأحزاب والفرق والطوائف، وكثرت الخلافات المسائل الجدلية، وترامى المسلمون بالتهم، وساءت بينهم الظنون، ومشى كل فريق في طريق، فضلّت بهم السبل عن الطريق السوي، وذاق بعضهم بأس بعض.

تلك حال المسلمين اليوم، وإن داءهم لقديم منذ تدابروا وتقاطعوا وصاروا شيعاً، يصدق عليهم قوله تعالى: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (المؤمنون:53)

ولا صلاح لهم، ولا شفاء من دائهم، إلا بأن يعودوا كما بدأهم الله أمة واحدة لا فرق بين شعوبهم، ولا تناحر بين طوائفهم، ولا جهالة تصور الشيعي للسني، أو السني للشيعي، عدوا يظن به الظنون ويخافه على دينه وعقيدتة، ويتحفظ فيما يقرأ له من كتاب، أو ينقل عنه من رأي.

قال مطهري: صدقت.. فالتنازع والتقاطع مفسد للبيوت والأسر، مهلك للشعوب والأمم، مبدد للأموال والثروات، ذلك أنه إذا دب الخلاف، واشتدت الخصومة، فسدت النيات، وتغيرت القلوب، وتدابرت الأجساد، فوقعت الحالقة التي لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، كما قال ﷺ:(دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، أما إني لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين)(1)، وقال ﷺ:(والذي نفسي بيده! لا تدخلوا الجنة حتى تسلموا، ولا تسلموا حتى تحابوا، وافشو السلام تحابوا، وإياكم

1) رواه أبو داود.

والبغضة ؛ فإنها هي الحالقة، لا أقول لكم: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين)(1)

فإذا وقع التدابر أظلمت الوجوه، وساء ظن المسلم بأخيه (والظن أكذب الحديث)، وتفوهت الأفواه بفاحش القول وألوان البهت، وربما امتدت الجوارح بالضرب والقتل وقد قال ﷺ:(المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه التقوى ههنا وأشار إلى القلب بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)(2)، وقال:(المؤمن من آمنه الناس والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر السوء، والذى نفسي بيده لا يدخل الجنة عبد لا يامن جاره بوايقه)(3)

فإذا وقع ما نهى رسول الله ﷺ عنه فسد العباد وساءت البلاد، وفشلت الأمة، وذهب ريحها، كما قال تعالى:﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال:46)

ونتيجة لهذه المفاسد العظيمة والعواقب الوخيمة كان الصلح بين المتخصامين من أجل القربات وأعظم الطاعات، حث عليه الشارع ورغب فيه، وجعله خير ما يتناجى به المتناجون، قال تعالى:﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (النساء:114)

قال الشعراوي: صدقت.. فما ورد في النصوص من الصلح لا ينطبق بكماله إلا في هذا النوع من الصلح بين المسلمين.. فما ورد في النصوص من التحذير من النميمة والغيبة والحقد والحسد لا يشمل ما يرتبط منها بالأفراد فقط، فهو يسير حقير بجنب ما يرتبط منها بالأمة جميعا.

لقد تأملت ما ورد في النصوص من التحذير من النميمة وبيان خطورتها، فعلمت أن ذلك ليس مرتبطا بالنميمة بين الأفراد فقط، بل أخطر النميمة هي التي تصدع وحدة الأمة، وتفرق صفها، وتنشر العداوة بينها.

لقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(لا يدخل الجنة نمام)(4).. وقال ﷺ:(النميمة والشتيمة والحمية في النار)(5)، وفي لفظ:(النميمة والحقد في النار لا يجتمعان في قلب مسلم)

انظروا.. كيف جمع ﷺ بين الحقد والنميمة.. وهؤلاء الذين ينشرون الفرقة بين المؤمنين لا يصدرون إلا عن حقد يسمونه دينا، وغضب للنفس يسترونه باسم الغضب لله؟

وجمع ﷺ بين النميمة والحسد، فقال:(ليس مني ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة ولا أنا منه)، ثم تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا

---

1) رواه البخاري في الأدب المفرد.

2) رواه الترمذي.

3) رواه أحمد والنسائي وابن حبان.

4) رواه البخاري ومسلم، وفي رواية: (قتات)، وهو النمام.

5) رواه الطبراني.

اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً (الأحزاب:58)(1)

ولهذا، فإن رسول الله ﷺ اعتبر هؤلاء المجرمين شر عباد الله، فقال:(خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله، وشرار عباد الله المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت)(2)، وفي رواية:(المفسدون بين الأحبة)(3)، وفي رواية:(الهمازون واللمازون والمشاءون بالنميمة الباغون للبرآء العيب يحشرهم الله في وجوه الكلاب)(4)

وفي حديث آخر قال ﷺ:(ألا أنبئكم بشراركم؟) قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله، قال: (شراركم الذي ينزل وحده، ويجلد عبده، ويمنع رفده، أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟) قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله، قال: من يبغض الناس ويبغضونه. قال:(أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟) قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله، قال:(الذين لا يقيلون عثرة، ولا يقبلون معذرة، ولا يغفرون ذنبا) قال:(أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره)(5)

صاح شكيب: بورك فيك ـ يا شيخنا ـ والله لكأن رسول الله ﷺ يتحدث عن أولئك الذين ندبوا أنفسهم للتفريق بين المؤمنين.. فهم لا هم لهم إلا تتبع العورات.. إن وجدوا حسنة كتموها، وإن وجدوا سيئة سارعوا إلى نشرها من غير تثبت ولا تحقيق.

قال مطهري: لقد بلغ الحقد ببعضهم أن راح ينسب لإخواننا من الشيعة القول بأن القرآن الكريم محرف، غير مدرك خطورة ما يقوله مع أن كل علمائهم وأوليائهم وعوامهم لا يقرؤون من القرآن إلا ما نقرؤه جميعا(6)، ولا يعرفون من الدين إلا ما نعرفه.

قال الشعراوي: ولهذا، فإن النبي ﷺ اعتبر إصلاح ذات بين المسلمين من أعظم أعمال الخير.. هذا إذا كان بين أفراد، فكيف إن كان بين طوائف المسلمين ومذاهبهم وفرقهم..

لقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: (إصلاح ذات البين، فإن إفساد ذات البين هي الحالقة)(7)، وفي رواية:(هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين)

قال القمي: بورك فيكم جميعا.. وقد وجدت من خلال بحثي في علاج هذا أن سببه

1) رواه الطبراني.

2) رواه أحمد.

3) هذه الرواية رواها ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا.

4) رواه أبو الشيخ.

5) رواه الطبراني وغيره.

6) رددنا على هذه الفرية بالنصوص الكثيرة من أئمة الشيعة في رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

7) رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه.

هو ذلك الفهم المحدود للدين، الممتلئ بالتعصب الذي يرى الأشياء بمنظار واحد يلغي ما عداه مع أن ما عداه قد يكون عين ما ينكر عليه.

قال إقبال: صدقت.. لقد ذكرتني بقصة ذكرها العارف الكبير مولانا جلال الدين البلخي الرومي في كتابه (المثنوى) قال: كان أربعة من الفقراء جالسين في الطريق، وكل منهم من بلد، أحدهم رومي، والثاني فارسي، والثالث عربي، والرابع تركي، ومرّ عليهم محسن، فأعطاهم قطعة من النقد غير قابلة للتجزئة، ومن هنا بدا الخلاف بينهم، يريد كل منهم أن يجعل الآخرين على اتباع رأيه في التصرف في هذا النحو، أما الرومي فقال نشترى بها (رستافيل)، والفارسي قال: أنا لا أرى من (الانگور) بديلا، وقال العربي: لا والله لا نشتري به إلاّ (عنبا)، وقال التركي متشددا في لهجة صارمة: أن الشيء الوحيد الذي أرضى به هو: (اوزوم)، أما ما سواه فاني لا أوافق عليه أبدا، وجرَّ الكلام بين الأربعة إلى الخصام، وكاد يستفحل الأمر لولا أن مرَّ عليهم رجل يعرف لغاتهم جميعاً، وتدخل للحكم بينهم.

فبعد أن سمع كلامهم جميعا، وشاهد ما أبداه كل منهم من تشدد في موقفه أخذ منهم النقد، واشترى به شيئا، وما أن عرضه عليهم حتّى رأى كل منهم فيه طلبته، قال الرومي هذا هو (رستافيل) الذي طلبته، وقال الفارسي: هذا هو (الانگور) وقال العربي: الحمد لله الذي أتاني بما طلبت، وقال التركي: هذا هو (اوزوم) الذي طلبته، وقد ظهر أن كلا منهم كان يطلب العنب من غير أن يعرف كل واحد منهم أنه هو بعينه ما يطلبه أصحابه.

قال الكواكبي: ومما ورد في الحديث مما يشير إلى ذلك ما روي أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بني قريظة: (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)، فأدركتهم العصر في الطريق، فقال قوم: لا نصلي إلا في بني قريظة وفاتتهم العصر، وقال قوم: لم يُرِدْ منا تأخير الصلاة، فصلوا في الطريق، فلم يعب ﷺ واحداً من الطائفتين[1].

قال مطهري[2]: إن إيصال مثل هذه المفاهيم لعامة المسلمين وخاصتهم يحتاج إلى تعريفهم بحكمة الله في خلقه.. فقد اقتضت حكمة اللّه في خلقه أن جعل الناس مختلفين في ألوانهم وألسنتهم ومداركهم وتصوراتهم، ولكن اللّه جل شأنه لم يرد أن يكون هذا الاختلاف بين الناس مدعاة الى النزاع والشقاق، بل جعله دافعاً الى التآلف والوئام، وهذا ما يعبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13)

فهذه الآية الكريمة تلفت نظر الناس جميعاً الى حقيقة ثابتة لاجدال فيها، وهي وحدة الأصل الإنساني، ثم تبين أن اللّه أراد ان يجعل من ذرية آدم شعوباً وجماعات مختلفة: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ

1) رواه البخاري ومسلم.

2) انظر: محمود حمدي زقزوق، أمة إسلامية واحدة، مجلة (رسالة التقريب)، العدد 30.

خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) (هود)

ولكن هذا الاختلاف ـ الذي هو حقيقة واقعة لا شك فيها ـ ينبغي أن يكون محرّكاً للناس نحو التعارف والتآلف كما تشير الآية الكريمة ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾، وهذا التعارف من شأنه أن يكون مبنيا على الاحترام المتبادل والفهم المتبادل ومؤدياً الى التعاون المشترك فيما فيه خير الجميع.

وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأديانهم وحضاراتهم، فمن باب أولى ينبغي أن يكون ذلك شأن الأمة الإسلامية التي ينبغي عليها أن تضع ذلك في اعتبارها وفي مقدمة أولوياتها. فقد أراد اللّه لها أن تكون أمة واحدة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (الانبياء:92)

ومن هنا ينبغي على المسلمين أن يجتمعوا على ما اتفقوا عليه، وأن يعذر بعضهم بعضا فيما اختلفوا فيه.

واذا كان اختلاف وجهات النظر في الامور الفرعية أمراً جائزاً في إطار مبدأ الاجتهاد الإسلامي المشروع، فليس هناك مبرر على الاطلاق لان تكون هذه الاختلافات الفرعية عقبة في طريق تحقيق وحدة الأمة الإسلامية، فقد أمرنا أن نعتصم بحبل اللّه المتين، كما قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران: 103)، ونهينا عن أن نبدد جهودنا وطاقاتنا، لأن هذا لن يخدم الا أعداء الاسلام ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال: 46)

وليس هناك مسلم مخلص لدينه يقبل أن يكون عنصرا يخدم أعداء الدين.

قال القمي: ومن هنا ينبغي على عقلاء الأمة وعلمائها أن يعملوا على توحيد الصفوف وبذل الجهود المتواصلة في سبيل إزالة العقبات التي تعترض طريق الأمة نحو التقدم والازدهار.

ومن هذه العقبات تلك الآثار السلبية للخلافات المذهبية بين السنة والشيعة، أو بين بعض الطوائف داخل إطار كل منهما.

وقد آن الأوان لأن تختفي مظاهر هذا الخلاف التاريخي، وتزول عوامل النزاع والشقاق بين طوائف الأمة.

ولست أقصد بذلك أن يتغلب مذهب على مذهب، أو أن ينتصر فريق على فريق.. فالقضية أكبر من ذلك بكثير.. إنّها بالدرجة الأولى قضية الإسلام كدين، وقضية الأمة الإسلامية التي (تداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)(1) كما أخبر بذلك رسول اللّه ﷺ، وكما هو واقع أمام أعيننا في عالم اليوم، فحقوق المسلمين في كل مكان مهدورة، وأعراضهم في مناطق عديدة منتهكة، ودماؤهم تراق ليل نهار ظلما وعدوانا، وهم عاجزون عن فعل شيء غير الشجب والاستنكار والإدانة.

1) رواه أبو داود.

ومن هنا فإن المسلمين اليوم في أشد الحاجة ـ أكثر من أي وقت مضى ـ إلى توحيد صفوفهم، وتنسيق جهودهم، ودفن خلافاتهم على جميع الأصعدة، لان قضيتهم في عصرنا الحاضر قضية مصيرية، هي أن يكونوا أو لا يكونوا.

قال الشعراوي(1): لقد ذكرني كلامك هذا بأيام جميلة عشتها في الأزهر الشريف صحبة علماء أجلاء كان التفكير في وحدة الأمة عندهم أول الأوليات، وأصل الأصول.. فلذلك نبذوا كل تعصب، وتحرروا كل قيد، وجعلوا انتماءهم للإسلام هو الانتماء الأعلى الذي لا ينافحون إلا عنه، ولا ينتصرون إلا له.

في تلك الأيام.. في الأربعينيات من هذا القرن.. شهدت القاهرة حركة تقريبية رائدة، انطلقت من دار التقريب، وجماعة التقريب في القاهرة، وضعت هذه الحركة لها خطة عمل مدروسة في حقل الأصول والفروع لنشر ثقافة التقريب، وحققت عبر مجلتها (رسالة الإسلام) نجاحا في إزالة الحواجز النفسية، وتصحيح المفاهيم لدى السنة والشيعة..

سأقص عليكم القصة من البداية.. لعلنا نجد من يحييها من جديد.. ليحيي بإحيائها وحدة الأمة وعزتها وكرامتها:

في تلك الأيام الجميلة قدم العلامة محمّد تقي القمي، الذي قدم من إيران إلى مصر لأول مرة في عام 1937 م، والتقى فيها بكبار شيوخها، خصوصا الشيخين محمّد مصطفى المراغي ـ شيخ الأزهر ــ وعبد المجيد سليم الذي كان مفتيا، ودرس في الأزهر لمدة سنتين، وشجعه اللقاء مع شيوخ الأزهر على طرح فكرة التقريب، التي خرجت إلى حيز الوجود حين عاد الشيخ القمي إلى مصر لكي يستقر بها في سنة 1946 م، ويؤسس مع نخبة ممتازة من الشخصيات المصرية (دار التقريب بين المذاهب)

لقد شكل أول مجلس إدارة لدار التقريب في عام 1947م، وضم عشرين عضواً من تلك الكوكبة التي التقت على الفكرة وتحمست لها في مصر، وكان معهم عدد آخر من العلماء يمثلون الشيعة الإمامية والزيدية.

رأس الجمعية في أول تأسيسها أحد كبار المصلحين في مصر آنذاك، هو (محمّد على علوبة باشا) الذي كان وزيراً في عدة حكومات (للأوقاف والمعارف) وعينته مصر أول سفير لها في باكستان.

وكان من بين الأعضاء الشيخ عبد المجيد سليم رئيس هيئة الفتوى بالأزهر، ثم صار شيخا للأزهر فيما بعد، والشيخ أحمد حسين مفتي وزارة الأوقاف، والشيخ محمود شلتوت الذي كان عضواً بهيئة كبار العلماء، وصار بدوره شيخا للأزهر، والشيخ محمّد عبد اللطيف دراز وكيل الأزهر، والشيخ عيسى ممنون عضو هيئة كبار العلماء ورئيس الجمعيات الشرعية، والشيخ حسن البنا رئيس الإخوان المسلمين، والشيخ عبد الوهاب خلاف والشيخ علي الخفيف، وهما من كبار أساتذة الفقه والتشريع بالجامعة، والشيخ محمّد المدني الأستاذ بالأزهر وأصبح وكيلا للأزهر فيما بعد.

---

1) انظر: تجربة التقريب بين المذاهب، الأستاذ فهمي هويدي.

وإلى جانب هؤلاء كان من بين الأعضاء الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، والشيخ محمّد تقي القمي ممثلا للشيعة الإمامية، وعلي بن إسماعيل المؤيد، والقاضي محمّد بن عبدالله العمري، عن الشيعة الزيدية.

والى جانب نخبة العلماء الممتازة التي أسست جمعية التقريب وتصدرت أول مجلس إدارة لها، فقد بين النظام الأساسي للجمعية أنها تتطلع إلى ما هو أبعد من جمع كلمة المسلمين باختلاف طوائفهم ومذاهبهم إذ لم يكتف المؤسسون بذلك الهدف الجليل، وإنّما طمحوا لأن يصبح الكيان الجديد بمثابة رابطة أو جامعة للشعوب الإسلاميّة تتجاوز حدود مصر، فقد نصت المادة الخاصة بأغراض الجماعة على أن من تلك الأغراض السعي إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما، وعقد مؤتمرات إسلامية عامة تجمع زعماء الشعوب الإسلاميّة في الأمور الدينية والاجتماعية، فضلاً عن ذلك فإن الجمعية أرادت أن تقوم بدور في الدعوة إلى الإسلام عن طريق نشر المبادئ الإسلاميّة باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إليها.

هؤلاء هم الورثة الحريصون على الأمة وعلى وحدة الأمة.. وهذه هي هممهم.. فما الذي فعلوه؟

لعل أهم شيء يلفت الانتباه في هذا هو تلك الفتوى الجريئة الدالة على الفهم العميق للإسلام، وعلى التخلي التام عن كل أغلال التعصب، فتوى الشيخ محمود شلتوت التي أصدرها بعدما صار شيخا للأزهر، والتي أجاز فيها التعبد على مذهب الشيعة الإمامية وغيرها من المذاهب التي تتأسس على أصول الإسلام القطعية.

لقد قال يتحدث عن إيمانه العميق بضرورة التوحيد بين هاتين الطائفتين العظيمتين من طوائف المسلمين:(إن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة، هي دعوة الاسلام والسلام.. لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة.. ثم تهيأ لي بعد ذلك، وقد عهد إليّ بمنصب مشيخة الازهر، أن أصدرت فتواي في جواز التعبد على المذاهب الاسلامية الثابتة الأصول، المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، وقرّت بهذه الفتوى عيون المؤمنين المخلصين الذين لاهدف لهم الا الحق والألفة ومصلحة الأمة، وظلت تتوارد عليّ الاسئلة والمشاورات والمجادلات في شأنها وأنا مؤمن بصحتها، ثابت على فكرتها، أؤيدها في الحين بعد الحين فيما أبعث به من رسائل للمستوضحين، أو أردّ به على شبه المعترضين، وفيما أنشئ من مقال ينشر أو حديث يذاع أو بيان أدعو به الى الوحدة والتماسك والالتفاف حول أصول الاسلام ونسيان الضغائن والاحقاد، حتى أصبحت ـ والحمد للّه ـ حقيقة مقررة تجري بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة بعد أن كان المرجفون في مختلف عهود الضعف الفكري والخلاف الطائفي والنزاع السياسي، يثيرون في موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل. وهاهو ذا الازهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة، فيقرر دراسة فقه المذاهب الاسلامية سنيها وشيعيها دراسة تعتمد على الدليل والبرهان وتخلو من التعصب لفلان وفلان)(1)

1) راجع (مشيخة الازهر منذ إنشائها حتى الآن) للاستاذ علي عبد العظيم:2/187 وما بعدها. القاهرة 1979.

اسمحوا لي.. إن كنت قد قرأت لكم هذا النص بطوله.. فأنا لم أفرح بفتوى كما فرحت بهذه الفتوى..

سكت الشعراوي قليلا، وكأنه يعود بذاكرته إلى أيام شبابه، ثم التفت إلى الجمع، وقال: في تلك الأيام الجميلة كانت جماعة التقريب تصدر مجلة جامعة باسم (رسالة الإسلام)، ظلت تصدر طيلة أربعة عشر عاماً..

لقد كانت تلك المجلة هي زادنا الذي منه ننهل الإسلام النقي الطاهر البعيد عن كل تعصب..

لم تكتف الجمعية بذلك بل اعتمدت تفسيراً للقرآن الكريم اجتمع عليه علماء السنة والشيعة هو تفسير (مجمع البيان لعلوم القرآن) للطبرسي، الذي استغرق تهيئته للنشر مدة عشرين عاما، وأشرف على هذه العملية ثلاثة من أكابر علماء الأزهر هم الشيوخ: عبد المجيد سليم، ومحمود شلتوت، ومحمد المدني.

وفوق ذلك شرعوا في تجميع الأحاديث النبوية المتفق عليها بين السنة والشيعة، وقطعوا شوطا طيبا في هذا الصدد، رغم أن هذا الجهد لم ير النور بعد.

قال القمي: بورك فيك يا شيخنا.. إنك تذكرني بشبابي.. بتلك الأيام الجميلة التي كنا نصيح فيها بكل قلوبنا (لا سنية لا شيعية.. إسلامية إسلامية).. في تلك الأيام لم نكن نفخر إلا بالإسلام.. كنا نحزن لكل مصاب من المسلمين مهما اختلف مذهبه، أو لونه، أو وطنه.. ونفرح لكل نصر أصاب المسلمين لا يهمنا مذهبه، أو لونه، أو وطنه..

لقد كنا نردد بكل قلوبنا قوله تعالى: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً ﴾ (المائدة: 3)، فلم نرض لأنفسنا غير الإسلام.. الإسلام العظيم الواسع الذي لا يضيق بأحد، ولا يعبس في وجه أحد.

لقد كانت نتائج عمل تلك الجماعة الصالحة من ورثة النبوة عظيما ومثمرا ــ رغم العمر القصير الذي أتيح لهم أن يتحركوا فيه بحرية ـ

لقد كان من نتائج ذلك أن حيت فكرة التقريب، وجمعت من حولها كبار علماء السنة والشيعة، وكان عملها هذا أهليا محضا، حركته الغيرة على الإسلام والمسلمين، ولم تكن لهذا العمل علاقة بأي نظام سياسي أو مؤسسة رسمية.

وكان من نتائجها أنها نجحت في ضم الفقه الشيعي إلى المذاهب الإسلاميّة الأخرى التي تخضع للدراسة في منهج الفقه المقارن بالأزهر الشريف.

وكان من نتائجها أنها قطعت شوطاً كبيراً بإصدار تفسير للقرآن متفق عليه، وسعت إلى تحقيق الفكرة نفسها عن طريق تجميع الأحاديث النبوية المتفق عليها أيضاً.

وهذا يعني أن جماعة التقريب أنجزت خطى بالغة الأهمية على صعيد تحويل التقريب من حلم وفكرة، إلى عمل مشترك جاد تبلور في مجموعة من الآثار العلمية التي بقيت

لأجيال المسلمين إلى يوم الدين.

قال مطهري: لقد ذكرتموني بتلك الأيام الجميلة التي كنت ـ وأنا صحفي كما تعلمون ـ أتزود من مجلة (رسالة الإسلام) التي كانت تمثل صلب المشروع، وتعكس كيفية رؤية أصحابه له، ولذلك فإنها تعد بحق صوت التقريب.

إن قارئ أعداد المجلة يلاحظ أنها ظلت طيلة الأربعة عشر عاما تتحرك على محاور عدة، في مقدمتها خمسة، هي: استنكار فرقة المسلمين.. والدفاع عن الحق في الاختلاف.. ورفض توحيد المذاهب.. والأصول المتفق عليها بين أهل السنة والشيعة، ومن ثم السعي الدءوب للتنبيه إلى مساحة المشترك بين الطرفين.. ورد الشبهات التي تتردد في أوساط أهل السنة بشأن الشيعة ومذهبهم.

قال الكواكبي: فيما يتعلق باستنكار فرقة المسلمين وتمزقهم، فإنه لا يكاد نص في المجلة يخلو من تعبير عنه.. لقد كان البيان الذي أصدره مؤسسو دار التقريب عقب أول اجتماع لهم (في 30 ربيع الثاني عام 1366 هـ) هو أوضح إعلان عن الفكرة، فبعد أن أشار البيان إلى ثراء الفقه الإسلامي، انتقد ممارسات المقلدين والمتعصبين للمذاهب الّذين كلت هممهم عن حمل ما كان يحمله سلفهم في العلم والنظر، وهو ما صادف عهود الضعف السياسي وانقسام الأمة الإسلاميّة إلى دويلات صغيرة لا تربطها رابطة ولا تجمعها جامعة ومن شأن الضعف السياسي إذا أصيبت به أمة، أن يخيل إلى أبنائها أنهم أقل من سواهم قوة وعلما وتفكيراً، وأنه تركد معه ريح العلم ويفتر نشاط العلماء.

بهذا وبغيره ـ أضاف البيان ـ تأثر أكثر المشتغلين بالفقه، فحكموا على أنفسهم وعلى جميع أهل العلم في زمانهم بأنهم ليسوا أهلاً للنظر والاستنباط، ولا لفهم كتاب الله وسنة رسوله ومن ثم حكموا بإغلاق باب الاجتهاد، وترتب على ذلك أن وقف الفقه وجمد وأن تعصب كلّ منهم لرأي إمام، وزعم أنّه الحق وأن ما سواه باطل، وأسرفوا في ذلك إسرافا بعيدا حتّى كان منهم من لا يصلى وراء إمام يخالفه في مذهبه، ومن لا يزوج ابنته لفلان، أو يتردد في أكل ذبيحة فلان، أو قبول قضاء فلان،لمجرد أنّه يخالفه في المذهب ثم حصروا الأئمة الّذين أوجبوا اتباعهم في عدد معين وهكذا ضاق أفق الاتباع والأشياع مما اتسع له أفق المتبوعين.

قال شكيب: لقد توقفت عند مقالة في الموضوع نشرها الأديب البارع والعالم الفذ الشيخ محمّد الغزالي تحت عنوان (على أوائل الطريق)، استهلها بكلام للمستشرق المجري جولد تسيهر ذكر فيه أن الملك (نادر شاه) (المتوفى سنة 1747 م) سعى جادا كي يعقد مع الأتراك صلحا ينقي الجو بين الشيعة والسنة، ويضع حد للخلاف القائم بين الفريقين.

ووضع لذلك مشروعا جيداً كاد يخرج إلى حيز التنفيذ، لولا أن المنية عاجلته فمات دون أن تتحقق أمنيته وقد أشارات كتابات الفقيه السني عبد الله بن حسين السويدي، الذي كان معاصرا لتلك الفترة، إلى أن نادر شاه عقد مجمعا دينيا جمع فيه فقهاء الفريقين وقد اتفق هؤلاء الفقهاء على ضم التشيع إلى المذاهب السنية، وجعله مذهبا خامسا يقبل

به المسلمون كافة، وقد صارت من السهل بعد قليل ـ بموجب هـذا الاتفـاق ــ أن يخصـص مقام خامس للمذهب الجعفري في دائرة الحرم المكي بجـوار مقامـات المـذاهب الأربعـة السنية وصار لزاما منذ ذلك الوقت الإقرار بسنية هذا المذهب.

وقـد امتـدح المستشـرق المجـري هـذه الخطـوة لكنـه قـال: (إن حلم التوفيـق بين الطـرفين كـان أمنيـة بعيـدة ذلـك أن الحقـد المتـوارث الـذي يحملـه كلا الفـريقين للآخـر والضغائن التي شرطت فقهاء المذهبين شطرت، جعلتهم بعد مـوت نـادر شـاه لايتصـوبون سياسة التسامح والوفاق)

لقد علق الشيخ الغزالي على ما كتبه جولـد تسـهير قـائلا: (لقـد أحسسـت وخـزاً في فـؤادي وأنـا أقـرأ كلمـة الإسـلام الشـيعي والإسـلامي السـني، الـتي تـرددت على لسـان المستشرق المجري مرارا، وأتساءل: ما الـذي حـدث حتّى نكب الإسـلام بهـذه الفرقـة؟)، وفي رده قـال: (الحقيقـة أن هنـاك أناسـا لا يتقـون اللـه في دينهم ولا في أمتهم، أطلقـوا غيومـا داكنـة من الإشـاعات والظنـون، كـانت العملـة الدفينـة في تمزيـق الشـمل، وملء الرءوس بطائفة من التصورات الباطلة والمشاعر المنحرفـة.. وجمـاهير العامـة ــ للأسـف الشديد ـ ضحايا لتجاذب متبادل لا أساس له، ويوم ينكشف الغطـاء عن الحقيقـة، سـيحزن كثيرون لما أرسلوا من أحكام وأطلقوا من عبارات)

قال القمي: في هذا المعنى كتب سميي الشيخ محمّد تقي القمي يقول: (كان الوضع قبل تكوين جماعة التقريب يثير الشجن، فالشيعي والسني كلّ كان يعتزل الآخر، وكل كان يعيش على أوهام ولدتها في نفسه الظنـون، أو أدخلتهـا عليـه سياسـة الحكم والحكـام، أو زيفتها له الدعايـة المغرضـة.. كـان يسـود الفـريقين جـو من الظلام، فلا يـرى أحـدهما في صورة الآخر إلاّ شبحاً تحوطه الظلمة، ولا يتكلم عنه إلاّ بما توحي به الظلمـة، ولا يقـرأ عنـه إلاّ ما تسمح به حلكة الظلام)

وأضاف يقول: (إن الفرقة بين المسلمين ظلت غـذاء مناسـبا للحكم والحكـام قرونـا عـدة، دأب فيهـا كـلّ حـاكم على اسـتغلالها لتثـبيت سـلطانه، وتحطيم عـدوه، ثم جـاءت السياسـات الأجنبيـة فوجـدت في هـذه الفرقـة خـير وسـيلة لتـدخلها، وبث نفوذهـا ودعم سلطانها وفرض سيادتها.. الحق كلّ الحق أنّه لا ضرر على المسلمين في أن يختلفوا، فإن الاختلاف سنة من سنن الإجماع، ولكن الضـرر كـلّ الضـرر في أن يفضـي بهم الخلاف إلى القطيعة والخروج على مقتضى الأخوة التي أثبتها الله في كتابه العزيـز، لا على أنهـا شـيء يؤمر به المؤمنون، ولكن على أنها حقيقة واقعة، رضى الناس بها أم أبوا)

هكذا كتب الشيخ محمّد تقي القمي في الأعداد الأولى لمجلة رسالة الإسلام.

وقد وضح مراده بهذا في مقالة أخرى بعنوان (خلاف نرضاه وخلاف نأباه)، وفيه قال: (هناك فرق بين خلاف وخلاف: هناك خلاف تمليه طبيعة التفكـير وتقتضـيه سـنن الاجتمـاع، ونحن نقبله ونرضاه وهناك خلاف يصطنع اصطناعا، ونحن نرفضه ونأباه.. إننا نقبـل الخلاف الفكري ما دام في دائرة معقولة، ونرحب بالخلاف المذهبي لأنه وليد آراء اجتهادية مرجعها الكتاب والسنة أو ما أعطاه الكتاب أو السنة قوة الحجية ونـرحب بمـا عنـد الشـيعة وأهـل

السنة، لأنهما تؤمنان بما يجب على المسلم أن يؤمن بـه، وإن اختلفتا في مسـائل فقهيـة، وتميزتا في مسألة الولاة والخلافة ونرحب كذلك بالمعارف الكلامية، لأنها ميدان من ميادين التفكير للمسلم أن يجول فيه.

نحن نرحب بهذه الخلافات كلها، بل نعتز كمسـلمين بـالكثير منهـا: لأنهـا إن دلت على شيء فإنما تدل على الحرية الفكرية، ولأنهـا إن أحسـن النظـر إليهـا، تسـعد الأمـة وتكفـل رقيها وتبقى على سلامتها.

إن هذه الخلافات في جوهرها تنـبئ عن معـنى الوفـاق فهي ترتبـط بأصـل واحـد هـو الكتاب والسنة.

وليس معنى هذا أن في السنة خلافا، بمعنى أن البعض يقبل ما صدر عن رسول اللـه ﷺ والبعض لا يقبله، معاذ الله، فالمسلمون يتفقون في وجوب الأخذ بسنة رسول الله ﷺ، ولكنهم قد يختلفون في الفهم أو التفسير أو في أن هـذا صـدر عن الرسـول الأعظم أو لم يصدر أما من لا يأخذ بما أمر به الرسول فليس بمسلم.

فالآراء الاجتهادية إذن، يجمعها الكتاب والسنة، وليس بعد هذا من وفاق.

أما الخلاف الذي لا نرحب به ولا نقبله، بل نرفضه ونقاومـه، فهـو الخلاف الـذي يقـوم على الكراهية والبغضاء، وتغذية الشبه والأوهام، ويوجـد البلبلـة في صـفوف الأمـة، ويـؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين.

ذلك خلاف لا يتفق والخلق الإسلامي، ولا يستند إلى المعارف الإسلاميّة، حمـل لـواءه مؤلفون كتبوا قبل التثبت تارة، وبداعي الغرض والهوى تارات، فسودوا صحيفة الشيعة في نظر أهل السنة، وسودوا صحيفة أهل السنة في نظر المتشـيعين، بعضـهم خلـط بين أهـل السنة والنواصب، وأكثرهم خلطوا بين الشيعة والغلاة، بينها وبين الفـرق البائـدة، وألصـقوا بها آراء لا تمت إليها بصلة، بل الشيعة منها براء)

قال الكواكبي: بخصوص النقطة الثالثة التي اهتمت جماعة التقـريب بإبرازهـا، والـتي ينبغي إحياؤها من جديد.. وهي أن الوحدة الإسلامية لا تعني محو المذاهب أو إلغاؤها، وإنما تعني نشر المودة والمحبة والتآخي والاحترام بين أهلها، مع بقاء كل طرف على ما يعتقـده مما وصل إليه بالاجتهاد عبر من يثق فيه من العلماء.

لقد أثارت ـ في البداية ـ جهود التقريب جدلا كبـيرا؛ حيث شـاع بين قطاعـات ليسـت قليلة من المسلمين أن مقصدها في نهاية المطاف هو توحيد المذاهب، باعتبار أن هذه هي الصيغة المثلى لفض الاشتباك وإنهاء الخلافات، لذلك دأبت مجلة رسالة الإســلام على نفي هذه الفكرة، والإلحاح على أن هدف التقريب مختلف إلى حد كبير.

في البيان الأول لدار التقريب أثيرت هذه القضـية، حين تلقت الجمعيـة تسـاؤلات من بعض الحجازيين عن حقيقة مهمتها، وهل تتناول إدماج المذاهب الإسلاميّة بعضها في بعض، كما يردد أهل العلم في الحجاز، واختار البيان أن يرد من خلال اقتباس نصـوص من رسـالة

بعثت بها الجمعية إلى الملك عبد العزيز آل سعود، حين أرادت أن تقدم نفسها وتشرح أهدافها.

ومما ورد في الرسالة:(إن جماعة التقريب لا تريد المساس بالفقه الإسلامي، ولا إدماج مذاهبه بعضها في بعض، بل هي على النقيض من ذلك، ترى في هذا الاختلاف الفقهي مفخرة للمسلمين، لأنه دليل على خصوبة في التفكير، وسعة في الأفق، واستيفاء وحسن تقدير للمصالح التي ما أنزل الله شريعته إلاّ لكفالتها وصونها، وكل ما تبذله الجماعة من جهود في سبيل الفقه الإسلامي إنّما هو في دائرة خدمته وتنميته وتسليط نوره الوهاج على شؤون الحياة الإسلاميّة كلها، وبحث المشكلات التي جدت وتجد ولم يتضح للناس حكم الله فيها.

ومما جاء فيها:(ولن تمد الجماعة يدها إلاّ لأرباب المذاهب الإسلاميّة التي تعتقد العقائد الصحيحة التي يجب الإيمان بها(1)

ومما جاء فيها:(وهي ترى أن بعض المنتسبين إلى المذاهب الإسلاميّة يجعلون لبعض المعارف والآراء التي لا صلة لها بالعقائد الصحيحة أهمية طاغية تدفعهم إلى التخاصم والتقاطع والتنابز بالألقاب ونسيان ما جمع الله عليه القلوب، وألف به بين المسلمين وترى أن أعداء الإسلام والطامعين في استعمار بلاده وإذلال أهله يتخذون من هذه الخلافات أبوابا يلجون منها إلى مقاصدهم الباغية، ويعملون كلّ ما في استطاعتهم على إذكاء نيرانها ليضربوا بعض المسلمين ببعض ثم يضربوهم جميعا)

ومما جاء فيها:(وتؤمن إيمانا عميقا بأن من أهم الواجبات الدينية على كلّ ذي علم ورأي في شعوب المسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم الإسلاميّة، العمل على تبصير المسلمين بدينهم، وقطع أسباب الخلاف والتفرقة بينهم ببيان ما هو عقيدة يجب الإيمان بها، وما هو معارف لا يضر الخلاف فيها، وأن من بين هذه المعارف ما يظن أنّه من العقائد وهو ليس منها)

ومما جاء فيها:(فالغرض من تأليف (جماعة التقريب) هو: أن تكون مركزاً إسلامياً لهذه الفكرة، تتركز فيه جهود جميع المقتنعين بها في أنحاء العامل، شرقية وغربية، وتتجاوب لديه أصواتهم وأبحاثهم وأراؤهم في رفق وحسن تقبل، فيتهيأ لها جو من البحث العلمي الخالص على ضوء القواعد الإسلاميّة الصحيحة، وحينئذ تنجلي أمام المسلمين أسباب الاختلاف فيما وراء العقائد الدينية والأحكام التشريعية فيعالجونها، ويصلون في

1) وأركان العقائد التي تجمع المسلمين، هي التي ورد في النصوص المقدسة بيانها منحصرة في قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ (البقرة: 177)، وقوله تعالى:﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة: 285)

وفي قوله ﷺ في حديث جبريل:(أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره﴾ (رواه مسلم)

أما ما عداها مما دخل في العقائد، فهو في أحسن أحواله من فروع العقائد لا أصولها، ولا يرتبط بها ضلال ولا كفر، ولا سنة ولا بدعة..

المسائل والنظريات الخلافية نفسها إلى الرأي الصحيح الذي يهدي إليه المنطق والدليل، فإذا بقي بعد ذلك مالم تجتمع عليه القلوب أو تقطع به البراهين، كان أمره بعد ذلك هينا لا ينبغي أن يفضي إلى التقاطع والتناكر والتقاذف، وإنّما هو الخلاف في الفقه والفروع يعذر العلماء فيه بعضهم بعضا ويتبادلون الاحترام والمودة والتعاون كما هو شأن المؤمنين)

قال مطهري: ومما يؤكد ما ورد في هذه الرسالة ما جسدت به دار التقريب موقفها من المذاهب المختلفة حين طبعت ووزعت في موسم الحج جدولا مفصلا عن أحكام الحج على المذاهب المتعددة: الحنفي، والمالكي، الشافعي، والحنبلي، والإمامي، والزيدي، وقد راج هذه الجدول في البلاد المقدسة رواجا عظيما، ولفت أنظار كثير من المسلمين، إلى أن آراء فقهائهم في فروع عبادتهم ليست من التباعد والخلاف بحيث توجد الخصومة والفرقة والتباغض فيما بينهم.

قال الشعراوي: من المقالات التي استوقفتني في ذلك الحين مقالة للعلامة محمّد الحسين آل كاشف الغطاء تحمل عنوان (بيان إلى المسلمين)، ومما جاء فيها: (من المقطوع به أن ليس المراد من التقريب بين المذاهب الإسلاميّة إلاّ إزالة أصل الخلاف بينها، بل أقصى المراد وجل الغرض هو إزالة أن يكون هذا الخلاف سببا للعداء والبغضاء.. الغرض تبديل التباعد والتضارب بالإخاء والتقارب)

ومن المقالات التي استوقفتني في ذلك الحين مقالة كتبها يراع الشيخ حسنين مخلوف ـ مفتي مصر ـ يقول فيها:(إنني من المؤمنين بفكرة التقريب، العاملين على أن يدرك المسلمون جميعا مزاياها وما تؤدي إليه من جمع كلمتهم وتوحيد أهدافهم.. فالإسلام هو دين الوحدة كما هو دين التوحيد.

وقد حرصت شريعته على أن تقر في الناس أسس التضامن والتكافل الاجتماعي والتعاون على البر والتقوى، وعلى أن تنزع من بينهم أسباب العداءات والضغائن، وما ينزع به الشيطان بينهم ليفشلوا وتذهب ريحهم)

قال إقبال: ومما قرأته في بعض المقالات في ذلك الزمن الجميل ما قاله بعضهم، وهو يعبر عن جميعهم:(من العجب أن نعتبر المسلمين مختلفين، مع أن الخلاف بينهم محصور جدا.. ولا علاقة له بقضايا الدين الأساسية.. فالمسلمون جميعا ـ بمختلف فرقهم ـ يقيمون الصلاة في أوقات خمس مكتوبة، ليست ستة عند فريق ولا أربعة عند فريق وهم متفقون عليها بأعيانها، ومتفقون على أعداد ركعاتها، وعلى قبلة المصلى فيها، وقد شرعت فيه الجماعات والجمعات والصلوات العامة في المناسبات، كصلوات العيد والاستسقاء والكسوف ونحو ذلك من كلّ ما يراد به إشعار المسلمين بالوحدة والألفة واتفاق المصالح والاستواء أمام ربوبية الله جل وعلا.

وما يسرى على الصلاة يسرى بذات القدر على الشهادتين، وعلى الزكاة والصيام والحج وهذه الأركان التي لا يختلف عليها المسلم تشكل أساسا متينا للتوحيد والوحدة بين أبناء الأمة)

قال الكواكبي: ومن المقالات التي لا أزال أذكرها ما كتبه الشيخ محمّد عبد اللطيف

دراز تحت عنوان (الإسلام والأزهر والتقريب)، فقد كتب في هذا المقال داعياً إلى ضـــرورة (العمل على جمع كلمة المسلمين في مشـارق الأرض ومغاربهـا، وتصـفية الخلافـات بينهم بعرضها على كتـاب اللـه وسـنة رسـوله)، ثم أضـاف أنّـه: سـوف يظهـر أنهم في الحقيقـة متحـدون غـير مختلفين فالأصـول واحـدة والوسـائل واحـدة ومـا الخلاف إلاّ في التطـبيق، ولعمـري إذا جـاز اختلاف المسـلمين في الفقـه والفـروع، فكـان منهم الحنفي والمـالكي والحنبلي والشافعي والزيدي والإمامي، وأزال الله في هذا العصر ما كان بينهم من عــداوة وبغضاء، فلم لا يجوز بينهم اختلاف هـادئ عـف، فيمـا هـو وراء الأصـول المتفـق عليهـا من ألوان المعارف الفكرية التي ليست من العقائد)

قال الشعراوي: لقد ذهبت فكرة البحث عن المشترك إلى ما هو أبعد من ذلـك، ففي اقتراح نشرته المجلة للشيخ عبد العزيز عيسى، أحـد علمـاء الأزهـر، ودعـا فيـه إلى إنشـاء معهد خاص في إطار الأزهر لدراسة المذاهب والأفكار الدينية في كافة الأقطار الإســلاميّة، بحيث (يمكننا في سهولة ويسر أن نعرف أوجه الوفاق والخلاف على صورة محــدودة، وأن نصلح ما أفسده الدهر، ونحقق ما زوره التاريخ، وننشر في ربوع كلّ دولة ما عنـد الأخـرى، فيتبادل المسلمون الثقافـة الصـحيحة ويعـرف بعضـهم بعضـا على حـق، وتـزول من بينهم الجفوة والقطيعة، ويأخذوا سبيلهم إلى الوحدة والألفة التي لا يصلح أمرهم إلاّ عليها)

قال القمي: من الحسنات التي قامت بها تلك المجلـة الرائـدة مـا كتبتـه في تصـحيح صورة الشيعة الإمامية في الذهن الإسلامي العام، فقد نشرت المجلـة مقـالات عـدة لفتت الأنظار إلى ضرورة التفرقة بين مدارس الاعتدال والغلو في الساحة الشيعية.

وأذكر من ذلك مقالة للعلامة الدكتور محمّد جواد مغنية تحت عنـوان (الغلاة في نظـر الشيعة الإمامية).. فهو نموذج طيب لذلك.. ذكر فيها أن علماء الإمامية متفقون على عــدم اعتبارهم من الشيعة، بل عدم اعتبارهم من المسلمين أصلا..

وقد سلط الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء الضوء على بعض خلافـات السـنة والشيعة، فذكر أن أعظم تلك الخلافات وأهمها هو قضية (الإمامة)، حيث ذكر أن الطائفتين وقعتا منها على طـرفي نقيض.. فالشـيعة تـرى أن الإمامـة أصـل من أصـول الـدين، وهي رديفة التوحيد والنبوة وأنها منوطة بالنص من اللـه ورسـوله، وليس للأمـة فيهـا من الـرأي والاختيار شيء، كما لا اختيار لهم في النبـوة بخلاف أهـل السـنة، فهم متفقـون على عـدم كونها من أصول الدين، ومختلفون بين قائـل بوجـوب نصـب الإمـام على الرعيـة بالإجمـاع ونحوه، وبين قائل بأنها قضية سياسـية ليسـت من الـدين في شـيء لا من أصـوله ولا من فروعه.

وقد أضاف الشيخ كاشف الغطاء متسائلا: (مع هذا التباعد الشاسع بين الفــريقين في هذه القضية، هل تجد الشيعة تقول أن من لا يقول بالإمامة غير مسلم (كلا ومعـاذ اللـه) أو تجد السنة تقـول أن القائـل بالإمامـة خـارج عن الإسـلام ــ لا وكلا ــ إذن فـالقول بالإمامـة وعدمه لا علاقة لـه بالجماعـة الإسـلاميّة وأحكامهـا من حرمـة دم المسـلم وعرضـه ومالـه ووجوب أخوته، وحفـظ حرمتـه وعـدم جـواز غيبتـه، إلى كثـير من أمثـال ذلـك من حقـوق المسلم على أخيه.

ثم ذهب إلى أبعد في المصارحة، فقال: إن أحد أسباب المشاحنة بين السنة والشيعة، ما يتردد من أن الشيعة ترى جواز المساس بكرامة الخلفاء أو الطعن، وفند تلك المقولة بحج عدة منها: (أولاً: ليس هذا من رأي جميع الشيعة وإنّما هو رأى فردي من بعضهم، وربما لا يوافق عليه الأكثر، كيف وفي أخبار أئمة الشيعة النهي عن ذلك، فلا يصح معاداة الشيعة أجمع لإساءة بعض المتطرفين منهم.

ثانياً: أن هذا على فرضه لا يكون موجبا للكفر والخروج عن الإسلام، بل أقصى ما هناك أن يكون معصية، وما أكثر العصاة في الطائفتين، ومعصية المسلم لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلاميّة معه قطعا.

ثالثاً: قد لا يدخل هذا في المعصية أيضاً، ولا يوجب فسقا إذا كان ناشئا عن اجتهاد واعتقاد، وإن كان خطأ، فإن من المتسالم عليه عند الجميع في باب الاجتهاد أن للمخطئ أجرا وللمصيب أجرين، وقد صحح علماء السنة الحروب التي وقعت بين الصحابة في الصدر الأول كحرب الجمل وصفين وغيرهما، بأن طلحة والزبير ومعاوية اجتهدوا وهم وإن أخطئوا في اجتهادهم، ولكن لا يقدح ذلك في عدالتهم وعظيم مكانتهم، وإذا كان الاجتهاد يبرر ولا يستنكر قتل آلاف النفوس من المسلمين وإراقة دمائهم، فبالأولى أن يبرر ولا يستنكر معه ـ أي مع الاجتهاد ـ تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة)

قال الشعراوي: لقد اعتبر الشيخ محمّد المدني تدريس فقه الشيعة في كلية الشريعة بجامعة الأزهر بمثابة (رجة البعث) ـ وكانت هذه الخطوة قد أثارت لغطا في أوساط العلماء ـ فقام الشيخ المدني بتفنيد ما تردد وقال: (إن بعض الناس تساءلوا: كيف تدخلون فقه الشيعة في الأزهر، مع أن هذا المذهب هو مذهب الّذين يعتقدون أن جبريل إنّما بعث بالرسالة إلى علي فأخطأه ونزل بها على محمّد وأن عليا قد حل فيه جزء من الإله)

وقال في الرد على السؤال ما يلي:(إن كلمة (الشيعة) تطلق على عشرات المذاهب التي تنسب إلى الإسلام حقا أو باطلا، وبعض هذه المذاهب ضال منحرف عن الأصول الإسلاميّة، وبعضها مستمسك بما يجب الإيمان به، مثله في ذلك كمثل مذاهب السنة، وإن خالفهم في بعض الفروع الفقهية أو النظريات والمسائل التي هي من قبيل المعارف الكلامية.

والفريق الأول من المتسمين باسم الشيعة وهم الضالون المنحرفون، لا يعدون من أهل الإسلام وإن ادعوه ؛ لأن العبرة في ثبوت الإسلام إنّما هي بالإيمان بأصول العقائد الإسلاميّة، وعدم إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة، وهؤلاء ليسوا كذلك وقد انقرضوا ولم يعدلهم أثر في العالم الإسلامي، ولو فرضنا أن لهم بقية في كهف من الكهوف أو طرف من الأطراف فليسوا منا ولسنا منهم، وهم كفار خارجون على ملة الإسلام ملعونون من أهل السنة ومن الشيعة.

أما الشيعة الّذين تقرر إدخال فقههم فهم:

1 ـ الشيعة بالإمامية الاثنا عشرية، وقد لقبوا بالإمامية؛ لأنهم يقولون بأن إمامة علي

ثابتة بالنص، ولقبوا باثنا عشرية لأنهم يسوقون الإمامة إلى اثنى عشر إماما، أولهم علي بن أبي طالب، وآخرهم محمّد بن الحسن العسكري الملقب بالحجة، وهم يسكنون إيران والعراق وسوريا ولبنان والباكستان والهند، وغيرهم من البلاد العربية والإسلامية ويؤمنون بأصول الإسلام كلها ولا يستطيع أحد من أهل القبلة أن يحكم بكفرهم، وكل ما بينهم وبين السنة من اختلاف، إنّما هو فيما وراء الأصول التي يجب الإيمان بها لتحقق مفهوم الإسلام، وينسب فقههم إلى أئمتهم من أهل البيت النبوي واشتهر باسم الفقه الجعفري نسبة إلى أحد هؤلاء الأئمة، وهو جعفر الصادق بن محمّد الملقب بالباقر.

وهؤلاء الشيعة الإمامية يلعنون أهل المذاهب المنسوبة إلى الشيعة من الغلاة في شأن علي، ويتبرءون منهم، ويحكمون بكفرهم ونجاستهم.

ولهم كتبهم في العقائد والفقه والأصول وأسرار الشريعة والأخلاق والتصوف، وعلوم اللغة العربية وغيرها، وقد نبغ منهم كثير من الفقهاء، وأهل الحديث والرواية، والأدباء، والأصوليين، والمتكلمين، وغيرهم، ولهم أثر واضح في العلوم الإسلاميّة في مختلف العصور.

2 ـ الشيعة الزيدية، وهم يسكنون اليمن غالبا، ومذهبهم منسوب إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين، وهو أقرب مذاهب الشيعة إلى مذاهب السنة، ولا ينازع أحد في شأنهم مع كونهم أيضاً ملقبين بلقب الشيعة)

ثم أضاف: (إذن، فلا يستقيم القول بأن الشيعة كلها تقول برسالة علي ألوهيته، أو تغالي في شأنه، فإن هذا القول على إطلاقه خطأ، ويجب التفريق بين الشيعة المهتدين، والشيعة الضالين أو المنحرفين، كما يجب الحذر عند سماع أي نقل عن الشيعة، والتحري عن القائل منهم بذلك حتّى لا يحمل قول ضال على فرقة مهتدية لم تقله)

قال القمي: بورك فيكم جميعا.. والله لقد أثلجتم صدري بهذه الكلمات العذبة التي انطلقت من أفواه أولئك الورثة العظام الذين أخلصوا دينهم لله، فلم يخلطوه بأي عصبية أو هوى.

قال الشعراوي: فما ترى من حل لتعود تلك الأيام الجميلة، ويعود معها الصفاء إلى القلوب.. ويعود معها المسلمون شهداء لا ينشغلون بالشحناء والبغضاء فيما بينهم، بل يلتفتوا إلى تلك البشرية الظمآنة، فيسقوها من هدي الله ما كلفوا بأن يسقوها إياه.

قال القمي: ليس من حل لذلك إلا إحياء سنة النبي ﷺ.. النبي الهادي الذي استطاع أن يؤلف بين القلوب، ليحول منها طاقة عجز العالم جميعا عن مواجهتها.

قال الشعراوي: أجل.. فلا يمكن أن تجتمع القلوب على غير سنة رسول الله ﷺ.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء:59)

قال مطهري: ولكن المتطرفين يزعمون أن السنة بأيديهم وأنهم يحتكرونها احتكارا؟

قال إقبال: سنة رسول الله ﷺ أعظم من أن يحتكرها أحد من النـاس.. أبلغـوا هـؤلاء أن أعظم السنن هي سنة الإصلاح والتوحيد والتآلف.. لقد استطاع رسول الله ﷺ بحكمتـه أن يجمع بين المتناقضين ليحول منهم لحمة واحدة لها هم واحد، ولها قبلة واحدة.

قال القمي: لدي مشروع يخدم كل ما ذكرنا.. فأرجو أن تبحثوا فيه.. لقد أرسـلته إلى جهاز كل واحد منكم، فتأملوه، ولنجتمع بعدها لنرى مدى صلاحيته للتنفيذ.

***

التفت كـل واحـد منهم إلى جهـازه، وراح يبحث عن المشـروع الـذي ذكـره القمي، والذي لم أتشرف بالتعرف عليه ذلك الحين.. ولكني عرفته في المستقبل.

قلت: فما هو.. أنبئني عنه؟

قال: لقد استكتمني من ذكره لي.. وقد نهينا أن نفشي مـا أمرنـا بكتمانـه.. وإن كنت صادقا، فسيقيض الله لك في المستقبل من ينبئك عنه، لتصير جنديا من الجنود الذين نذروا أنفسهم له.

العدالة

لم يلبثوا إلا قليلا حتى صاح الكواكبي قائلا: بورك فيك يـا قمي.. نعم المشـروع الـذي وضعته.. لقد وجدت في مشروعك الحلقة المفقودة التي كنت أبحث عنها.. والتي لا يكـون المسلمون شهداء إلا بتحقيقها.

قال إقبال: نحن نعلم اهتمامك يا عبد الرحمن بالعدالة والاستبداد.. فهل لـذلك علاقـة بهذا؟

قال الكواكبي: أجل.. بل له علاقة عظمى.. أنتم تعلمون أن الناس لا يدخلون في دين اللـه أفواجـا، وهم يـرون ديكتاتوريـات المسـلمين ومسـتبديهم.. فـالفطرة البشـرية تبغض الاسـتبداد، وتبغض المسـتبدين، وتبغض دين المسـتبدين.. فلـذلك هم يبغضـون الإسـلام، لا لكونه دين رب العالمين، ولكن لأن الذي يمثله هم المستبدون الجائرون الذين ورثوا الحكم من غير أن يكونوا أهلا له.

ولذلك.. فأعداء الإسلام الذين يقفون كحصن منيع يحمي المسـتبدين لا يقصـدون من ذلك أن يؤذوا الرعية من المسلمين فقط.. وإنما قصـدهم أن يكـون ذلـك الاسـتبداد جـدارا يقي رعاياهم من الدخول في دين الله أفواجا.

قال القمي: لقد ذكرتني بموقف لعلي يدل على ما للعدل من تأثير في دخول النـاس في دين الله أفواجا.. لقد حـدث الإخبـاريون أن أمـير المؤمـنين عليّ بن أبي طـالب افتقـد درعه ـ يوما من الأيام ـ فوجدها عند رجل نصـراني، فاختصـمه إلى شـريح القاضـي، فقـال

عليّ مدعيا: الدّرع درعي، ولم أبع ولم أهب، وسأل شريح النصراني في ذلك فقال: ما الدّرع إلاّ درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذبٍ، فالتفت القاضي إلى أمير المؤمنين عليّ، فقال: يا أمير المؤمنين، إن النصراني صاحب اليد على الدّرع، وله بذلك حقٌ ظاهر عليها، فهل لديك بيّنة على خلاف ذلك تؤيد ما تقول؟ فقال أمير المؤمنين: أصاب شريح، مالي بيّنة، وقضى شريحٌ بالدرع للنصراني، وأخذ النصراني الدّرع وانصرف بضع خطوات، ثم عاد فقال: أما إني أشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يدنيني إلى قاضيه، فيقضي لي عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، الدّرع درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق من صفين، فخرجت من بعيرك الأورق، فقال علي : أما وقد أسلمت فهي لك.

انظروا كيف استطاع علي وارث رسول الله ﷺ أن يتصرف التصرف المثالي الذي جعل هذا الرجل لا يجد إلا أن يسلم.. لقد اضطره بموقفه هذا إلى الإسلام اضطرارا.

قال مطهري: وذكرني قوله هذا بحدث رواه ابن عباس قال: افتتح رسول الله ﷺ خيبر، واشترط أن له الأرض وكل صفراء وبيضاء ـ يعني الذهب والفضة ـ فقال أهل خيبر: نحن أعلم بالأرض منكم، فأعطناها على أن لكم نصف الثمرة، ولنا نصف، فزعم أنه أعطاهم على ذلك، فلما كان حين يصرم النخل بعث إليهم عبد الله بن رواحة، فحرز عليهم النخل ـ وهو الذي يسميه أهل المدينة الخرص ـ فقال: في ذِه كذا وكذا، قالوا أكثرت علينا يا ابن رواحة، فقال: فأنا ألي ـ أي أتولى ـ حزر النخل وأعطيكم نصف الذي قلت، قالوا: هذا الحق وبه تقوم السماء والأرض قد رضينا أن نأخذه بالذي قلت(1).

وفي رواية عن سليمان بن يسار أن رسول الله ﷺ كان يبعث عبد الله بن رواحة إلى خيبر، فيخرص بينه وبين يهود خيبر، قال: فجمعوا له حليا من حلي نسائهم، فقالوا له: هذا لك ـ يعني رشوة ـ وخفف عنا وتجاوز في القسم، فقال عبد الله بن رواحة: (يا معشر اليهود! والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم، فأما ما عرضتم عليّ من الرشوة فإنها سحت، وإنا لا نأكلها)، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض(2).

انظروا.. كيف استطاع ابن رواحة بموقفه الأمين العادل من استلال هذه الشهادة العظيمة من أولئك اليهود القساة الذين قلما يشهدون بحق؟

قال الشعراوي: ولهذا أمرنا الله تعالى في القرآن الكريم بأن نقوم بالعدالة المطلقة العامة التي لا تستثني أحدا ولا جهة ولا موضوعا.. قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء:135)

انظروا.. كيف تلح علينا هذه الآية الكريمة في الأمر بالعدل.. مهما كان الذين نعدل

1) رواه أبو داود واللفظ له وابن ماجه.

2) رواه مالك.

معهم.. فلا ينبغي أن يميل بنا الهوى إلى أي جهة من الجهات.

وفي الآية الأخرى يقول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المائدة:8)

إن هذه الآية الكريمة تنهانا أن نلاحظ أنفسنا وأهواءنا ونحن نتخذ أي موقف.. فالمؤمن هو الذي سلم أمره لله، وعقله لله، وقلبه لله، فهو يتعامل مع عباد الله كما أمر الله.. والله هو الحكم العدل الذي لا تضيع عنده الحقوق..

قال شكيب: لقد ذكرتني بقوله تعالى: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (الشورى:15)

إن هذه الآية الكريمة ــ كما يذكر المفسرون(1) ــ اشتملت على عشر كلمات مستقلات، كل كلمة منها منفصلة عن التي قبلها، لها حكم برأسه(2).. وقد تأملت هذه الكلمات، فوجدت جميعا تتحدث عن العدل في صورته المطلقة الكاملة الجميلة، وهي الصورة التي تجعل الناس لا محالة يدخلون في دين الله أفواجا.

أما الكلمة الأولى، فقوله تعالى: فَلِذَلِكَ فَادْعُ أي: فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم(3)، فادعُ الناس إليه.. وفي هذا منتهى العدل، فالنبي ﷺ أمر بأن يحكم الناس بأصول الشرائع التي اتفقت عليها الملل، وهي لا تتفق إلا على ما يتفق مع العدل والفطرة.

أما الكلمة الثانية، فقوله تعالى: وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ أي: استقم أنت يا محمد ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله عز وجل.. وفي هذا منتهى العدل.. فالعادل هو الذي يبدأ بنفسه.. وهو الذي يطبق ما يقتضيه العدل على نفسه قبل أن يطبقه على غيره.

أما الكلمة الثالثة، فقوله تعالى: وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ لأن العادل هو الذي جعل السلطة للقانون لا للهوى.. كما قال تعالى لداود عليه السلام: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (صّ:26)، فقد أخبر الله في هذه الآية الكريمة أن الهوى لا نتيجة له إلا الإضلال عن سبيل الله.

---

1) انظر: ابن كثير: 7/195.

2) قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي.

3) فقد قال الله تعالى في الآيات السابقة لهذه الآية: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14) (الشورى)

أما الكلمة الرابعة، فقوله تعالى:﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أي: صدقت بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم.. وفي هذا منتهى العدل في التعامل مع مقدسات الملل والنحل.

أما الكلمة الخامسة، فقوله تعالى:﴿ وَأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي: أني لن أحكمكم إلا بما يقتضيه العدل..

أما الكلمة السادسة، فقوله تعالى:﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾.. وهي آية عظيمة في مدلولها المرتبط بالعدل.. فالآية تذكر المؤمنين أن رب العباد ـ كافرهم ومؤمنهم واحد ــ ولذلك لا ينبغي التعامل معهم إلا وفق ما أمر به الله.. والله لم يأمر إلا بالعدل.

أما الكلمة السابعة، فقوله تعالى:﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ أي لكل منا عمله الذي يحاسب عليه، ويسأل عنه.. وكل ذلك عند الله.. وفي هذا منتهى العدل.. فالعادل هو الذي يسلم الأمر لأهله، ولا يتدخل إلا فيما تطلبه العدالة من مواقف.

أو أن هذه الآية مثل قوله تعالى:﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:41).. أي أن حالي كحالكم، فأنتم لا ترضون عن عن عملي كما أني لا أرضى عن عملكم.. ولذلك لا ينبغي أن يجور أحد منا على الآخر.

أما الكلمة الثامنة، فقوله تعالى:﴿ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ أي لا خصومة بيننا وبينكم بسبب مواقف بعضنا من بعض.. فالبراءة من العمل لا تعني الإلزام الذي يتنافى مع العدل.

أما الكلمة التاسعة، فقوله تعالى:﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أي: يوم القيامة، وفي هذا توجيه للمؤمنين بتسليم الأمر لعدالة الله.. وكأنها تقول للمؤمنين المستعجلين: رويدكم.. ذروا هؤلاء الذين تبرأتم من أعمالهم لله.. فالله هو الحكم العدل الذي يحكم بينكم.

أما الكلمة العاشرة، فقوله تعالى:﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي: المرجع والمآب يوم الحساب.. في هذا تذكير بالعدالة المطلقة التي تتجلى في ذلك اليوم العظيم الذي تنصب فيه الموازين فلا تضيع مثقال ذرة.. قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء: 40)، وقال تعالى:﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الانبياء:47)

قال ديدات: لقد ذكرتني هذه الآية بقوله تعالى:﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (105) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (106) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (109) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (110) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (111) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا

مُبِينًا (112) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113) ﴾ (النساء)

انظروا.. هذه الآيات جميعا.. لم تنزل في شأن تبرئة مسلم.. ولا في الدفاع عن مسلم.. بل نزلت لتبرئة يهودي.. يهودي كان مع قومه في كل حين يكيد المكايد للمسلمين.. ومع ذلك نزلت تبرئته في القرآن الكريم..

لقد اتفق المفسرون أن هذه الآية نزلت في طعمة بن أبيرق الذي سرق سلاحا، فشكاه صاحب السلاح إلى رسول الله ﷺ فألقى السارق السلاح المسروق في بيت رجل بريء، ليبرئ نفسه ويحمل البريء إثمه، وعندما وجد السلاح في بيت الرجل البريء ثبتت ـ في الظاهر ـ براءة السارق، فأنزل الله هذه الآيات تبين وجه الحق بغض النظر عمن كان معه الحق(1).

قارنوا هذا الموقف بما يقع في عصرنا من جور وظلم.. فما أكثر ما يرتكب ناس مثل هذه الخطيئة! ويبرئون أنفسهم مما ارتكبوه ويلطخون به البريئين.

انظروا في وسائل الإعلام لتروا العجب العجاب من الاتهامات الكاذبة من فرد لآخر، ومن جماعة أو حزب لجماعة أو حزب آخر، ومن دولة لدولة أخرى، وكثيرا ما يكون المتَّهِم غارقا في العيوب والنقائص التي اتهم بها غيره.

قال الكواكبي: للأسف نجد من المسلمين من يقع في مثل هذا.. وهو مما ينفر من الإسلام.. لقد رأيت صاحب حلة كحلة العلماء يتكلم عن المسيحية كلام جاهل.. فهو لا يفرق بين أسفار الكتاب المقدس، ولا أنبيائه.. ومع ذلك يدعي أنه يريد أن يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه.. وكيف يحكم من لا يعرف القضية، ولا المختلفين فيها.

قال إقبال: إن ما ذكرته يستدعي الدعوة إلى ما يسمى بالعدل في المواقف.. فالموقف مسؤولية كبرى.. يدخلها العدل كما يدخلها الجور.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الاسراء:36)، وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات:6)

قال مطهري: إن العدل في الموقف يستدعي أن يقف المسلمون مع جميع القضايا العادلة في العالم سواء كانت ترتبط بالمسلمين أو غير المسلمين.. إن ذلك يجعل أصحاب تلك القضايا ينظرون إلى الإسلام باحترام ورغبة، وهو ما يكون مقدمة لدخولهم في دين الله أفواجا.

لقد قال الله تعالى يذكر ذلك:﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ

---

1) وقيل: إن هناك من وضع عنده درعاً على سبيل الوديعة ولم يكن هناك شاهد، فلما طلبها منه جحدها. وقيل: إن المودع لما طلب الوديعة زعم أن اليهودي سرق الدرع.

لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ (النساء: 75)

إن هـذه الآيـة الكريمـة تشـير إلى أن الإسـلام رسـالة تحريريـة تهـدف إلى نصـرة المستضعفين وإخراجهم من أسر المستكبرين.

قال الكواكبي: ولكن ذلك لن يتحقق إلا إذا أحيينا قيم العدالـة الـتي جاءنـا بهـا رسـول الله ﷺ، فلا يمكن أن ينتصر الإسلام، ونحن منحرفون عنها.

قال الشعراوي: من السهل علينا أن نعيد لهذه القيم الحياة.. فكل ما تركه لنا رسـول الله ﷺ في هذا من بشارات مشـاعل هدايـة يسـير بهـا الـدعاة الصـادقون ليبشـروا بهـذه الفضيلة، وينشروها.. فما ضاعت قيمة وجدت مبشرا وناشرا.

قال شكيب: حدثنا يا شيخنا عن نبينا.. فلا تحلو المجالس إلا بحديثه.

قال الشعراوي: من البشارات العظيمـة الـتي ربطهـا رسـول اللـه ﷺ بالعـدل قولـه: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمـام عـادل، وشـاب نشـأ في عبـادة اللـه تعالى، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليـه، وتفرقـا عليـه، ورجل دعته امـرأة ذات منصـب وجمـال، فقـال: إني أخـاف اللـه، ورجـل تصـدق بصـدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)(1)

انظروا البشارة العظيمة التي يحملها هذا الحديث.. إنـه يبشـر الإمـام العـادل بالظـل الإلهي في اليوم الذي يحترق فيه الإمام الجائر بنار جوره.

وانظروا كيف قرن رسول الله ﷺ الإمام العادل بأولئـك الطيـبين الكـرام المنشـغلين بالله.. فلا يقرن بالكرام إلا كريم.

وفي حديث آخر يحمل بشارة أخرى قال ﷺ:(إن المقسطين عند الله على منـابر من نور: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)(2)

انظروا البشارة العظيمة التي يحملها هذا الحديث.. إنها منابر النور.. تلك المنابر الـتي تهفو لها القلوب، وتحن لـذكرها النفـوس.. إنهـا منـابر لا كالمنـابر.. لقـد اعتـبر ﷺ في هـذا الحديث العدل هو المرقاة التي يرقى بها العبد إلى تلك المنابر النورانية.

وانظروا كيف عمم رسول الله ﷺ العدل وأطلقه.. فالعدل لا يكمل إلا بذلك، ولا يصح إلا بذلك.

وفي حـديث آخـر قـال ﷺ:(خيـار أئمتكم الـذين تحبـونهم ويحبـونكم، وتصـلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنـونهم ويلعنـونكم!) قـال: قلنا يـا رسـول اللـه، أفلا ننابـذهم؟ قـال: (لا، مـا أقـاموا فيكم الصلاة، لا، مـا أقـاموا فيكم

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مسلم.

الصلاة)[1]

إن هذا الحديث يشير إلى ثورة أهل السلام.. فأهـل السـلام لا يسـتعملون مـا يعرفـه الناس من سلاح يسفك الـدماء، وينشـر الفتنـة، وإنمـا يسـتعملون أسـلحة أعظم وأخطـر، ولكنها مع ذلك لا تسيل دما ولا تثير فتنة.

إنها أسلحة الحب والبغض، وأسلحة الدعاء واللعنات.. وهي أسلحة لا بد أن تؤتي أكلها في يوم من الأيام.

فالحاكم الجائر الذي لا يجد اليد التي تصفق لجوره أو تبتسم لجوره أو تحييه لجوره أو تدعو له مع جوره.. فإنه لا محالة، وفي ظل هـذه المقاطعـة النفسـية، يجـد نفسـه مرغمـا على أن يسير وفق ما تقتضيه العدالة.

ولهذا نبه ﷺ إلى استعمال هـذه الأسـلحة بـدل الأسـلحة الـتي تسـفك الـدماء، وتثـير الفتن، ومع ذلك لا تفعل شيئا.

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ:(أهـل الجنـة ثلاثـة: ذو سـلطان مقسـط موفـق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال)[2]

انظروا كيف جعل رسـول اللـه ﷺ الحـاكم العـادل أول من ذكـرهم من أهـل الجنـة.. وانظروا كيف قرنه بالرجل الرحيم والرجل العفيف.. وكأنه ﷺ يقول لنـا: إن العدالـة تنبـني على هذين الأساسين: الرحمـة والعفـاف.. فلا يقـف في وجـه العدالـة، ولا ينحـرف بهـا إلا القسوة والطمع.

وفي حديث آخر قال ﷺ:(ثلاثة لا ترد دعـوتهم: الصـائم حـتى يفطـر، والإمـام العـادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء)، ويقول الرب:(وعــزتي وجلالي لأنصرنك، ولو بعد حين)[3]

انظروا ما يحمله هذه الحديث من معان عظيمة.. لقـد ضـمن رسـول اللـه ﷺ للإمـام العادل استجابة الدعاء.. والدعاء لا يستجاب إلا من قريب.

وانظروا كيف قرنه ﷺ بالصائم .. فالعدل لا يتحقق إلا لمن انتصر على نفسه، وعـرف كيف يهذبها.

وانظروا ذلك التحذير الخطير الذي يحمله ربطه ﷺ الإمام العـادل بـدعوة المظلـوم.. وكأنه ينبئ عن علاج يعالج به مرض الجور، وهو التحذير من دعوة المظلوم.

قال الكواكبي: حدثنا عن الإمام العادل، فحدثنا عن الإمام الجائر.. ذلـك الـذي يشـوه

---

1) رواه مسلم.

2) رواه مسلم.

3) رواه الترمذي.

الإسلام، ويقف حجابا بين البشر والدخول في دين الله أفواجا.

قال الشعراوي: لقد ورد في الحديث قوله ﷺ :(إن أشد الناس عذابا يوم القيامة من قتل نبيا أو قتله نبي وإمام جائر)(1)

انظروا كيف قرن رسول الله ﷺ الإمام الجائر بقاتل النبي وبمن قتله النبي.. فالأنبياء ـ عليهم السلام ـ كلهم في منتهى الرحمة، ولا يقتلهم ولا يقتلون إلا من بلغت به القسوة حدها.

وانظروا كيف أخبر ﷺ عن شدة العذاب التي يعانيها الإمام الجائر، وكأن كل العذاب الذي صليت به رعيته يصب عليه دفعة واحدة جزاء وفاقا.

وفي حديث آخر قال ﷺ:(أربعة يبغضهم الله: البياع الحلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر)(2)، وفي رواية:(وملك كذاب، وعائل مستكبر)(3)

انظروا العقوبة العظيمة التي نالت الإمام الجائر ومن معه.. وانظروا كيف قرن الإمام الجائر بأصحاب الهمم الدنية من المنحطين المترفعين المخذولين.

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(إني أخاف على أمتي من أعمال ثلاثة)، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: (زلة عالم، وحكم جائر، وهوى متبع)(4)

انظروا كيف قرن رسول الله ﷺ بين هؤلاء الثلاثة.. فالحكم الجائر لا يتأسس إلا على الزلات التي يقع فيها العالم الذي لم يتثبت في علمه، والهوى الذي يجعل الحاكم لا يختار من كلام العلماء إلا الزلات.

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به)(5)

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(ما من أمتي أحد ولي من أمر الناس شيئا لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه إلا لم يجد رائحة الجنة)(6)

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته إلا حرم الله تعالى عليه الجنة)(7)، وفي رواية:(فلم يحطها بنصحه لم يرح رائحة

---

1) رواه الطبراني.

2) رواه النسائي وابن حبان في صحيحه.

3) الرواية لمسلم.

4) رواه ابن خزيمة في صحيحه.

5) رواه مسلم.

6) رواه الطبراني.

7) رواه البخاري ومسلم.

الجنة)، وفي أخرى:(ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة)

انظروا هذه الأحاديث، وما تحمله من ترهيب من الجور الذي يتأسس من غش الوالي لم كلف برعايتهم.

وفي حديث آخر قال ﷺ: (كيف أنتم إذا وقع فيكم خمس وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوهم: ما ظهرت الفاحشة في قوم قط يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، وما بخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله تعالى إلا سلط الله عليهم عدوهم فاستنفذوا بعض ما في أيديهم، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ إلا جعل الله بأسهم بينهم)(1)

قال مطهري ـ مقاطعا ـ انظروا.. إن كل لفظ من هذا الحديث يدل على أمر له علاقة بالعدل الذي أمر به الحكام..

فسبب انتشار الفواحش، وما يعقبها من عقوبات هو توقف السلطان دون تطبيق نظام العفاف الذي جاء به الإسلام.. فلا يمكن أن يتحقق العفاف من دون ذلك النظام.

وسبب منع الزكاة له علاقة بالسلطان، فالسلطان هو الذي يستعمل كل الوسائل ليأخذ حق الفقراء من أيدي الأغنياء، رضوا أو لم يرضوا.

وسبب البخس في المكيال والميزان له علاقة بالسلطان، فالسلطان العادل هو الذي يهتم بشؤون الرعية، فيوظف من المحتسبين من يمنعون كل أسلوب من أساليب الغش.

وسبب هجر كتاب الله وتعطيل أحكام الله له علاقة بالسلطان، فالسلطان العادل هو الذي يبحث عن قوانين العدالة التي يحكم بها.. ولن يجد في جميع قوانين الدنيا ما هو أعدل من أحكام ربه، ذلك أن الله هو خالق الخلق، وهو الأعلم بمصالحهم.

قال الشعراواي: وفي حديث آخر، قال ﷺ:(لا يقدس الله أمة لا يقضى فيها بالحق، ويأخذ الضعيف حقه من القوي غير متعتع)(2)

صاح شكيب: ما شاء الله.. لو أن هذا الحديث كان في أمم اليهود والنصارى لجعلوه شعارهم، ولراحوا يفخرون به علينا..

قال إقبال: انظروا الإشارة العظيمة التي يحملها قوله ﷺ:(لا يقدس) إن التقديس هو التطهير والرفع والترقي.. وكل ذلك يجذب الناس لا محالة إلى دين الله أفواجا.

قال الشعراوي: وفي حديث آخر قال ﷺ:(عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة،

---

1) رواه البيهقي واللفظ له والحاكم بنحوه وقال: صحيح على شرط مسلم.

2) رواه الطبراني بإسناد جيد.

قيام ليلها، وصيام نهارها)، وفي المقابل قال:(جور ساعة في حكم أشد وأعظم عند الله عز وجل من معاصي ستين سنة)(1)، وفي رواية:(يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة، وحد يقام في الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين صباحا)(2)

انظروا هذه الأجور العظيمة التي بشر بها رسول الله الحاكم العادل.. لقد اعتبره ـ بقيامه بما يتطلبه العدل من مواقف ـ عابدا خاشعا يؤدي ما أمر به من شعائر العبادة.

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر)(3)

انظروا هذه البشاره التي يحملها هذا الحديث.. إن أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ هو الإمام العادل.. ذلك أن الأجناس يوم القيامة تضم إلى أجناسها، ورسول الله ﷺ هو سيد العادلين ولن يليق لصحبته إلا العادلون.

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة إمام عادل رفيق، وشر عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق)(4)

انظروا كرامة الإمام العادل عند الله..

قال إقبال ـ مقاطعا ـ: وانظر كيف قرن رسول الله ﷺ بين العدل والرفق، كما قرن بين الجور والخرق.. فالأخرق الأحمق لا يزيد طين رعيته إلا بلة، ولن يصدر منه إلا ما يؤذيه ويؤذي رعيته..

قال الشعرواي: ومن الأحاديث التي تمتلئ بالرهبة من الظلم والجور قوله ﷺ:(يؤتى بالقاضي يوم القيامة، فيوقف للحساب على شفير جهنم، فإن أمر به دفع فهوى فيها سبعين خريفا)(5)

وقال ﷺ:(لا يلي أحد من أمر الناس شيئا إلا وقفه الله تعالى على جسر جهنم، فيزلزل به الجسر زلزلة فناج أو غير ناج، فلا يبقى منه عظم إلا فارق صاحبه، فإن هو لم ينج ذهب به في جب مظلم كالقبر في جهنم يبلغ قعره سبعين خريفا)(6)

وقال ﷺ:(إن في جهنم واديا وفي الوادي بئر يقال له هبهب حقا على الله أن يسكنه كل جبار عنيد)(7)

---

1) رواه الأصبهاني، وفي رواية:(عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة)

2) رواها الطبراني بإسناد حسن بلفظ.

3) رواه الطبراني وقال حسن غريب.

4) رواه الطبراني بسند فيه ابن لهيعة وحديثه حسن في المتابعات.

5) رواه ابن ماجه والبزار واللفظ له.

6) رواه ابن أبي الدنيا وغيره عن أبي هريرة.

وقال ﷺ:(من ولي أمة من أمتي قلت أو كثرت فلم يعدل فيهم كبـه اللـه تعـالى على وجهه في النار)(1)

وقال ﷺ:(ما من أحد يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلا يعدل فيهم إلا كبه اللـه في النار)(2)

وقال ﷺ:(ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا لا يفكه إلا العدل)(3)

وقال ﷺ:(ما من والي ثلاثة إلا لقي الله مغلولة يمينه فكه عدله أو غله جوره)(4)

وقال ﷺ:(عرض علي أول ثلاثة يدخلون النار: أمير مسلط، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله فيه، وفقير فخور)(5)

قال القمي: وعينا هذه الأحاديث، وما يحدثه نشرها والتبشـير بهـا من آثـار كبـيرة في ترسيخ قيم العدل التي نادى بها الإسلام.. فحدثنا عن المظلومية.. حدثنا عن الـذين يقفـون مع المستكبرين في وجه المستضعفين.. حدثنا عن علماء السلاطين الذين يفتون لهم بعلم وبغير علم.. حدثنا عن الـذين يصـورون الإسـلام دينـا يقـف مـع المسـتبدين، أو دينـا يعطي جرعات من المخدرات للمستضعفين ليتمكن من رقابهم المستكبرون.

قال الشـعراوي: لـو حـدثتك بكـل مـا ورد في ذلـك سننشـغل عمـا نحن فيـه.. فـأنتم تعلمون أن الوظيفة الكـبرى للإسـلام هي التحريـر .. ومن التحريـر الـذي جـاء بـه الإسـلام تحرير المستضعفين من جور المستكبرين والمستبدين..

سكت قليلا، ثم قال: اسمعوا هذه الأحاديث وألقوها في وجوه من يعبدون المستبدين من دون الله ويزينون لهم ما يفعلون، ويشوهون الإسلام بـذلك الـتزيين.. قـال ﷺ:(مـا من مسلم يخذل امرأ مسلما في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر امرأ مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته)(6)

وقال ﷺ:(أمر بعبد من عباد الله تعالى يضرب في قـبره مائـة جلـدة فلم يـزل يسـأل الله ويدعو حتى صارت جلدة واحدة فامتلأ قبره عليه نارا فلما ارتفع عنه وأفاق قـال: علام

---

7) رواه الطبراني بسند حسن وأبو يعلى والحاكم وصححه.

1) رواه الطبراني.

2) رواه الحاكم وصححه.

3) رواه وأحمد.

4) رواه ابن حبان في صحيحه.

5) رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما.

6) رواه أبو داود.

جلدتموني؟ قالوا: إنك صليت صلاة بغير طهور، ومررت على مظلوم فلم تنصره)(1)

وقال ﷺ:(قال الله عز وجل: وعـزتي وجلالي لأنتقمن من الظـالم في عاجلـه وآجلـه، ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره ولم يفعل)(2)

وقال ﷺ:(انصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقـال رجـل يـا رسـول اللـه أنصـره إذا كـان مظلوما أفرأيت إن كان ظالما كيف أنصـره؟ قـال تحجـزه أو تمنعـه عن الظلم فـإن ذلـك نصره)(3)

قال الكواكبي: فحدثنا عن شمول معنى العدل في الإسلام.

قال الشعراوي: لقد اعتبر علماء الأخلاق المسلمين العدل من الأركان الأربعة الكبرى التي تتأسس عليها الأخلاق.. وقد أشار القرآن الكريم في الآية الـتي تحـوي أصـول الأخلاق إلى هذا، بل اعتبر العـدل أول الأصـول، فقـال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَالْإِحْسَـانِ وَإِيتَـاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: 90)

ولهذا، فإن العدل في الإسلام ـ على حسـب مـا تـدل النصـوص المقدسـة ــ يبـدأ من العدل مع النفس، ويمتد إلى كل علاقات الإنسان..

فقد أمر من له عدة زوجات أن يعدل بينهن في كل شيء غير مبـال بمـا يهـواه قلبـه منهن، قال تعـالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِـطُوا فِي الْيَتَـامَى فَـانْكِحُوا مَـا طَـابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَـاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَـإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْـدِلُوا فَوَاحِـدَةً أَوْ مَـا مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ ذَلِـكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُـوا ﴾ (النساء:3)، وفي الحديث قال ﷺ : (من كانت عنـده امرأتـان، فلم يعـدل بينهمـا جـاء يـوم القيامة، وشقه ساقط)(4)

قال الكواكبي: إن هذا يدعو المسلمين إلى تبني جميع ما تطلبـه النسـاء من حقـوق.. فمن العار أن نجد من يتولى مثل هذا نساء ورجـال لا علاقـة لهم بالإسـلام، ثم يجـدون من فقهاء المسلمين المتزمتين من يمدهم بما يحاربون بـه الـدين، ويمنعـون أكـثر النسـاء من الدخول في دين الله أفواجا.

قال القمي: فأرسلوا إلى سحنون.. وجميع المفتين من ورثـة النـبي ﷺ أن لا يفتـوا إلا بما تقتضيه العدالة فـ (الشريعة مبناها وأساسـها على الحكم ومصـالح العبـاد في المعـاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسـألة خـرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل)(5)

---

1) رواه أبو الشيخ وابن حبان.

2) رواه أبو الشيخ.

3) رواه البخاري والترمذي.

4) رواه الترمذي والحاكم، وقال صحيح على شرطهما.

5) أعلام الموقعين (3 / 3)

قال الشعراوي: ومن العدل الذي ورد الحض عليه في النصوص العدل بين الأولاد، وقد روي في هذا عن بعضهم أنه قال: نحلني أبي نَحْلا، فقالت أمي: لا أرضى حتى تُشْهد رسول الله ﷺ، فجاءه ليشهده على صدقتي، فقال: (أكل ولدك نحلت مثله؟) قال: لا. قال: (اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم)، وقال:(إني لا أشهد على جَوْر) قال: فرجع أبي، فرد تلك الصدقة(6).

قال الكواكبي: إن هذا يدعو المسلمين إلى تبني جميع ما يطلبه الأطفال وغيرهم من المستضعفين من حقوق.. فمن العار أن نجد من يتولى مثل هذا من لا علاقة لهم بالإسلام، ثم يجدون من فقهاء المسلمين المتزمتين من يمدهم بما يحاربون به الدين، ويمنعون هؤلاء الطبقات من الدخول في دين الله أفواجا.

قال القمي: فاكتبوا إلى سحنون وجميع مفتي الأمصار الإسلامية، بأن لا يفتوا إلا بما تقتضيه العدالة التي جاء بها القرآن الكريم وبشر بها رسول الله ﷺ..

قال الشعراوي: وقد ورد في النصوص الأمر بالعدالة بين الأقارب.. ولهذا ــ كان من حكمة الله ـ أن تولى قسمة المواريث بنفسه حتى لا يقع فيها أي جور أو ظلم.

***

بقيت هذه الثلة الطيبة من الورثة تستعرض أحكام الشرع وعلاقتها بالعدل، ثم تقرر القرارات المختلفة بناء على ذلك.. وأنا أتعجب كل حين يذكر فيه سحنون أو غيره ممن كنت لاقيتهم.

ولم أعلم سر ذلك إلى أن أعلمني صاحبي إلى أن لجميع من مررت بهم من الهداة علاقة بهذه الغرفة.. فهذه الغرفة هي غرفة العمليات التي تصدر منها جميع القرارات والأحكام المورورثة عن النبي الهادي.

القوة

بعد أن انتهى مهندسو الشهادة من الحديث عن العدل، وكيفية تحقيقه في الواقع الإسلامي، ليدخل الناس في دين الله أفواجا، نهض محمد إقبال، وقال: سأبث لكم الآن مشروع الشهادة الذي وصلت إليه بعد جهد جهيد، وبحث مستفيض، ومعاناة طويلة.

لقد رأيت أن سر إعراض الناس عن الإسلام هو ما عليه المسلمون من ضعف.. فالبشر تبع للقوي.. لا يدينون بغير دينه، ولا يحتمون بغير حماه.

نعم.. العقلاء من الناس، وأصحاب الهمم العالية منهم لا تؤثر فيهم قوة ولا ضعف.. ولكن عموم الناس لا يؤثر فيهم إلا القوي العزيز.

ألا ترون كيف لم يتبع رسول الله ﷺ في بدء الرسالة إلا السابقون الأولون من أصحاب الهمم العالية.. ولكنه بعد ما فتح الله على المسلمين مفاتيح القوة والتمكين دخل

6) رواه البخاري ومسلم.

الناس في دين الله أفواجا؟

لقد ذكر القرآن ذلك، فقال:﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)﴾ (النصر)

ولذلك كانت القوة ركنا من أركان الشهادة.. فلا يمكن للأمة الضعيفة التي لا تستطيع أن تنقذ نفسها أن تقوم بإنقاذ غيرها.

قال القمي: ذلك مما لا شك فيه.. فلا يمكن للمستضعف أن ينصر مستضعفا، أو يقف في وجه مستكبر.. لابد من القوة.. القوة بجميع معانيها، وبجميع وجوهها.

قال الشعراوي: بورك فيك يا قمي.. إن القوة بجميع وجوهها لم تكتمل في دين كما اكتملت في الإسلام، ولم تكتمل في هدي نبي كما اكتملت في هدي نبينا ﷺ..

إن الإسلام بجميع شرائعه منظومة متكاملة للقوة.. القوة بجميع مجالاتها، وبجميع وجوهها: قوة الفرد، وقوة المجتمع، وقوة الأمة.

قال مطهري: فلنتحدث عن هذه القوى الثلاث، وكيف نعيد إحياءها في الأمة، لنعيد لها وصف الشهادة الذي وصفها الله به.

الفرد:

قال إقبال: أنتم تعلمون أن الإسلام يؤسس دولته على الأفراد.. بل على نفوس الأفراد.. فكل فرد في الإسلام كيان قائم بذاته، له حرمته، وله سلطته، فلا يحتاج إلى أي جماعة أو حزب حتي يثبت وجوده.. بل هو بذاته حزب يمكنه أن يواجه من يشاء، وينصح من يشاء، ويعارض من يشاء.

لقد قال رسول الله ﷺ يذكر ذلك:(المسلمون تتكافا دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويجير عليهم اقصاهم وهم يد على من سواهم يرد مشدهم على مضعفهم ومسرعهم على قاعدهم)(1)

وقال في الحديث الآخر الذي يحمل الأمة جميعا بجميع أفرادها مسؤولية النصح والتقويم:(إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة) قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: (لله، ولكتابه، ولرسوله، ولائمة المسلمين وعامتهم)(2)

قال القمي: وهذا يحوج إلى المسلم القوي، فلا يمكن أن يؤدي النصيحة بتمامها وكمالها إلا من اكتملت له جميع أسباب القوة.. فهو قوي بنفسه، قوي ببدنه، قوي بهمته، قوي بعزيمته..

قال الشعراوي: لقد جمع النبي ﷺ كل ذلك، فقال في دعائه لربه:(اللهم إني أعوذ بك

---

1) رواه أبو داود وابن ماجة.

2) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي.

من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال)

انظروا.. ألا ترون في هذا الدعاء كيف أن النبي ﷺ قد استعاذ بالله من كل مظهر من مظاهر الضعف: ضعف الإرادة بالهم والحزن، وضعف الإنتاج بالعجز والكسل، وضعف الجيب والمال بالجبن والبخل، وضعف العزة والكرامة بالدين والقهر؟

قال شكيب: بل إن النبي ﷺ صرح بذلك بقوله:(المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خيرٌ. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان)(1)

انظروا.. إن هذا الحديث يدلنا على جميع أركان القوة التي يتأسس عليها بنيان المؤمن:

لقد بدأ رسول الله ﷺ ببيان خيرية المؤمن القوي، وهي خيرية مطلقة من كل قيد، تجعل كل مؤمن يبحث عن كل أسباب القوة لتتجلى فيه الخيرية بكمالها وشمولها.

ثم أمر ﷺ بالحرص على ما ينفع، وذلك لأن القوة قد تستغل فيما لا ينفع، فتكون على وبالا على ما ينفعها.. فلا يكفي أن تكون لدينا قوة، بل يجب أن نعرف أي نضعها، وكيف نستثمرها، وإلى من نوجهها.

لقد رأيت بعض الشباب في فترة من الزمن يتدربون على جميع أنواع القوى، فقرت عيني بذلك، وقلت في نفسي: هؤلاء هم ورثة محمد ﷺ، وبهؤلاء سوف يقوم دينه، وسوف يدخل الناس في دين الله أفواجا.. لكني ما لبثت حتى رأيتهم يحملون بقواهم على إخوانهم من المسلمين، فعرفت أن القوة التي لا توجه التوجيه النافع لن تزيد صاحبها إلا ضعفا.

ثم أمر ﷺ بالاستعانة بالله.. ذلك أن الله هو القوي.. ومن استعان به أمده بالقوة التي تنهد لها الجبال.

وذلك يدل على وجوب الاهتمام بالقوة الروحية للجيل القوي الذي نريد تأسيسه، فقوة الإيمان هي القوة الوحيدة التي لا يمكن لأحد في الدنيا قهرها.

ثم نهانا النبي ﷺ أن نتألم لما مضى.. وهذا يدل على أن القوي هو الذي يفكر في كيفية صناعة مستقبله لا الذي يكون طريحا لماضيه.. لقد قال الله تعالى يذكر هذه المعيقات الخطيرة التي تقف في وجه القوة:﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد:23)

قال مطهري: لقد مثل النبي ﷺ بسلوكه وفي حياته جميع القوى التي تملأ الفرد المسلم بالإيجابية.. فلذلك لن يصعب علينا بث مثل هذه الأفكار للجيل القوي الذي نريد تأسيسه.. فمن السهل أن نذكر لهم أن القوة بجميع معانيها هي سنة النبي ﷺ.. لنجدهم

1) رواه مسلم.

جميعا بجميع ما أوتوا من الطاقات يسرعون إليها ويهرولون.

قال الشعراوي: نعم.. لقد جمع الله أنواع القوة في رسول الله ﷺ، فلذلك كان السابق في كل شيء:

ففي الصلاة وعبادة الله، كان ﷺ هو النموذج الأكمل للعابد الذي لا يفتر ولا يمل[1].. وذلك يدل على أنه ﷺ كان صاحب قوة روحية عالية، لأنه لا يمكن أن تتأسس جميع القوى من دون تلك القوة الروحية العالية.

قال مطهري: وهكذا كان رسول الله ﷺ في جميع أنواع القوة الأخرى، ففي قوة السيطرة على دوافع الحرص التي تمتلئ بها نفس الإنسان كان النبي ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وكان يقول:(لو عندي مثل أحد ذهبا ما سرني أن يأتي علي ثلاث ليال، وعندي منه شئ إلا شيئا أرصده لدين) [2]

وقد كان أصحابه والمقربون إليه يعرفون هذه الصفة فيه، ويصفونه بها، فعن علي أنه كان إذا نعت رسول الله قال: كان أجود الناس كفا [3].. وعن أنس قال: كان رسول الله أجود الناس[4].

وكان من الصفات التي عرفه من خلالها الكل هو أنه كان أبعد الناس عن رد أي سائل يسأله، مؤتمرا في ذلك بما أمره الله تعالى به، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ (الضحى:10)

وكان من الصفات التي عرف بها.. عرفه بها جميع الناس.. أنه لا يسأل شيئا إلا أعطاه.

قال أنس : ما سئل رسول الله على الإسلام شيئا إلا أعطاه[5].

وقد ذكر نموذجا لذلك، فقال: فسأله رجل غنما بين جبلين فأعطاه إياها، فأتى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فوالله إن محمدا ليعطى عطاء من لا يخاف الفقر[6].

قال أنس: وإن كان الرجل ليجئ إلى رسول الله وما يريد بذلك إلا الدنيا، فما يمسي

1) انظر المزيد منها في رسالة (النبي الإنسان)، فصل (العابد) من هذه السلسلة.

2) رواه البيهقي، وابن عساكر.

3) رواه ابن أبي خيثمة.

4) رواه ابن أبي شيبة.

5) رواه مسلم.

6) رواه مسلم.

حتى يكون دينه أحب إليه من الدنيا وما بينها (1).

وعن علي قال: كان رسول الله إذا سئل عن شئ، فـأراد أن يفعلـه قـال: (نعم) وإن أراد ألا يفعله سكت، وكان لا يقول لشئ لا (2).

قال ديدات: لقد ذكرتموني بحديث لأنس قال فيه: كان رسول الله ﷺ أحسن النـاس، وأجود النـاس، وأشـجع النـاس، ولقـد فـزع أهـل المدينـة ذات ليلـة، فـانطلق النـاس قبـل الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول: (لم ترعوا لم ترعـوا) وهو على فرس لأبي طلحة عرى، ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال: (لقد وجدته بحرا أو (إنه لبحر)(3)

وكان رسول الله ﷺ يتقدم أصحابه في الجهاد في سبيل الله، ففي غـزوة حـنين ثبت رسول الله ﷺ حين انهزم الكثير ممن معه، فعن البراء بن عـازب أن رجلا قـال لـه: يـا أبـا عمارة، أفـررتم عن رسـول اللـه ﷺ يـوم حـنين؟ فقـال: لكن رسـول اللـه ﷺ لم يفـر، إن هوازن كانوا قوماً رمـاة، فلمـا لقينـاهم وحملنـا عليهم انهزمـوا، فأقبـل النـاس فلقـد رأيت رسول الله ﷺ وأبا سفيان بن الحارث آخذ في لجام بغلته البيضاء، وهو يقول: (أنـا النـبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)(4)

قال القمي: ما أحسن ما ذكرته من حديث أنس الذي قال فيه: (كان رسـول اللـه ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع النـاس).. فلا يمكن أن يسـتعيد الإسـلام مجـده حـتى يستن المسلمون بهذه السنة العظيمة: أن يكونـوا أحسـن النـاس، وأجـود النـاس، وأشـجع الناس.

المجتمع:

قال إقبال: عرفنا قوة الفرد.. فما قوة المجتمع؟.. وكيف نحققها؟

قال مطهري: إذا اعتبرنا الأفراد هم لبنـات المجتمـع.. فلا شـك أن المجتمـع هـو ذلـك البناء الذي يتكون من لبنات الأفراد.. ولا يكفي في البناء أن تكون لبناته قوية، بــل يجب أن يكون التماسك بينها قويا، وإلا أدى ذلك إلى خرابها، وسقوطها بأوهى الأسباب.

قال القمي: في الإسلام منظومة كاملة لذلك.. فكل مـا ورد في النصـوص المقدسـة من الحث على التماسك والتآلف من التوجيهات والتشريعات يخدم هذا.

لقد قال الله تعالى يذكر ذلك: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْـوَةٌ فَأَصْـلِحُوا بَيْنَ أَخَـوَيْكُمْ وَاتَّقُـوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات:10)

---

1) رواه مسلم.

2) رواه الخرائطي، والطبراني.

3) رواه البخاري ومسلم.

4) رواه البخاري ومسلم.

انظروا.. كيف أمر الله تعالى بالإصلاح بين الإخوة، وكأنه يقول لنا: لا يمكن أن يتماسك بناؤكم الاجتماعي، وأنتم مفرقون مشتتون لا تجتمع لبناتكم.

قال الشعراوي: لقد صرح رسول الله ﷺ بمثل هذا التشبيه، فقال: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه)(1)

وفي حديث آخر شبه رسول الله ﷺ العلاقات بين المؤمنين بأعضاء الجسد الواحد، فقال:(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(2)

وفي حديث آخر ذكر رسول الله ﷺ مثلا تقريبيا لما قد يحدثه سكوت المجتمع عن أخطاء أفراده، فقال:(مثل القائم على حدود الله ـ أي القائم على حفظ النظام العام للمجتمع وأفراده ـ والواقع فيه كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا هذا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا)(3)

قال ديدات: لقد وردت النصوص الكثيرة التي تؤسس للروابط الاجتماعية بين المسلمين، والتي أشار إليها قوله تعالى: وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (لأنفال:63)

ففي الحديث الشريف يقول رسول الله ﷺ:(المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلمٍ كربةً فرج الله عنه بها كربةً من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة)(4)

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(المسلم أخو المسلم: لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرامٌ: عرضه وماله ودمه، التقوى ههنا، بحسب امريءٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)(5)

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله. التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مراتٍ - بحسب امريءٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه)(6)

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه أحمد والبخاري والترمذي.

4) رواه البخاري ومسلم.

5) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

6) رواه مسلم.

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)(1)

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(حق المسلم على المسلم خمسٌ: رد السلام، وعياد المريض، واتباع الجنائز وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس)(2)

قال إقبال: لقد جمع رسول الله ﷺ كل ذلك وغيره في قوله الجامع:(المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)(3)

قال شكيب: وفي سلوك رسول الله ﷺ نجده حريصا على تعميق الأخوة بين المؤمنين، ولذلك كان أول ما فعله ﷺ في المدينة المنورة هو قضاؤه على ذلك النزاع الطويل الذي كان ينهش جسد الأوس والخزرج، ثم إخاؤه بين المهاجرين والأنصار.. وكان ﷺ لا يترك سببا من أسباب الشقاق إلا سارع لسده قبل أن يتفاقم، وكان ﷺ يستعمل لذلك كل الأساليب، بل كان يدعو إلى استعمال جميع الأساليب لرد المسلمين إلى تآلفهم ووحدتهم، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فيقول خيرا أو ينمي خيرا) (4)

الأمة:

قال إقبال: عرفنا قوة الفرد وقوة المجتمع، فما قوة الأمة؟.. وكيف نحققها؟

قال القمي: لا يمكن أن تتحقق الشهادة بكمالها إلا بهذا النوع من القوة.. ولا أرى أن هذا النوع من القوة يتحقق للأمة إلا إذا تحققت بالأوصاف التي وصفها بها ربها.

فقد وصفت الأمة في القرآن الكريم بأربعة أوصاف:

فقد وصفها الله تعالى بالوسطية في قوله:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: 143)

ووصفها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله في قوله:﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: 110))إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الانبياء:92)

ووصفها بالوحدة في قوله:﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون: 52)

قال مطهري: إن هذه الأوصاف الأربعة تحوي منظومة كاملة من القيم تضع الأمة في أعلى معارج القوة.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه أحمد والطبراني.

4) رواه مسلم.

فالأمة القوية هي التي تنطلق من الإيمان بالله بأرفع درجات الإيمان.. ثم تسير في حياتها على ما تقتضيه الفطرة النقية التي عبر عنها القرآن الكريم بالوسطية.. فإذا ما تم لها ذلك كان لها أن تنشغل بدعوة الناس إلى الله آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر.. ولن يتم لها كل ذلك إلا بالوحدة، فالوحدة هي التي تجعل جهودها منصرفة إلى الرسالة التي أنيطت بها، لا إلى النزاعات الداخلية التي تفتك بها.

قال الكواكبي: فكيف نحقق هذه القيم الرفيعة في أمتنا التي فتكت بها الغفلة عن الله، وقتلها الغلو في دين الله، فصار بأسها بينها شديدا، ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ (الحشر: 14)؟

قال إقبال: ذلك يسير على من يسره الله.. فما دامت لدينا هذه المصادر المقدسة، فلن يصعب علينا بحمد الله شيء.

قال شكيب: فهل لديك خطة لذلك؟

قال إقبال: أجل.. وهي خطة طويلة الأمد.. اقتربوا مني لأبثها لكم.

اقتربوا منه، فأخذ يناجيهم بكلمات كثيرة، لم أسمع منها إلا أسماء من مررت بهم من الورثة الذين كان يردد اسمهم كل حين.

سألت صاحبي عن سبب ذكره لتلك الأسماء، فقال: لأن أصحاب تلك الأسماء هم المكلفون بتنفيذ ما يريده من خطط.

قلت: ألهذه الغرفة علاقة بهم إذن؟

قال: ألم أقل لك: إن هذه الغرفة هي المنارة التي تهتدي بها جميع منارات الهداية؟

الأمانة

بعد أن لبث مهندسو الشهادة مليا يدرسون خطة إقبال، قام مطهري، وقال: إن ما ذكرته ـ يا إقبال ـ ييسر ما سأذكره لكم من خطط ترتبط بإعادة الأمانة إلى الأمة.. فلا يمكن للناس أن يدخلوا في دين الله أفواجا إلا إذا رأونا أمة أمينة، تتوفر على كل ما تستدعيه الأمانة من قيم.

قال الشعراوي: صدقت.. فالقوة وحدها لا تكفي، لقد قال الله تعالى يجمع بينهما: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص:26)، وقال: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (النمل: 39)

قال الكواكبي: صدق الله العظيم.. فالقوي الذي لا أمانة له لن يستعمل القوة إلا فيما استعملها فيه المتمردون الذين أذاقوا البشر ويلات نفوسهم الحاقدة الخائنة.

قال القمي: ولهذا كان من أهم أوصاف رسول الله ﷺ التي جعلته محل ثقة في

مجتمعه هي أمانته، فقد كان يدعى بين قومه قبل أن يوحى إليه (الصادق الأمين)

قال الشعراوي: لقد وصف القرآن الكريم جميع الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ بالأمانة، وهو دال على ضرورتها لمن يريد أن يدخل الناس في دين الله أفواجا:

لقد قال الله تعالى عن نوح ﷵ: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108﴾ (الشعراء)

وقال عن هود ﷵ:﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68)﴾ (الأعراف)، وقال:﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126)﴾ (الشعراء)

وقال عن صالح ﷵ:﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144)﴾ (الشعراء)

وقال عن لوط ﷵ:﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163)﴾ (الشعراء)

وقال عن شعيب ﷵ:﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179)﴾ (الشعراء)

انظروا.. ألا ترون كيف اتحد جميع هؤلاء الأنبياء في وصف أنفسهم بالأمانة، ثم رتبوا عليها دعوة أقوامهم إلى تقوى الله وطاعته؟

قال إقبال: نعم.. وفي ذلك إشارة بليغة إلى أنه لا يمكن أن يتقبل الناس أي فكرة إلا إذا رأو علامات الأمانة متمثلة فيمن يدعو إليها.

قال القمي: لقد ذكرتموني بيوسف ﷵ، فيوسف ﷵ كان قد أعد الله له وظيفة خطيرة ترتبط بها مصالح العباد، لينقذهم من المجاعة التي تتربص بهم.

وبما أنه كان في السجن، وخشي أن يكون الملك قد سرت إليه شبهة من خبر النسوة، فراح يطلب التحقيق فيها حتى لا تكون تلك الشبهة سببا بعد ذلك لرفع الحرمة عنه.

ولما علم الملك خبر النسوة، قال:﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (يوسف: 54)

قال مطهري: إن هذه الآية تحمل توجيها عظيما لهذه الأمة.. فلن تستخلصها الأمم لنفسها، ولن تكون لها مكانة عندها إلا إذا تحققت بالأمانة في أرقى درجاتها.

قال الشعراوي: لقد أخبر ﷺ عن رفع الأمانة عن الأمة إبان انحطاطها، وهو يدل على

أنه لا يمكن للأمة أن تستعيد مجدها إلا باستعادة الأمانة التي ارتفعت عنها[1]:

لقد ورد في الحديث عن حذيفة قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأينا أحدهما وأنا انتظر الاخر، حدثنا أن الامانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة، قال: (ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر، دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا، وليس فيه شئ فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلا أمينا، حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أكرمه ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان) [2]

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ: (أول ما تفقدون من دينكم الامانة)[3]

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ: (أول ما يرفع من الناس الأمانة، وآخر ما يبقى من دينهم الصلاة، ورب مصل لا خلاق له عند الله)[4]

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ: (أول ما يرفع من هذه الأمة الحياء والأمانة)[5]

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(إذا اتخذ الفئ دولا، والأمانة مغنما، والزكاة مغرما، وتعلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته وعق أمه، وأدنى صديقه، وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وظهرت القينات والمعازف، وشربت الخمور، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وزلزلة، وخسفا ومسخا وقذفا وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه، فتتابع)[6]

قال مطهري: مما يدل على أن هذه النبوءات قد تحققت في عصرنا تحققا تاما هو ما نراه من اختصار عامة الناس ـ بل خاصتهم ـ الأمانة في الودائع مع أنها الدين جميعا، فالله قد ائتمننا على هذا الدين.. على تشريعاته تشريعا تشريعا.. وعلى توجيهاته توجيها توجيها..

قال الشعراوي: صدقت.. فقد اعتبر الله تعالى الدين بجميع تكاليفه دينا، فقال: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا

---

1) نبهنا في مواضع كثيرة إلى أن أحاديث الفتن وأشراط الساعة ونحوها لا تحمل فقط صفة النبوءة الغيبية، وإنما تحمل أيضا ــ وأهم من ذلك ــ طابع التشريع، لمن حصلت لهم تلك الفتن. (انظر: رسالة (معجزات حسية)، فصل (نبوءات) من هذه السلسلة)

2) رواه مسلم.

3) رواه الطبراني في الكبير.

4) رواه الحكيم الترمذي.

5) رواه الطبراني.

6) رواه الترمذي وقال: غريب.

الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴿(الأحزاب:72)، فقد قال ابن عباس في تفسيرها:(الأمانة: الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم. وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين الله ألا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم، فقبلها بما فيها)

قال القمي: لقد ورد في النصوص المقدسة ما يشير إلى شمول الأمانة جميع التكاليف الشرعية، ابتداء من الحكم وانتهاء بأبسط التكاليف، ففي الحديث، قال ﷺ:(إذا ضيِّعت الأمانة فانتظر الساعة)، قيل: يا رسول الله وما إضاعتها؟ قال: (إذا وسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة)(1)

وقال ﷺ لأبي ذر في شأن الإمارة:(إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدّى الذي عليه فيها)(2)

وقال ﷺ: (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء)(3)

وقال ﷺ: (الخازن المسلم الأمين الذي يُنفذ ما أُمِر به كاملاً موفراً طيباً به نفسُه فيدفعه إلى الذي أُمر له به أحد المتصدقين)(4)

وقال ﷺ ـ يصف مرور الناس على الصراط ـ:(وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جَنَبَتي الصراط يميناً وشمالاً)(5)، وقال ﷺ:(ثلاث متعلقات بالعرش: الرحم تقول اللهم إني بك فلا أقطع، والأمانة تقول: اللهم إني بك فلا أخان، والنعمة تقول: اللهم إني بك فلا أكفر)(6)

ومما ورد في سبب نزول قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال:27) أنها نزلت في أبي لبابة حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، لما حصرهم ﷺ، وكانوا يميلون إلى أبي لبابة لكون أهله وولده فيهم، فقالوا له: هل ترى أن ننزل على حكم محمد؟ فأشار بيده إلى حلقه ـ أي إنه الذبح فلا تفعلوا ـ فكانت تلك منه خيانة لله ولرسوله.

قال: فما زالت قدماي من مكانهما حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله، ثم ذهب إلى المسجد وربط نفسه، وحلف أن لا يحلها أحد إلا رسول الله ﷺ، ثم لا زال كذلك حتى أنزل الله توبته، فحله رسول الله ﷺ بيده الشريفة.

ولهذا كله ورد في الحديث عن علي قال: كنا جلوسا مع رسول الله ﷺ، فطلع علينا

1) رواه البخاري.
2) رواه مسلم.
3) رواه الترمذي.
4) رواه البخاري.
5) رواه مسلم.
6) رواه البزار.

رجل من أهل العالية، فقال: يا رسول الله أخبرني بأشد شيء في هذا الدين وألينه؟ فقال: ألينه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وأشده ـ يا أخا العالية ـ الأمانة، إنه لا دين لمن لا أمانة له، ولا صلاة ولا زكاة)(1)

وعن ابن مسعود قال: (القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة، قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله، فيقال له: أد أمانتك، فيقول: أي رب، كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، وتمثل له الأمانة كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها فيهوي في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبه، حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبه فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: (الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها وأشد ذلك الودائع)، قال زاذان: فأتيت زيد بن عامر فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود؟ قال: كذا وكذا، قال: صدق، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ (النساء: 58)

قال شكيب: ولهذا اعتبر ﷺ من علامات المنافق خيانة الأمانة، فقال:(آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم)(2)، وقال ﷺ:(أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)(3)

بل كان ﷺ يخبر أنه لا إيمان لمن لا أمانة له، فعن أنس قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)(4)

وكان ﷺ يستعيذ من الخيانة، ويقول:(اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة)(5)

قال إقبال: علمنا كل هذا.. فكيف تستعيد الأمة هذا الوصف الذي لن تتحقق بالشهادة من دونه؟

قال مطهري: لقد نذرت حياتي كلها للإجابة عن هذا السؤال.. وقد رأيت أن أول ما نفعله في هذا، وأحكم ما نفعله، هو أن نشعر الأمة بمسؤوليتها عن دينها، وعن أحكام ربها، نرغبها في ذلك ونرهبها، كما كان يفعل رسول الله ﷺ بأسلوب أهل السلام، لا بأساليب أهل الصراع، إلى أن يظهر في الأمة الحاكم الأمين، والوزير الأمين.. والتاجر الأمين.. فإذا ظهرت هذه النماذج الطيبة، ومثلت الأمانة بأرقى مستوياتها، كان في ذلك تمام الدعوة للأمانة.. فالعامة لا يقتنعون بشيء كما يقتنعون بشيء يرونه بأعينهم.

---

1) رواه البزار.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

4) رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط.

5) رواه أبو داود.

قال شكيب: نعم ما ذكرت.. فلن يملأ الأرض صلاحا إلا أريج الصالحين، ولن يملأ الأرض أمانة إلا الأمناء.

قال مطهري: إن ذلك يشبه ما يتعامل به علماء الحياة مع الأصناف التي يخشون انقراضها، فهم يستعملون كل الوسائل ليكثروا ذلك النوع الذي خشوا من انقراضه.

قال ديدات: فهلم إذن.. ندرس مراتب ذلك.. لنرسل للورثة في سائر البقاع بها.

***

اجتمع الجمع، وراحوا يتحدثون.. ولم أسمع منهم إلا ما ذكرت لك من تكريرهم كل حين من عرفت من الورثة.

العمارة

لم يلبثوا إلا قليلا حتى صاح إقبال قائلا: إن ما ذكرتموه نبهني إلى الطريقة المثلى التي نحيي فيها ما أمرنا الله تعالى به في قوله:﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: 61).. فعمارة الأرض وظيفة من وظائف الإنسان، ولن تتحقق أمة بالشهادة، وهي تفرط في هذه الوظيفة.

قال ديدات: صدقت.. وقد سمعت معلم السلام في حوار له مع تلميذه (تلميذ السلام)(1)، وقد سأله عن الرفاه، فقال: كيف يكون وظيفة من وظائف الشهادة؟ فأجابه معلم السلام:(كيف يستطيع مدرب النمور والأسود أن يتسلط على قوى السبعية في النمر والأسد ليوجهها إلى اللعب واللهو.. فيجعل من ذلك الذي يخافه الناس على نفوسهم وسيلة رزقه التي يحافظ بها على حياته؟)، فقال تلميذ السلام:(ما أسهل ذلك ـ يا معلم ـ لقد عرف شهوات النمر والأسد، فراح يتلاعب به من خلالها)، فقال معلم السلام:(فكذلك من يحيط بكم من الأقوام، استعبدتهم الدنيا، ولن تجروهم إلى الله إلا بسلاسل الدنيا)

قال إقبال: لقد دلني على هذه الناحية من نواحي الشهادة قوله تعالى مخبرا عن سليمان ﷺ:﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (صّ:35).. لقد طال فكري في هذه الآية، وكنت أقول في نفسي: (لقد عهدنا الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ زاهدين في متاع الدنيا راغبين في الله مكتفين بالله، فكيف طلب سليمان ﷺ هذا الطلب الغريب؟)

لكن الله هداني إلى سر ذلك.. فعلمت ـ أولا ـ أن سليمان ﷺ طلب ذلك الملك، وبتلك الصورة التي لا ينازعه فيها أحد، ليكون حجة على من شغله ملكه عن الله، وكأن سليمان ﷺ يقول لربه:(يارب هب لي من الملك ما تشاء.. بل هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي أن يحصل عليه.. فإن هذا الملك مهما كان عظيما.. وذلك الفضل مهما كان

1) انظر رسالة (مفاتيح المدائن) من (رسائل السلام)

وفيرا لن يحجباني عنك ولن يبعدا قلبي عن الرغبة فيك.. فإني لا أرى الأشياء مهما كثرت إلا منك.. ولا أرى نفسي إلا بك.. فكيف أحجب بهداياك الواصلة إلي.. أم كيف أنشغل بفضلك عنك)

ثم ترقيت ـ بحمد الله ـ في فهم الآية، فتبينت علاقتها بالشهادة، وعرفت أن سليمان ﷺ ـ حسبما ورد في القرآن الكريم ـ كان في واقع لا يرى من حجة أعظم من حجة العمران.. فلذلك قال تعالى عن ملكة سبأ على لسان الهدهد:﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل:23)

وذكر تعالى أنها أرادت أن تميز سليمان ﷺ أملك هو أم لا بإرسال هدية إليه، كما قال تعالى:﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (النمل:35)

وهذا الواقع الغارق في الدنيا، وفي متاعها، يستدعي أن يخاطب بما يتناسب معه، كما خاطب موسى ﷺ السحرة بما يتناسب مع مداركهم، فلذلك طلب سليمان ﷺ ملكا لا ينبغي لأحد من بعده.

ومما يدل على هذا ما ذكره الله تعالى من إظهار سليمان ﷺ لملكة سبأ بعض مظاهر الملك التي أعطاها الله له، فلم يكن غرضه من ذلك الفخر عليها، وإنما كان غرضه تعريفها بالله، لأنها انشغلت بالعرش العظيم(1) الذي كان لها عن الله، فلذلك كان أول ما لاقاها به سليمان ﷺ هو عرشها الذي حجبها عن الله، وعن التسليم له، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾(النمل:42)

فلما قالت ذلك، وفي غمرة انبهارها بما رأت أخبرها سليمان ﷺ بأنه مع هذا الملك كان مسلما لله، فلم يحجب به عن الله، فقال تعالى على لسانه:﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾

فلما رأى سليمان ﷺ حاجتها إلى المزيد من الأدلة، أحضرها إلى الصرح الممرد من القوارير، وقد كان من الجمال بحيث لا يساوي عرشها الذي شغلها عن الله شيئا بجانبه، وحينذاك لم تملك إلا أن تسلم لله، قال تعالى:﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل:44)

ثم ترقيت.. وانتقلت من القصة إلى واقعنا.. فعلمت أننا في واقع منبهر تمام الانبهار بالدنيا، فلا يمكن أن يدخل الناس في دين الله أفواجا، وهم يروننا في ذيل القافلة، لا عمل

---

(1) وقد ذكر القرآن الكريم ذلك، فقال على لسان الهدهد:﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (النمل:23)

لنا إلا استهلاك ما يصدر لنا.

قال الشعراوي: ولكن الأمم سبقتنا في هذا المجال إلى محال لا يمكن أن يلحقوا فيها، فكيف ترى أن نسبقهم في هذا؟

قال إقبال: ذاك ما ظللت طول عمري أبحث عنه.. لقد كنت أقول دائما لنفسي: نعم.. هم سبقونا.. ولكن مع ذلك يمكن أن نسبقهم..

كنت أقول ذلك ـ في البدء ـ لأملأ نفسي بالأمل.. لكن الأمل بعد ذلك اتسع، بل صار بين عيني حقيقة لا يصعب علينا بالعمل الجاد، وبالإرادة الجادة أن نحققها.

قال الشعراوي: كيف ذلك.. بشرنا.. فطالما اهتممنا لما اهتممت له.

قال إقبال: لقد كان الحجاب الأعظم الذي جعلنا نستشعر تأخرنا عن الأمم، وعدم إمكانية لحوقنا بهم هو تصورنا أننا لا بد أن نبدأ من حيث بدأوا.. أي أننا إذا أردنا أن نخترع نوعا راقيا من السيارات لابد ــ أولا ــ أن نمر بكل المراحل التي مر بها من صنعوا السيارات.

قال الشعراوي: ذلك صحيح.. كلنا يعتقد هذا.

قال إقبال: لكني عرفت بعد ذلك خطأ هذا المنهج.. فنحن لن نبدأ من حيث بدأوا.. بل نبدأ من حيث انتهوا.. فنهاياتهم هي بدايتنا.

قال شكيب: ولكنهم قد يصيحون فينا قائلين: أنتم تقتاتون من علومنا واختراعاتنا واكتشافاتنا؟

قال إقبال: ونحن نصيح فيهم: وأنتم لم تكن لكم هذه العلوم، ولا تلك الاختراعات، ولا تلك الاكتشافات إلا بما نهلتموه من علومنا.

قال الكواكبي: فسيصيحون فينا: وأنتم ـ أيضا ـ لم تتطور حضارتكم إلا بعد اقتباسها من سائر الحضارات ومزجها بينها.

قال إقبال: حينها نقول لهم: العلوم لا وطن لها.. العلوم حق البشر جميعا.. فلكل إنسان الحق في الاستفادة من كل علم.. والحق في الاستفادة من كل اختراع ما دام يشتريه بمال الحلال.

قال شكيب: صحيح ما ذكرت.. ولكن المنظومة التعليمية التي تدرس في مدارسنا تجعل بيننا وبين ما تذكره آلاف الأميال..

قال إقبال: فلنسع لتغيير منظومتنا التربوية.. ولنستن بسنة رسول الله ﷺ في ذلك.. فقد جاء رسول الله ﷺ في بيئة بدوية لم يكن لها اهتمام إلا بما تفرضه حياة البداوة من انشغال بالشعر، والأنساب، وغيرها من المعارف البسيطة التي لا يمكن أن تؤسس لعمران.

قال الكواكبي: فماذا فعل رسول الله ﷺ ليخرجها من منظومة البداوة لمنظومة الحضارة.. لتخرج بعد ذلك للناس بأعظم حضارة عرفتها البشرية.

قال إقبال: اقرأوا القرآن لتروا المعاني التي ربى عليها رسول الله ﷺ النفوس لتصبح أهلا لحمل الحضارة.

لقد بحثت في ذلك.. ورأيت في ذلك منهجا متكاملا يمكننا استثماره ليعود للأمة مجدها، ويدخل الناس في دين الله أفواجا.

لقد كان أول ما فعله القرآن الكريم هو إخراج أولئك البدو من تلك القوقعة التي سجنوا فيها أنفسهم، فدعاهم إلى النظر إلى الأشياء.. فلا يمكن أن يتطور من يغمض عينيه عن أسرار الوجود:

لقد قال لهم ـ وهم منشغلون بوصف الصحراء والإبل ـ ينبههم إلى ما أودع في كونه من كمال وجمال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:99)

ودعاهم إلى النظر إلى السماء: ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس:101)

ودعاهم إلى النظر إلى الطعام: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32)﴾ (عبس)

ودعاهم إلى النظر إلى أسرار خلقهم: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7)

وأخبر عن أوليائه العاقلين أنهم يمزجون بين الذكر والفكر والنظر، فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:164)

ثم أمرهم بالسير لينهلوا من العلوم والمعارف ما لا يجدونه في بيئتهم المحدودة.. قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران:137)، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:46)، وقال: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت:20)

ثم أمرهم باستعمال كل مدراكهم لتحليل ما عرفوه ليستنبطوا منه أسرار العلوم

وحقائقها، فقال: قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا (سبأ: 46)، وقال عن تحليل معاني القرآن الحاوية لجميع حقائق الوجود: أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (النساء: 82)، وقال: أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (محمد:24)

بل إن القرآن الكريم دعا إلى بذل كل الجهود لتحصيل جميع أنواع القوى، ويدخل فيها هذا النوع من أنواع القوى، قوة الصناعة والسياسة، فقال: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ (لأنفال: 60)

وقد جاءت التعاليم النبوية الكثيرة تعمق هذه المفاهيم القرآنية، وترسخها، وتربي الأجيال عليها، فقد كان ﷺ حريصا على أن يمارس أصحابه أي حرفة حتى لا يقعوا فريسة لأي نوع من أنواع العبودية:

جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فسأله فقال: أما في بيتك شيء؟ فقال: بلى حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه الماء، فقال: ائتني بهما، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده فقال: من يشتري هذين؟ فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم، فقال رسول الله ﷺ:(من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا؟)، فقال رجل: أنا أخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال: اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فائتني به، فلما أتاه به شد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده، ثم قال:(اذهب فاحتطب، وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوما)، ففعل وجاء فأصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما، فقال رسول الله ﷺ:(هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تحل إلا لثلاث: لذي فقر مدقع، ولذي غرم مفظع، ولذي دم موجع)(1)

بل اعتبر النبي ﷺ العمل والكسب نوعا من الجهاد في سبيل الله، فقال:(أبشر، فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله، والمحتكر في سوقنا كالملحد في كتاب الله) (2)

ورأى بعض الصحابة شاباً قوياً يسرع إلى عمله، فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله! فرد رسول الله ﷺ عليهم بقوله:(لا تقولوا هذا ؛ فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفُّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان)(3)

وهكذا صار العمل عبودية خالصة لله.. بل جهاد في سبيل الله.. وهو جهاد مستمر أمرنا ﷺ أن نداوم عليه إلى آخر لحظة من أعمارنا، ففي الحديث قال ﷺ:(إن قامت

---

1) رواه أبو داود والترمذي.

2) رواه الحاكم.

3) رواه الطبراني في الكبير.

الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها)(1)

قال الكواكبي: قد وعينا جميع ما ذكرته، فكيف نعيد هذه التعاليم إلى الحياة.

قال إقبال: بما أعاد به ﷺ الحياة لهذه المعاني.. هلموا.. فقد وضعت خطية عملية لذلك.

اجتمعوا حوله.. وراحوا يتناجون فيما بينهم، ولم أسمع من حديثهم إلا ما سبق أن ذكرته لك من الأسماء التي كنت قد عرفتها ومررت على أهلها.

البلاغ

لم يلبثوا في اجتماعهم إلا قليلا، ثم انفضوا، كل إلى مجلسه الذي كان فيه، ولم يمكثوا إلا قليلا، حتى صاح الشعراوي قائلا: نعم ما ذكرتم.. فلا بد من كل ما ذكرتم.. ولكن ذلك لا يكفي..

قد نظهر بين الناس أمة موحدة تمتلئ بالعدل والأمانة، وتملئ أرضها بالعمران والحضارة.. ولكنا مع ذلك لن نكون أمة رسالة ولا أمة شهادة حتى نبلغ ما أمرنا بتبليغه.. فلن يعرف الناس رب العالمين، ولا دين رب العالمين، ولا نبي رب العالمين حتى نبلغهم ذلك.

قال إقبال: ذلك صحيح.. وهو سنة رسول الله ﷺ.. فقد كان أول ما فعله رسول الله ﷺ بعد أن أسس أول مدينة للإسلام، وحماها من كيد أعدائها أن أرسل الكتب مع أصحابه إلى ملوك الآفاق وغيرهم يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ، وإلى الدخول في الإِسلام.

قال الشعراوي: إن شئتم حدثتكم من ذلك ما تقر به أعينكم.

قال ديدات: حدثنا.. فلا يمكن أن نذكر خطة من غير أن نستن فيها بسنة النبي ﷺ الهادي ﷺ.

قال الشعراوي: لقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ كتب قبل موته إلى كسرى، وقيصر، وإِلى النَّجاشي، وإِلى كلِّ جبَّار عنيد يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ، وليس بالنجاشي الذي صلَّى عليه(2).

ومما ورد في كتابه ﷺ إلى **النجاشي** ملك الحبشة ما حدث به ابن إسحاق قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضَّمْري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتاباً:(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إِلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الملك القدّوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيِّبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه، وإِني أدعوك إلى الله

1) أحمد وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب وابن منيع وابن أبي عمر.

2) رواه مسلم.

وحده لا شريك له، والوالاة على طاعته، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني، فإنِّي رسول الله. وقد بعثت إِليك ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرَّهم ودَعِ التجبُّر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ؛ وقد بلَّغتُ ونَصحتُ فاقبلوا نصيحتي. والسلام على من اتبع الهدى)

ومما ورد في كتابه ﷺ إلى **قيصر ملك الروم** ما حدث به دِحْيَة الكلبي أنه قال: بعثني رسول الله ﷺ كتاب إلى قيصر، فقدمت عليه، فأعطيته الكتاب وعنده ابن أخ له أحمر أزرق سبط الرأس، فلما قرأ الكتاب كان فيه:(من محمد رسول الله إِلى هرقل صاحب الروم)

قال: فنخر ابن أخيه نخرة، وقال: لا يُقرأ هذا اليوم. فقال له قيصر: لِمَ؟ قال: إنّه بدأ بنفسه وكتب (صاحب الروم)، ولم يكتب (ملك الروم)، فقال قيصر: لتقرأنَّه، فلما قرأ الكتاب وخرجوا من عنده أدخلني عليه وأرسل إلى الأسقُف ـ وهو صاحب أمرهم ـ فأخبروه وأخبره وأقرأه الكتاب، فقال له الأسقف: هو الذي كنا ننتظر وبشَّرنا به عيسى عليه السلام، قال له قيصر: كيف تأمرني؟ قال له الأسقف: أمَّا أنا فمصدّقه ومتبعه، فقال له قيصر: أمّا أنا إن فعلت ذلك ذهب ملكي.

ثم خرجنا من عنده، فأرسل قيصر إِلى أبي سفيان، وهو يومئذٍ عنده قال: حدثني عن هذا الذي خرج بأرضكم ما هو؟ قال: شاب، قال: فكيف حَسَبُه فيكم؟ قال: هو في حسب منا لا يفضل عليه أحد، قال: هذه آية النبوة. قال: كيف صدقه؟ قال: ما كذب قط. قال: هذه آية النبوة. قال: أرأيت من خرج من أصحابكم إليه هل يرجع إليكم؟ قال: قد قاتله قوم فهزمهم وهزموه. قال: هذه آية النبوة. قال ثم دعاني فقال: أبلغ صاحبك أني أعلم أنه نبي ولكن لا أترك ملكي.

قال: وأما الأسقُف فإنَّه كانوا يجتمعون إِليه في كل أحد، يخرج إليهم ويحدِّثهم ويذكِّرهم، فلما كان يوم الأحد لم يخرج إليهم وقعد إلى يوم الأحد الآخر، فكنت أدخل إليه فيكلمني ويسألني. فلما جاء الأحد الآخر انتظروه ليخرج إليه، فلم يخرج إِليهم واعتلَّ عليهم بالمرض وفعل ذلك مراراً. وبعثوا إليه لتخرجنَّ إلينا أو لندخلنَّ عليك فنقتلك، فإنا قد أنكرناك منذ قدم هذا العربي. فقال الأسقف: خذ هذا الكتاب واذهب إلى صاحبك فاقرأ عليه السلام، وأخبره أنِّي أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأني قد آمنت به، وصدَّقته، واتبعته، وأنهم قد أنكروا عليّ ذلك، فبلِّغه ما ترى. ثم خرج إليهم فقتلوه(1).

ومما ورد في كتابه ﷺ إلى **المقوقس ملك الإسكندرية** ما حدث به حاطب بن أبي بلتعة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية، قال: فجئته بكتاب رسول الله ﷺ فأنزلني في منزله وأقمت عنده، ثم بعث إليّ وقد جمع بطارِقَته وقال: إنِّي سائلك عن كلام فأحبُّ أن تفهم عني، قال قلت: هلُمَّ؛ قال: أخبرني عن صاحبك أهو نبي؟ قلت: بل هو رسول الله، قال: فما له حيث كان هكذا لم يدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ قال قلت: عيسى بن مريم أليس تشهد أنه رسول الله(2)؟ قال: بلى. قلت: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكه الله حيث

1) رواه البزّار.

رفعه الله إلى السماء الدنيا؟ فقال لي: أنت حكيم قد جاء من عند حكيم[1].

قال ديدات: بورك فيك يا شيخنا.. لقد أعدت أذهاننا إلى تلك الأيام الجميلة.. أيام رسول الله ﷺ.. ما أشد شوقنا إليه.

قال الكواكبي: إن شوقنا إليه يدعونا إلى أن نبذل كل جهد لتبليغ ما أمرنا بتبليغه، لا نألو في ذلك جهدا.

قال القمي: لقد رأينا رسول الله ﷺ يستعمل وسيلة الكتابة ليبلغ ما أمر بتبليغه، فرسول الله ﷺ لم يترك أحدا في زمنه له سلطة إلا كتب إليه، أو أرسل إليه من يبلغه.

قال الشعراوي: لقد كانت الكتابة هي الوسيلة المتاحة.. أما في عصرنا.. فما أكثر الوسائل التي لو أحسنا استعمالها لدخل الناس في دين الله أفواجا.

قال شكيب: فاذكر لنا من الوسائل ما ترى على الدعاة إلى الله استعماله لتبليغ رسالة الله للعالمين.

قال الشعراوي: أول ما أراه من وسائل**: التمثيل**..

صاح الجمع متعجبين: التمثيل !؟

قال القمي: أتقول هذا.. وأنت الشيخ الوقور؟

قال الشعراوي: وما لي لا أقوله، وأنا أرى بشر عصرنا لا يستغرقون في شيء، كما يستغرقون في مشاهدة الأفلام والتمثيليات والمسرحيات؟

قال شكيب: ولكن ذلك قد يؤلب علينا بعض المتزمتين.. لاشك أنك تعرفهم، وتعرف موقفهم من هذا ومثله.. هم لا يرضون إلا بالوسائل التي نصت عليها السنة.

قال الشعراوي: فقد نصت السنة على هذا؟

قالوا متعجبين: أين ذلك؟

قال الشعراوي: ألم تقرأوا حديث الأبرص والأقرع والأعمي؟

قالوا: بلى..

قال الشعراوي: فقد مثّل المَلَك دور الفقير حين سأل الأعمى، والأبرص، والأقرع كما هو معروف في الحديث[2].

---

2) وهذا لأن من المسيحيين من يعتقد بنبوة المسيح.

1) رواه البيهقي.

2) رواه البخاري ومسلم.

ليس ذلك فقط.. بل إن النبي ﷺ قام بتمثيل كيفية الصلاة، ولم يرد الصلاة ــ وقتئذ ــ لذاتها، وإنما أراد تعليم الناس، فعن سهل قال: رأيت رسول الله ﷺ صلى عليه (أي على درجات المنبر)، وكبر وهو عليها، ثم ركع وهو عليها، ثم نزل القهقري، فسجد في أصل المنبر ثم عاد، فلما فرغ أقبل على الناس، فقال: (أيها الناس؛ إنما صنعت هذا لتأتموا بي، ولتعلّموا صلاتي)(1)

ومثل سبطا رسول الله ﷺ، وسيدا شباب أهل الجنة، فقد روي أنهما رأيا ــ وهما طفلان ـ رجلا لا يحسن الوضوء، فاتفقا على طريقة لطيفة لكي لا يجرحا كبرياءه، فقالا له: يا عم، يزعم هذا أنه يحسن الوضوء، وأني لا أحسن؛ فنرجوك أن تنظر إلينا، وأن تحكم بيننا؟، فتوضآ أمامه أحسن ما يكون الوضوء، وفهم الرجل وقال: يا بني أنا عمكم الجاهل لا أنتما.

قال القمي: نعم ما ذكرت.. وسأبشر أهل بلدي(2) بهذا.. فإن فيهم من عباقرة الإخراج والتميل ما يملؤكم بالعجب..

قال الشعراوي: ومثل ذلك أهل بلدي.. ولم يدعني إلى ذكر هذه الوسيلة والاستهلال بها إلا لأنه يأتيني بين الحين والحين من الممثلين الصادقين ما جعلني أشعر بأهمية هذه الوسيلة وضرورتها.

قال ديدات: ولكنها لا بد أن تكون في مستوى التحدي.. فنحن الآن في عالم لا يهتم لشيء كما يهتم بالمتقن من الأعمال.

قال الشعراوي: أجل.. لا ينبغي أن يعرض الجميل إلا في اللباس الذي يليق به.

قال ديدات: عرفنا هذا.. وعرفنا أهميته.. ونحن نرى الدول الكبرى تسوق أفكارها ومشاريعها عبر هذه الوسيلة.. فحدثنا عن وسيلة أخرى.

قال الشعراوي: **الكتابة الأدبية** من شعر وقصة ومقالة.. وغيرها.. فإن لهذه الكتابات جمهورا غفيرا.. ومن العجب أن نرى هذا النوع من الوسائل لا يهجم عليه إلا من لا علاقه له بالدين، ولا علاقة للدين به.

قال شكيب: صدقت.. لقد تركنا هذه الثغرة الخطيرة، فشوه الدين بسببها، وانحرف الناس، لأنهم لا يجدون من الروايات إلا ما يغذي غرائزهم، ويملأ نفوسهم بالشهوات.

قال الشعراوي: لقد ظللت دهرا من عمري أحلم بأن أبشر بالإسلام عن طريق رواية أكتبها.. لا يقرؤها قارئ إلا ويخرج ممتلئا بحب الإسلام، ونبي الإسلام.. ولكن الله لم ييسر ذلك لي إلى هذا الحين.. وعسى الله أن يأتي ـ بفضله ـ من الورثة من يفتح الله عليه في هذا.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) أقصد إيران، فلها من الخبرة في هذا المجال ما يمكنها من أداء هذه الرسالة أحسن وأكمل أداء.

قال ديدات: فحدثنا عن وسيلة أخرى.

قال الشعراوي: **الأناشيد والأغاني والرسوم وكل الفنون الجميلة**.. تلك التي استأثر بها أتباع الهوى لينحرفوا بالنفوس عن رب العالمين.

قال شكيب: ولكن الفقهاء.. أنت تعرف موقفهم؟

قال الشعراوي: ليس كل الفقهاء يقول ما يقول المتزمتون المنفرون.. يوشك أن ينفر الناس من أولئك الفقهاء، ومن فتاوى الضلال التي ينشرونها ليمنعوا الناس من الدخول في دين الله أفواجا.

قال ديدات: فحدثنا عن وسيلة أخرى.

قال الشعراوي: هذه التي يسمونها **الشبكة العنكبوتية**، تلك التي تصلنا بكل دار، بل بكل شخص.. إنها فتح من الله.. وإن الله تعالى برحمته سلم إلينا مفاتيح العالم لنفتحها بهذه الوسيلة.

قال شكيب: لقد كنت أعجب من ذكر رسول الله ﷺ لفتح رومية.. وأقول: بأي سلاح تفتح رومية.. ونحن لا نأمن على أنفسنا منها.. إلى أن رأيت هذه الشبكة، وهي تدخل بنا إلى كل بيت من رومية وغيرها.. فعرفت أن هذا السيف هو أصقل سيف، وأن المسافة بيننا وبينها ليست بعيدة.

قال القمي: ولكن الفرقة والخلاف الذي دب في الأمة انحرف بهذه الوسيلة عن غاياتها، فصارت في أيدي أهل الصراع من المسلمين سيوفا مسلولة على إخوانهم من المسلمين..

قال الشعراوي: لن تؤتي هذه الوسيلة ثمارها إلا إذا أحسنا استعمالها، وعرفنا كيف ندخل إلى العالم من خلالها.

قال ديدات: فحدثنا عن وسيلة أخرى.

قال الشعراوي: **القنوات الفضائية الإذاعية والتلفريونية والصحف والمجلات وجميع وسائل الإعلام.** فإن هذه الوسائل تدخل كل البيت، وتسمع كل أذن، وتري كل بصر.. ولو أحسنا استعمالها لدخل الناس في دين الله أفواجا.

قال القمي: لقد وعينا كل ما ذكرت.. واستدللنا به على غيره.. فهل لديك خطة عملية لتحقيق كل هذا.

قال الشعراوي: أجل.. لقد ظللت طول عمري أبحث عن ذلك.

اجتمعوا عليه، فراح يشرح لهم خطته.. ولم أسمع من حديثهم إلا ما ذكرته لك من الأسماء التي سبق لي أن مررت على أهلها.

التحدي

بعد أن مكثوا مليا يتحدثون، ويسرون بحديثهم، قام ديدات، وقال: إن ما ذكره شيخنا الشعراوي ييسر علي أن أذكر لكم خطتي.

قالوا: أنت تحمل خطة التحدي.

قال: أجل.. التحدي بالحجة والبرهان.. لا بالسيف والسنان.

قال القمي: فهل لك من النصوص المقدسة ما يكون لك حجة فيما تقوله، فلا يحل لامرئ أن يقدم على أمره حتى يستأذن أهله؟

قال ديدات: أجل.. لدي بحمد الله الكثير.. وأولهم موسى ﷺ.. لقد كان التحدي هو السلاح الذي استعمله لدعوة قومه، ولم يؤمن السحرة إلا بعد أن ثبت لهم أن حجة موسى ﷺ أقوى من حججهم جميعا.

لقد ذكر الله تعالى ذلك في القرآن، فقال:﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) ﴾ (طه) إلى آخر الآيات الكريمة.

ألا ترون هذا المشهد؟.. إن دلالاته العظيمة هي التي حملتني على أن أحمل سلاح التحدي لأسير به في العالم.. أخاطب كل من له حجة، وأقول له: إن كانت لديك حجة، فألقها كما ألقى السحرة عصيهم، فأنا موقن تماما بأن ما معي من الهدي لا يعدله إلا عصا موسى.

قال الشعراوي: ما تقصد بذلك؟

قال ديدات: لقد وفقني الله، فصرفت أكثر عمري أدرس الملل والنحل، والفلسفات والأفكار.. ولم أكتف بذلك، بل عشت في السند والهند، والشرق والغرب.. ولم أترك بلدة إلا دخلتها، كما لم أترك فلسفة إلا قرأتها.. وقد تبين لي من خلال كل ذلك أن كل ما تملكه تلك الشعوب هو مجرد تخييلات لا تختلف كثيرا عن تخييلات السحر.

وتبين لي أننا لو حملنا ما معنا من الحقائق المطلقة، وسرنا في العالم نتحدى بها، فإنا سنجد كثيرا من السحرة الذين يسجدون لها، ويذعنون.

قال القمي: إن ذلك يستدعي معارف كثيرة.

قال ديدات: لا بد من تلك المعارف.. فلا يمكن لمن يريد أن يخوض البحار إلا أن

يكون خبيرا بالسباحة.

قال القمي: ليست المعارف فقط.. فما أكثر من لديه المعارف.. ولكنا نحتاج إلى الصحون التي توضع فيها تلك المعارف.. فقد رأينا من الجهلة من يضع أجمل المعارف وأطيب اللطائف في صحون نجسة منتنة، فينفر الناس من الدين بسببها.

قال ديدات: وهذا ما تبحث فيه خطتي.. فقد وضعت في ذلك ــ بحمد الله ــ خطة شاملة، تؤسس لجيل يحمل عصا الإسلام ليخاطب بها العالم، ولن يملك العالم إلا أن يسلم لهذه العصا.

قال شكيب: فكيف اهتديت إليها؟

قال ديدات: كنت أقرأ أحاديث الوفود التي جاءت رسول الله ﷺ تريد أن تتثبت مما عنده، لتعرضه على ما عندها، وقد استوقفني منها حديث هذا الوفد الذي سأقصه عليكم، لتمتلئوا بما فيه من العبرة.. لقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد اخرج إلينا، فلم يجبه، فقال الأقرع: يا محمد إن حمدي لزين وإن ذمي لشين، فقال رسول الله ﷺ: (ذاك الله عز وجل)، فقالوا: إنا أتيناك لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، فقال ﷺ: (قد أذنت لخطيبكم فليقل).

فقام عطارد بن حاجب فقال: (الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو أهله، الذي جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالا عظاما، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددا وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو شئنا لأكثرنا الكلام، ولكنا نستحي من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك، أقول هذا لأن تأا توا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا)، ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس أخي بني الحارث بن ا لخزرج: (قم فأجب الرجل في خطبته)، فقام ثابت فقال: (الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره ووسع كرسيه علمه، ولم يك شئ قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا، واصطفى من خير خلقه رسولا أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، وأفضله حسبا، فأنز ل عليه كتابه وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس الى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أحسابا وأحسن الناس وجوها، وخير الناس فعالا، ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب الله حين دعاه رسول الله نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا، وكان قتله علينا يسيرا، أقول قولي هذا وأ ستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم)

فقام الزبرقان بن بدر فقال لرجل منهم: يا فلان قم فقل أبياتا تذكر فيها فضلك وفضل قومك، فقام فقال:

نحن الكـــــرام فلا حي **منـا الملـوك وفينـا**

وكم قسرنا من الاحياء ... عند النهاب وفضل العز
ونحن نطعم عند القحط ... من الشواء إذا لم
ونطعم الناس عند المحل ... من السديف إذا لم
بما ترى الناس تأتينا ... من كل أرض هويا ثم
فننحر الكوم عبطا في ... للنازلين إذا ما أنزلوا
فلا ترانا الى حي نفاخرهم ... إلا استفادوا فكانوا
فمن يفاخرنا في ذاك ... فيرجع القوم والاخبار
إنا أبينا ولا يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر

وكان حسان بن ثابت غائبا، فبعث إليه رسول الله ﷺ.. فجاء، فقام وقال:

إن الذوائب من فهر ... قد بينوا سنة للناس
يرضى بهم كل من كانت ... تقوى الإله وكل الخير
قوم إذا حاربوا ضروا ... أو حاولوا النفع في
سجية تلك منهم غير ... إن الخلائق فاعلم شرها
إن كان في الناس ... فكل سبق لأدنى سبقهم
لا يرقع الناس ما أوهت ... عند الدفاع ولا يوهون ما
إن سابقوا الناس يوما ... أو وازنوا أهل مجد
أعفة ذكرت في الوحي ... لا يطمعون ولا يرديهم
لا يبخلون على جار ... ولا يمسهم من مطمع
إذا نصبنا لحي لم ندب ... كما يدب الى الوحشية
نسمو إذا الحرب نالتنا ... إذا الزعانف من أظفارها
لا يفخرون إذا نالوا ... وإن أصيبوا فلا خور ولا
كأنهم في الوغى ... أسد بحلية في أرساغها
خذ منهم ما أتى عفوا إذا ... ولا يكن همك الأمر الذي
فإن في حربهم فاترك ... شرا يخاض عليه السم

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشيع
أهدي لهم مدحتي قلب يؤازره ... فيما أحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جد بالناس جد القول أو شمعوا

فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله قال الأقرع بن حابس: (وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا)

فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم(1).

قال مطهري: إن هذا حديث عظيم.. وهو يحمل دلالات عظيمة للذين يريدون أن يعرفوا الإسلام للعالم.

قال شكيب: أجل.. فلا يمكن أن نصل إلى جماهيرنا في العالم وشعراؤهم خير من شعرائنا، وخطباؤهم خير من خطبائنا، وممثلوهم خير من ممثلينا، ومخرجوهم خير من مخرجينا، وقدراتهم الإبداعية أعظم من قدراتنا الإبداعية.

قال مطهري: نعم.. ولن نستطيع أن نصل لجماهيرنا في العالم، ونحن لا نحمل أي مشروع حضاري متكامل يشمل الاقتصاد والسياسة والاجتماع.. وكل النواحي.

لابد ـ لكي ننجح في مخاطبة العالم ـ أن نقدم لهم الملموس.. فلن تفهم جماهيرنا في العالم إلا لغة الواقع المضمخة بعطر الإيمان.

قال القمي: لابد أن نشكل النموذج الإنساني المتكامل الذي يقف متحديا كل النماذج..

قال الكواكبي: لكي ننجح في ذلك لابد أن نقهر الاستبداد.. الاستبداد بكل أشكاله: الديني والسياسي والاقتصادي.. أرى أننا قد ورثنا كثيرا من أعراف الاستبداد، ولا يمكن أن نتحرك خطوة واحدة، ونحن نرزح تحت نيرها.

قال إقبال: لابد أن نثق في أنفسنا، وفي قدراتنا.. ولابد أن نعيد هذه الثقة في شعوبنا المسلمة..

التفتت الجماعة إلى ديدات، وقالت: هيا.. اذكر لنا ما لديك من الخطط في هذا، ولنسارع إلى الإرسال بها إلى كل دعاة الأرض.

اجتمعوا كاجتماعهم في المرات السابقة.. ولم أسمع منهم إلا ما سمعته منهم فيها.

***

قلت: لقد حدثتني عما دار في تلك الغرفة.. فحدثني عن الغرفة نفسها.

---

1) رواه أحمد، والترمذي وحسنه، وابن أبي حاتم، وابن المنذر.

قال: ذلك سر لا يمكن بثه لأحد من الناس.. فلا يعرف تلك الغرفة، ولا محلها إلا من دخلها.

قلت: فمن مديرها؟

قال: الكل يذكرون أن مديرها رسول الله ﷺ..

قلت: فهل اقتصر لقاؤك بأولئك السبع؟

قال: لا.. لقد رأيت الكثيرين غيرهم.. لقد كان يدخل تلك الغرفة كل من اكتملت له وراثة النبي ﷺ في هذا الباب العظيم من أبواب الهداية.

قلت: فكيف يميزون عن غيره؟

قال: بالحرقة التي تملأ قلوبهم، والحلم الذي يملأ صدورهم، والأشواق التي تترنح لها أجسادهم..

قلت: فكيف خرجت منها بعد أن شرفت بالدخول إليها؟

قال: أنا لم أخرج منها.

قلت: ولكني أراك معي.

قال: لقد أرسلت في مهمة إلى هذه الغابات الموحشة.. فأنا أؤديها، ولا أبالي أن أموت في سبيلها.

قلت: من أرسلك؟

قال: من أرسله.

قلت: أنتم تزعمون أن الذي أرسله هو الله.

قال: وكل داعية إلى الله يسير على قدم رسول الله ﷺ يشعر أنه موكل من الله بنفس المهام التي قام بها رسول الله ﷺ.

قلت: لكأني بك تدعي النبوة.. بل تدعي الرسالة.

قال: معاذ الله أن أتخطى رقاب الصديقين.. أنا لا أقول إلا ما قال الله تعالى.. لقد قال الله تعالى يذكر رسل المسيح الذين أرسلهم لهداية الناس :﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ

أئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27﴾ (يس)

قلت: لقد ذكر المفسرون أن هؤلاء كانوا رسل المسيح.

قال: ومع ذلك اعتبرهم الله رسلا.. فالمؤمن هو الذي يحمل رسالة نبيه ليسير بها في الناس، ويكون رسول رسول الله ﷺ إلى الناس.. فلا تكتمل الوراثة إلا بذلك.

***

ما وصل محمد الهادي من حديثه إلى هذا الموضع حتى لاح لنا العمران.. وقد دهشت إذ سمعت الترانيم العذبة تستقبلنا كما استقبلت رسول الله ﷺ.. وكأن الزمن عاد إلى تلك الأيام الجميلة التي دخل فيها رسول الله ﷺ المدينة التي ناصرته وسارت على قدمه.

مكثت في تلك المدينة من المدن المحاذية للأدغال فترة طويلة من الزمان، وقد عجبت من التغير العظيم الذي حصل لها..

لقد كنت كغيري من المبشرين والسواح نتهيب الدخول إليها.. فقد كانت الأنباء تسير إلينا بأن أهلها من أكلة لحوم البشر.. فلذلك لم يكن أحد يجرؤ على الدخول إليها.. لكن ما رأيته فيها جعلني أحتار في أمري، وفي دقة المعلومات التي كنا نحملها عنها.

وقد دعاني ذلك إلى أن أسأل محمدا الهادي عنها، فقال: لقد كانت هذه المدينة كذلك.. ولم تكذبكم الأخبار التي وصلتكم عنها.

قلت: ولكني أراها كأنعم بلاد الله، بل هي أكثر بلاد الله سلاما وإيمانا.

قال: ألم تكن الجزيرة التي جاءها رسول الله ﷺ جزيرة قاحلة يأكل بعضها بعضا؟

قلت: بلى.. ولكن الذي نجح في تحويلها هو محمد.

قال: لقد ترك لنا محمد ﷺ من مواريث الهداية ما يحول به كل جزيرة من جزائر الأرض إلى تلك الجزيرة، وكل فرد من أفرادها إلا تلك النماذج العالية التي رباها.

قلت: ولكن هؤلاء كانوا أكلة لحوم البشر.

قال: إن هداية الله لا تضيق بأحد من الناس.. فلذلك ليس علينا إلا أن ندعو إلى الله، ثم نترك الأمر بعدها لله.. وقد يجعل الله فيمن تحتقره من الهداية ما لا تحلم به..

قلت: فأي جيش من الناس استطاع أن يحول هؤلاء؟

قال: في غرفة العمليات بمدينة رسول الله ﷺ جاءنا رجل، وأخبرنا عن هذه المدينــة، وعن ضــلالها، وعن الســلوك الــذي تســلكه في حياتهــا، وقــد ملأني ذلــك ألمــا وحزنــا.. فاستشرت أهل الخبرة من أهل تلك الغرفة المباركة، فأعطوني من ترياق الهدايـة النبويـة ما سرت به إلى هـذه المدينـة.. وقـد يسـر اللـه لي أمرهـا، فلم أمكث فيهـا إلا قليلا حـتى تحولت إلى ما رأيت.

الخاتمة

بعد أن وصل الغريب من حديثه إلى هذا الموضع، التفت إلي، وقال: هذا بعض حديثي مع هذا الوارث من ورثة النبي ﷺ.. لقد ملأني حديثه بأشعة كثيرة من شمس محمد ﷺ جعلتني أشعر بقربه العظيم مني، بل قرب كل شيء منه.

قلت: إن حديث هذا الرجل عظيم.. ما كنت أتصور أن هناك من يحمل همة كهمته، وقلبا كقلبه.

قال: كل من اهتدى بهدي النبي ﷺ وامتلأ به كان له ما لهذا الرجل.. ليس الأمر صعبا..

قلت: هو يسير.. ولكن الأشواك الموضوعة في هذا الطريق صعبة وشديدة.

قال: فشذبها بمقص الهداية.

قلت: أنت تحرضني على الثورة.. ألست تلميذا لمعلم السلام؟

قال: ثورة أهل السلام ثورة على النفس.. فلذلك لا ينبت منها إلا السلام.. لقد قال لي صاحبي (محمد الهادي) هذا بعد أن قدم لي سيارتي.

قلت: هل استطاع أن يرجع لك سيارتك؟

قال: أجل.. بعد فترة من الزمان غاب عن ناظري فيها، جاءني بالسيارة يقودها بعض الناس، وقال لي: هذه سيارتك قد عادت إليك.. انظر.. لقد فزت بنفسك، كما فزت بسيارتك.. فلا تغفل أن تفوز بربك.

لقد قلت له حينها، وعيناي تمتلئان بالدموع: خذها.. لا أريدها.. تقبلها هدية مني.. سر بها في بلاد الله لتخلص أكلة لحوم البشر.

قال: لو سرت بها إليهم لأكلوني.. كل من سار بسيارته في هذه الأرض أكل..

قلت: لم أفهم ما ترمز إليه.

قال: لقد خلقنا الله بشرا، ولا يمكن أن نصل للبشر إلا ونحن بشر.

قلت: فهل هناك من يتحول عن بشريته؟

قال: كل المصارعين يتحولون عن بشريتهم بمجرد أن تمتلئ أيديهم وأرجلهم بهذه الآلات التي تفننوا في صناعتها، كما تفننوا في الصراع بها.

قلت: ولكنك ذكرت أن غرفة العمليات تحتوي على أحدث الأجهزة.

قال: تلك أجهزة السلام لا أجهزة الصراع..

قلت: أليست السيارة من أجهزة السلام؟

قال: ولكنها في نظر أهل هذه البلاد من أجهزة الصراع.. فلـذلك لا يـدخل إليهم رجـل بها إلا أكلوه.

قلت: فلم صارت في عيونهم هكذا؟

قال: لأنهم رأوا في يد من يمتطيها بندقية يقتل بها الحياة، ومنشارا يقطع به الأشجار، وعجلات قوية يجرح بها التربة، ويحطم بها قرى النمل.

قلت: فكيف نقلع عنهم هذه الصورة المشوهة؟

قال: بالثورة.

قلت: أتدعوني للثورة.. وأنت تتحدث بأحاديث أهل السلام.

قال: بثورة أهل السلام.. وهي ثورة على التشويه الخطـير الـذي تعـرض لـه الإنسـان وقيم الإنسان.. وهي ثورة تبدأ بالنفس، وبكل القيم المشوهة التي زينت في النفس.

هذا الكتاب

تحاول هذه الرواية ـ بقدر الطاقة ـ أن تصور بعض وظائف الهداية التي مارسها رسول الله ﷺ باعتباره رسول الله وواسطة الهداية بين الله وبين عباده.

وخلاصة أحداثها هي أن الراوي ــ وهو رجل دين مسيحي ــ يذهب إلى بعض الأدغال الإفريقية للتبشير.. وفجأة تتعطل سيارته في بعض الغابات الموحشة.. وهناك يجد شخصا يسمى محمد الهادي.. يدعوه إلى السير معه لهدايته للطريق، ويشرط عليه في كل مرحلة من المراحل أن يستمع لقصة من قصصه..

وفي الطريق يقص عليه هذه القصص العشرة التي ذكرناها في الرواية..

وفي الأخير يصل إلى محل النجاة .. وهناك تحدث أحداث أخرى .. ندعها للقارئ ليتعرف عليها.